الأعمال
النثرية
الكاملة
لنزار
قباني

الأعمالُ
النثرية
الكاملة

الأعمال النثرية الكاملة

حقوق الملكية الفنية محفوظة

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣

منشورات نزار قباني
بيروت - لبنان
ص.ب ٦٢٥٠

نزار قبـــاني

الأعمال النثرية الكاملة

الجزء الثامن

ما هو الشعر ؟

الكتاب الثاني والثلاثون

١٩٨١

« كلّ الطرق لدى الأوروبيين تُوصل إلى روما، وكلّ الطرق لدى العرب تُوصل إلى الشعر ... » .

نزار قباني

1

إفتتاحية

إذا أخذنا دبُّوساً .. وأدخلناه تحت جلد أيّ مواطن عربيّ ، فإنَّ سائلاً سحريّاً سوف يتدفّق .

هذا السائل ليس نِفْطاً .. ولا هو من مشتقّات النِفْط . وإنّما هو سائلٌ أخضرُ اللون ، ذهبيُّ الشعلة ، أبديُّ التوهّج ، إسْمُهُ الشِّعْر .

الشعرُ ، لا النِفْط ، هو مخزونُنا الحضاريّ .

وهو مخزونٌ لا يتناقص ، ولا ينشف ، وليس لمنظمة (الأوبيك) سلطانٌ عليه ، ولا للدول العظمى قدرة على احتكاره ، وتسويقه ، لأنه ينبع من أعماق الروح الإنسانية ، حيثُ لا سلطانَ لأحد ..

2

الشعبُ العربيُّ محكومٌ بالشِّعرْ ..

كما هولاندا محكومةٌ بالبحر .. وأوستراليا بالقَمْح .. وكُوبا بقَصَب السُكَّر .. وسيلان بالشاي .. وإفريقيا بالنُمُور والزُرافات... وفرنسا بالنبيذ .. وإسبانيا بالعُيُون السُود ..

كلُّ الأطفال العرب يُولَدون شعراء .. حتى إشعارٍ آخَر ..

وكلُّ الأطفال العرب يخطِّطون ليكونوا شعراء ، حتى تجبرهم الظروف الإجتماعية والماديّة على أن يستقيلوا من دمهم ، ليُصْبحُوا ، غَصْباً عنهم ، أطبّاء ، ومهندسينَ ، ومقاولين ..

والشعبُ العربيّ هو الشعبُ الوحيد ، الذي يذهب لسماع أمسيةٍ شعريةٍ بالحماس ذاته الذي يذهب به إلى

حفلة عرس .. أو مباراةٍ لكرة القَدَم . أو إلى كارنفالٍ للرقص الشعبي .

وإذا كانت فلورنسا تفتخر بميكيل آنجلو ..
وفينيسيا تفتخر بزُجاجها الملوَّن ..
والقدس تفتخر بعدد أنبيائها وقدِّيسيها...
ودمشقُ تفتخر بوردها البلديّ ..
والبصرةُ تفتخر بأنّها أرض المليون شجرة نخيل ..
فإن جمهورية موريتانيا العربية تفتخر بأنها أرض المليون شاعر ..

3

مليون شاعر .. هل هذا ممكن ؟
بالنسبة للخيال العربي ، كلُّ شيء ممكن ..
وما دام العربيُّ مقتنعاً ، بأن صادراته من الشِعْر .
تزيد على صادراته من القطن ، والحنطة ، والنسيج .
فلماذا نكسر له خياله ؟

إنّني لا أقول هذا من باب المباهاة . والغُرُور القومي . فأنا أعرف أن الشعر هو نقطة قوة العرب . ونقطة ضعفهم في الوقت ذاته . كما أعترف . بأن الشِعْرَ . بقدر ما أشعل هِمَّةَ العرب وكبرياءهم . فإنّه من جانبٍ آخر . غرَّرَ بهم . وورَّطهم . ودفع بهم إلى اتخاذ مواقف دونكِشُوتيّة . فيها كثيرٌ من الطيش والرُعُونة واللاواقعيَّة .

ولكنَّ ما أُريد أن أسجِّله هنا . هو أن الشعر كان مِفْصَلاً أساسياً في الحياة العربية . ومرفقاً خطيراً من مرافق الدولة . لا يقلّ أبداً . من حيث الأهميّة . عن مرافق الدفاع . والخارجيّة . والإعلام .

في قصر الحاكم كان الشعرُ موجوداً ..

وفي المساجد ، وحلقات العلم كان موجوداً ..

وفي المقاهي ، والأحياء الشعبية ، كان موجوداً ..

وفي الوزارات كان موجوداً . حيناً بصفة مستشارٍ

صحفيّ . وحيناً بصفة مستشارٍ عسكريّ . وحيناً بصفة سفيرٍ متجوّلٍ . مُطْلَق الصلاحيّة ..

ومن منّا لا يعلم . أنَّ القبائل العربية كانت تحتفل بظهور شاعر فيها ، كما يحتفلون اليوم بتنصيب البابا .. أو تتويج امبراطور .. أو انتخاب ملكة جمال الكون .. أو إطلاق رائدٍ فضائيٍّ إلى القمر ...

4

الشِعْرُ موجودٌ في كلّ تفاصيل حياتنا اليوميّة .
في الأفراح . نقدّمُهُ مكانَ الورد الأبيض .. والقرنفل ...
وفي أعياد الميلاد نقدّمه مكانَ قالب الحَلْوَى ..
وفي الأعراس . نُطرّزُهُ بالقَصَب على أكمام العروس ..
وفي الولادات . نجعله قلادةً ذهبيةً في رقبة الطفل ..
وفي المعابد ، نُشْعِلُهُ بخوراً لاسترضاء الله ..
وفي المسيرات ، نُفجّرُهُ قنبلةً لإسقاط الحكم ..

وعندما نعشق .. نجعله إسواراً من الزمرُّد في معصم الحبيبة ..

5

أمامَ هذا الإحتلال الشعريّ ، الذي استمرَّ ألْفَيْ سنة ، وربّما أكثر ، والذي قبلناه راضين ، وسُعَدَاء ، وشاكرين .. لا يملك المرء إلا أن يتساءل ، إذا كان هذا الإحتلالُ الشعريّ الجميل ، قد أغنى حياتَنَا .. وجَمَّلها .. وعمَّقها .. أم أنَّه كَكُلِّ احتلالٍ تقليديٍ ، سَرَقَ منا الشمسَ ، وأعطانا كُرَةً من الزُجَاج الملوّن نلعب بها في أوقات فراغنا ..

بكلمة أخرى ..

هل استهلكَ الشعرُ من أعمارنا أكثرَ ممّا يجب ؟

وهل بالغ العربُ في عبادة الشِّعْر ، حتى صار في حياتهم وَثَناً ككلّ الأوثان ؟

هل هذه الجُرْعَةُ غيرُ المعقولة التي تناولناها من

الشعر ، كانت سببَ صحّتنا .. أم سببَ اعتلال صحّتنا ؟..

وإذا كان العالمُ العربيُّ ، يعيش في هذه الأيَّام ، ذرْوَةَ تَسَاقُطِهِ وانهياراته .. فإلى أيٍّ حدٍّ يمكن اعتبار الفِكْرِ الشعريّ مسؤولاً عن هذه الإنهيارات ؟

إنَّ الشِعْرَ كشِعْر ، لا يمكن أن يتحمّل وحده أخطاء العصر العربيّ ، وانحرافاتِه ، وعاهاتِه ..

لا يمكن أن يكون وحده مسؤولاً عن خمسة قرونٍ من التَنَاثُر ، والتَبَعْثُر ، والتَشَرْذُم القوميّ والثقافيّ .

الشِعْرُ هو الوجْهُ الآخَرُ للإنسان ..

فإذا كان شعرُنا هو هكذا .. فلأنَّنا هكذا ؟

وإذا كان الشعرُ العربيّ قد انطفأ .. أو أفلسَ .. أو انتحرَ .. في مرحلة ما ، فلأنّ الإنسان العربي في ذات المرحلة كان مُنْطَفئاً ، ومُفْلِساً ، ومُنْتَحِراً ..

عندما كان الإنسانُ العَربيُّ عظيماً ، كتبَ شعراً عظيماً.

وعندما صار هابطاً ، كتبَ شعراً هابطاً .

هذه هي المعادلةُ الصحيحة .

وهي لا تُطَبَّق على الشعر العربي وحده ، وإنما تُطَبَّقُ على الشعر في كُلِّ زمانٍ ومكان ..

إنَّ حبَّةَ العنب في أساس تكوينها حلوةُ المذاق ، وكلُّ حموضةٍ فيها ، هي حموضةُ الإنسان الذي زَرَعَ العنب .. لا حموضةَ العنب ..

6

إنّني لا أُنَصِّبُ نفسي محامياً عن الشِعْر ..

فالشعرُ هو مادّة حسَّاسة جداً ، كأفلام التصوير ، نطبع عليها تفاصيل حياتنا العائليّة ، والعاطفيّة ، والقوميّة .

فإذا كنّا سُعَداء ، كانت الصورةُ ناجحة ..

وإذا كنّا أشقياء .. إحترقتِ الصورة ..

وهذا بالضبط ما يحدثُ الآن ..

فجميعُ الصور التي يلتقطها الشاعرُ للعائلة العربيّة ، في هذه الأيام ، هي صورٌ فاشلةٌ غيرُ قابلةٍ للتظهير .

أو للتكبير ..

لذلك ، نعتذر إليكم عن التصوير ، لأن الإضاءة رديئة ، ومدى الرؤية ضيّق جداً ..

ثم إن الأحلام قد احترقتْ .. والعَدَسَات قد احترقتْ .. والكاميرات قد احترقَتْ .. وعيونَ الشاعر قد احْتَرَقَتْ ..

فكيف نأخُذُ صورةً للقبيلة العربيّة ، في هذا الجوّ الرماديّ المكفهرّ .. كيف ؟؟ .

ما هو الشعر ؟

ليس من طُمُوحات هذا الكتاب ، أن يكونَ دليلاً سياحيّاً يقول لكم في أيّ جزيرةٍ يسكُنُ الشِعْر .. وفي أيٍّ فندقٍ يُقيم .. وفي أيّ مقهى يجلس .. وما هو عمرُهُ .. ولونُ عينيه .. وهواياتُهُ المفضَّلة ..

وليس من مقاصد هذا الكتاب ، أن يكونَ كتاباً في التدبير المنزليّ ، يشرح لرَبَّات البيوت ، كيف يُمكن مَزْجُ ثلاثة ملاعق طحين ، بنصف ليتر حليب ، وثلاث بَيْضَات ، ونِصْفِ قالب زبدة ، ووضع المزيج لمدة ثلاثين دقيقة في الفرن ، للحصول على قصيدة ..

وليس من هُمُوم هذا الكتاب ، أن يكون مرجعاً في فن السّحر .. يتعلّم منه الهُوَاةُ ، كيف يَخْرُجُ الأرنبُ من القبّعة .. وكيف نستطيع تحويل النحاس إلى ذَهَب .. وكيف بوسعنا أن نتسلّل إلى حجرة بنت السلطان ، رغم سيوف الحَرَس ، وأنياب الكلاب البوليسيَّة .

وإذا كانت بِنْتُ السلطان ، القَمَرِيّةُ الوجه ، والحريريّةُ اليَدَيْنْ ، والذهبيّة الضفائر .. تُحبُّ الشعرَ ، وتفكّر بالزواج .. فهذا لا يعني أنّها ستتزوج مليونَ شاعرٍ عربي ، يقفون بالطابور على بابها ..

فبنتُ السلطان ، على براءتها ، وعُذُوبتها ، وصُغْر سنّها ، صعبةٌ في اختيار الرجال .. وصعبةٌ في اختيار القصائد ..

وهي لن تذهب في آخر الأمر ، إلّا مع من يقدّم مهرَها حُبّاً حقيقياً .. وشِعْراً حقيقياً ..

8

ما هو الشعر ؟

ليس للشعر صورةٌ فوتوغرافيةٌ معروفة ..
وليس له عمرٌ معروف .. أو أصلٌ معروف ..
ولا أحدَ يعرفُ من أين أتى .. وبأيِّ جواز سفرٍ يتنقّل ..

المُعَمِّرون يقولون : إنَّه هبط من مغارةٍ في رأس الجبل وأشترى خبزاً ، وقهوةً ، وكُتُباً ، وجرائدَ من المدينة .. ثم اختفى ..

وسُكَّانُ الشواطئْ يقولون : إنّه خرج من أعماق البحر ، وإنه لعبَ طولَ النهار مع الأطفال ، والأمواج ، والأسماك الذهبيّة ، ثمَّ عاد إلى بيته البحريّ ..

وأطفالُ المدينة يقولون : إنّه خرج من الغابة ، وابتسم لهم ، وأعطاهم أزهاراً ، وأقماراً ، وفَرَاشاتٍ ، وأكوازَ ذرة ، وفطائرَ محشوّةً عسلاً .. ثم ابتلعَتْهُ الغابة ..

ونساءُ المدينة يقُلْنَ : إنّه دخل عليهنَّ كعصفور ربيعيّ ، فنقر من شفاههنّ .. وعَرْبَشَ على ضفائرهنّ .. ولعب بأساورهنّ .. وعواطفهنّ .. وترك ريشَهُ على شراشفهنّ .. وهزّ جناحَيْهِ وطار ...

ومعلّمو المدارس يقولون : إنّه دخل على صفوفهم ذاتَ صباح ، فتكلّم مع التلاميذ لغةً لم يتعلّموها .. وكتَبَ على السَبُّورة السوداء حروفاً لم يَرَوْهَا من قبل .. ففهموا ما قال لهُمْ ، وحملوهُ على أكتافهم ، وخرجوا إلى الشوارع بمظاهرة .. مطالبين بتعيين الشِعْر ، وزيراً للثقافة ...

٭

9

ما هو الشعر ؟

ليس في مِلَفَّات البوليس حتى الآن ، معلوماتٌ أكيدة عن مكان وجود الشعر . وعن ديانته ، وعقيدته . وجنسيّته ، وانتماءاته .

هل هو مواطنٌ آسيويّ ، أم إفريقيّ ، أم أوروبيّ . أم أميركي ؟

هل جِلْدهُ أبيض ، وعيناه زَرْقَاوَان ؟
أم جِلْدُهُ أسود ، وشَعْرُه مُجعَّد ؟
أم جِلْدُهُ أصفر .. وعيناه إشارتا استفهام ؟
هل هو من سُكَّان الهند ، أم السِنْد ، أم بلاد الاسكيمو.
أم هو من شبه جزيرة العرب؟

هل هو نَصْرَانيّ ، أم عبرانيّ ، أم مسلم ، أم بُوذيّ .. أم هو من عَبَدة النار ؟

هل هو يمينيّ ، أم ماركسيّ ، أم فوضويّ ، أم عَدَميّ ؟

هل هو بورجوازيّ ، أم بروليتاريّ ، تقدميّ أم رجعيّ ، مَلَكيّ أم جُمْهُوريّ ، متزوِّج أم أعزب .. بريءُ الذمَّة ، أم محكومٌ عليه بجرم شائن ..

كلُّ ما في أرشيف البوليس ، صورةٌ تقريبيّة مرسومةٌ بالقلم الرصاص لرجلٍ عصبيّ الملامح ، متطاير الشَعْر ، يُدخِّن كثيراً ، ويشرب غالونَ قهوة .. وخمسة غالونات بيرة وطنية في اليوم .. ويلبس في النهار جاكيتة جلديّة .. وفي الليل يلبس أحزانه ..

10

ما هو الشعر ؟

ليس هناك نظريَّة للشعر ..
كلّ شاعر يحمل نظريّتَهُ معه ..
والشعراء الذين حاولوا أن (يُنظِّروا) في الشعر ،
خسروا شعرهم ، ولم يربحوا النظريّة .

باعوا الشمسَ .. واشتغلوا على تركيب لمبة كهربائية
من خمسين شمعة ..

باعوا البحر .. واكتفوا برؤية بضع سمكاتٍ
صغيراتٍ في (الأكواريوم) ..

باعوا فمَ الحبيبة الجميل .. واهتمّوا بعدد أسنانها ..
أما أنا ، فمنحازٌ إلى فم حبيبتي لا إلى أضراسها ،
منحازٌ إلى عينَيْها لا إلى نظّاراتها السوداء .
التنظيرُ في الشعر لا يعنيني .

ما يعنيني هو الشعر نفسه ..

فالشعرُ هو أنا .. وأنتم ..

هو هذا الرغيفُ الساخنُ من الكلمات الذي نقتسمه معاً .. وهذا الثوبُ البديعُ من المشاعر والإنفعالات الذي نلبسه معاً ..

لذلك لا تنتظروا منّي أن أكتب لكم (راشيتة) تشفي فضولكم ..

فليس من السهل أن أجمعَ رمادي في قارورةٍ على الطريقة البوذيّة قائلاً :

« هذا أنا بيولوجيّاً .. وكيميائياً .. وتشريحيّاً .. »
إنّ رمادَ الشاعر لا يُجمَعُ بمثل هذه السهولة ..

إن خلفي أربعين سنةً ، تزوّجتُ فيها الشعر وتزوجّني . واستَوْلَدْتُهُ عشرين مجموعة شعريّة تختصر نَبضي .. وتنفّسي .. وجهازي العصبيّ كلّه ..

لا يمكنني أن أضغط حياتي في (برشامة) ليبتلعني
الفضوليّون ، ومحرّرو الصفحات الثقافية ..
كما لا يمكنني أن أعجن ألفَ امرأةٍ في امرأةٍ واحدةٍ ،
وأقول لكُمْ : « هذه هي حبيبتي .. » .
هذا ظُلْمٌ لحبيبتي .. كما هو ظُلْمٌ لي ..

١١

ما هو الشعر ؟

ما أسهلَ كتابةَ الشعر .. وما أصعبَ الكلامَ عنه ..

الشعر هو الرَقْص ..

والكلامُ عنه ، هو علمُ مُـرَاقَبة الخَطَوات .

وأنا بصراحةٍ أُحبُّ أن أرقصَ .. ولا يعنيني التفكير بحركة قَدَميَّ ، لأنَّ مجرّد التفكير بما أفعل ، يُفقِدُني تَـوَازُني .

الشعر رَقْصٌ باللغة ، أعيدُها مرةً ثانية .

رَقْصٌ بكلّ أجزاء النفس ، وبكلّ خَـلَجاتها الواعية واللاواعية ، وبكلّ طَبَقاتها الظاهرة والمستترة ، وبكلّ أحلامها الممكنة وغير الممكنة .. وبكلّ نُـبُوءاتها المعقولة ، وغير المعقولة ..

إنَّ الذين يكتبون النثر ، من قصة ورواية ومسرحيّة ، لا يعانون من أية مشكلة ..

فهم يمشون مَشْياً طبيعياً ، ويسيرون على الأرصفة المخصّصة للمارّة ..

أما الشعراء فهم يؤدُّون رقصةً متوحّشة ، يتخطّى فيها الراقصُ جَسَدَه .. ويتجاوزُ الإيقاعَ الموضوع ، ليُصْبِحَ هو نفسه إيقاعاً ..

إنني أرقصُ .. ولا أعرف كيف ..

وأكتب الشعرَ ، كما لا تدري السمكةُ كيف تسبح .. والأرنبُ كيف يقفز .. والنَهْدُ كيف يخالف قانونَ الجاذبيّة الأرضيّة .

إنَّ زعانفي ترتعش .. وأجنحتي تضربُ بعضَها .. وريشي يتناثر .. وأَعرق .. وأَغرق .. وأَتمزَّق .. وتخرج القصيدةُ من جَسَدي كما يخرج السَهْمُ الناريّ ، وكما

تخرج الرصاصةُ من ماسورة المسدّس ..

الشاعر موجودٌ في شِعْرِهِ بشَكلٍ إلزاميّ ، وجبريّ .

إنه مُحْتَجَزٌ داخلَ الشعر ، كما السَمَكة مُعْتَقَلَة في محيطها المائيّ ، لا تملك انسحاباً .. ولا خَلاصًا ..

وما دامَ الشِعْرُ مزروعاً في الشاعر حَرْبَةً من البرونز المُشْتَعِل ، فمن الصعب عليه اكتشافُ الحدود الحقيقية للحَرْبة ، والحدودُ الحقيقية للطعنة .. لأنَّ اللحمَ والحَرْبَةَ أصبحا شيئاً واحداً ..

إن تأمّل الشاعر لما يجري في داخله عملٌ عسير ..

إنها ذاتُ الصعوبة التي تعترض المرآةَ عندما تحاول أن ترى نَفْسَها .. والوردةَ عندما تحاول أن تشُمَّ عطرَهَا ..

12

ما هو الشعر ؟

ليس عندي أيّ تفسير مقبول . لذلك الزلزال الذي يركضُ تحت سَطْح جِلْدي ..

من أين يجيْ .. وإلى أين يذهب ؟

أنا أتلقّى الزلزالَ مستسلماً ومَدْهوشاً .. وأخرج من تحت رمادي وخرائبي .. ولا أدري ما حصل .. بانتظار صدور جرائد الصباح . لأعرفَ إذا كان إسمي في عداد الموتى ..

وكما لا يمكنُ توقيتُ الزلازل ، لا يمكنُ توقيتُ الشِعْر .

إنَّهُ هَجْمَة مباغتة تشقُّ حفرةً كبيرةً في سُكُوننا . وتنسحب قبل أن نستطيعَ اللحاقَ بها .

اليوم الشعريُّ ، كاليوم البحريّ ، يومٌ طويل ..

وصَيَّادو السمك ، كصيّادي الكلمات .. يتعاملون مع السِرِّ ، والصُدْفَة ، ونداء الأعماق ..

إنَّني أقعد على حافة الورقة .. بانتظار أسماكٍ جديدة
مختلفةِ اللون والحجم ..

أما الأسماك التي اصطدتُها ووضعتُها في سلَّتي .. فلم
تَعُدْ تستوقفُني، لأنَّها فقدت عنصرَ الدَهْشَة والإثارة ..
صارت أسْمَاكاً من الزجاج ..
أو قصائدَ من الزجاج ..

*

هذا انطباعٌ أوَّلي عمَّا يحدث ..
إنَّه خاصٌ بي . ويجوز أن يكونَ زَلْزَالُ غيري
أعنفَ .. أو أضعفَ .. حسب ميزان (ريختر) ..
ويجوز أن يصطادَ الشعراءُ الآخرون أسماكَهم
بالديناميت .. أو يشترونَها (مثلَّجة) ..
أما أنا فأصطادُ أسماكي بخيوط الصبر .. ولا أتعامل
مع السمك ، أو مع البحر ، بطريقة غير أخلاقية ..

لذلك مطلوبٌ من كلّ شاعرٍ أن يقدّم لنا شهادتَه ، عن طريقته في استقبال الزلازل .. واستقبال الأسماك .. فربّما تساعدنا كثرةُ المعلومات والشهادات على استكمال مِلَفِّ الشعر .

13

ما هو الشعر ؟

ما زلنا ندورُ حول الغلاف الخارجي لكوكب الشعر ..

وإذا استعملنا الإصطِلاحَ الشاميَّ في تقسيم الحمّامات الدمشقيّة إلى (بَرّاني) و (جُوّاني) .. فنحن لا نزال في القسم البرّاني للشعر ..

أما مفاتيحُ القسم الجُوّاني .. فليست معي .. وهي بالتأكيد ، مثل مفاتيح بيوت غرناطة ، ليست مع أحد ...

إنّني لا أكسرُ آمالكم .. ولكنْ هذا هو الواقع . طبعاً ، كان بإمكاني ، منذ البداية ، أن أرشوكم

بتعريفٍ فصيحٍ ، ولامعٍ ، ومَشْغُولٍ كصينيّة الفضّة ..

لكنني في الواقع ، استحيتُ منكم .. ومن الشّعر ..

لأن الكَذبَ في الشعر .. حرام ..

كان بإمكاني أن أدخلَ إلى المختبر ، وأؤلِّفَ لكم تأليفاً ذهنياً عشرات النماذج المدرسيّة لتعريف الشعر :

١ ـ الشعر هو هذه اللغة ذاتُ التوتُّر العالي ، التي تُلغي كلَّ لغةٍ سابقة ، وتعيدُ صياغتَها من جديد .

٢ ـ الشعر هو الكلام المجنون الذي يختصر كلَّ العقل ، والفوضى التي تختصر كلَّ النظام .

٣ ـ الشعرُ هو ذلك الانقلاب الحضاريّ الناجح ، الذي تقوم به البشريّة ضدَّ نفسها ، دون عنف ، ودون إراقة دماء .

٤ ـ الشعر هو ذلك الفن الخارج على القانون ، ويعكس قمة العدالة .

٥ ـ الشعر هو ذلك الزلزال الاستثنائيّ . الذي يأتي ويرحل ، تاركاً وراءه قمحاً .. ووردا .. وعرائش عنب ..

٦ ـ الشعر هو تذكرةُ السفر التي تسمح لنا بالتجوّل داخل أنفسنا ، واكتشاف أقاليم لم يسبق لنا اكتشافها .

٧ ـ الشعر هو هذه اليد المدهشة ، التي تعيد تشكيلَ الزمن وتعيدُ ترتيبَ الأشياء ..

٨ ـ الشعر هو حفلة الألعاب الناريّة التي تُشْعِلُ الماء .. وتشعل الشَجَر .. وتشعل اللحظات .. وتشعل اللاعبين والمتفرّجين جميعاً ..

٩ ـ الشعر هو تلك الوَصْفَة الطيّبة التي نجهل تركيبَها ، والتي إذا تناولناها . لم يعد تنفُّسنا طبيعياً .. ولا نومُنا طبيعياً .. ولا تخطيط قلبنا طبيعياً .

١٠ ـ الشعر هو الجنونُ الوحيد الذي لا تستطيع الحكومة أن تأخذك بسببه إلى مستشفى الأمراض العقلية ..

ولا تستطيع أن تتركك مع المجتمع ..حتى لا تنسفه ..

١١ ـ الشعر هو مجموعةُ الأسئلة التي لا أجوبةَ لها .. ومجموعةُ الأحلام التي لا تفسيرَ لها ..

١٢ ـ الشعر ، هو شراراتُ الحريّة ، وأمطار الحزن .. التي تتجمّع تحت جلد الشعوب ، سنةً بعد سنة ، وعصراً بعد عصر .. لتنفجر بعد ذلك أزهاراً .. وأقماراً .. وحجارةَ ياقوت .. ومقاتلين ..

*

هذه بعض التعاريف ، أُقدّمها مع أطيب تمنّياتي ، لهُواة جمع التعاريف .

وهي تعاريفُ غيرُ جامعة ، وغيرُ مانعة ، وليس لها صفةُ القانون العلمي ، وثباته ، وشموليّته .

وإنّما هي (خَرْطَشَات) على دفتر الشعر ، قد أكون مقتنعاً بها الآن .. وأغيّر رأيي فيها غداً ...

فما دامَ الشعر هو هذا الوَعْل البَرِيّ . الذي لا نعرف غرائزه .. وطبائعه .. وأين يسكن .. وكيف يتوالد .. فإنّ كلَّ محاولةٍ لتحديد أوصافه ، واستكشاف عاداته وطبائعه ، تدخل أيضاً في باب الخرافات ...

14

ما هو الشعر ؟

لا أعرف .. لا أعرف .. لا أعرف ..

فالشعر يثقُبني من الداخل .. ولا أدري كيف أصف لكم رَوْعَةَ الطَعْنَة ..

والذي يقول لكم إنّه يعرف .. يكون إمّا مُذيعاً في فترة التدريب .. أو محرّراً من الدرجة العاشرة .. أو صاحبَ مقهى ثقافيّ .. أو بائعَ كاسيتات .. أو ديكاً يجرّب فينا ثقافته كلَّ صباح ..

أما أنا ، فبكلّ تواضع المذبوح بسكّين الشعر . أقول لكم : إنّني لا أعرف ..

فالشاعر يكتب .. ولكنّه أسوأ من يُفَسِّر كيمياء الكتابة .

الشاعر موجودٌ في داخل الماء ، والموجودُ في داخل الماء ، لا يرى مساحةَ البحر ، وليست لديه فكرة حقيقية عن أنواع التيّارات البحريّة الغامضة التي تتحكّم بحركته ..

إنَّ تفسير الشعر ، كتفسير الأحلام ، فيه كثير من الشعوذة والتجليط ..

والقصيدةُ المفَسَّرة .. هي حُلُمٌ تآمرنا على اغتياله ..

٥

لو كانت القصيدةُ شجرةً ، لاكتشفنا في أوراقها كلَّ تاريخ الشجر ..

ولو كانت حجراً ، لعرفنا بعد تحليله مختبرياً ، كلَّ تاريخ الحجر ..

ولكنَّ القصيدة طائر أسطوري ، يحمل على ظهره التاريخ والحياة .. والكرة الأرضية .. ويطير ..

وأنتم . تريدون منّي . أن أتعقَّبَ هذا الطائر الأسطوري العجيب إلى كهوفه الجبليّة . وأخبركم كيف ينام . وكيف يأكل ، وكيف يُلَقّحُ أنثاه ..

وكيف يضع البيوض في شقوق الصخر ..

وصدّقوني . أنّني حاولتُ أكثرَ من مرّة . أن أسرق لكم بَيْضَةً من بيوضه الذهبيّة . وأقتلع لكم ريشةً واحدةً من جناحيه القزحيّين .. ولكنَّ طائرَ الشعر . كان كلّما ارتاب من الفُضُوليين . واشْتَمَّ رائحةَ الغرباء .. تحوّل إلى غمامةٍ بنفسجية .. وتلاشى كالروح النقيّ ..

وإذا كان اعتقالُ الشعر . مهمّةً مستحيلة أو شبه مستحيلة . فإنّ هذا لا يمنع من طرح بعض قناعاتي حول الشعر ..

وهذه القناعات . أو الاجتهادات الشعريّة . هي مُجرّد قناعاتٍ واجتهاداتٍ شخصيةٍ . لا تستهدف تعليبَ التجربة الشعرية . فالشعر حالة لا تستقرّ على أي حال ..

ولا تحتملُ التعليبَ والتخزين ..

أولاً : الشعر في تصوّري مُخطَّطٌ ثوريّ . يضعه وينفّذهُ إنسانٌ غاضب . ويريد من ورائه تغييرَ صورة الكون . ولا قيمةَ لشعرٍ ، لا يُحْدِثُ ارْتجاجاً في قِشْرة الكرة الأرضيّة ، ولا يُحدثُ شرخاً في خريطة الدنيا ، وخريطة الإنسان .

ثانياً : الخروجُ على القانون . هو قَدَرُ القصيدة الجيِّدة .. وليس ثمّةَ قصيدةٌ ذاتُ مستوى ، لا تتناقض مع عصرها .. ولا تتصادم معه .

وفي العصر العربي الراهن . تمسّ الحاجة إلى شعراء هيستيريين ، واقتحاميين . وتصادميّين ، يتجاوزون إشارات المرور الحمراء ، ويضعون القنابلَ الموقوتة تحت عجلات القطار العتيق الذي يركبه أبو جهل .. وحاشيتُه .. ونسوانُه .. وقِطَطُه .. وكلابُه ..

ثالثاً : كلّ قصيدة . بصرف النظر عمّن كتبها ..

وفي أيٍّ عصرٍ كُتبتْ فيه . هي محاولةٌ لإعادة هندسة النَفْس الإنسانية .. وإعادة صياغة العالم .

لذلك لا أهميّة لشعرٍ يأخذ دورَ آلة تصوير المستندات.. فالقصيدة هي نسختُها الأولى فقط .. وكلّ نسخةٍ مسحوبةٍ عنها . هي نسخةٌ مزوّرة .

رابعاً : يُحدث الشعر عَشَرات الانفجارات الصغيرة داخلَ اللغة ، فتتكسّر العلاقات المنطقيّة بين الكلمات . ويتغير مفهومُها القاموسيّ والإصطلاحي . وتصبح مُفْرَدَاتُ القصيدة مضيئةً كأرقام ساعةٍ فوسفورية .

خامساً : الشعر هو ابنُ الطفولة الجميل ، والمشاغب ، والشيطان ، والأزعر ..

ومطلوب من الشعر أن لا يتخلى عن طفولته بأيٍّ ثمن ، وأن يبقى محتفظاً بشهوة اللعب .. والتحطيم .. والشَيْطَنَة .

المطلوب من الشعر أن لا يهدأ .. ولا يكبر .. ولا ينام باكراً .. ولا يطيع أبَوَيْه .. ولا يتخلّى عن دَرّاجَته ، وعُلْبَة ألوانه ، وطائراته الورقيّة ، ولا يتنكّر لصداقة الأزهار ، والضفادع ، والحشرات الصغيرة التي كان يستضيفُها في جيوب بنطلونه الصينيّ القصير ..

مطلوبٌ من الشعر أن لا (يَتَعَقْلَن) ولا يقع في دَبَق الشعارات ، أو دَبَق الإيديولوجيات ، أو دَبَق الكاميرات والمهرجانات ..

مطلوب منه أن لا يتزوَّج ، ولا يتخرَّج ، ولا يلبس قبّعة الأكاديميين لأن كل القبّعات هي أصغر من رأس الشاعر .

سادساً : الشعر هو اغتصابُ العالم بالكلمات .

القصيدة الجيّدة لا بدّ أن تغتصبَ شيئاً ما .. أن تكسرَ شيئاً ما .. أن (تلخبطَ) خارطة الأشياء ..

المتنبيّ كان مُغْتَصِباً لعصره ..
وأبو نواس كان مغتصباً لعصره ..

وعُرْوَةُ بنُ الورد كان مغتصباً لعصره ..
وديك الجنّ الحمصي كان مغتصباً لعصره ..
وكذلك كان رامبو .. وبودلير .. وفيرلين .. ولوركا.. وبابلو نيرودا ..

وعلى يد هؤلاء جميعاً .. كُتِبَ تارِيخُ الشعر .

أما الشعراء المُطيعون .. والدراويش .. والانضباطيّون (كساعات أوميغا) ، فقد يحصلون على شهادة حسن سلوك من مختار حارتهم .. وقد يحصلون على وظيفة في قسم الأرشيف في إحدى الوزارات .. ولكنّهم لن يضعوا رِجْلَهم أبداً في بَلَاط الشعر .

بالنسبة لي أنا لا أطلب شهادة حسن سلوك من أحد ..

الوحيد الذي أطلب رضاه هو الشعر ...

سابعاً : الشعر عصيانٌ لغويّ خطير .. على كلّ ما هو مألوف .. ومعروف .. ومُكَرَّس ..

والذين (يمشون من الحيط للحيط ويقولون : يا ربيِّ السترة) .. من الشعراء ، يموتون في صناديق النافتالين ..

ولأنّ الشعر يقاتل باللغة ، فلا أحدَ يستطيع إلقاء القبض على قصيدة (باستثناء هذا العصر العربي السعيد . حيث لم يعد هناك كبيرٌ إلا الجَمَل .. وحيث تُوضَعُ القصيدة في الحبس مع بائعات الهوى ، ومهرِّبي سجائر المالبورو ...) .

ثامناً : وظيفة القصيدة هي وظيفة تحريضيّة بالدرجة الأولى ، لا وظيفة توفيقيّة .

وظيفة القصيدة هي خَلْخَلةُ العلاقات القائمة بين الإنسان والكون .. لا تثبيتها .. والمصالحة معها ..

لا يمكن لقصيدةٍ ذات مستوى ، إلا أن تخدشَ حياء المجتمع ، أو تزعزعَ قناعاته ، أو تضرم النار في أوثانه ، وأفكاره ، وعاداته ..

عُذْرِيَّةُ المجتمع شيءٌ وَهْميّ ، وبَكَارَتُهُ كِذْبَةٌ تاريخية . وكلُّ المجتمعات في العالم تدعّي الطهارة والنقاء . حتى يجيْ الشاعر . ويفتح ملفَّ الفضيحة . ويطلقَ الرصاص على الخرافة . فينبجس الدمُ الأحمرُ من جسدها .

لا يمكن لقصيدةٍ تحترم نفسَها . أن ترفع قُبَّعتَهَا للقناعات الجاهزة .. وتسجد لآلهة التمر .. وتردّد الحكمة الخنفشارية القائلة (ليس بالإمكان أبدع مما كان) .

ففي الشعر . لا يوجد سوى حكمة حقيقية واحدة هي : (ليس في الإمكان أبدع مما سيكون ..) .

فبهذا المنظور . تصبح القصيدةُ وعداً . واحتمالاً . وتخميناً .. لا ليرةً عثمانيةً من الذَهَب ملفوفةً بالقطن .. أو فراشةً محنَّطة مثبتة على الحائط بالدبابيس ..

وبهذا التصوّر للشعر . تصبح القصيدة سَهْمَاً ذاهباً إلى المستقبل . لا كتابةً هيروغليفيةمنقوشة على تابوت حجري ..

تاسعاً : الشعر هو من مواطني مدينة (لا) .. لا من مواطني مدينة (نعم) . أي أن الشعر أساساً هو عملٌ من أعمال المعارضة لا الموالاة .. ومن أعمال الرفض لا القبول . لذلك فإن أيّ محاولة لتدجين الشعر أو توظيفه ، يجعله حصاناً في إسطبل السلطة .. وكلبَ حراسةٍ على باب السلطان ..

عاشراً : أتصوّر أيضاً ، أن الشعر برقيةٌ عنيفة ، وحارقة ، يرسلها الشاعر إلى العالم .

والمُرْسَلُ إليه ، عنصرٌ هام في كلٌ كتابة ، وليس هناك كتابةٌ لا تخاطب أحداً ، وإلا تحوّلت إلى جَرَسٍ يقرعُ في العَدَم .

وأزمة الشاعر العربي الحديث ، أنه أضاع عنوانَ الجمهور . فهو يقف في قارّة .. والناس يقفون في قارّة ثانية .. وبينهما بحارٌ من التعالي ، والصلافة ، وعُقَد العظمة .

وبدلاً من أن تكون ثقافةُ الشاعر وسيلةً للتفاهم والإقتراب .. أصبحت قلعةً من الغرور لا يدخلها أحد .. وبوّابةً من الأسلاك الشائكة لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ..

لماذا ؟

لماذا يعيد مُوزِّعُ البريد قصائدَ أكثر شعرائنا إليهم ؟

لأنّهم نسوا عنوان الشعب ، أو تناسوه .. أو لأنّهم نَفَوْا أنفسهم خارجَ أسوار اللغة ..

إن اللغة ، مثل كلّ خطوط المواصلات .. تتطلب أن يكون هناك بشرٌ يسافرون .. ويعودون .. ويتلاقون . ويفترقون .. ويتحاورون .. ويتفاهمون ..

وكما أنه ليس ثمّة أوتوسترادات تُفْتَح لمرور شخصٍ واحد ، فليس هناك لغةٌ تنشأ ليستعملها شخصٌ واحد ..

ولكنَّ الشعرَ الحديث ، أو أكثره ، لا يعترف بمنطق نشوء اللغات .. ولا بمنطق شقّ الأوتوسترادات ..

وأنا أتّهم عدداً كبيراً من شعراء الحداثة . وهم في غالبيّتهم ، يساريّون . واشتراكيّون ، وتقدميّون . بممارسة إقطاع شعري على الشعب العربي . لا يختلف عن الإقطاع الثقافي والفكري الذي كان يمارسه النبلاء في العصور الوسطى .

15

ما هي القصيدة :

القصيدةُ طعنةٌ جميلةٌ ينبت على ضفافها القمحُ وشقائقُ النعمان .

طعنةٌ تختلف عن كلّ الطعنات في أنَّ لونَها أخضر .
طعنةٌ ينزف منها اثنان .. الطاعنُ والمطعون . الشاعرُ والمتلقّي .

القصيدة عمل تحريظي من الطراز الأوّل .. وليست كرسيّاً هزّازاً يساعد على الارتخاء .. ويجلب النعاس .

القصيدة عندي ليست حبّة ڤاليوم . ولا جهازاً لتكييف الهواء .. ولا مخدّة من ريش العصافير .

القصيدة ، ليست مضيفة طيران لتأمين راحتكم .
إنّها ـ على العكس ـ محاولة لإقلاق راحتكم .
إنّها ليست شركة سياحية تؤمن لكم الفندق .
والسرير ، وزيارة المسارح . والأمكنة الأثرية .

بل هي قطار المصادفات الذي لا يعرف أحد ميعاد مغادرته . ولا ميعاد وصوله .

القصيدة ليست مكان اصطياف . ولا مركزاً للتزلّق على الجليد .

ولا كأساً من البيرة المثلّجة تخفّف عنا حرارة الصيف .

مهمّة القصيدة أن تُشعلَ النار . لا أن تُطفئَ الحرائق كما يفعل رجال الإطفاء .

مهمّتها أن تخالف جميع أنظمة السير .. لا أن تكون شرطيّ سير ..

مهمّتها أن تدخل البحر ، دون أن يكون في يدها شهادة تأمين .

إن مشكلة شعرنا العربي ، أنه يفضل التمتع بشمس البحر الأبيض المتوسط ، والإستلقاء تحت مظلّة الطمأنينة .

ومشكلة الشاعر العربي ، أنه يريد الحصول على بنت السلطان ، دون أن يدفع مهرها ، أو يدخل مع حرّاسها في معركة للفوز بها ..

وبما أنّه ليس هناك امرأةٌ جميلةٌ بغير معركة .. فإنّـه ليس هناك شعر له قيمة حقيقية خارج نطاق المغامرة .. والتحدّي .. والإستشهاد .

إن القصيدة الجيّدة لا يمكنها أن تكون في الماء والنار .. وفي الصيف والشتاء .. وفي القطب الشمالي وعلى خطّ الإستواء في وقتٍ واحد ..

إن مبدأ عدم الانحياز في السياسة لا يمكن تطبيقه أبداً على الشعر ، لأن الشعر لا يمكن أن يبقى كالبوليس الدولي في المنطقة المحايدة ..

لا يمكن للقصيدة العظيمة أن تكون في داخل الموت

وفي داخل السلامة في وقت واحد .

إنني لا أتصوّر شعراً يقيم في المنطقة الوسطى بين الأشياء ، أي في المنطقة المعزولة من السلاح .. حيث لا محاربين . ولا أسلحة .. ولا انتصارات .. ولا هزائم ..

لا يمكنني أن أتصوّر شعراً لا ينحازُ إلى جانب ما .. لا يتّخذ موقعاً ما .. لا يقاتلُ من أجل رأيٍ ما .. لا يرفع سيفه لرفع الظلم عن إنسانٍ ما ..

إنني ضدّ شعر الكوربس بجميع أشكاله ونماذجه ..
ضدّ الشعر الذي تكتبه الأغنام لاسترضاء راعيها ..

ضدّ كلّ الشعراء الذين لا يزالون يقبضون مخصصاتهم الشهريّة من خزانة سيف الدولة .. أو خزانة الباب العالي ..

وأنا ضدّ سيرك (مدرانو) في الأدب ، حيث يرقص الأدباء رقْصَةَ الأفيال .. ويمدّون خراطيمهم إلى مقصورة الحاكم ليضع فيها موزة .. أو تفّاحة .. أو ساعة أوميغا .. أو رغيفاً مبللاً بماء الذُلّ ..

نحن بحاجة إلى شعر يُنهي وصاية رأس المال على الكلمة .. ويوقف تدخّل البترو دولار في شراء ضمير الخليل بن أحمد الفراهيدي .. وتقديم الأحذية الإيطالية لزوجته .. وأشرطة الفيديو كاسيت لأولاده ..

بحاجة إلى شاعر لا ينحني في حضرة الخليفة .. وإنما ينحني الخليفة في حضرة شعره .

نزار قباني . من أنت ؟

مكان ولادتي :

تحت شجرة ياسمين تُـهَرْهِرُ أقمارها على بلاط بيتٍ دمشقيّ قديم . واقع بين حيّ (الشاغور) وحيّ (مأذنة الشحم) .

شهود الولادة :

مجموعةٌ من الحمائم .. والسُنونُو .. والقطط الشاميَّة.. كانت مقيمة على سطح منزلنا في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢٣ . وكانت تأكل .. وتشرب .. وتنام .. وتخطب .. وتتزوّج .. وتتناسل .. في كَنَف العائلة القبَّانية ..!

أولادُ القِطَط في بيتنا الدمشقيّ كانوا أولادنا ..

وكانت أمّي ترضعهم من حليبها .. وتغسلهم في الحمّام معنا .. وترسلهم إلى المدرسة معنا ..

لون العينين :

لون سماء دمشق أيّام الصيف .

المهنة :

عاشق .

الحالة الإجتماعية :

عاشق .

الشهادات :

ليسانس في العشق .

العلامات الفارقة :

ذَبْحَة قلبية بسبب الشعر ..

الإقامة الدائمة :

على غمامة مسافرة بين الخليج والمحيط ، تخاف

أن تقترب من الأرض ، حتى لا يُلْقى القبض عليها ، بتهمة الطفولة ، أو بتهمة الصدق ..

السجلّ العدلي :

محكوم عليه غيابيّاً من كلّ المحاكم العربية بتهمة إصدار ثلاثين كتاباً في الحبّ .. اعتبرتها النيابة العامة ضدّ أمن الدولة ، لأن الدول العربية تخاف أن يداهمها الحبّ .. فتتعرقل حركة السير .. وتزدحم الحدائق العامة ومقاهي الرصيف بالعشّاق .. وتمتلئْ أكياس البريد برسائل الحبّ .. وتنشغل التلفونات بأصوات المغرمين والمتيّمين .. وتزدهر تجارة الورد .. وتجارة الخواتم .. وتمتلئْ الحقول بالسنابل .. ومستشفيات الولادة بالحوامل .. وتتكاثر دواوين الشعر في المكتبات ..

وهذا كلّه لا يُبْهج الدولة ولا يُسْعدها .. ولا يحرّك عواطفها .. لأن الدولة بالأساس عانس .. ولا

تُحِبُّ إلا نفسها ..

17

من أنا ؟

سأوفر عليكم الوقت ، وعذاب طرح الأسئلة .
وأقول لكم إنني شاعر ، قرّر بينه وبين نفسه في الأربعينات.
أن يُشْعِلَ اللغة من أول نقطة حبر حتى آخر نقطة حبر ..
ويُشْعِلِ الوطن الممتدّ من البحر إلى البحر .. ومن القهر
إلى القهر ..

خريطة الأشياء لم تكن تعجبني .. فلَخْبَطتُها ..
ووجه أبي جهل لم يكن يعجبني .. فلَخْبَطْتُه ..
وإسْكَافيُّو الشعر العربي لم يكونوا يعجبونني ..
فتعاركتُ معهم .. وأرحتُ قدمي من أحذيتهم الثقيلة ..

أردتُ أن أكتب شعراً يحمل توقيعي وحدي ..
لا توقيع عشرة آلاف شاعر آخر يكتبون بالعربية
والفرنسية والانكليزية والتركية والإسبانية والصينية .

وحلمتُ أن أكتب قصيدة لحسابي الخاص ..
دون أن أسحبَ أيّ قرش .. من ميراث العائلة ..
وأموالها الطائلة الموجودة في (كتاب الأغاني) و (العقد الفريد) .. وبنك (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ..

18

من أنا ؟

أنا شاعر لا يزال يفتّشُ عن الحرف التاسع والعشرين في الأبجديّة العربيّة ..

أحاولُ التنقيبَ عن الماء .. في النصوص التي نشف فيها الماء من كثرة الشاربين ..

أحاول أن أخترع شجراً .. وقمراً .. وبساتين فاكهة ونخيل .. وكلاماً عن الحبّ إذا سمعه الرجال لم يسحبوا مسدّساتهم .. وإذا قرأته النساء دَرَّ الحليب في أثدائهن نهراً من الذهب .

الحرف التاسع والعشرون ، هو الكَنْزُ المسحور الذي مات ألوف الشعراء قبل أن يكتشفوه .. وسيموتُ ألوفٌ من الشعراء على أمل اكتشافه .

قد يكون الحرف التاسع والعشرون موجوداً أو غير موجود .. وقد يكون حقيقةً أو قد يكون كِذْبَة .. وقد يكون كحجر الفلاسفة تشكيلاً ذهنيّاً بحتاً ... ولكن رغم كلّ شيء ، لا يستطيع الشاعر الحقيقي إلا أن يفترض وجوده .. ويستمر في رحلة البحث عنه .

حروف الأبجدية الثمانية والعشرون هي آثار مكتشفة . ومعروضة في كل المكتبات ، والمتاحف . ودور المخطوطات . لذلك فهي ممتلكاتٌ ثابتة وعصافيرُ في متناول اليد ...

أما الشاعر ، فإن عينَه مُصَوَّبة دائماً إلى العصافير التي لم يلتقطها بعد .. لا إلى العصافير التي التقطها ..

فإذا كان الناس العاديّون يفضّلون عصفوراً واحداً في اليد على خمسين عصفوراً على الشجرة .. فإن الشعراء لا يعترفون بهذا المنطق . ويفضّلون عصافير المجهول على كلّ ما يباع في سوق الطيور ..

* * *

19

الشاعرُ هو بائعُ خواتم الدهشة ..

بائعُ الذهول والانبهار ..

لا بائع الثياب القديمة . والجرائد القديمة . والعاديّات . لذلك يُتَّهم الشعراء دائماً بالعدوانية على التاريخ .. والتنكّر لشجرة العائلة ، وتبديد أموالها .. وتخريب لغتها .. وتشويه قيمها ومثاليّاتها .. والخروج على النهج القويم . والصراط المستقيم ..

وإذا كان الصراط المستقيم ، خطّاً هندسياً صحيحاً على الخريطة المثالية والدينية والخلقية .. فإنّه غير صحيح على الخريطة الإبداعية . فلا الموسيقى . ولا الشعر . ولا النحت . ولا التصوير . ولا الفن الروائي . ولا الرقص .. ولا المسرح . بوسعها أن تضيء وتتوهَّج في ظل الطاعة والامتثال والسير على الصراط المستقيم .

إنها تستمدّ شرارتها من قدرتها على العصيان ومخالفة أنظمة المرور ..

20

من أنا ؟

إنّني شاعرٌ تصادمي ..

شاعر . إذا لم يجد من يتخانق معه . يتخانق مع ورقة الكتابة .. ومع الفعل والفاعل والمفعول به . ومع أخوات كان .. وتاء التأنيث .. ونُونِ النسوة .

حتى حبيبتي . إذا حاولتْ أن تكتم أنفاسي بشَعْرها الطويل .. خرجتُ بمظاهرة احتجاج ضدَّ اللون الأسود ..

إنني لا أستطيع أن أكون مريحاً لا مع المرأة .. ولا مع الوطن .

لكي أستطيع أن أكتب . لا بد أن أكون مستنفراً إلى أقصى حالات الإستنفار .. وأن أكون متحفّزاً .. ومتوتّر الأعصاب كفهدٍ إفريقي .

لا يمكنني أن أصير حمامةً زاجلة .. أو نباتاً داخلياً للزينة .. أو سمكةً في (أكواريوم) .

أُفضِّلُ ألفَ مرة أن أكون سَمَكَةَ قِرْش في البحر الأحمر .. على أن أكون سمكَةَ سردين تُؤكل بالزيت والليمون .

هل يعني هذا أنَّ العدوانية من طبيعة الشعر ؟

بالأساس : لا

ولكن الشاعر العربي يجد نفسه منذ ولادته حتى موته .. نافشَ الريش ، عصَبيَّ الصوت ، كديكٍ موضوعٍ في الإقامة الجبرية يتّخذ ليلاً ونهاراً وضع الدفاع عن نفسه .. وعن دجاجاته .

إذن كيف يمكن للشاعر العربي أن يتصالح مع واقعه ؟

كيف يمكنه أن يختم فمه بالشمع الأحمر ؟ ..

كيف يمكنه أن يشعر بالطمأنينة .. وتُجَّارُ الطيور

من حوله يزايدون على ريشه .. وجناحَيْه .. وعُذُوبة صوته ، وقوة حنجرته ؟ .

كيف يمكنه أن يكون شاهداً على هذا الانتحار الجماعي العربي ، دون أن يبكي ، أو يصرخ ، أو يحتجّ .. أو يرمي نفسه من الطابق التاسع والتسعين ؟

كيف يمكنه أن يبقى في صفوف المتفرّجين ، يأكل (البوشار) .. وبزر الياقطين .. ويشرب المرطّبات .. وألسنة النيران تلتهم المسرح والمسرحية ؟

كيف يمكن أن يبقى الشاعر مهذّباً .. ولطيفاً .. ومعقولاً .. وكلّ ما حوله مشاهد متعاقبة من مسرح اللامعقول .

لذلك تبدو الخيارات أمام الشاعر العربي محدودة جداً ، فإمّا أن تتحوَّل اللغة بين يديه إلى قنبلة موقوتة .. وإمّا أن تتحوّل إلى حذاء عتيق ...

٥

21

من أنا ؟

أنا شاعرٌ مزروعٌ كالرمح في الزمن العربي .
أنا أُدميه .. وهو يُدميني .
أنا أحاول تغييرَ إيقاعه ، وهو يحاول تغيير صوتي ..
أنا أحاول أن أفضحه ، وهو يحاول استئصال حنجرتي .
أنا أحاول تَحَدّيه .. وهو يحاول رشوتي ..
أنا رجلٌ يصحو ، وينام ، ويكتب ، على ضفاف الجرح العربي المتقيّح منذ سقوط الدولة العباسية حتى اليوم .
الفرق بيني وبين سواي ، أنّني لا أؤمن بالطبّ العربي ، ولا بالسحر العربي .. ولا أسمح لنفسي بالبقاء خارج غرفة العمليات أشرب القهوة .. وأدخّن السجائر .. وأدعو للمريض بطول البقاء ..
إن غريزة الصراخ هي أقوى غرائزي ..

لذلك أرى نفسي في حالة صدام تلقائيّة ، مع كلّ (كاباريهات) السياسة العربية ، ومع كلّ المطربين ، والطبّالين ، والزمّارين ، والحشّاشين ، والقوّالين ، والقوّادين ، الذين يشربون في النهار نخب الأمة العربية .. ويشربون في الليل دمها ...

أرى نفسي في حالة صدام يوميّة ، مع الذين يحترفون الزنى السياسي العلني على أرصفة الوطن العربي ، ومع هذا السيرك الكبير الذي ما زالت حيواناته المدرّبة تقرقش عظام الشعب العربي كما يقرقش السنجاب حبّة البندق ...

وإلى أن تُغلَق أبواب كباريهات السياسة العربية ، ويستقيل مدربّو الأفيال ، ومُرَقِّصُو القِرَدَة .. يتوجّب على الشعر أن يفضح تفاهة التمثيلية .. ورداءة الإخراج .. وكذب الممثلين .. وأن يستمرّ في مطاردة هؤلاء .. حتى يغادروا المسرح نهائياً ..

في هذا الإطار غير المريح ، وهذا الطقس غير المعتدل ، وهذه البحار التي لا سواحلَ لها .. أمارس السفر والكتابة ..

هناك بعض المسافرين من الكتّاب والشعراء العرب، قطعوا رحلتهم وعادوا ..

أما أنا فيبدو أن دُوَارَ البحر هو قدري .. والتصادم مع الديناصُورات هو جزء من تاريخي ..

إن شعري ، هو محاولة لكسر جاذبية الأرض العربية .. ومغناطيسية الجاهلية العربية ..

إن السباحة ضدَّ جاذبية الأرض عملية منهكة .. والخروج من منطقة نفوذ القبيلة ، وأفكارها ، وعاداتها ، وقناعاتها ، مهمة صعبة . ولكن من قراءة تاريخ الفكر العربي والعالمي ، يتبين أن الأدب الكبير كان دائماً مقترناً بالشهادة .

22

نزار قباني . لماذا أنت متناقض ؟

التناقض وحده هو الذي يميِّز الإنسان عن حجر الطاحون .. ويميّز أعصابه عن قضبان السكة الحديدية ..

قضبان السكة الحديدية لا يمكن أن تتناقض أبداً .. انها دائماً مستريحة .. وراضية .. ومنبطحة على الأرض بانتظار القطار الذي يأتي ..

أما الشاعر فإنه لا يجلس بانتظار أحد ..

لا تهمّه القطارات التي تأتي ، وإنما القطارات التي لا تأتي ..

لا تهمّه المرافئ التي لاحت .. وإنما المرافئ التي لم تَلُحْ بعد ..

لا تهمّه المحطّات المسمّاة .. وإنما المحطّات التي لا أسماء لها ..

قد يبدو لكم صوتي متناقضاً ..
من قال لكم إنني شريطٌ مسجَّل ..

أنا مجموعة من الأصوات المتداخلة ..قد تُشبه صوتَ تنفُّس الحدائق ... وقد تشبه رنينَ الأجراس .. وقد تشبه انكسار لوح زجاجي .. أو صرخات قبيلة بدائية ..

كل هذه الأصوات هي صوتي . بخفوته وارتفاعه ، بفرحه وكآبته ، بحضارته وبدائيته ، بقبوله ورفضه ، بعافيته ونزفه ..

صوت الشاعر ليس خطوطاً محفورةً على أسطوانة ، كلّما عُزِفَتْ أعادت نفسها . صوت الشاعر يحمل كلّ تموّجات الحياة ، والمجتمع ، والتاريخ . إنه آلة موسيقية لها عشرات المفاتيح ..

لماذا أنا متناقض ؟ .

لأنني لم أشتغل حتى الآن جابياً في مؤسسة الكهرباء ..
ولا محاسباً قانونياً في مديرية الإحصاء ..

لذلك تأخذ قصائدي مرّة شكل الوردة .. ومرّة شكل الجرح المفتوح .. فأرجو أن تحتملوا مناخاتي وتحوّلاتي .. لأنني أقدّم لكم مجموعة من الإنفجارات على شكل قصيدة .. ولا أقدّم لكم بنود الموازنة العامة ...

هذا هو موجز لهويّتي الشخصية .

ومن أراد الحصول على معلومات أكثر سرّية عنّي .. فسيخيب ظنّه ، لأنني مكشوفٌ كالكفّ .. وليس عندي بضاعة للعَرْض .. وبضاعة للتهريب ..

إنّني لم أتعاط أبداً القصيدة السِريَّة .. وليس عندي مطابع تحت الأرض لتزوير العملة .. أو لتزوير الفكر ..

كسماء البحر الأبيض المتوسط أنا .. أمارس الشعر ، كما أمارس الحبّ في الهواء الطلق ..

ولأن الأساس في الحُبّ في بلادنا أن يكون سرّياً .. ولأنّ شيخ القبيلة يُخفي تحت فكّه الأيمن نِصْفَ دزّينة

نساء .. وتحت فكّه الأيسر نِصْفَ دزّينة أخرى .. فقد حاكمني شيخ القبيلة بتهمة العدوان على (ممتلكاته الخاصة) .. واتّهمني بنشر وثيقة سرّية بأسماء النساء الموضوعات في الثلّاجة .. بانتظار نقلهنّ إلى غرفة الطعام الرسميّة .. أو إلى فراش الحكومة ...

*

23

جمهوريّة الشعر :

أنا مؤسّس أوّل جمهوريّة شعرية ، أكثريّة مواطنيها من النساء .

جمهوريّة لا تشترط من زائريها الحصول على تأشيرة دخول مُسْبَقَة ، ولا تفتّش حقائبهم ، ولا تطلب منهم شهادة صحية تثبت خلوهم من الأمراض السارية .. أو من الأفكار السارية .

جمهوريّتي هذه ، تختلف عن بقية الجمهوريّات ، في أن الشعر فيها هو من الممتلكات العامة ، كالماء ، والهواء ، والحدائق العموميّة ، وفي أن اللغة الشعريّة في هذه الجمهوريّة ، لا تعرف التفرقة الطبقيّة ، أو العنصريّة ، أو الثقافيّة .

أنا ضدّ كلّ (غيتويات الشعر) .. وضدّ تحويل القصيدة إلى طروادة تعيش في حصار تاريخي مع نفسها .. وضدّ أن يتحوّل الشعر إلى نادٍ مغلق كنوادي البريديج .. أو نوادي العُرَاة .

سُكَّان هذه الجمهورية لا يُعانُون من أزمة ماء ، ولا كهرباء ، ولا مواصلات .. ولا يدفعون ثمن تذاكرهم للحصول على مقعد في أمسية شعريّة .

وسُكّان هذه الجمهوريّة ، يذهبون إلى الشعر دون كلفة ، وهم يلبسون القمصان الصيفيّة والشورتات .. ويجلسون معه على الأرض ، ويأكلون ، ويدخّنون ، ويلعبون الورق ..

إنَّهم يذهبون إلى الشعر دون موعدٍ سابق ، ولا يضطرون للوقوف ساعاتٍ في الطابور للتشرّف بمقابلته ..

في جمهوريّتي ، لا يشعر الناس بأنّهم غرباء عن

الشعر .. فقد صار الشعرُ طبيعتَهم الثانية .

صاروا هُمُ الشِّعْر ..

24

جمهوريّتي الشعريّة هي جمهوريّة إشتراكيّة .

واشتراكيتي الشعريّة ليست اشتراكية تنظيريّة أو استعراضيّة .. أو شعاراتيّة .. ولكنها اشتراكيّة التنفيذ .

إشتراكيّة تحويل المجتمع العربي فعلاً وتطبيقاً إلى مجتمعٍ تصبح فيه أرضُ الشعر موزّعةً بالتساوي على جميع السكّان ، ويحصل كلّ مواطن فيه على حاجته من الشعر ، دون مقابل .

إنّني لا أبيعكم أوهاماً ..

وتصوّراتي التي كانت تبدو لكم قبل أربعين عاماً شَطَحات حَشّاشين ، وأوهام شعراء ، أخذت شكلها على الأرض .. ونُفِّذَتْ كمشاريع التشجير ، والريّ ،

وتحلية مياه البحر ..

ألستم معي في أن تحلية مياه الشِعْر .. لا تقلّ أهميةً وإلحاحاً عن تحلية مياه البحر ؟ .

إن الإشتراكيّة الشعريّة هي أساس تفكيري .

و(تأميم الشعر) هو منهج سأطبّقه في أول فرصة أستلم بها السلطة .

سيكون أوّل عملٍ أفعله ، هو أن أُؤسس تعاونيّةً شعريّة ، في كلّ حيّ ، يحصل فيها الناس على ديوان الشعر ، كما يحصلون على زجاجة الحليب .

إنني ضدَّ الإحتكاريّة في الشعر ، سواء احتكاريّة الملوك والخلفاء .. أو احتكاريّة الصالونات .. أو احتكاريّة السلطة .. أو احتكاريّة (الإنتلجنسيا) ..

إنني لا أؤمن بالصالونات الأدبية ، ولا بالصفوف المخصَّصة للوزراء وزوجاتهم .. فقد علّمتني تجربتي أنَّ الذين يجلسون في الصفوف الأمامية هم آخر من يتذوّق

الشعر .. والذين يجلسون في الصفوف الخلفية هم الشعر كلّه ..

*

الشعر مطر يسقط بالتساوي على باريس ، وجنيف وسان فرانسيسكو ، وجزيرة كابري .. كما يسقط على الربع الخالي ، وبنغلادش ، وحارة (الغوريّة) وحارة (السقّايين) ..

فالشعر هو هذه **الجنسيّة الواحدة** التي يأخذها جميع شعراء العالم تلقائياً ، سواء ولدوا في أعالي الهملايا .. أو في طاشقند .. أو تانزانيا .. أو مكّة ..

جنسيّةٌ واحدةٌ لكلّ شعراء العالم ..

وكلُّ محاولة لربط الشعر بالعرقيّة ، أو المذهبيّة ، أو القَبَليّة أو بالسُلالات ، أو بالتقسيمات الجغرافيّة ، أو بالشرائح الإجتماعية والاقتصاديّة ، هي لون من ألوان

التمييز العنصري لا يتّفق مع أُمميّة الشعر .

طبعاً ، هذا لا يعني أن يكتب الشاعر الإنكليزي بالحبر الصيني ، وأن يلبس الشاعر العربي (الجينز) الأميركي ، وأن يتخلّى الشاعر الإفريقي عن رمحه ، وطبله ، وقناعه الإفريقي الجميل ، ويتخلّى الشاعر الإسباني عن حزنه الأندلسي ، وقيثارته الدامعة .

إنَّ ما أعنيه ، أنّ جوهر الشعر واحد كجوهر الماء ، وجوهر النار ، ولكنَّ ما يختلف هو الشكل الذي يأخذه الماء ، والطريقة التي تُضيءُ بها النار .

بكلمةٍ واحدة ، إنّ دمَ جميع الشعراء في العالم هو واحد ، ولكنَّ ما يجعل دم المتنبي غير دم بابلو نيرودا .. وغير دم بول ايلوار ، وماياكوفسكي ، هو فصيلة الدم ، لا الدم نفسه .

إن شعراء العالم هم مجموعة من الأنهار ، لكلّ واحدٍ منهم حركته ، وإيقاعه ، وينابيعه الخاصة ، ولكنّها

تتّجه جميعاً لتصبّ في بحر واحدٍ ، هو بحر الإنسانية .

هذا الهدف العظيم هو الذي يجعل صوت ويتمان ، كصوت ابن الفارض ، وصوت المعرّي كصوت إقبال .. وصوت الشريف الرضي كصوت عمر الخيام ، وصوت بودلير كصوت أبي نواس .

هؤلاء الشعراء ، على تباين أصواتهم ولغاتهم ومصادر ثقافاتهم ، يؤلّفون مجتمعين ، سمفونيةً عظيمةً واحدةً تصغي إليها كلّ العصور .

25

نزار قباني ، لماذا تكتب ؟

أكتب لأنّني لم أجد طريقةً أفضلَ للإنتحار .
ولأنني لا أستطيع استبدال دمي بعصير البندورة ..
أكتب بالحتميّة ذاتها التي ترتفع فيها السُّنْبُلة ،
ويفيضِ البحر ، ويكتظُّ الثديُ بالحليب ..
هل يجيبكَ ثديُ المرأة ، إذا سألتَه لماذا هو مكتظٌّ بالحليب ؟؟.

*

إنّني أكتب لتصبح مساحة الفرح في العالم أكبر ..
ومساحة الحزن أقلّ ..
أكتب لأُغيِّرَ طقسَ العالم .. وأجعلَ الشمسَ أكثرَ حناناً .. والسماء أكثرَ زُرْقةً .. والبحرَ أقلَّ مُلُوحة ..

إنّي أكتب حتى أتزوَّجَ العالم ..
حتى أتكاثر ..
حتى أتعدَّد ..
حتى أصبح ١٥٠ مليون نزار قباني .

هذه هي خارطة طموحي . ولن أقبل أن تنقص جمهوريتي الشعريّة مواطناً واحداً .. لأنني سأكون حزيناً إذا لم يأت أحد أولادي إلى العشاء .. وسأقضي الليل بانتظاره ..

فأنا لا أستطيع أن أتناول الطعام وحدي .. أو أجلس مع القصيدة وحدي ..

أنا مُصَمِّمٌ على أن أتزوَّج العالم ..
هناك شعراء يتزوجّون العالم زواجاً دينيّاً ..
وشعراء يتزوّجونه زواجاً مَدَنيَاً ..
وشعراء يتزوّجونه زواجاً عُرْفيّاً ..

وشعراء يتزوّجون العالم بالمُراسَلة .. ولذلك فهم لا يُنجبون ذُريَّة .

وهناك أخيراً شعراء يُضاجعون أنفسَهُمْ .. وليست لديهم الشهوة للاقتراب من الجنس الأخر (الجمهور) .

أما أنا فشاعر طبيعيّ الميول ، قرَّر أن يتزوّجَ الوطن العربيّ ، ويستولده أُلوفَ القصائد والأطفال ...

لماذا أكتب ؟

لأنَّ من بعض طموحاتي أن أُغيِّرَ جغرافيّةَ الوطن العربي بالكلمات ..

قد يأخذ ذلك وقتاً طويلاً .. وعَرَقاً كثيراً .. ودمعاً غزيراً ..

ولكنَّ نُقْطَةَ شِعْر من هُنا ..
ونُقْطَةَ شعرٍ من هُناك ..
وينفجرُ الطوفان ...

26

نزار قباني . لمن تكتب ؟

لن أكون متواضعاً ، فأقول إنّني أكتب لنفسي .. أو للعائلة .. أو (لأولاد حارتنا) ..

في ذهني مخطَطٌ للشعر لا أتراجَعُ عنه ، وهو مخاطبة أيّ شجرة .. أو غيمة .. أو سمكة .. أو هِرَّة .. أو نجمة .. أو يمامة .. في الوطن العربي ..

وما دامت هناك سنبلةُ قمحٍ ، تجد صعوبة في فهم الشعر ، فسأذهب إليها في الحقل ، وأقرأ لها الشعرَ قبل أن تنام ..

وما دام هناك قِطَّةٌ واحدة في شوارع الوطن العربي لا تهتمّ بالشعر ، فسوف أضعها على حضني .. وأُمَشِّطُها .. وأُدَلِّلها .. وأُطعمها اللوزَ والفستق .. وأُسمعها قصائد الغزل ، حتى تستيقظ أُنوثتُها ..

وما دام هناك تلميذٌ واحدٌ في المدارس العربية .. يُخَوِّفونه بالشعر الجاهلي ، ويعاقبونه بحفظ بعض نماذجه التي لا تُعْصَر .. ولا تُكْسَرْ .. فسأبدّد مخاوفه ، وأمسح دموعه ، وأجعله صديقي ، وصديق الشعر ..

وأخيراً ، ما دام هناك مواطنٌ عربيٌّ واحد .. لم يستطع أن يحضر أمسيةً شعريّةً لي ، بسبب عرقلة السير .. أو لأنّه لا يملك أجرة أوتوبيس .. فسوف أحمله على كتفيَّ .. لأنّني لا أستطيع أن أبدأ الشعر إلّا به .. ولا أستطيع أن أنتهي إلّا به ..

عيونُ الناس هي المرايا العاكسة التي أرى فيها وجهي .. وأتأكد فيها من صباي .

هي البوصلة التي تدلُّني على موقعي في الزمان والمكان .

وحين يقول لك شاعر إنّ العالم الخارجي لا يعني له شيئاً وإنّه يكتب لنفسه ، وإنّه سعيدٌ بالحوار معها .. فمعنى ذلك أنّه يمارس الحبَّ مع نفسه . ويحترف

العادة السريّة .

فحين لا يشتهي الكاتبُ الآخرين .. ويكتفي بملامسة جسده ، والإحتكاك بورقة الكتابة .. فهذا يعني أنه منحرفٌ شعريّاً ..

فالشعرُ هو بالدرجة الأولى فنٌّ الملامسة ..

فنٌّ ملامسة الآخرين ..

وبغير ملامسة الأخرين ، لا نستطيع أن نكتشف أبعاد جسدنا ، ولا أبعاد فكرنا .

فبالإنسان تبدأ المعرفة .. وبه تنتهي .

•

إن الشعرَ هو السَفَرُ داخل الإنسان .

والشاعرُ ، هو ذلك المسافر الأزليّ في النفس البشريّة .

والذين لا يُجيدون فنَّ العلاقات العامة من الشعراء ، يبقون في الحفلات وحدهم ، يتحاورون مع كأس

الويسكي ، حتى تُطفأ الأنوار عليهم ..

هؤلاء الشعراء الذين لا يستطيعون أن يتفاهموا مع أيّة نملة .. أو نحلة .. أو شجرة .. أو أوتوبوس في العالم العربي ، يتّهمون الشعب العربيّ ، بأنه مجموعةٌ من المجاذيب ، والبهاليل ، والأُميين .. وأنّه يحتاج كي يلحق بقصائدهم ، ويكتشف جماليّاتها الجُوّانية ، إلى عشرين ألف سنة ضوئيّة ..

أما أنا فصبري قليل .. ولا أستطيع أن أنتظر الشعبَ العربيّ عشرين ألف سنة ضوئية .. حتى أتفاهم معه .

فلا أحدَ يدري إذا كُنّا بعد عشرين ألف سنة .. سنقرأ الشعرَ في الكُتُب ، أم أنّنا سنجده في الصيدليّات على شكل حُبُوب .. كالتي يستعملها رُوّادُ الفضاء في رحلاتهم .

إنّني حريص على أن أكون شاعرَهذه اللحظة ..

هذه الدقيقة .. هذا اليوم .. هذا الشهر .. هذا العصر .. هذا الزمن .. أما الأزمنةُ التي لا أعرف شكلَها . فلا أفكّر بها أبداً ..

إنّـني مقتنعٌ بهذا الشعب العربي . على ما هو عليه . بأبيضه وأسوده .. وخيره وشرّه .. وجاهليّته وحضارته ..

الشعبُ العربيّ هو قَدَري المرسومُ على جبيني وأصابعي ..

ولما كنتُ لا أستطيع أن أطردَ من جمجمتي ١٥٠ مليون عربي .. وأستوردَ غيرَهم من سويسرا أو اسكاندينافيا .. فسوف أبقى مرتبطاً بفصيلة دمي .. وتبقى قصائدي مرتبطة بالرَحَمِ الذي تَـكوَّرَتْ فيه ..

27

لمن أكتب ؟

في الكتابة ، أبحث عن شركاء يقتسمون معي بصورةٍ عادلة ، فَرَحي وحُزْني ، عقلي وجنوني ، صَحْوي ومَطَري ، حناني وتَوَحّشِي ، مناخاتي الربيعيّة ، ومناخاتي الإستوائيّة .

في الكتابة أبحث عن كلّ أطفال العالم ، ومجانينه ، وفوضوِيّيه ، الذين لا يزالون يحتفظون بحدٍّ أدنى من البراءة والنقاء ، وعن جميع التلاميذ الهاربين من زنزانات التعليم العثماني والإنكشاري إلى براري الحريّة .

أبحث في الكتابة عن مَرْضَى الحساسيّة المُفْرِطَة الذين يجدون في الشعر خلاصَهُم ، وينامون على كَتِفِ القَصيدَة

كما تنام السمكة على شاطئٍ رمليٍّ ، بعد صراعٍ طويلٍ مع الأمواج المجنونة .

أبحث في كتابتي عن كلّ النساء المدفُونَات كأسماك السردين في كُتُبِ عادٍ وثَمُود ، والمَشْنوقاتِ على بَوَّابات المُدُن العربية ، وعن الشفاه التي لا تستطيع أن تتكلَّم ، فأتكلّم عنها .. وعن العُيون التي لا تستطيع أن تبكي .. فأبكي عنها ..

وأخيراً ، أبحث عندما أكتب ، عن لغةٍ تَكون القاسمَ المشتركَ بيني وبين جيلٍ عربيٍّ لا أعرفه .. وعن ملايين العقول التي لم تتشَكَّلْ بعد .. ولكنّها سوف تتشكّل بصورة حتميّة ، داخلَ الشعر .. وداخلَ الثورة ..

28

لمن الكتابة ؟

لا مجالَ للتردُّد في أنّها للأسرة البشريّة كلّها ..

لخيرها ، لسعادتها ، لتقدّمها ، وبغير هذه الرؤية تصبحُ الكتابةُ ، لُعْبَةَ مهاراتٍ ، وتجريداتٍ ذهنية ويدويّة ، أشبه بأعمال الساحِرات .. وألعاب السيرك ..

كلُّ كاتب بالأساس ضدَّ القبح . ومهمّته الأساسية أن يحتجَّ على كلّ الممارسات والأساليب التي تجعل العالم مرعباً .. ومظلماً .. وقبيحاً ..

ولذلك ، يتعذّر على الكاتب ، منطقيّاً ، ومِهَنيّاً ، وأخلاقياً ، أن يكونَ مع القاتل ضدَّ القتيل .. ومع الظالم ضدَّ المظلوم .. ومع الخنجر ضدَّ اللحم الإنسانيّ ..

ومع الفاشيست ضدَّ الحريّة .. ومع المشنقة ضدّ الرقبة .. ومع الشيطان ضدّ الله ..

وفي عالم كعالمنا ، يترنَّح فوق بحرٍ صاخبٍ من العُنْف ، والجريمة ، والقَمْع ، والمُمارسات العنصريّة والبوليسيّة ..

في عالمٍ كهذا العالم ، الذي يتحوّل فيه الإنسان يوماً بعد يوم إلى صرصارٍ مهروسٍ بآلة الحرب الاقتصاديّة والعسكريّة والاستهلاكيّة ، لم يعد بوسع الكاتب أن يُقْفِلَ باب الغرفة على نفسه مع زجاجة ويسكي ، معلناً حيادَهُ بين البحر والسفينة .. بين أسنان سمك القرش .. ولحم المسافرين ...

29

نزار قباني . ماذا فعلت ؟

أنا كاتبٌ يحاول أن يفتح الدنيا بقاموس لايتجاوز ألْفَ كلمة ..

ليس عندي عساكر .. أو خيول .. أو أشعة لايزر ..
أو صواريخ عابرة للقارات .. أو حاملات طائرات ..
أو رادارات ..

إنَّ قلبي هو الرادار الأكثر دقَّة وحساسيّة في التقاط الإشارات الصادرة عن الإنسان ..

لَنْ أتفلسفَ عليكم كثيراً .. ولن أعقّد الأمور عليكم ، لأن عندنا مخزوناً من العُقَد التاريخية المزمنة تكفينا إلى يوم القيامة . فلا ضرورةَ لإضافة عُقْدَةَ الشعر عليها ..

لن أفتحَ أمامكم حقائبَ غُرُوري ..

ولن أضعَ الغَلْيُونَ في حلقي ، وأستعمل مصطلحات النقد الحديث ، لأثبت لكم أنني مثقّف كبير ..

فالثقافة لا تتناقض مع بساطة التعبير .

البساطةُ لا تعني أن تكون ساذجاً ، أو بهلولاً .. أو سَطْحِيّاً .. أو أُميّاً ..

فبإمكانكَ أن تكونَ بسيطاً وجميلاً .. في نفس الوقت ..

والذين يكتبون أشعاراً وأقاصيص وأفلاماً ومسرحيّات للأطفال ، يعرفون ما أصعب أن يكون الإنسانُ بسيطاً عندما يواجهُ اللغةَ .. ويواجهُ الطفولة ..

أنا شاعرٌ بسيط .

أقولها بكُلِّ قوّة ، لأنّني اعتبرُ البساطةَ مصدرَ قوّتي .

*

منذ عام ١٩٤٤ ، وأنا أشتغل على معادلةٍ لتحويل الشعر العربيّ إلى قماشٍ شعبيٍّ يلبسه الجميع .. وشاطيء شعبي يرتاده الجميع . وقد نجحت .

منذ عام ١٩٤٤ ، حلفتُ أن لا يبقى مواطنٌ واحدٌ في الوطن العربي يكرهُ الشعر ، أو يستثقلُ دَمَه .. أو يهربُ من سماعه أو من قراءته .. وانتصرت ..

منذ عام ١٩٤٤ ، حلمت باحتلال العالم العربي شعريّاً .. وها أننا قد احتللتُه ..

منذ عام ١٩٤٤ ، وأنا أشتغلُ كالنَمْلَة .. وأجرُّ الحروفَ والكلماتِ على ظهري .. لأصنع للشعر لغةً ديمقراطية تجلس مع الناس في المقهى .. وتشرب معهم الشاي .. وتدخن السجائر الشعبيّة معهم ..

طبعاً .. لن يصل بي الغرور إلى الحدّ الذي أزعُمُ به أنني اخترعتُ لغة . فاللغة ليست أرنباً يخرج من قبّعة الحاوي ، ولكنّي أسمح لنفسي بالقول أنّني طرحتُ في

التداول لغةً موجودةً على شفاه الناس ، ولكنَّهم كانوا يخافون التعاملَ بها .

كانت لغةُ الشعر متعاليةً ، متعجرفةً ، بروقراطيةً . بروتوكوليةً ، لا تصافح الناس إلا بالقفّازات البيضاء . ولا تستقبلهم إلا بالقَبَّة المُنَشَّاة ، وربْطَة العُنُق الداكنة ..

وبكلمة واحدة ، رفعتُ الكِلْفَةَ بيني وبين لغة (لسان العرب) و (محيط المحيط) .. وأقنعتُها أن تترك قصرَ أبيها المهجور ، والمليْ بأرواح الموتى ، وتختلط بتلاميذ المدارس ، والموظفين ، والعمّال ، والبائعات ، والممرّضات ، وسائقي سيارات الأجرة ..

ليس هذا انتقاصاً من قيمة اللغة العربية ، فهي لغة جميلة ، ومدهشة ، وغنيّة غنىً لا حدود له .

ولكنها بحاجة إلى عملية تَهْوِيَة .. وفَتْحِ أبواب .. ونَفْض سُجَّاد .. ومسح زُجَاج .. لأنّ اللغة كالنبات والإنسان ، بحاجة يومية إلى الأوكسيجين .. وإلّا

اختنقتْ بثاني أوكسيد الكاربون.

ليس هناك لغةٌ في العالم لا تكبر ، ولا تصغر ، ولا تطول ، ولا تقصر .. ولا تَحْبَل ولا تَلِد .. إلا إذا كانت لغةً معدنيّة ، أو لغةً من الحَجَر ..

ومسؤولية تهوية اللغة العربية ، وإعادة صباغها ، وتوزيع أثاثها .. تقع بالدرجة الأولى على عاتق الشعراء ، لأنهم يملكون بحكم طبيعة الشعر (امتيازاً خاصاً) يجعل ذنوبهم مغفورة ، وخطاياهم محتملة ، ومخالفاتهم قابلة للعفو ، لأنهم يعتبرون الأطفال المدلّلين في المنزل العربي .

الشاعر هو الطفل الوحيد الذي يُسمح له في المجتمع العربي أن **يلعب باللغة** .

فقوانين القبيلة لا تحكم عليه بالموت شنقاً ، إذا أنزل الهمزة عن عرشها .. أو قصَّ ضفائر تاء التأنيث .. أو نسي أن يرسل ورداً إلى نون النسوة .. باعتبار أنه

يحمل في جيبه جوازاً دبلوماسياً مكتوب عليه (يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره) .

لذلك ، فإن الشاعر الذي لا يستعمل امتيازاته الدبلوماسية ، لاختراق جدار اللغـة . يعتبر خائباً في الصناعتين .. صناعة الشعر .. وصناعة الدبلوماسية ..

30

ما هي جدليّة اللغة عندك ؟

اللغة تحتلُّني احتلالاً شاملاً .

تحاصِرُني من جميع الجهات .. حتى أنَّ العالم عندي يأخذُ شكلَ النقطة والفاصلة .

الزهرةُ لغة ، النجمةُ لغة ، الشجرةُ لغة ، وجهُ المرأة لغة ، جسدُها لغة ، ضحكتُها لغة ، استِدَارَةُ نهدها لغة ..العصافير ، الغابات ، دموع الأطفال ، وجوه المناضلين ، كلُّها لغاتٌ مختلفة أحاول اكتشافَ رموزها ..

لا يمكننا أن نفهم العالم دون أن يكون بيننا وبينه لغةٌ مشتركة .

أحياناً ، يبدو الإنسانُ عاجزاً عن التفاهم حتّى مع

المقعد الذي يجلس عليه ، حتّى مع القميص الذي يلبسه ، والمرأة التي يمارس الحبَّ معها ..

كلُّ هذا يحدث ، بسبب سُقُوط جسر اللغة بيننا وبين الأشياء . وكلّ تناقضات العالم ، هي في أساسها تناقضات لغوية .

عندما تنكسر العلاقة بين القصيدة وبين قارئها ، فإنَّ هذا يعني أن فراغاً لغوياً قد حصل ..

وعندما تُفلِسُ عَلَاقة حُبٍّ بين رجلٍ وامرأة ، فهذا يعني أنَّ اللغة التي يتكلّمان بها قد انكَسَرتْ .

هل يمكنُ أن أعترفَ لكُمْ بسرٍّ خطير ؟

وهو أنّني أربحُ امرأةً باللغة .. وأخسَرُها باللغة .
ومن المستحيل عليَّ إقامةُ علاقةٍ حميمةٍ مع امرأة .. لا يلعب الحوارُ دوراً رئيسيّاً فيها .

حتّى الجِنْس ، لا يستطيع أن يكون جِنْساً ذكيّاً

بغير لغة ذكيّةٍ تواكبه .... وتُضيئه ..

*

هل هناك كلماتٌ شعريّة .. وكلماتٌ غيرُ شعريّة ؟
أنا لا أؤمن بمثل هذه التصنيفات .
فالكلماتُ كلُّها بناتُ أَصْلٍ .. وهي كالأثواب لا تأخذ شكلَها النهائيَّ إلّا بنا .. ولا فضلَ لكلمةٍ على كلمة ، إلا بقدرتها على استيعابنا ، ونَقْلِ تجربتنا بكل حرارتها وصدقها .
إنَّ الامتيازات العائليّة لا تُطبَّق في المسائل اللغوية .. بحيث نتحدَّث عن كلمة راقيةٍ وكلمةٍ أقلّ رُقيّاً .. وكلمةٍ شريفة وكلمةٍ أقلَّ شرفاً ..
فكلُّ الكلمات في اعتقادي عذارى ، حتى تضاجع الكاتب ، فإما أن تخرج ناصعةَ الجبين ، وإما أن تتعهّر .
إذن فالمسؤولية مسؤولية الكاتب ، لا مسؤولية

الكلمات المكتوبة . فالكلمات دائماً بريئة حتى يعاشرهَا الشاعر ، فإمّا أن تتحوّل بين يديه إلى أميرة .. أو إلى خادمة .

31

كيف تتشكّل اللغة عندك . من أي أقاليم تأتي ؟

لغتي هي جزءٌ من عشقي . بمعنى أن أيَّ عشقٍ جديدٍ أدخله ، يحملُ معه لغتَهُ الجديدة .

اللغةُ تأخذ حجمَ عشقنا ، فإذا كان عُشقنا كبيراً ، كبُرَتْ اللغة .. وإن كان عشقنا ضَيِّقاً .. ضاقت اللغة .

مُفْرَدَاتي تولدُ في ذات اللحظة مع حُبِّي كما يولد البَرْق والرَعْدُ معاً .

عندما يهاجمُني الحبُّ فإنّني أكونُ مشغولاً به ، ولا يكون لديَّ الوقت لاختيار مفرداتي .

إنَّني لا أتقصَّد أيَّ شيء .. ولا أُخطّط لأيِّ شيء ..

وأدخل امتحانَ الحُبّ دونَ أن أذاكر دروسي جيداً .. ولهذا أنجح . فالذين يحفظون دروسهم عن ظهر قلب من العشاق يسقطون ..

العشّاق الذين يفكّرون بلغتهم أكثر من حبيباتهم .. يخسرون حبّهم وحبيباتهم معاً ..

لماذا لا نترك لغةَ الحب بسيطةً وطبيعية .. دون أن نُسْقِط عليها تنظيراتنا ، وأيديولوجياتنا ، وعُقَدَنا الثقافية ؟

العاشق العربي معقَّد بحكم الولادة والإنتماء .. فلماذا نضيف إلى عُقَدِهِ التاريخية عقدةً جديدة ؟

إن العاشقَ العربيَّ على امتداد التاريخ لم يكن أبداً سريالياً ولا رمزياً ولا تكعيبيّاً .. فهو يتكلّم مع المرأة كلاماً (يُناسب مقتضى الحال)، كما يقولون في علم البلاغة.

الحُبُّ العربيّ واضحٌ .. وساطعٌ .. ورمليّ .. ومتوهّج كالشمس ، أوكنَصْل السيف ..

فلماذا نستورد لغةَ الحبّ من الأسكيمو أو اسكوتلاندا؟

والحبُّ العربيُّ حبٌّ هجوميّ وبركانيّ ، وفيه كلّ مشتقّات الكبريت والفوسفور والبارُود .. فلماذا نخصيه .. ونضعه في الثلاجَّة ..

إنَّ لغةَ العشق العربية من أجمل اللغات . وبمقارنتها مع لغات العشق الأخرى ، تبدو متفوّقة ، ومتوهّجة . وديناميكية .

صحيح أن فيها شيئاً من البداوة .. والعنف .. والذُكُورة .. والاجتياح .. والساديَّة في بعض الأحيان ..

إلَّا أن هذا ليس نقطةً ضدّها ، لأنَّ فيها شيئاً من حرارةِ رمالنا ، واشتعالِ شُمُوسنا ، وهُبُوبِ رياح الخَمَاسين في داخلنا .

إنَّ كلَّ لغةٍ تحمل في بنيتها حالة الطقس ، وطبيعة الإنسان التي يتكلّمها .. وتعكس في إيقاعاتها الإيقاعات النفسيّة للشعب ..

• أنت كتبت القصيدة الموزونة المقفّاة ، وجددتَ فيها . وكتبت القصيدة الحديثة ، وكتبت النثرية منها بتفرّد .. كيف تتشكل القصيدة لديك ؟

ـ ليس ثَمَّة فنَّانٌ يعرف قبل التجربة ، ماذا سيحدث معه .

القصيدة تتشكَّل أثناء العمل .. أو مع العمل ..

والنظَّامون وحدهم ، هُمُ الذين يكتبون حسب الروزنامة .. ويعرفون أنهم في يوم ١٧ ذي الحجة .. سيكتبون قصيدة على البحر الطويل بمناسبة وضع الحجر الأساسي لبناء مصنع للعلف الحيواني ..

لذلك فإن شكلَ القصيدة ، يبقى غامضاً كالجنين في رحم أمه .. ولا يتبين جنسه إلا عند الوضع .

بالنسبة لي ، لا أتوقَّف كثيراً عند الشكل . وليس عندي حساسيّة ضدّ قصيدة النثر .. أو أيّ شكل شعري

جديد . فالأشكال من اختراع الاسنان .. وبيده أمر تعديلها ، أو إلغائها إذا اقتضى الأمر ..

المهمّ أن يقنعَني النصُّ الذي أقرؤه ، انّه نصٌّ شعريّ ، بصرف النظر عن تفاصيله الخارجيّة .

33

• كيف يهرّب الشاعر إلى القارئ الدهشة ؟

ـ ليس هناك وَصْفةٌ عربية ، يستعملها الشاعرُ ليكون مُدْهِشاً .. أو جَذّاباً .. أو قريباً من القلب ..

الكلمات كالبَشَر ..

بعضها سَلَفي .. وبعضها مستقبلي .. وبَعضُها عاقل .. وبعضها مجنون .. وبعضها لَمّاح .. وبعضها غليظ .. وبعضها يبحث عن السترة .. وبعضها يبحث عن الفضيحة .. وبعضها يرقص (السماح) .. وبعضها يرقص (الجيرك) .. وبعضها يمشي كقطار الليل .. وبعضها يثقب السماء كطائرة الكونكورد ..

ولكي تكونَ مدهشاً ـ شعرياً على الأقلّ ـ لا بدّ أن تُحدث خللاً في ترتيب الأشياء والكلمات .. والعادات اللغوية ..

لا بدّ أن ترمي حجراً في بئر الكلام العادي ..
وتحدث اضطراباً في الأبجديّة .. وتبعثر أوراقَ الروزنامة ..

القصيدة الجميلة هي انتظارُ ما لا يُنْتَظَر ..

وبغير هذا العنصر التشويقي ، تصبح القصيدة ضيفاً ثقيلاً يأتي ليتناول العشاء ، معنا كلّ ليلة في الساعة الثامنة ..

إن الشعراء المدهشين ، كأبي نواس ، ورامبو ، وبودلير ، والمتنبي كانوا لا يجيئون أبداً إلى العشاء .. وإذا جاؤوا، فبعد شهورٍ أو أعوامٍ من وضع المائدة ..

وكما في النساء .. كما في الشعر ..

فالمرأةُ التي وعَدَتْ ولم تحضُرْ .. أجملُ بكثير من امرأةٍ وَعَدتْ .. وحَضَرتْ ..

وكذلك القصيدة التي تتركني غارقاً في دم دهشتي .. هي أهمّ بكثير من القصيدة التي تأتي .. وهي تلبس في معصمها ساعة سايكو ..

« نزار . أما انتهى نهمك الى الكتابة ؟

ـ عندما يتعلّق الأمرُ بوظيفةٍ لا إراديّة . كالدَوْرَة الدمويّة . والتنفّس . والجوع والعطش ، فإنَّ الإنسان لا يملك السلطة ولا القدرة على إيقافها ..

وشهوةُ الكتابة هي إحدى هذه الشهوات الجامحة . الجارحة ، التي لا يمكن للكاتب أن يُقْلعَ عنها . كما يقلع عن تدخين السجائر ، ومعاقرة الخمرة . أو معاشرة النساء ..

الكتابة تُغيِّرُ تركيبَ الدم ...
تجعلهُ من فئةٍ نادرة لا تُشْبِهُ فئات الدم الأخرى .
تجعل دَمَنا بنفسجياً .. أو برتقالياً .. أو ذهبياً ..
أو تجعله أشبه بماء الورد ، حسب كميّة العشق الموجودة فيه ..

ومن المستحيل ، واقعيّاً ، وشعرياً ، وطبيّاً ، على أيٍّ شاعر ، أن يغيّر تركيبَ دمه ، ويجعله ماءً مقطَّراً .. كماء إيفيان وفيشي ..

إنّني لا أستطيع أن آخذ إجازةً من دمي ومن شعري إلى إذا صار دمي ماءً ...

لا أستطيع أن أُقنعَ طِفْلَ الكتابة أن يخرج من الغرفة .. ويلعب في الشارع ..

لا أستطيع أن أطرده ، لأنّني بغير ضوضائه ، وفوضاه ، ونزوات التحطيم والتخريب لديه .. لا أستطيع أن أعيش ..

لهذا ترونني باقياً في الكتابة .. ومتشبثاً بالوَرَقَة كما يتشبث الرضيعُ بثدي أمه ..

فحين يموتُ حَمَاسُ الكاتب ، وتعجز شهوتُه عن اقتحام الورقة ، فهذا معناه أنه أصيب (بالعِنَّة الكتابيَّة) . وعندئذ لا يبقى منه جدوى ولا نفع لإبداع شيء ما ..

أو لإنجاب شيء ما ...

بالنسبة لي لا تزال شهوتي للكتابة شهوةً مفترسةً .. ولا أفكّر في اتباع (ريجيم) خاص ، يوقف شهيّتي للشعر .. أو شهيّتي للحبّ ..

يقول القدّيس يوحنا :

« إن علينا جميعاً أن نكون رجال رغبة .. أي رجالاً لا يكتفون » .

وأنا من حزب القدّيس يوحنا .. أي من حزب الرجال الذين لا يكتفون .

ماذا يعني الإكتفاء في الشعر ؟

إنه يعني أن تكون بنصف معدة .. أو بنصف شهوة .. أو بثلاثة أصابع .. أو بربع قلب ..

كلمة إكتفاء مقترنة بذهني بكلمة فَقْر دم .. أو ببطاقة التموين التي توقفك في الطابور عشر ساعاتٍ ، للحصول على فخذ دَجَاجة ..

في الشعر ، لا يمكن تطبيق نظام التموين والتقشُّف وشَدّ الحزام . فإمّا أن أحصل على دجاجة كاملة ، وإما أن أشنق نفسي ..

عندما رأيت فيلم (الفكّ المفترس) أعجبتُ كثيراً بهذا الحوت الهائل الذكي ، المفتوح الشهيّة . الذي يبتلع البحر ، والمراكب ، والسابحين ، وغالونات البنزين الفارغة ، ويلتهم بقابلية مدهشة جميع مُشتقّات اللون الأزرق ..

وفي لحظة من اللحظات ، تمنّيت أن أكون الحوت (جوز) الذي لا حدود لشهوته .. أو لشاعريّته ..

فيما يتعلق بالإكتفاء ، ليس كلّ الرجال متشابهين ، فمنهم من يكتفي برضاء ربه .. ومنهم من يكتفي برضاء رئيسه .. ومنهم من يكتفي برضاء زوجته ..

أما الشاعر ، فهو طفلٌ يريد أن يمتلك كلَّ الأشياء الممكنة وغير الممكنة . وحتى حين تدخل الأشياء في حوزته ، فإنّه سرعانَ ما يضجر منها .. ويتجاوزها

إلى جُزُرٍ خرافيّة لم يكتشفها بعد ..

إنَّ الشاعر هو رجلُ القناعاتِ التي لا تقتنع ..
ورَجُلُ الأسئلة التي لا أجوبةَ لها ..
إن أهميّتَهُ تكمن في قدرته الدائمة على الضَجَر ..

35

ما هي شروط الحداثة في الشعر ؟.

وهل تعتقد أن الانفتاح على تيّارات العصر وحده كافٍ لخلق الشاعر العظيم .. أم أنّه لا بدّ من قتل القديم نهائياً ؟

ـ خطأٌ كبير أن نتصوَّر أنَّ الحديث لكي يكون حديثاً ، لا بدَّ له من ارتكاب جريمة قتل .. ضدَّ السابق له زمنياً ..

فمثل هذا التصوّر ، سيجعل التاريخَ مقبرةً .. أو مذبحةً .. ولا ينجو في النهاية أحد ..

إن الحداثةَ طابورٌ طويل جداً ، يقف فيه الشعراءُ في أمكنتهم التي يحدّدها التاريخ . ولا يمكن في هذا

الطابور أن (يطْحَش) أحدٌ على أحد .. أو يأخذ أحدٌ مكانَ أحد .. لأن التاريخَ يراقب الطابورَ جيداً . ويعرف مراتب الشعراء جيداً . ولا يسمح لأحد بالغشّ والاحتيال ..

الشاعر العظيم لا يأتي من العدم ، ولا من المصادفة . فالمصادفات قد تحدثُ على طاولة القمار ، ولكنّها لا تحدث في الشعر ..

وليس الشاعر هو الذي يقرِّر أنّه عظيم .. أو حديث .. أو خطير .. فعظمة الشاعر ، أو حداثتُهُ ، أو خطورتُهُ ، يقرّرها الوجدانُ العام ، وتحكم فيها محكمةٌ شعبية لا تقبل الرشوة ولا الابتزاز .

هذه المحكمةُ الشعريّةُ الشعبيّة ، هي وحدها التي تستطيع أن تأخذَ الشاعرَ الى المجد .. أو تأخذه إلى السجن ..

• ما رأيك بقصيدة النثر ، وبما يقال من أنَّ لها جذوراً في التراث العربي القديم . كيف تنظر إليها في الحاضر والمستقبل ؟

ـ قصيدة النثر هي مصطلحٌ جديدٌ لمفهومٍ قديم .

إنّها موجودة منذ أن أدرك الإنسان ، أنّ العبارةَ الواحدةَ ، يُمكن أن تُقال بعشرات الصيغ ، ولها عشرات الإحتمالات .

إحتمالاتُ الكلام لا نهائيّة . ومن هذه الاحتمالات (قصيدة النثر) التي نجد لها أصولاً في الكُتُب المقدّسة ، كما في سُورة (مريم) ، وسُورة (الرحمن) ، وفي قصار السُوَر القرآنيّة ، كذلك نجدها في نشيد الإنشاد ، وفي المزامير .

إنّني شخصيّاً لا أجد قصيدةَ النثر غريبةً عن ميراثنا ،

ولا عن ديناميكيّة اللغة العربية ، التي تتفجّر بملايين الاحتمالات .

وفي هذا العصر المتطرّف في ليبيراليته ، وغضبه ، وتطرّفه ، ومللِه ، وتحوّلاته ، تبدو قصيدةُ النثر ، وكأنّها الجوابُ المناسب لما يريد العصر أن يقوله ..

ومع كل التحوّلات والخَضّات والزلازل ، التي يتعرّض لها الفكر العربي في هذه الحقبة ، أتوقّع أن تكون قصيدة النثر هي قصيدة المستقبل .. لأنها الأشجع .. والأكثر حريّة ..

37

• حديثك عن قصيدة النثر ، يغري الجميع بطرق أبوابها ، وبخاصة طلاب المدارس الثانوية . ألا تخشى من إعطاء هذه الفتوى على مستقبل الشعر العربي ؟

ـ مستقبلُ الشعر العربي يكون بدخول المغامرة ، لا بالجلوس في (مقهى تنابلة السلطان) ...

كلُّ عملٍ عظيم كان في الأساس مغامرة .

النُبوءة مغامرة ، والثورة مغامرة ، والحبّ مغامرة ، واكتشاف أميركا مغامرة .. وهبوط الإنسان على سطح القمر مغامرة .. وكتابة القصيدة ، بشكلٍ مختلف ، هي مغامرة المغامرات .

إنّني لا أخاف على القصيدة من الخروج في الليل وحدها .. ولكنني أخاف عليها من الجلوس خلف الأبواب المغلقة .. إلى أن تصبح (عانساً) ..

إنّني ضدّ (سجن القصائد) .. مثلما أنا ضدّ (سجن النساء) ..

القصيدة يجب أن تُعطى حرية التجوّل .. لأن وضع رجليها في (حذاء صينيّ ضيِّق) على نحو ما يفعل الصينيّون بأرجل بناتهم .. فيه تشويه لأنوثة الأنثى ، ولأنوثة القصيدة ..

إن الحريّة لا تخيف . ولكن العبوديّة وحدها هي

التي تخيف ..

ثم إن بعض الشعوذات الشعرية التي تظهر من حين إلى آخر .. وبعض المشعوذين الذين يظهرون على الأرض كالطحالب ، ليست سبباً كافياً للتشكيك بالحرية .. أو لإعلان الأحكام العرفيّة في وجه كل كلامٍ جديد .. فالأحكام العرفيّة في الأدب هي دائماً ضارّة .

إنّني لا أسمح لنفسي ، ولا أستطيع ، أن ألغي بمرسوم (قصيدة النثر) لأنها بِدْعَة .. أو (تقليعة) .. أو شَكل طارئ وهجين .. لم يعرفه تاريخنا الأدبي ..

إن تاريخنا الأدبي لم يعرف المسرح ، ومع ذلك لم يقل أحد أن المسرح العربي الذي نشاهد ، هو مسرح طارئ وهجين .. وليس له سابقة في تراثنا .

والرسم والنحت اللذان اقترنا دائماً في المخيّلة العربية بالحرام والكفر .. لم يعودا اليوم كفراً .. ولا حراماً ..

فلماذا نعتبر قصيدة النثر خارجة على القانون ؟

قد يكون ثمة اعتراض على تسميتها .. ولكن ماذا تهمُّ التسميات ؟

المهمّ أنَّ شكلاً من أشكال الكتابة قد انتشر ، وصار له كتّابه وقراؤه .

إنّ الأرض تُطلع فصائل من النباتات ، والأزهار ، لا أحد يعرف أسماءها ، ولا ظروف تكوّنها . ولا خصائصها العضويّة . ومع هذا لا تعترض الأرضُ عليها . ولا تحتجّ . وانّما تتركها تواجه حياتها وقدرها . فإذا استطاعت الملائمة مع التربة والمناخ ، بقيت واستحقت حياتها .. وإذا فشلت في التكيّف .. ماتت ..

إنّني لا أستطيع أن أدين قصيدة النثر ، لأنَّ ليس لها ما يشبهها في الأدب العربي .

إنّ نظرية (التشابه) هذه تجعل الأدب مصنعاً كمصانع النسيج . أو السيارات ، أو الأدوات المنزلية .. تخرج ألوف السلع المتشابهة .

الإبداع هو الخروج من التشابه . والقصائد العربية لا يمكن أن تظل إلى أبد الآبدين تُسحب على آلة (الستنسل) .. كالبلاغات الحكومية .. والنشرات التجارية ...

إن قصيدة النثر .. هي قصيدة رفضت المرور على الآلة الناسخة .

وأنا أحترمها من أجل ذلك .

إن نُبوءتي عن مستقبل قصيدة النثر ، تنسجم مع الطموحات الثورية للإنسان العربي . فكما بدأ الإنسان العربي يتململ من شروطه الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، فمن الطبيعي أن يتململ من شروطه اللغوية .. والتعبيرية ..

إن الكتابة على البحر الطويل لا تعني أنني مع القومية العربية .. وكتابة القصيدة الحرّة أو النثرية .. لا تعني أنني ضدّها ..

فكم من قصيدةٍ موزونةٍ ومقفاةٍ كانت مؤآمرة حقيقية على الوطن .. وكم من قصيدةٍ حرّةٍ أعادت إلى الوطن اعتباره ..

إن القومية الحقيقية هي قوميّة الخَلْق والإبداع . المبدع هو الوطنيّ الحقيقيّ . والخائن هو الذي يكتب قصيدة خنفشارية .. ولو كتبها عن قضية فلسطين ..

38

* موسيقى الشعر .

موسيقى الشعر هي البحر بشكله المطلق . أو الماء بشكله المطلق .. والأوزان هي عناصر في تركيب الماء .. وليسَتْ كلَّ الماء ..

موسيقى الشعر . هي شيءٌ أكبر من الوزن والبحر والقافية .

والذين يتصوَّرون أن علم العروض . هو ضابط الإيقاع الذي لا يتعَب ، ولا يشيخ .. ولا يتقاعد ..

ولا يَسْمَح لأيّ من الموسيقيين أن (ينفرد) أو يجتهد .. أو يتجاوز النغمة الأساسية . يريدون أن تبقى موسيقى الشعر العربي في مرحلة الـ (دُومْ ـ تاكْ) .. أي مرحلة التَخْت الشرقي .

ومثلما هناك ألوفُ الجُمَل الموسيقية التي تنتظر من يقولها . كذلك هناك ألوفُ الجُمَل الشعرية التي تنتظر من يكتبها ..

وكما للفقهاء حقّ الاجتهاد . فإن للشعراء أيضاً مثل هذا الحقّ .

وليس الشعر الحديث في نظري سوى مجموعة من الاجتهادات . أغنت الشعر العربي وجمّلته . وأنقذته من الإقامة المؤبدة داخل الجملة الموسيقية الواحدة .

إن القصيدة الحرّة هي اجتهاد . وقصيدة التفعيلة هي اجتهاد . والقصيدة الدائريّة هي اجتهاد .. وقصيدة النثر هي اجتهاد . ولا يجوز لنا أن نُطلق الرصاصَ عليها

بتهمة الخيانة العظمى ، أو بحجَّة أنها تقول كلاماً ليس له سَنَدٌ أو شبيه في كُتُب الأوَّلين ..

إن من مصلحة القصيدة العربية أن تترك باب الاجتهاد مفتوحاً .. وإلا تَحوَّلتْ إلى قصيدة فاشستية .. أو إلى قصيدةٍ من الخشب ..

عندما أقرأ شاعراً من الشعراء ، فإنّني لا أهتم بما يقوله ، بقدر ما أهتم بـ (كيف) يقوله .

فكلّ شعراء العالم ينفعلون بذات الطريقة ، ولكن كلّ واحد منهم (يعرض) انْفِعَالَهُ بطريقته الخاصّة .

إنَّ فنَّ الشعر هو أولاً وأخيراً (طريقة عَرْض) . والشعراء الذين لفتوا نظر الدنيا إلى شعرهم ، هم الشعراء الذين عرضوا عوالمهم الداخلية ، بطريقة متفرّدة واستثنائية .

39

• وماذا عن الوزن والقافية .. هل إلغاؤهما ممكن ؟

كنتُ دائماً أشبّه القافية بالإشارة الحمراء .. التي تفاجئ السائق ، وتضطرّه إلى تخفيف السرعة ، أو التوقّف النهائي ، بحيث يعود محرك السيّارة إلى نقطة الصفر .. بعد أن كان في ذروة اشتعاله واندفاعه ...

ومثل هذه الوقفة المباغتة وغير المتوقّعة ، تؤثر بغير شك على حركة السيّارة ، وأعصاب السائق ، وسلامة المسافرين ..

هذا لا يعني أنّنا نطالب بإسقاط القافية أو إلغائها ، وإنما نرى أن تكون القافية موقفاً اختيارياً .. فمن أراد أن يتوقّف عندها ، فله ذلك ..ومن أراد أن لا يتوقف ، فبإمكانه أن يواصل رحلته .. ولن يأخُذَهُ أحدٌ إلى السجن ...

المهمّ أن يكون ثمّة (تعويضٌ موسيقيّ)للفراغ الناشيء عن الغاء الوزن والقافية . فإذا استطاع الشاعر أن يقدم هذا البديل الموسيقي ، فسوف نصغي إليه بكلّ خشوع واحترام .

نحن لسنا متمسّكين بالنموذج الموسيقي التاريخي .. ولا (بالطرب التاريخي) ..

الميكروفون في يد الشاعر..

ولا شروط مسبقة مفروضة على حرّيته .

كلّ ما نطلبه منه أن يقنعنا بأنه يغنّي بصورة جيّدة .. بصرف النظر عن الطريقة التي يغنّي بها ...

إن العصافير لا تتقيّد بالنوتة الموسيقية المكتوبة . ولا تلتزم بمقامٍ واحد ، وإنما تُدَوْزِنُ حناجرَها حسب ظروفها الحياتية .

فلماذا لا يكون خيار الشاعر كخيار العصفور؟ .

• ما هي المخاطر التي تهدّد القصيدة العربية الحديثة برأيك ؟

الخطر الكبير الذي يهدّد القصيدة الحديثة هو العشوائية والمجانيّة وعدم التخطيط...

إن الحداثة صارت مثل سفينة نوح ... من كثرة تشابه الأجناس .. وتداخل الأصوات ..

إنّني أقرأ كلّ ما يقع في يدي من شعر حديث ، ولكن لم تتشكّل عندي القناعة الكافية ، بأنّ هذا الشعر هو الشعر المطلوب لتأسيس المستقبل العربي .

إن شعراء الحداثة أرادوا أن يُخلّصوا الشعر من التناظر والتكرار ولعبة الخطوط المتوازية ، فوقعوا في ذات المأزق . إنّهمْ يتشابهون أسلوباً ولغةً وأداءً كما يتشابه عشرون توأماً نزلوا كلّهم من بطن واحد .. فإذا قرأت لواحد منهم أغنَتْكَ قراءتُكَ له عن قراءة الباقين ...

فكأنّما الشعر الحديث كلُّه هو قصيدةٌ واحدة ؟ . يوقِّعها مئة شاعر ، كما يوقّعون البيان الختامي لمؤتمرات الأدباء العرب .

وهذه ظاهرة خطيرة لم تحدث حتى لشعراء القصيدة العمودية ، حيث كان لكلّ شاعرٍ مذاقُهُ ورائحتُه ، وإيقاعُهُ الخُصُوصيّ ، فالمتنبي كان متفرّداً .. والبحتري كان متفرّداً .. ولم يحدث في أيٍّ عصر من عصور الشعر العربي أن لبس جميع الشعراء بيجاما واحدة .. وناموا كلهم في سرير واحد ... وشربوا كلهم من (بيبرونة واحدة) كما يحدث لشعرائنا اليوم ...

الخطر الأكبر الذي يحيط بالقصيدة العربية ، هو أن تقطع جذورَها نهائياً مع الأصول الشعريّة العربية . وتصبح طفلاً بلا نسب ..

إن بعض شعراء الحداثة ، يطالبون بصراحة بإسقاط الماضي ، واعتبار تاريخ الشعر العربي كلّه ،

مجموعةً من الخرائب والأنقاض لا قيمة لها ...

وهذا كلامٌ سائب . لأن التجديد ليس انقلاباً عسكرياً يلغي كل ما سبقه بمرسوم . فالشعرُ هو نهرٌ عظيم يتدفّق من الأَزَل إلى الأبد .. ويتّصل مصبُّهُ بمنبعه .. وليس في العالم نهرٌ له مصبٌّ ، وليس له منبع ..

والخطر الثاني الذي يحيط بالقصيدة العربية ، هو أنها قطعت جسورها مع الجمهور العربي .. واختارت المنفى ..

إنَّ الشعب العربي ، خارجٌ لتوه من سراديب التخلّف والسحر والشعوذة .. وعلى الشاعر العربيّ في نظري أن يساعد على إضاءة الطريق وجعل الشعر شمساً تشرق على كلّ الضائعين .. والخائفين .. والمُسْتَلَبين ... والمعذَّبين في الأرض ...

ولعل الظاهرة اللافتة فيما يحدث على أرض الشعر ، هو أنّه للمرّة الأولى في تاريخ الشعر العربي ، تنقطع

العلاقات المميَّزة بين الشعر العربي والجمهور العربي .. ويديرُ الجمهورُ ظهرَهُ للشاعر بعدما تعايشا طوال خمسة عشر قرناً .

41

• الشعر العربي في أزمة ـ أو في ورطة . ماهو في رأيك سبب هذه الأزمة ، وكيف يخرج الشعر العربي من المأزق ؟

ـ الشعر العربي واقع في أزمة ثقة مع الناس ..

فقد رمى نفسه من الطابق التاسع والتسعين للقصيدة القديمة .. ولا يزال عالقاً بين السماء السابعة .. والأرض .

أَفْلَتَ رِجْلَيْهِ عن حافة الشرفة العتيقة .. ولم يجد أي شرفة بديلة يتعلّق بها .

كلّ هذا يجري والناس (الذين تحت) يضحكون .. ويُصَفِّرُون .. ويطلقون النكات على هذا المجنون الهابط

عليهم من كوكب لا يعرفونه .. والذي يتكلمُ بلسان لا يعرفونه ..

إنني لستُ ضدَّ الجنون والمجانين . فالجنون والإبداع قد يلتقيان .. ولكنني ضدّ القفز من نوافذ التاريخ دون مظلةٍ .

لا أحد يستطيع أن يفرض على الشاعر الإقامة الجبرية في حجرة طولها متر .. وعرضها متر .. ولا أحد يطلب من الشاعر أن يظلّ مسجوناً داخل قضبان القصيدة العمودية .. ولا أحد يطلب منّا أن نلبس عباءة الفرزدق ، ونتجوّل بها في شارع الحمراء ..

نحن لسنا تاريخيين ولا من المنقِّبين عن الآثار . ولكننا نطلب من الشاعر أن يكون متفاهماً معنا على الحدِّ الأدنى المطلوب في فنّ الشعر .

نطلب منه أن يكون صديقنا ، وشريكنا ، والناطق الرسمي باسم أفراحنا وأحزاننا ..

نطلب منه أن يكون (معقولاً) حين يخاطبنا ، كما نحن معقولون حين نستمع إليه ..

نطلب منه أن يكون (ديمقراطياً) في جلسته .. وديمقراطياً في لغته .. وديمقراطياً في أسلوبه .. فلا مستقبل لشاعر يمارس الديكتاتورية والإرهاب اللغوي على من يقرأونه ..

نطلب من الشاعر الحديث أن يكون (طبيعياً) ، لأن النتاج الشعري الذي نقرؤه اليوم ، هو ضدّ الطبيعة .. وضدّ الناس .. وضدّ نفسه .. وضد النظام الشعريّ ..

أقول (النظام الشعري) لأن أي حركة ليس لها نظامها الخاص ستنتهي لا محالة إلى السقوط . وليس صحيحاً أن حركة الشعر الحديث هي ثورة ..

إن أيّ ثورة حقيقية تحمل نظامها معها .. وإلا كانت ثورة سائبة .. أو فالتة ..

والثائر الحقيقي ، سواء كان ثائراً سياسياً أو ثائراً

أدبياً .. لا بد أن يحمل تصوّراً لشكل المستقبل . لأن كلّ شكل هو نظام .. وبغير هذا النظام تصبح الثورة والقصيدة عملاً من أعمال الفوضى ، والتسيّب ..

42

عن القراءات الشعرية

عندما أُلقي شعري ، يقرع قلبي بعنف ، كما تقرع الطبولُ في الأدغال الإفريقية .. وينتابني وَجَعُ السيف الخارج من غِمْدِهِ .. وَوَجَعُ الغيمة الحبلى قبل أن تُمطر ..

عندما أقرأ شعري ، تتغيَّر فصيلة دمي ، ويصبح قلبي أكبرَ من كلّ الكواكب في المجموعة الشمسيّة .. وتصبح مساحةُ يدي خرافيّة الأبعاد ، كمساحة الحزن ، أو كمساحة الحريّة .

عندما أقرأ شعري ، أُصبح إنساناً لا ينتمي إلى

كوكب معيّن .. أو جنسٍ معيّن .. أو حقبة حضارية معيّنة ..

أصبحُ كلّ الحضارات وكلّ الأجناس .

كلَّما ذهبت لألقي قصائدي في مكانٍ عام ، أشعر أنني أعيد كتابتَها للمرَّة الثانية .

إنّني لا أقرأ نصَّاً ، بقدر ما أخترعُ نصَّاً ..

ولا أُكرِّرُ حالةً ، بقدر ما أَستَوْلِدُ حالة ..

من هنا يصبح إلقاء الشعر عملاً إبداعياً ... ورَسْماً بالإشارة والصوت .

فالقصيدةُ المكتوبة على الورقة شيء .. والقصيدةُ المكتوبةُ على جسد الناس شيءٌ آخر ..

القصيدةُ ، قبل أن تلاقي الناس ، ضفدعةُ اختبارٍ ميّتة ، وما أن تلاقي الناس حتى تدبّ الحياة في أطرافها . وترتعش ، وتقفز إلى الماء ..

عندما أكتُبُ القصيدةَ . وأنا جالسٌ في مكتبي .
أشعر أنني مركبة فضائيّة تسبَحُ خارجَ جاذبيّة الأرض .

وعندما أصطدم بالبشر . أعود إلى حقيقتي .
ويتحدّد موقعي على خارطة الزمان والمكان ..

القصيدة . قبل قراءتها . قَمْحَةٌ محبوسةٌ في داخل جَارُور . وحين نزرعها تحت جلد الآخرين . تصبح سنبلةً .. ورغيفَ خبز ..

*

إنّني أحبّ قاعات الشعر عندما تضيق ..
الحبُّ . والشعرُ . لا يرتاحان إلّا في الأمكنة الضيّقة .

في الأمكنة الضيّقة تصبح الجدران أكثرَ اقتراباً .. وخشب المقاعد أكثرَ شباباً .. وتأخذ الكلماتُ أشكالاً خرافية .. وعيونُ حبيباتنا أبعاداً خرافية ..

في الأمكنة الضيّقة أرى صوتي .. أُعانِقُه .. أشمُّ رائحته ..

وفي الأمكنة الضيّقة . تتغيّر هويّة الأشياء ..
تصبحُ يدُ حبيبتي مكانَ يدي .. وفمها كتاباً أقرؤه قبل أن أنام .. ودبّوسُها المنسيُّ على الطاولة . حَمَامةً لا تريد أن تطير ..

*

الأُمسيةُ الشعريَّة هي صورة شعاعيَّة . نعرف منها أننا لا نزال على قيد الحياة .. وتخطيطٌ كهربائيّ يثبت أن قلبَنا يضرب بصورة منتظمة .. ولا يضرب في العدم أو في الفراغ .
الامسيةُ الشعرية . تقريرٌ طبّيّ . نحصل عليه ممّن حضروا أمسيتنا .. ونطمئن منه على صحّتنا .
والشعراء الذين يخافون الذهاب إلى الأطباء . ويهملون إجراء الفحوصات العامة . ويرفضون قياسَ ضغطهم . أو تحليلَ دمهم .. يبقون طول العمر فريسةَ القلق والوساوس .

الأمسية الشعرية هي المختبر والإختبار ..
وبه نعرف أن دمنا الذي سفحناه على ورقة الكتابة .
هو دم حقيقي ، لا بقعة كوكا كولا ..

الأماسي الشعرية ، هي المرايا التي يرى فيها الشعراء وجوههم ..

إن المرايا ليست اختراعاً نسائياً . وليست المرأة وحدها هي التي تستفيد من استعمال المرآة . فالشاعر بحاجة إلى عيون الناس ليرى فيها وجهه الحقيقي بغير طلاء وبغير مساحيق ..

وعندما تتكسَّر مرآةُ الشاعر .. يفقد القدرة على معرفة مكان أنفه .. وشكل فمه .. ولون عينيه ..

٭

بعد أربعين سنة من العمل الشعري ، لا أزال أدخل إلى قاعات الشعر ، بانفعالات تلميذ يدخل قاعة الإمتحانات ..

لا تزال القشعريرةُ إيّاها .. وجفافُ الفم إيّاه .
وتَسَارُعُ ضَرَبات القلب إيّاه ..

بعد أربعين سنة مع الشعر ، لم أستطع أن أقهر انفعالاتي ، وأنظّم ضربات قلبي ، وأتصرّف بوقار عميد جامعة ..

هذا وَجَعٌ إنسانيّ لا يمكن مداواته . ولا أعتقد أن أيَّ فنّان في العالم يمكنه أن يستخفّ ، أو يلغي من حسابه لحظة المواجهة الأولى .

إنَّ أمسياتي الشعرية ، لا تنتهي بالغرور أو الغطرسة كما تتصوّرون ، وإنما تنتهي بالبكاء ..

في أعقاب كلّ أُمسية شعريةٍ ناجحةٍ .. أذهب إلى سريري .. وأبكي ..

وربّما كانت دموعي هي الرسائل السرّية التي أبعث بها إلى تلك العيون الطيّبة ، التي لا أعرف أصحابها ..

ولا أعرف أسماءهم .. ولكنني أعرف أنّهم صنعوا من أهدابهم عباءة الشعر التي ألبسها .

في نهاية كلّ أمسية شعرية ، لا أنفشُ جناحي كديك . وإنّما أسأل الله ، أن يقوّيني ، ويشرحَ لي صدري . ويحلَّ عقدةً من لساني .. لأكون في المرة القادمة أكثر اقتراباً من هموم الناس . وأدق ترجمةً في نقل أصواتهم ..

43

الجمهور ... الجمهور ... الجمهور

الجمهورُ العربيّ هو عاري الجميل .

هو تهمتي الكبرى التي أزرعها في عُرْوَة سترتي كالوردة . وأتبختر كطَاوُوسٍ إفريقيّ ..

إنني متّهم بأنّي أقيم علاقات جيّدة جداً معه ..

ومتّهم ـ وهذا هو أخطر الاتهامات ـ بأنني أكتب كلاماً يشبهه ..

إنّـني لا أروي لكم نكتة .. ولكن هذا بالضبط ما يُقال عنّي . في مقاهي الثقافة ..

وإذا لم أكتب كلاماً يشبه الشعب العربي .. فهل أكتب كلاماً يشبه شعب تنزانيا .. وموزنبيق .. ومنغوليا .. وفولتا العليا ؟

الجمهور ليس سجناً .. ولا مشنقة .. ولا معسكر اعتقال ..

إنه حصانٌ عربيّ ذكي .. إذا عرفنا كيف نتعامل معه ربحنا السباق ، وإذا لم نفهم طباعه ، رمانا على الأرض وداس علينا ..

الجمهور كلمة لا ترعب إلا المرعوبين .. ولا تعقّد إلا المعقّدين ..

والشعراء الذين سقطوا في انتخابات الشعر ، مثل السياسيين الذين سقطوا في الانتخابات العامة ، لا يجدون تفسيراً لسقوطهم سوى اتهام الحكومة بالتزوير .. والجمهور بالغباء ..

والحقيقة أن الجمهور العربي ليس غبيّاً ... ولا متخلّفاً ..

ولكن الشاعر العربي الحديث هو الذي أضاعَ قدرتَهُ على التفاهم مع عصره .. أضاع كلمةَ السرّ ،

فأقفلت المدنُ العربيّةُ أبوابها بوجهه ..

لا يزال (الجمهور) مصدر راحة لبعض الشعراء .. ومصدر ذعر لبعضهم الآخر. فالشعراء الذين لهم جمهورهم يعتبرون الأمر طبيعياً. والذين ليس لهم جمهور .. يعتبرون الأمرَ رذالةً وقِلّةَ أدَب ..

الشعراء الناجحون لا يفتحون فمهم ، والشعراء الكاسدون يُرجعون سبب كسادهم إلى رداءة الجمهور ، لا إلى رداءة بضاعتهم .

والحقيقة أنه ليس هناك جمهور شعريّ .. وجمهور لا شعريّ ..

وانما هناك شاعرٌ يلعب لُعْبَةَ الشعر بشكل أُصوليّ ..
وشاعرٌ يغشّ في وَرَق اللعب .
هناك شاعرٌ يسافر آلاف الأميال ليلتقي بالآخرين ..
وشاعرٌ لا يستطيع أن يغادر الورقة التي يكتب عليها ..
هناك شاعر يمارس السباحة في عرض البحر ..

وشاعر يغرق في نقطة حبر ..

هناك شاعر يختار الزواج من العالم ..

وشاعر يختار أن يموت على دفاتره وحيداً .. فلا يبكي عليه وَلَد .. ولا يمشي في جنازته أَحَد ..

هناك شاعرٌ يُعجبُه التَوالُدُ والإخْصَاب .. وشاعرٌ يفضّل العقم على كثرة الأطفال . والجمهور في معناه الحقيقي ليس سوى مجموعة الأولاد الذين يأتوننا عن طريق الشعر .. فيحملون إسمنا .. ويضمنون استمرارنا في الزمان والمكان ...

إن الشعر ، بأبسط معانيه ، هو صيغة لغوية نتفاهم بها مع الآخرين ..

قُبْلَةٌ .. لا بدَّ لتنفيذها من وجود طَرَفَيْن ..

وكما أنه من المستحيل على الإنسان تقبيل نفسه . فمن المستحيل على القصيدة أن تمارس الحبَّ مع نفسها ..

وإذا قلنا أن الشعر هو لغة ، فمعنى ذلك أنه لا

بد من وجود عدة أطراف لتتكوَّن اللغة .. إذ ليس هناك لغة في العالم يتكلّمها شخص واحد فقط ..

حتى لغة الطير ، والنحل ، والضفادع النهريّة .. وصراصير الغابة ، لا تكتمل إلا بالشرط الإجتماعي .

إنَّ الجمهور هو (الكرونومتر) الذي من دونه يتعذَّر على الشاعر أن يحدِّد موقعه من العالم ومن الزمن . ولا يعرف اذا كان موجوداً في القرن الأول للهجرة .. أو في القرن العشرين بعد الميلاد ...

٭

أرمي نفسي في ماء الجمهور ..
تَتشكَّل حولي دوائرُ من الذهب .. والياسمين ..
نسافر إلى ميناء البصرة شرقاً ، وإلى ميناء وهران غرباً ..

أغرقُ في دم الجمهور .. يغرقُ الجمهورُ في دمي ..

يصرخ زبائن مقهى الثقافة بعصبية ، ويقولون إنّني أدغدغ أحاسيس الجمهور ، وألعب على أوتار

تخلّفه .. وأقدّم له التنازلات ..

لا أهتمّ . وأواصل سفري نحو الشواطئ الأكثر شعبيّة ..

الشاعر الذي يقول لك إنه لا يحبّ النزول إلى المسابح الشعبيّة .. لأن الزحامَ مُزْعج .. والأطفال كثيرون .. والبحر ملوّث .. والكافيتيريا ليس فيها بيرة دانمركيّة مثلّجة .. إنما يكشف عن تخلّفه هو في فنّ السباحة .. لا عن تخلّف البحر ..

* * *

الجمهور العربي هو قدري .. كما أنا قَدَرُه ..

إنني لستُ ـ ولا أستطيع أن أكون ـ شاعراً إسكندينافياً ، ولا يعنيني أبداً أن يعطيني ملك السويد جائزة نوبل ..

الجائزة الكبرى يعطيني إياها هذا المواطن العربي الذي أكتب له دون أن أعرف اسمه .. تعطيني إياها أيّ

نخلة في الصحراء تعلَّمت مبادىء القراءة والكتابة على يدي ... ومبادئ العشق على يدي ..

الجائزة الكبرى تعطيني إياها أية امرأة .. هرَّبتُ إليها من خلال قضبان سجنها وردة، وحمامةً، وديوانَ شعر ..

لا أريد جوائز تقديرية من أحد ، ولا دكتوراه فخرية من أحد . فالجمهور العربي العظيم هو مكافأتي الكبرى ، وهو الذي يعطيني المناعة والقوة ، ويمنعني من السقوط جثة تحت أقدام أمير المؤمنين .

44

• أين أنتَ اليوم في شعرك الأخير ، من نزار قباني الأربعينات ؟ حدِّدْ لنا مسيرتك .

ـ لا يمكن قياسُ الزَمَن الشعريّ بمثل هذه البساطة ، وبالطريقة ذاتِها التي نقيس بها الأبوابَ والشبابيكَ والبلاط . الشاعرُ ليس بلاطةً .. ولكنّه موجةٌ تُلْغي

نَفْسَها باستمرار ، وحالةٌ لا تعترفَ بحالاتها السابقة .

تسألين عن نزار قباني الأربعينات ..

وأقول لكِ إنّني لم ألتقِ به منذُ الأربعينات .. ولم أجلس معه .. ولم أكلّمهُ منذ أن كان طالباً في كليّة الحقوق بجامعة دمشق ..

ولعلّكِ ستدهشين إذا قلتُ لكِ إنّني لم أشْتَقْ إليه ..

ليس هذا قلّة وفاء منّي .. أو قلّة إخلاص (لنزار قباني الآخر) .. الإخلاصُ الوحيد في الشِعْر هو لِلشِعْر نَفْسِه ..

وأنا ، وأقولُها بصراحة ، لستُ وفيّاً لقصائدي المُنْتَهِيَة .. فالأزمنةُ الشعريّةُ عندي ، تكسرُ بعضَها بوحشيّةٍ لا نظيرَ لها ..

كلُّ قصيدةٍ مكتوبةٍ ومنشورةٍ هي بالنسبة لي قصيدةٌ مفقودة ..

ومن أجل هذا أُعلن أنيّ شاعر لا ذاكرةَ له .

صعبٌ أن أقول لكِ أين أنا من نزار قبّاني الأربعينات..
فبيني وبينه ألوف من السَنَوات الضوئيّة ..
هو ذهَبَ في طريق ...
وأنا ذَهَبتُ في طريق ..
ملامحُنا اختلفت .. وعاداتُنا اختلفت .. وطريقةُ
كلامنا اختلفت .. وتناقضاتُنا ازدادت ..
هو لا يزال في مدرسة الفَرَح ، وأنا تخرّجتُ بتفوّق
من مدرسة الحزن ...
على كُلٍّ إذا قابلتِ نزار قباني الثاني .. فسلِّمي لي عليه .
أما عن مسيرتي الشعريّة ، فأهمُّ ما فيها هو أنني
أرسيتُ قواعدَ الديمقراطية في الشِعْر .. وأدخلتُ
الناسَ جميعاً في (تَعَاوُنيّة الشعر) ..

45

* هل تعتبر نفسك نجحتَ أو فشلت ؟

لستُ أنا الذي يجيبُ على هذا السؤآل ، ولكنَّ ملايينَ القراء العرب ، الذين أَحَبُّوا .. وتَزَوجُّوا .. وأنجبوا أولاداً على يدي .. أو على يد قصائدي .. هم الذين سيُجيبو نك .

بعد ثلاثينَ عاماً في المختبر .. ثبت لي أنَّ الحقيقة الشعرية ليست موجودة في الأنابيب .. ولا في الكيمياء .. وإنما هي موجودة في الإنسان ، وبكلمة أخرى إنّ الإنسان هو مصدر السُلْطَة الشعريّة ، يمنحُها من يشاء .. ويحجبها عمَّن يشاء ..

وانطلاقاً من هذا التصوُّر ، بدأتُ أعمل على تنقية أرض الشعر ، وتنظيفها من الحجارة ، والطحالب ، والمسامير ، والأملاح ..

وتدريجياً ، بدأَتْ ملامحُ الأرضِ تتغيّر .. وبدأ

الناسُ يأتون مع زوجاتهم وأولادهم ، ليقضوا عُطْلَةَ نهاية الأسبوع عندي ..

كانوا في البدء عشرة .. ثم صاروا مئة .. ثم صاروا ألفاً .. ثم صاروا مليوناً .. يحملون جميعاً جنسيّة (جُمهوريّة الشِعْر) التي أسَّسْتُها يوم كنتُ تلميذاً في الثانويّة في دمشق ..

هذه الجمهوريّة ، لا تطلبُ تأشيرةَ دُخولٍ من القادمين إليها .. ولا تفتِّشُ حقائبهم .. ولا تفرض الرسومَ الجمركية على زقزقة العصافير .

هذه الجمهورية الشعريّة المرفوعةُ الرايات . هي جُمْهُوريّتي ..

كلّ يوم أتفقد رعاياها ، من مياه شَطّ العرب إلى مياه المحيط الأطلسي ، حتى لأستطيع أن أدَّعي . أنّني تمكّنتُ من توحيد هذا العالم العربي (شعرياً) قبل قبل أن يتمكّن أيّ زعيمٍ عربيٍّ . من توحيده (سياسياً) .

° ° °

*** يلاحظ في مجموعتك الشعرية (إلى بيروت الأنثى .. مع حبِّي) نظرة سياحيّة تفتعل الحياد .. وتضع القاتل والمقتول .. الجاني والمجني عليه .. في سلَّة واحدة ..**

ـ هناك مقتولٌ واحد .. ومَجْنِيٌّ عليه واحد .. هو بيروت .

وأنا لستُ مدعيّاً عاماً ، ولا وكيلَ نيابة . لأنظِّم مِلَفّاً بالجريمة . إنّني شاعرٌ رأي مدينةً تُسْبَى .. وتُحرَق .. وتُذْبح بشكل عَبَثي ومَجّاني وغوغائيّ .. فصرخَ بطريقته الخاصة .

الصراخ لاجنسيّةَ له ...

لا يمكن أن يكون الصراخ يمينيّاً . ولا يساريّاً . ولا ليبراليّاً ، ولا ماركسيّاً ، ولا أميركيّاً ، ولا روسيّاً ...

وكذلك الدموع ، فهي لا تدخل في لعبة الأمم .

فالإنسان صرخَ قبل أن تكون الأحزاب والتنظيمات والميلشيات .. وسيظلُّ يصرخ دائماً أمام البربريّة والوحشيّة والبشاعة .

الرؤوسُ المقطوعة ليسَتْ تُفَّاحاً نُصنّفه إلى (غولدن) و (ستاركن) . والدمُ الذي سال ، ليس قابلاً للتصنيف إلى نَخْبٍ أول .. ونَخْبٍ ثانٍ .. ونَخْبٍ عاشر ..

فلا تطلبي منّي يا سيِّدتي تصنيف دموعي .. لأنّني لا أؤمن بدموعٍ تهطل في المصيطبة وبرج أبي حيدر .. ولا تهطل في الجمّيزة والأشرفيّة .

قد أكون سائحاً كما تقولين .. ولكنَّ تجربة الحرب . أثبتت أن (السيّاح) أمثالنا . كانوا أشدَّ وفاءً للبنان . وأكثر تَعلّقاً به من بعض من يحملون هويّته . إنّني أرفض أن تحدّدوا لي جغرافيَةَ حزني . فالحزنُ العظيم هو أن أكونَ مع العالم كله . لا مع أولاد حارتي فقط .

47

• اتّهمت بأنك تعاملت في مجموعتك الأخيرة مع بيروت تعامل البورجوازيّ . فلم تحاول أن تفهم ما حدث . إلّا من خلال ما حلّ بالمباني والأماكن الجميلة دون أي التفاتة إلى الإنسان الذي كان عذابه وألمه وفقره . بعض أسباب ما حدث ؟ ..

ـ كفى حديثاً عن « بورجوازيّتنا » .. فأنتم البورجوازيّون بالفِعْل والممارسة .. أما نحن فبورجوازيّون بالإشاعة فقط ...

إنّ ثلاثة أرباع الويسكي المسروقة في الحرب اللبنانية شربها (الثوّار) .. وثلاثة أرباع الخبز التي كانت تخرج من المخابز أكلها الثوّار ..

أما الفقراء الذين تدافعون عن حزنهم ومعاناتهم وانسحاقهم ، فلم يدخل عليهم أحدٌ خلال السنوات العجاف برغيف خبز .. ولم يتذكّرهم أحدٌ بقنّينة

ويسكي . ليغسلوا أحزانهم . لأنَّ الويسكي هو مشروب المنظِّرين والقادة . أما الفقير فلا يموت إلا صاحياً .

نرجو أن تعفونا من نصائحكم ومواعظكم .. فهذه اسطوانة حفظناها عن ظهر قلب ..

إذا كان الحديث عن منقوشة الزعتر (ثمنها ٥٠ قرشاً) وعن الكورنيش .. والأولاد الذين يبيعون عقود الياسمين . وأوراق اليانصيب . والعلكة .. هو في تصوّركم بورجوازيّة .. فما أعدل بورجوازيّتنا ..

إرجعي لمقدّمة كتابي (إلى بيروت الأنثى) يا سيّدتي . وسوف ترين أنني لم أكن عاشق حجر وكونكريت .. ولم أكن أبحث عن البنايات ولكن عن البشر الذين سقطت البنايات على رؤوسهم ..

إن (الخيمة) في الشعر العربي لا تعني نسيجاً من الوَبَر والصوف . وإنما كانت تعني الإنسان الذي يجلس تحت الخيمة . كانت تعني نسيجاً من اللحم والدم والذكريات

المشتركة بين الشاعر والأشياء ...

وما حُبُّ الديار شغفنَ قلبي

ولكنْ حُبُّ مَنْ سكَنَ الديارا ...

48

حين مات عبد الناصر ، رثيته .. ولم تندد بقتلته . وحين كتبت عن بيروت رثيتها وذرفت الدموع عليها . ولكن دمع من ؟ إذا كان دمع المحبّ . فهذا الدمع ليس كافياً . فإما أن تحبّ بيروت لأنها بيروت . وهذا حبّ غائم . وإما أن تحبّها لأنها بيروت الناس الذين شقوا وتعبوا وقتلوا من أجلها .. أو لأنّها بيروت الصالونات والمجتمع المخملي .. ما هو رأيك ؟

ـ مرةً أخرى أقول لك ، إنني لستُ مخفر بوليس لأطارد قَتَلة عبد الناصر .. وقَتَلة بيروت .

أنا لستُ (آغاتا كريستي) .. لأجمع البَصَمات ، وآخذ الإفادات ، وأستعمل الكلاب البوليسية .

أنا شاعرٌ مهمّته أن يقرع جرس الإنذار . ويسلّط الأنوار الكاشفة على مسرح الجريمة .

عبد الناصر قتله العرب (أنتم تعرفون ذلك وأنا أعرفه) .. وبيروت أيضاً ...

فيما يتعلّق بعشقي لبيروت ، أنا لم أتعود في حالات الحبّ الكبير ، أن أطلب من حبيباتي شهادة حسن سلوك مصدّقة من مختار الحارة .. ولا أسأل إذا كانت المرأة التي أحبّها مليونيرة .. أم على الحصيرة .. عاقلة أم مجنونة .. مسلمة أم نصرانية .. خرّيجة (المقاصد) أم خرّيجة (الليسيه) .. عذراء أم لها تجارب جنسيّة .. تُحبّ الشعر العربيّ ، أم تُحبّ الشعر الفرنسيّ .. تطرب لأم كلثوم ، أم تطرب لخوليو إيغليزيا ..

ما زلتُ أُحِبُّكِ يا بيروتُ المجنونَهْ

يا حقلَ دماءٍ وجواهرْ ..

ما زلتُ أُحِبُّك يا بيروتُ القلب الطيّب . يا بيروتُ الفوْضَى ..

يا بيروتُ الجوع الكافِر ، والشَبَعِ الكافرْ ..
ما زلتُ أُحِبُّكِ يا بيروتُ العَدْل ، ويا بيروتُ الظُلْمِ ،
ويا بيروتُ القاتلِ والشاعرْ ...

49

*** ألا تشعر أنك في بعض قصائدك تتنكّر للعروبة بحجّة أنها ممثلة فقط بتجّار النفط ، وتنسى العروبة بما هي الناس العاديّون ، والبسطاء ، والطيّبون ؟ .**

ـ العرب عربان ... عرب يحكمون . وعرب محكومون ...

والعرب المحكومون ، على طيبتهم وبساطتهم . لا يستطيعون أن ينتزعوا شعرةً واحدة من رأس السلطان . إننا نكذب على بعضنا إذا قلنا إن النفط في حياتنا لم يأخذ شكل القضاء والقدر .. وأنا يطيب لي أحياناً أنا أتحرّش بالقضاء والقدر ...

50

*** منذ بروز شعرك في الأربعينات ، برز كثير من الشعراء ، ما رأيك بآخر التطورات التي طرأت على الشعر ، وأين أنت الآن من هؤلاء الشعراء ؟**

ـ إنّني لا أقيس نفسي بأَحَد .. إنّني أقيس نفسي بنفسي .. أما الشعر الجديد فهو شعر مجتهد ومواظب .. ولكنّه لم يتخرّج بعد . وبانتظار تخرّجه ، أقترح على شعراء الحداثة أن يقللوا كلامهم عن الشعر . ويكتبوا شعراً ... فمواقف التنظير والتعليم والتفسير التي يقفونها . تُدخلهم في سلك الكَهَنة .. لا في سلك الشعراء ...

ومأخذي على الشعراء الجدد ، أنَّهم لم يدرسوا الأرض التي يقفون عليها .. فهم يستعملون اللغة بشكلها السريّ ... والغيبيّ والتجريديّ ، متناسين أن اللغة هي همزة وصل لا همزة قطع .. وأنها صَكّ زواجٍ مع الناس .. لا صكّ طلاق ...

إن ثمّةَ جداراً من عدم الثقة بين الشعر والبسطاء ...

أنتم دائماً تتحدثون عن البسطاء . في مناقشاتكم تتحدثون عن البسطاء . وفي تنظيراتكم . وصفحاتكم الثقافية . تختبئون خلفهم . ولكنكم في الواقع لا تفعلون لهم شيئاً . ولا تُضيئون شمعةً واحدة في ليل أحزانهم ...

إنّكم بصراحة تحتقرونهم ... وتتاجرون بدمعهم وفجيعتهم ..

إذا كان هذا عصر الاشتراكية . فهل الشعر الجديد هو شعرٌ إشتراكيّ .. ثم هل هو الشعر الذي يحتاج إليه المعذّبون في الأرض ؟ ..

لا أعتقد أنّ الشعر الجديد ـ رغم كثرة دعاواه ـ إشتراكي .

إنّه على العكس يُمثِّلُ أعلى درجات الإقطاع الفكريّ...

51

*** عدت للكتابة الصحافية .. هل هذا للتكسّب أم إرضاء لنزعة ؟**

ـ إنني لم أكتب في حياتي للتكسُّب .

الكتابة عندي مادّة نارية . إذا لم أُفَجِّرْها فجَّرتْني ..

52

*** المعروف أن فنَّ الخلق عند الشاعر يتعارض والاختلاق الأسبوعي للموضوع .. ألا ترى تناقضاً بين الانسياب في الشعر ، والافتعال في الكتابة المبرمجة ؟**

ـ ومن قال إنّني أتخلّى في نثري الذي أكتبه عن الشعر ؟

إن مقالاتي الأسبوعية تحمل كلَّ زَخْم الشعر . وكلَّ أسراره التكنيكية الصغيرة .. إنّني لا أكتب مقالات صحافية .. وإنما أكتب (قصائد صحافية) ...

53

• شعرك القديم كان أقرب إلى العفوية ، وشعرك الجديد فيه بعض الإفتعال . هل هذا صحيح ؟

طبعاً غير صحيح ...

فشعري القديم كان شعر النَمْنَمَات والزَرْكَشَات ..

أما اليوم فإنّني أكتب بذات السهولة التي أتنفسّ بها ..

54

• يكتشف من يغوص في شعرك ويتعمّقه ، أنك تعالج موقفك من الحياة بطريقة صوفية ظاهرها العبث ، وباطنها الإيمان . إنك تذكرنا بلوعة المتصوّفين وأشواقهم. ما رأيك ؟ .

ـ بين العشق والصُوفيَّة نقاطُ التقاء كثيرة .. والعاشق الكبير ينتهي في آخر الأمر إلى متصوِّف كبير .

وإذا كانت غاية المتصوف هي الفناء في ذات الله والحُلُول فيه ، فإنّ غاية العاشق هي الفناء في ذات

المعشوق والحُلول فيه . حتى تصير كلمة (يا أنتَ) على لسان المتصوّف أو العاشق تعني (يا أنا ...) .

وإذا درسنا بدقّة مفردات كبار المتصوّفة ، كالنِفَّري ، وأبي العتاهية ، وجلال الدين الرومي ، ومحي الدين بن عربي ، ورابعة العدويّة ، لاحظنا الشبه الكبير بينها وبين مفردات شعراء الغزل ..

كلٌّ واحد يعشق بطريقته ..

الدرويش يهزّ جسده هزاً عنيفاً ليصل إلى مرحلة (النرڤانا) .. والشاعر العاشق يهتزّ على إيقاعات شعره ، وموسيقى أشواقه ، حتى يصير كوكباً يدور حول عَيْنَيْ حبيبته ..

إذَنْ لا تناقضَ بين العاشق والصوفيّ . فكلاهما في آخر المطاف يتحوّل إلى جمرة مشتعلة في نار الحب الكبير .

55

*** خصب الصورة عندك كأنك ترسم بالكلمات . حتى أن الذي يتنقل بين قصائدك ، يشعر أنه يتنقل في معرض تشكيلي .. هل في بالك هذا الموضوع ، وأنت تكتب ؟**

●

ـ الشعر والرسم توأمان سياميّان ملتصقان ببعضهما التصاقاً عضوياً . ومن الصعب عليَّ أن أتصوّر شاعراً لا يرسم .. أو رسَّاماً لا يُحبُّ الشعر ..

إنني أفكّر لونياً .. وتسمية إحدى مجموعاتي الشعرية (الرَسْمُ بالكلمات) لم تكن مجازاً ، ولا تشبيهاً جميلاً .. ولا مصادفة .

أنا بالأصل رسَّامٌ ، انتصر الخيارُ الشعريُّ لديه على الخيارات الأخرى ، فإذا سحبتَ من شعري الأخضر ، والأحمر ، والأصفر ، والبنفسجي ، يصبح شعري كمدينة نيويورك حين انقطع عنها التيَّار الكهربائيّ ..

لذلك أحاول أن أتسلّل بين الحين والحين إلى غرفة أولادي زينب وعمر ، وأسرق من حقيبتيهما كرّاسات الرسم ، وعُلَبَ الألوان والفَرَاشي .. وأبدأ (بالخَرْطَشَة) وتلطيخ أصابعي وملابسي بالصباغات ، علّني أستعيد عرش الرسم الذي تنازلتُ عنه منذ أربعين عاماً . ولا تزال عيني عليه ..

56

*** يخيّل لي من خلال متابعتي لشعرك المكتوب بخطِّ يدك ، أو للغلافات التي تصمّمها بنفسك لمجموعاتك الشعرية ، كأنك تحاول أن تلعب بالفنّ لعبك بالشعر .. هل كنت تسعى لذلك ؟**

ـ نعم .. نعم .. عندما أضجر يخطر ببالي أن ألعب ..

أضيق بحروف المطبعة المتشابهة كحبّات الفاصولياء والفول ، فأجلس شهراً بكامله ، أكتُبُ قصائدي على

الطبيعة ، أي كما كتبتُها على المسوّدة الأولى .

أتجوَّل سعيداً تحت أقواس الحروف العربية ، أُدَوِّرُ الواو ، والراء ، والسين ، وأرشُّ النقاط هنا .. وهناك .. كما تَرُشُّ أمُّ العروس ابنتَها بماء الورد والملبَّس ليلة زفافها ..

بالخطّ أكتشف إنسانيتي .. كما أكتشف أن الحروف العربية ، كالحروف الصينيّة ، لها كلُّ مواصفات الحدائق ...

حرف المطبعة بارد ، وحياديّ ، ويبيع نفسَه للجميع .. فهو في الجرائد ، والمجلّات ، والإعلانات التجارية ، والمعاجم ، والروايات البوليسية ، والكتب المدرسية ، والبيانات السياسية .

أما الخطّ ففيه ملامحي وشخصيّتي ، وهدوئي ، وقلقي ، وطَقْسي الجميل ، وطَقْسي العاصف ، وطُفولتي ، ورُعونتي ، وصيفي وشتائي .

الخَطُّ هو الصورةُ الشعاعيَّة للإنسان ..

وربّما كان كتابي (قصائد متوحّشة) أقربَ كُتُبِي إلى قلبي ، لأنني أخرجتُهُ من جسدي ، وعرفتُ فيه المخاضَيْن ، مخاضَ التشكيل الداخلي ، ومخاضَ التشكيل الخارجي ...

57

* إلى أين يمتد الحبّ في الحلم ؟

ليس عندي مَسْطَرةٌ أقيسُ بها الحبَّ أو الحُلُم . فكلاهما يستعصي على القياس .

لكنني أعرف أن الحلم كالعَدَسة المُكبِّرة ، يجعل الأشياء خرافيةً ، وغير قابلة للتصديق ..

ولذلك يقف العشّاق أمام حبيباتهم مبهورين .. ومسطولين فيحسبون فمَ الحبيبة قَوْسَ قُزَح .. ونَهْدَها شَجَرَةَ دِفْلى .. ويدَها سبيكَةَ ذهب ..

وهُمْ دائماً على حقّ فيما يرون ويقولون .

فالحُلُم غيرُ قابل أبداً للتكذيب ..

لذلك لا تحاولْ أن تناقش شاعراً عاشقاً في أحلامه . لأنه يجلس في مركبةٍ فضائية ، ويرى الأرضَ مرةً بنفسجيّة ، ومرةً لازورديَّة .. ومرةً على شكل خاتم .. ومرةً على شكل برتقالة .

58

* **كيف تنظر إلى التراث ؟**

التراث هو الرَحِمُ الذي تربَّينا في داخله جميعاً . وتشكَّلتْ فيه ملامحُنا الثقافيّة الأُولى ..

والذين يقولون إن لا تراثَ لهم . كالذين يقولون إن لا أُمَّ لهم ..

التراث هو صديق ، نأنس إليه ، ونرتاح إلى مَشُورته . وليس رجلَ بوليس يضعُ في يدينا (الكَلَبْشَة).. ويفرض علينا الإقامة الجبرية ..

إنّني أفهم التراث على أنه نهر عظيم شربنا كلّنا من

مائه . ولا أفهمه على أنه ضريحٌ من الرخام ندفن فيه طموحَنا ..

التراثُ . مرحلةٌ أولى . كالطفولة مثلاً . لا بدّ من المرور بها للوصول إلى مراحل الشباب والكهولة والشيخوخة . ولا يمكن القفز فوق رقبة الزمن بشكل بهلواني . كما لا يمكن قطع حبل السُرَّة .. كما نقطع حَبْلَ الغسيل .

وكما أنه لا يمكن البقاء إلى ما شاء الله في بطن أمّهاتنا .. فإنه ليس من الممكن البقاء إلى ما شاء الله في بطن الخَنْسَاء ..

طبعاً . أنا لا أُسقط الحُطيئة والفرزدق والنابغة الذبياني من شجرة العائلة ، فهم أجدادي . شئتُ أم أبَيْت . ولكنني بالتأكيد لا أطلب إذْنَهمْ وأضرب لهم تلفون . كلّما جلست لأكتب قصيدة عام ١٩٨٢ .

أنتَ الشاعر الأكثر انتشاراً في الوطن العربي .. لماذا؟

لأنّني شاعر طبيعي . يكتب بلغة طبيعية .. ويخاطب بشراً طبيعيين ..

فإذا جَاء الناسُ إليّ فلأن الناس في بلادي يبحثون دائماً عن كلماتٍ تُشبههم . تُشبه شكلَ ابتساماتهم ، وشكلَ جراحاتهم ، وشكلَ أيّامهم ..

لا تصدِّق أن قارئاً في الدنيا يتحمَّل (البَلْف) ، أو الغشّ .. أو يشتري شيئاً بالمصادفة أو بالإكراه ..

إنّني لا أحمل جَرَساً .. وأتجوّل في شوارع الوطن العربي ، داعياً الناس إلى قراءتي ..

إنّ قلبي هو الجَرَس الذي أحمله بين أضلاعي ... والناس في الدنيا كلّها ، يسمعون جيداً رنينَ القلوب .. الناس هم الذين يركضون وراء الكُتُب .. وليست الكُتُب هي التي تركض وراء الناس . هل رأيتم كتاباً يخرج

من واجهة مكتبة ، ويُمْسِك قارئاً من سترته .. ويرجوه أن يشتريه ؟

لماذا أنا الأكثر انتشاراً ؟

هل سعة الانتشار تهمة يتوجَّب على الشاعر أن يردّها أو يعتذر عنها ؟ .

عندما يكون محظوراً عليك في بلادك أن تتفوَّق .. أو تتميَّز .. فإن كلَّ الأسئلة قابلة للطرح . وكلّ نجاح يأخذ شكل التهمة .

أنا الأكثر انتشاراً لأنني لم أحترف التشخيص .. ولا أجيد طلاء وجهي بالمساحيق . ولا أشتغل في فرقة (حسب الله) أو في أي تياترو آخر ..

لم أقسم في حياتي الكلمة إلىنِصْفَيْن .. والقصيدة إلى نِصْفَيْن .. والحقيقة إلى نِصْفَيْن ..

الكلمة غير قابلة للقسمة .. وكذلك الحقيقة .

وكما لا يمكنني أن أُقَبِّلَ امرأةً بنصف فمي .. كذلك لا يمكنني أن أكتب بنصف أصابعي ..

الكتابة هي فَتْحٌ ، واختراقٌ ، ومغامرة ..

والكاتب الذي يطلب بوليصة تأمين على أصابعه قبل أن يكتب .. يشبه ممثّلة السينما التي تطلب بوليصة تأمين على ساقيها قبل أن ترقص ..

والشاعر ، الذي يخاطب الأمة العربية في هذه المرحلة الحارقة من تاريخنا بالفوازير ، والكلمات المتقاطعة ، وبلغةٍ مسماريّة لا يمكن تفكيكها ، هو شاعر هاربٌ من الجنديّة .. ويستحق الحبس في زنزانة مظلمة تشبه الزنزانة التي حَبَسَنا فيها ..

حين تكون صادقاً مع نفسك ، ومع الناس ، فأنت واصل حتماً . إذا لم أستطع أن أوصل قصيدتي إلى الآخرين ، فإنّ الخطأ هو خطأي لا خطأ الآخرين . وعليّ مراجعة أدواتي الشعريّة لأكتشف موقع الخلل .

هذه هي المعادلة الشعريّة التي أُطبّقها على كلّ ما أكتبه .

فالقارئ هو دائماً على حقّ .. لأنه شريك بالنصف

في العمل الشعري وليس من حق الشاعر أن ينتهَره ، أو يذلَّه ، أو يسيئ معاملتَه ، وإلا سقط مبدأ الشراكة .. وأفلست الشركة ..

عندما استقلتُ من السلك الدبلوماسي ، كنت أريد أن أتحدّى كلّ من يقولون إن الشعر لا يطعم خبزاً . وإن الشاعر إذا أراد أن يقف على قدميه فلا بدّ أن يشتغل سائساً لخيول السلطان ..

وها أنذا أقف على قدميَّ بكبرياء الشعر وحدها .. دون أن أشتغل سائساً لدى أحد ..

*** قلتَ سابقاً في عدة مناسبات أنك شاعر الـ ١٥٠ مليون عربي . هل في ذلك نوع من الافتراض المستند إلى ثقة عميقة بالنفس . أم في ذلك نوع من التأشير على حقائق أضافها شعر نزار إلى الواقع العربي ؟**

ـ ما قلتُهُ هو ثقةٌ بالشعر .. لا بالنَفْس ..

فأنا لم أطرق بجسدي أبواب ١٥٠ مليون عربي .

الذي قام بالزيارة هو شعري ..

فحين يفتح الناسُ أبوابهم للقصيدة ، فمعنى ذلك أن هذه القصيدة تحمل إلى حياتهم شيئاً .. أو تضيف إلى أعمارهم شيئاً ..

القصائد التي لا تُغيّر أيّامَ الناس ، ولا تفتح لهم طريقاً أو أُفُقاً .. ولا تنقل أصواتهم ، أو تترجم إنسانيتهم .. تبقى دائماً خارجَ الأبواب ...

هل تعرفون شيئاً عن غربة الدفاتر ؟

هل تعرفون وجعَ الأوراق التي لا تجد من يقرؤها .
ووجعَ القصيدة التي لا تجد إنساناً تمطر عليه .. أو تنام على ركبتيه ؟

إنني أذهبُ إلى الناس .. وأقرأ لهم شعري .
لأستريح من ألف رمح يثقبني .. لأنتزع عشرات المسامير من لحمي ..

ما أشقى القصيدةَ التي لا تُتْلى ..
إن طعمَها في الحَلْق يصبح كطعم العُصفور الميِّت ..

61

*** يهاجمونك أيضاً لأنك تبيع عشرات الألوف من أعمالك الشعرية ... ويقولون إنك أصبحت ثرياً من وراء الشعر ؟ .**

ـ هذه قِلَّةُ أدب مني .. فلا تؤاخذوني ..
في هذا الوطن ممنوع على الشاعر أن يشتري حذاء جديداً .. أو يلبس قميصاً نظيفاً ..

إذا باع الكتابُ الناجح في الولايات المتحدة ، أو في فرنسا ، أو انكلترا، عشرين مليون نسخة ، دقّوا له طبول الفرح ، وأقاموا أقواسَ النصر ..

أما إذا تجرّأ شاعرٌ عربيّ على بيع خمسة آلاف نسخة من كتابه .. أعلنوا الحداد العام ..

إنه ليشرّفني أن أكون أوّلَ شاعر عربي يُنهي أسطورة الشاعر الشحّاذ ..

الشاعر العربي اليوم ، يقف على أقدام كبريائه وموهبته . وبينما كان الشاعر القديم حاجباً على باب الخليفة ، صار الخليفة حاجباً على باب الشاعر ...

أمّا ثروتي ، فهي بعد أربعين عاماً من النزف فوق الدفاتر ، لا تعادل ثروة السنكري الذي يصلّح لنا الحنفيّات في المنزل .. أو ثروة أصغر مقاول أو وسيط أو تاجر سلاح في هذا العصر العربي السعيد .

إنني أدفع أقساط مدارس أولادي ، وفواتير الكهرباء والتلفون ، والصيدلية ، والبقّال ، بانتظام ، ولكنني لا

أستطيع أن أنتقل مع حاشيتي ، وحريمي ، وسماسرتي ، وخدمي إلى الكوت دازور .. أو إلى جزيرة كابري .. أو إلى ماربيّا .. ولاس فيغاس وهونولولو .. فهذه المناطق الخرافية تعطي تأشيرتها لدخول النفط .. لا لدخول الشعر .

62

أصبح اسمك مقترناً بالقصيدة الأزمة . فكل كلمة تنشرها تحدث ردود فعل بين مؤيد ومعارض ، لماذا أنت وحدك دون سائر الشعراء تقف على حدّ الخنجر ؟

ـ الحملاتُ أصبحتْ جزءاً من جسدي حتى أدمنتُها .. وفقدتُ الإحساسَ بها .

منذ عام ١٩٤٤ وأنا أقيم بين أسنان التنّين .

عنواني الدائم هو بين أسنان التنّين .. ولا عنوانَ لي سواه ..

إرنست همنغواي كان يقول إن الكاتب الحقيقي

هو الذي يقف على الخطّ الفاصل بين الحياة والموت .
حين تريد أن تؤسس عالماً جديداً على أنقاض عالمٍ قديم .. فإنّ كلَّ حجر يصرخ في وجهك .. وكلّ الأشجار المُقْتَلَعة تقف في طريقك .. وكلّ الدراويش يسيرون في مظاهرة ضدّك ، لأنك قطعت رزقهم ، وأحرقت خيامهم ..

صدامي مع الدراويش مستمرّ .. دراويش الأمس انقرضوا .. أما دراويش اليوم فهم يلبسون الملابس التقدميّة ، ويرفعون كذباً لافتات اليسار .. ويستعملون القاموس الماركسي .. وتعابير الواقعية الاشتراكيّة .. وهم عاجزون عن التفاهم مع عاملٍ واحد .. أو مزارعٍ واحد ..

63

• هل يضيق صدرك عادة بالنقد ؟.

الصَفَعات هي الوجه الآخر للقُبُلات .. وتاريخي الشعريّ كله قام على لعبة المتناقضات هذه .

إنني لا أشعر أنني على قيد الحياة إلا حين تتساقط الحجارة على زجاج نافذتي .

في هذه اللحظة أشعر أن جُرْعَةَ الشعر التي أعطيتُها للناس بدأت تتفاعل في دورتهم الدموية .. وأن الزلزال الذي كنت أحتفظ به في داخلي قد انتقل إليهم .

عندما أنشرُ قصيدةً ولا يرجمونني بسببها .. أشعر أنني مريض ، وتبدأ حرارتي بالإرتفاع ..

إن الشتيمة في العالم الثالث لا تعني أنك فشلت .. وإنّما تعني أنّكَ تَفَوَّقت ..

إن النقد مدرسة ، والشاعر يبقى دائماً تلميذاً لم يتخرَّج بعد ... وهو بحاجة دائمة إلى المزيد من المعرفة والمزيد من التحصيل .

وحين يُقْنع الشاعر نفسَهُ بأنه أصبح إنسيكلوبيديا الشعر.. وهوميروس زمانه .. فاقرأ السلام عليه وعلى شعره ..

لكنّ النقد بصورة عامة في العالم العربي ، هو إفراز قِبَلي مرتبط بالغريزة والإنفعال .. ومَنْسَفٌ يؤكل فيه لحمُ الشاعر نيئاً ..

إنّنا نُطْلِقُ الرصاصَ على كتاب الشعر .. قبل أن نقرأه ..

ونُضْرِمُ النار في اللوحة قبل أن نراها ..

ونَنْصُقُ على المسرحيّة .. قبل أن نشاهدَها ..

النقد في بلادنا أو أكثره ، مذبحةٌ ككلّ المذابح السياسية والطائفية .. يُستعمل فيها أخطر أنواع الأسلحة ، وأقذر أنواع الأسلحة .

إنني أسمعُ جيداً من ينقذني بحضارة . أما صراخُ المتوحشّين فلا أسمعه ..

• إختلطت في عصرنا المفاهيم الإبداعية والمفاهيم السياسية ، وغلبت ربّما الثانية على الأولى .
فكيف نميِّز بين الشعر واللاشعر ، في زمن أصبح فيه النقد مرتجلاً وفوضوياً .. اذا لم نقل مزاجياً ..

ـ حين يأخذ الشعر شكل (الزَفَّة) .. ويصبح اللباس المُرقَّط معيار الشعر الثوريّ .. فاقرأ السلام على الشعر وعلى الثورة معاً .

إن الشعارات السياسية لا تُغطّي حيطانَ الشوارع العربية فقط ، وإنما صارت تغطّي وجه الشعر .. بحيث صرنا نقرأ منشوراً سياسياً (مرشوشاً عليه شويّة شعر ..) وقد دلّت التجربة ، أن القتيلَ الوحيدَ في (مهرجانات الشعر المقاتل) .. كان الشعر ..

إن المحتوى السياسي لقصيدة ، مهما كان مرتفعاً ونبيلاً ، لا يكفي لنجاحها في امتحان الشعر ..

فربّ قصيدة سياسية أخذت علامة ١٠٠ على ١٠٠ في السياسة .. وأخذت صفراً في الشعر ..

إن الجمهور العربيّ ، وهو جمهور شديد الذكاء .. بدأ يكتشف أن الصراخ ليس دائماً شعراً .. وان (الكاسيتات) الملأى بالشعارات ، والعنتريّات ، والديماغوجيّات ، لم تعد تطرب أحداً ... وأن الصراخ مهما كان موزوناً .. أو مقفىً .. أو بغير قافية أو وزن .. لا يمكن إذا لبس الكاكي أن يصبح شعراً ....

65

• الشعر الشاب يحاول أن يطرح نفسه بقوة كبديل في تيار الحركة الشعرية الجديدة .

هل ثمة أصوات شابة تبشر بذلك ؟ أم أن معظم تلك الأصوات انجرفت في تيارات الشعارية والرمزية والطلاسم ، هرباً من الشعر بكلّ ما يعنيه من معنى ؟

ـ كما لا أحدَ يستطيع أن يمنع حصاناً من الركض والفوز في ميدان السباق .. فلا أحد يستطيع أن يمنع شاعراً موهوباً من أخذ مكانه في سباق الشعر ..

هذا حقّ طبيعي . وأنا مع كلّ حصان يركض بمهارة ، وحضارة ، وتناسق .

لكنَّ الذي حصل أن بعض الخيول التي (تسللَت)

إلى الميدان ، لا تصلح إلا لتوزيع المازوت .. ونقل المحصولات الزراعية ..

وهكذا اختلطت الخيول الأصيلة .. مع الخيول الهجينة .. وضاعت الطاسة في حمَّام الشعر الحديث .

إنّني أتابع السباق ، ولا أُخفي إعجابي ، ببعض الخيول الشعرية المتفرّدة بحركتها ، وصهيلها ، وأناقة خطواتها ..

ومهما سادت الفوضى في ملعب الشعر الحديث ، فلا بدّ أن يأتي يوم ، لا يبقى فيه في الملعب ، سوى الخيول التي ترقص بإيقاع جميل ..

أما الخيول البطيئة الحركة ، والحديدية الحوافر ، والمترهّلة الأجساد .. فستعود إلى مهنتها القديمة في توزيع صفائح زيت الكاز على البيوت ..

*** فلسفتك في الحياة تقترب من الفلسفة الوجودية ، وأشعارك في المرأة ، تؤكد حرية الإنسان المطلقة .. كيف تفهم الحرية في عملية الإبداع .. وفي تحقيق الشرط الإنساني للمرأة ..**

ـ حين أطلب الحرية للمرأة وللوطن وللكلمة ، فإنّني أطلبها بمفهومها الشُمُولي والمطلق .. فليس هناك نصف حريّة .. أو ربع حريّة ، أو حريّة بالتقسيط .

في العمل الإبداعي ، لا أسمح لأيّ سلطة أن تجلس على أصابعي ، وتُملي عليَّ ماذا أكتب .. وكيف أكتب . فالقصيدة التي لا تستطيع أن تتجوّل في كلّ الاتجاهات ، هي فأرةٌ في مصيدة ..

والحرية التي أطلبها للمرأة هي حريّة ممارسة خياراتها وإنسانيّتها .. وتركها في مواجهة مسؤولياتها ، دون أن يُقطَع رأسُها ، ويُرمى في صندوق الزبالة ...

والذين يقولون إن حريّة المرأة فيها خطورة ..
أقول لهم إن حريّة الرجل ، في سلوكه وممارساته عبر التاريخ ، كانت أشد خطورة ..

فكلُّ حروب العالم ومذابحه ، معلّقة برقبة الرجل ..
وليس ثمّةَ امرأة واحدة أشعلت حرباً .. أو دمّرت مدينة .. أو أطعمت أسراها للحيوانات المفترسة ..

باختصار إنَّ الحرية هي كالسماء ، والليل ، والبحر ، لا تقبل التقسيم ، ولا التنازلات ، ولا المساومة ..

• رغم كل (شعبية) نزار قباني ، ما زال بعض النقاد يعتبر أن لغة نزار قباني لا تزال لغة الأربعينات ، وأنها متأثرة بلغة أمين نخلة ، وبشارة الخوري ، وسعيد عقل ، وصلاح لبكي . ما رأيك ؟ .

ـ ليس هناك شيء إسمُهُ لغة الأربعينات ، أو الخمسينات ، أو لغة السبعينات .

فاللغة ليست حذاءً نخلعه كل سنة ، أو كل شهر ونستبدله بحذاء جديد .

لغة طه حسين هي لغة طه حسين .

ولغة اندره جيد هي لغة اندره جيد ..

ولغة تولستوي هي لغة تولستوي ،

ولغة ماياكوفسكي هي لغة مايوكوفسكي .

ولغة محمد مهدي الجواهري هي لغة محمد مهدي الجواهري ، ولا يمكننا أن نطالبه باسم الحداثة أن يخلع

ملابسه ويلبس لباس البيتلز .. ويرقص على موسيقى (الديسكو) ..

اللغة هي خصوصية الكاتب ، تماماً مثل بصمات أصابعه ، ولون عينيه ، وطول قامته ..

ولو جرَّدتِ أوسكار وايلد .. أو عمر بن أبي ربيعة من لغته ، لبقي عارياً ..

68

• إلى أين وصلت القصيدة الجديدة في تقديرك ؟

ـ القصيدة الجديدة لا تزال تبحث عن جواز سفر تمرّ به من عصرٍ إلى عصر ..

إن القصيدة الجديدة تتنقل بتذاكر مرور مؤقتة ، بعضها صالح ، وبعضها انتهى مدّته ، بعضها إنكليزي ، وبعضها إفرنسي ، وبعضها مزدوج الجنسيّة ...

وما لم تعثر القصيدة الجديدة على جوازها العربيّ المناسب ، فإن تشردها سيطول ..

69

• إلى أين تريد أن تذهب شعرياً ؟

أريد أن أذهب إلى حيث يذهب المطر ...

أريد أن أذهب إلى أصغر ذرة تراب في العالم العربي وأقول لها (أنا أحبّك) ..

أريد أن أفتح مدرسةً للحُبّ ، في كلّ المناطق العربية التي لا تزال تعيش في أُمِيَّة العواطف ...

أريد أن لا يبقى على أرض الوطن العربي ، شجرةٌ تحت القمع .. أو نهرٌ تحت القمع .. أو عصفورٌ تحت القمع .. أو كتابٌ تحت القمع .. أو نَهْدٌ تحت القمع ...

أريد أن يصبح الحبّ ، كالتعليم ، مجانيّاً ، للرجال وللنساء .. ومن روضة الأطفال إلى الجامعة ، فلا يبقى في هذا الوطن رجل لا يعرف أن يقرأ .. وامرأةٌ

لا تعرف أن تُحِبَّ ..

70

*** يعزو بعضهم عدم قدرة متتبّعي الشعر على التقاط الإشارات والدلالات التي تحفل بها القصيدة الحديثة ، إلى تبلّد الحساسية الشعرية العربية وقصورها .. ويطالبون بتغيير حساسية الناس ليكونوا على مستوى القصيدة ..**

هل تعتقد أن هذا ممكن ؟

ـ إذا كان بالإمكان عمليّاً تغيير جلد الرجل الإفريقي إلى جلدٍ أشقر .. وتحويل المرأة السويدية إلى امرأة سودانية .. ومعالجة برودة الإنكليز التقليدية بواسطة الهورمونات .. فإنني لا أستبعد أن ينهض العربي ذات يوم من فراشه ليجد نفسه عضواً في اتحاد الكتّاب السوفيات ..

إن الحساسيّة الشعرية لشعبٍ ما لا تنقلب على نفسها بزاوية ١٨٠ درجة ، لأن شاعراً .. أو شاعرين ..

أو ثلاثة يريدون ذلك ..

إن التجديد في الشعر ليس عملية جراحية تُحوّل الذكر إلى أنثى .. والأنثى إلى ذكر .. خلال ساعات ...

إن التجديد يحدث يومياً دون أن نراه ، ويجري في أعماقنا دون أن نلاحظه .. ودون أن نستعجله ، كما يأخذ الشتاء وقته لتحضير الأرض ، ويأخذ الصيف وقته لإنضاج الثمر .. ويأخذ الربيع وقته لإنجاز الديكورات الجميلة التي وعد بها الأرض .

إن الفصول لا تزاحم بعضها .. ولا تتقاتل ...

فلا يأخذ تشرين محلَّ تمُّوز ، ولا يأخذ نيسان محلَّ أيلول ، فلماذا يريد الشعر الجديد أن يطرد جميع المغنّين والزبائن ويغنّي وحده للحيطان ؟

إن القصيدة العمودية بدأت تلملم ثيابها ، وتجمع حقائبها منذ وقتٍ طويل ، وليس من اللياقة في شيء ، ولا من مكارم الأخلاق في شيء .. أن نرميها هي

وحقائبها من النافذة ، بدعوى أن عقد الإيجار بيننا وبينها قد انتهى .. وأن عليها أن تُخلي المأجور فوراً ...

هذه مواقف منافية لكل القواعد والأصول ...

فليتحلَّ الشعراء الجدد بالصبر ، وليهيّئوا أنفسَهم لوراثة المنزل الأبويّ .. والاستيلاء على أثاثه ..

ولكن دون أن يرتكبوا جريمة قتل الأبويْن ...

71

ما هي مهمة الشاعر في كل الأزمان ، وفي زمن المحنة بالذات ؟ .

ـ مهمة الشاعر أن يكون جهاز الرصد الذي يلتقط كل الذبذبات ، والاهتزازات والانفجارات التي تحدث في داخل الأرض ، وفي داخل الإنسان .

إن جهازه العصبي يجب أن يظل ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة في حالة استنفار ورقابة ، بحيث يستوعب كل حركة تحدث تحت أرض التاريخ ، كما تتحسَّس

الخَيول بقرب سقوط المطر قبل سقوطه .

و(هوائيّات) الشاعر هذه ، تسمح له بأن يسمع يسمع أسرع من غيره ، وأقوى من غيره ، وبهذا المعنى يأخذ الشعر مدلول النبوّة .

إن الشاعر ليس منجّماً ولا ساحراً ، وليس عنده مفتاح الغيوب ، ولكن أهميته تتركز في أنه (يسبق) الآخرين بثانية ، أو بجزء من أجزاء الثانية في اكتشاف الحقيقة ، ويقدمها لهم على طبقٍ من الدهشة ..

72

• إلى ماذا تفتقر الآن ؟ .

أفتقر إلى وطن عربي يستقبل الكلمة بإحدى وعشرين طلقةِ مدفع .. ويمدّ تحت أقدامها سجّادة حمراء.. ويصطف لها حَرَسُ الشرف كما يصطفّ للملوك .. ورؤساء الجمهوريات ..

73

*** في أي موقف تشعر بأنك تحمل صفة البطولة ؟**

ـ كلما أصدرتُ كتاباً في الحبّ أشعر بالبطولة .. لأنني مؤمن أن كتابة شعر الحبّ في هذه المنطقة .. هي ذروة البطولات ..

74

*** في زماننا الصعب هذا ، يعيش الشاعر الصادق محاصراً بالسكاكين من جميع الجهات ..**

والشعر ، هذا الصوت المبحوح أحياناً ، والمجنون أكثر الأحيان ، ما هو برأيك الحلّ لفك الحصار عن الشعر والشعراء .. وكيف ؟

ـ الحلُّ هو أن تقتنعَ السِكِّين أنَّ لحمَ الشاعر لا يُؤكل نيّئاً .. ولا مطبوخاً .. ولا مشويّاً ..

فطالما أن سكّين السُلْطة لا تفرّق بين لحم الكلمة ..
ولحم الفرُّوج .. فلا سبيل للتفاهم ..

تاريخياً .. ليس هناك أمل في توقيع معاهدة جنتلمان بين السلطان وبين الكاتب .

فالكاتب ، في ذروة كبريائه وغُروره ، يعتبر نفسه سلطاناً . والسلطان ، يتصوّر من موقع السلطة ، أن صوته جميل .. وبوسعه أن يغنّي .. ويكتب ..

وهكذا تتزاحمُ السلطات ..

فالحاكمُ لا يقبلُ بسلطةٍ زمنية غير سلطته ..

والكاتبُ لا يقبلُ بسلطةٍ غير سلطة الحقيقة .

لذلك تبدو الكتابة في هذا الزمن الصعب ، مهمةً مستحيلة .

75

* **هل أنت محاصَر ؟ ...**

إلى أن أتعلّم الكتابة في التدبير المنزلي ، وطريقة تحضير السمك بالمايونيز .. فأنا محاصَر .

وإلى أن أتعلّم كيف أخاطب الأطفال ، على طريقة (بابا شارو) فأنا محاصَر...

وإلى أن أتعلّم كيف أمسح الجوخ .. وأغسل قدميْ السلطان بماء الورد .. وماء الكرامة .. فأنا محاصَر ..

وإلى أن أتعلم أن أكتب كلاماً لا لون ، ولا طعم ، ولا رائحة له .. وأن أغشّ قرّائي بقصائد ومقالات من (حواضر البيت) .. أو من بضاعة (البالة) .. فأنا محاصَر ..

ولكن الكلمة ، رغم المسامير .. والخوازيق .. والأسلاك المكهرَبة .. والكلاب البوليسية المدرّبة جيداً .. وأجهزة التنصّت .. وزوّار الفجر ... تعرف كيف تكسر بمنقارها الفولاذي الحادّ قشرة البيضة ... وتعرف كيف تتسلّل من مواسير المياه ... لتفاجئْ السلطان وهو يأخذ حمَّامَه الصباحي ..

76

• أنت في شعر الحبّ شاعر غاضب .. وفي شعر السياسة شاعر غاضب .. أين يبدأ الغضب عندك وأين ينتهي ؟

ـ صعب أن أحدّدلك حدود غضبي .. فطالما أن مقصَّ إسرائيل يقصّ كلَّ يوم جزءاً من تاريخي .. وجزءاً من جغرافيتي .. وجزءاً من كُتُب ، ودفاتر ، ومستقبل أولادي ، وطالما أن جثث الأطفال العرب الذين تحصدهم طائرات ف ١٦ تطفو كلّ صباح على وجه فنجان

قهوني .. فإن غضبي بحرٌ لا ساحل له ..

تسألني لماذا أرفض ؟

وأسألك بدوري لماذا أقبل .. وماذا أقبل ؟

هل أرفع قبّعتي لهذه الدويلات العربيّات المتناحرة كالديكة .. الغارقة حتى الرقبة في أنانياتها .. وفرديّتها ، ونرجسيّتها ، وعبادة ذاتها ؟.

هل تريدني أن ابتهج للبيارق .. والمخافر ، وأكياس الرمل التي تصطدم بها وأنت تعبر الحدود بين خيام الأوس والخزرج .. وداحس والغبراء ...

لغيري أن يستعمل المنظار الورديّ ، ولغيري أن يعمّرَ القصور في إسبانيا ..

أما أنا فسوف أبقى ساحباً سيفي في وجه عصر الإنحطاط العربيّ .. حتى أقتله .. أو يقتلني ..

77

لماذا يقول الشعراء في بعضهم كلاماً غير جميل؟..

إذا فهمنا أن يصدر هذا التصرّف عن شعراء لا يزالون في مرحلة التثبيت والتكريس .. فإن صدوره عن شعراء كبار أخذوا موقعهم على خارطة الشعر العربي ، ونالوا درع التثبيت .. يدعو إلى العجب .. فهل الموقف الإبداعي شيء .. والموقف الأخلاقي شيء آخر ؟ .

ـ لا يمكن أبداً أن يكون الإبداع منفصلاً عن الشرط الخُلُقي . فالعمل الإبداعي ، في أساس تكوينه ، عمل نبيل ومرتفع ..

لا يمكن في رأيي أن يكون الكاتب جميلاً على ورقة الكتابة .. وقبيحاً خارجها ..

لا يمكنه أن يكون قدّيساً في قصائده .. وشيطاناً في سلوكيّته ومناقبيتّه .

هذا نوع من التعهّر يناقضُ شرفَ الكتابة .

فالكتابة . بأبسط مفاهيمها . هي اتفاقية شرف يعقدها الكاتب مع المثل الأعلى .

وحين ينقض الكاتب الإتفاقيّة . فلا بدَّ من منعه من مزاولة المهنة . كما يُمنع الصيدلي من العمل إذا باع الناس سُمَّاً . وكما تُسحبُ شهادةُ الطبيب منه إذا مارس عمليّات الإجهاض ..

وبكلِّ أسفٍ أقول ، إن بعض شعرائنا المعروفين . يمارسون عمليات الإجهاض بشكلٍ علني ، في المقاهي . وعلى صفحات الجرائد والمجلات . ولا يجدون (قوّة ردع أدبية) تلقي القبض عليهم بتهمة الزنى بالكلمات .. والقذف العلني لزملائهم الشعراء ..

إنني أعتقد أن هؤلاء ، يعانون أزمة ثقة بالنفس . لأن الشاعر الواثق من نفسه . ليس لديه الوقت الكافي للتفكير بشيء غير القصيدة .

الشاعر الكبير حقّاً ، هو المتفرّغ لشعره وحده . لا المتسكّع ليلاً نهاراً على أرصفة الشتيمة ..

• الكتابة للصحافة الأسبوعية .. هل أرهقتك .. وبعبارة أخرى هل تشعر أن الكتابة النثرية تأخذ من ينابيعك الشعرية الداخلية ؟

ـ طبعاً أرهقتني ..

لأن المقالة السياسية عندي لم تكن عملاً هامشياً أسلقه بنصف ساعة ، وإنما كانت عملاً له كل مواصفات القصيدة ..

إن مشكلتي الكبرى ، عندما أكتب ، هي سقوط الحدود بين الشعر .. والنثر .. وفي أنني في نثري السياسي لا أستطيع أن أكون إلا شاعراً ...

لقد خضت تجربة الكتابة النثرية على مخاطرها ،

لشعوري أن الشعر وحده ، بصياغاته ومعادلاته ونَمْنَمَاته ، لم يعد قادراً على اللحاق بقطار التحوّلات السياسية الذي يشق الأرض العربية ... وأن الشاعر لم يعد بوسعه ، في هذا العصر الحارق والمحترق ، أن يبقى محتفظاً بجماله الأبدي مثل دوريان غراي في قصة أوسكار وايلد ... ولا أن يحافظ على طراوة أصابعه في عالم الأيدي المتشقّقة .. والوجوه المتشقّقة .. والقلوب المتشقّقة ... كما أن العصر لم يعد لديه الوقت الكافي لانتظار القصيدة حتى تنتهي من استكمال زينتها .

ومهما حاولت أن أجد لنفسي الأعذار والمبرّرات ، وأقول إن المرحلة تفرض عليّ أن أخوض معركة النثر ، وأوصل صوتي إلى الملايين الذين لا يصلهم شعري

مهما حاولتُ أن أرشَّ على الصحافة سُكَّراً ... فالحقيقة أن كلَّ كتابة على هامش الشعر .. تمتصّ دم الشعر ، إذا افترضنا أن في أعماق الشاعر خزَّاناً محدود المساحة من المياه ...

وما ينضحُ من هذا الخزَّان ليسقّي براري النثر ...
يكون على حساب المياه المخصَّصة لريّ الشعر .

على أن ما يرضي غروري هو حماس الناس لنثري ، حتى وصل الحال ببعضهم إلى اعتبار نثري أفضل وأهمّ من شعري ...

هل مثل هذه الشهادة لمصلحتي ؟ لستُ أدري . ولكنني أشعر أنّني بالشِعْر كنتُ جميلاً .. فأصبحتُ بالنثر نافعاً وجميلاً ..

ولعلّ مما زادني قوةً وثقة ، ما لاحظتُه ولاحظه النقّاد معي ، من أن قِلَّة من الشعراء الجيِّدين .. تكتب نثراً جيداً ... وأن النثر ليس امتحاناً للشاعر فحسب ، ولكنه فضيحتُه الكبرى .

• لو طلب من نزار قباني الناقد نقد نزار قباني الشاعر فماذا يقول ؟

ـ ماذا أقول في هذا الرجل ؟ . وماذا أقول عنه ؟.

هل أتعامل معه بقسوة مدير سجن .. أم أحاول أن أتعامل معه كممرّضة ..

هل أقيس حسناته وسيئاته بميزان صيدلاني .. أم أتسامح معه ، وأحاول أن أجد له الأعذار ..

هل ألومه على طفولته ، وصدقه ، وطيبة قلبه ؟ ..

هل ألومه لأنه كتَب .. وكان بإمكانه أن لا يكتب ..

هل ألومه لأنه كان شاعراً .. وكان بإمكانه أن يكون مقاولاً ...

هل ألومه لأنه تورَّط .. وكان بإمكانه أن لا يتورَّط ...

هل ألومه على فرط حساسيّته .. وكان بإمكانه أن يلغي حواسّه الخمس .. ويستريح ..

هل ألومه لأنه نشر أفكاره .. وكان بإمكانه أن

يبقيها كالأسماك المجلّدة في جواريره ..

هل ألومه لأنه دخل إلى المطبعة .. ووسَّخ ثيابه وأصابعه وسمعته ، وكان بإمكانه أن يوفِّر على نفسه كل هذه المتاعب .. ويدخل إلى أقرب (كاباريه) ؟

هل ألومه لأنّه زرع المرأة وردةً في عروة ردائه .. ووضعها كحمامةٍ فوق رأسه ... فأثار بذلك غضب جميع الرجال وعداوتهم ؟

هل ألومه لأنّه أخرج الحبّ من عتمة الدهاليز .. إلى الهواء الطلق .. وأعاد إليه اعتباره بعد أن كان طفلاً بلا نسب ..

هل ألومه لأنه حشر أنفه في الشأن السياسي .. وأطلق الرصاص على تُجَّار الوطنية ، وسماسرتها ، ومقاوليها ، ومتعهّديها .. ممّن حوّلوا الوطن إلى مزرعةٍ يتوارثونها أبًا عن جدّ .. وحوّلوا المواطنين إلى أبقارٍ يتقاسمون لحمها ، وحليبها ، ونخاعها ، وجلدها ، أباً عن جدّ ..

هل ألومه لأنه صرخ في وجه البشاعة ، والظلم ، والقمع ، وابتزاز الانسان ...

هذه هي نماذج من أخطائي الجميلة ..

أقول : جميلة .. لأنني حين أستعرضها بعد أربعين سنة من ارتكابها .. أجدها رائعة حقاً ... ولو أتيح لي أن أعيد حياتي أربعين عاماً إلى الوراء .. لارتكبت الأخطاء مرةً أخرى .. وأضفتُ عليها ...

ماذا تعني الأخطاء ؟ إنها تعني أنك تعمل .. وكلّ عملٍ بحد ذاته ، سواء كان عملاً مادياً أو عملاً فكرياً ، لا بد أن يدخلك في ورطة .. أو مشكلة ...

يقول زوربا اليوناني ، إن الحياة هي في أساسها مشكلة .. وأما الموت فهو المؤسسة الوحيدة التي لا مشاكل فيها ...

ويبدو لي أن زوربا اليوناني كان في كلامه يعني الشعر أيضا ....

80

*** هل تعتقد أن شعرك سيكتب له الخلود ؟**

كلمة خلود كلمة دراماتيكية جداً .. ومسرحيّة جداً .
وأنا لا أشغل بالي بالخلود .. بقدر ما أهتم بالوجود ..
ما دمتُ قادراً على تغطية المساحة العاطفية للعصر الذي وجدتُ فيه . فهذا إنجازٌ جيّد ..
أما العصور القادمة فسيكون لها شعراؤها ..

81

*** نزار قباني . سؤآلٌ أخير .. متى تفكر في الاستقالة من الشعر ؟**

ـ حين يقول لي الشعب العربي :

« يعطيك ألف عافية . لقد انتهى دورك الشعريّ ، فاتركْ المسرح لغيرك .. » فسوف أنفّذ الأمر فوراً ، وأنسحب إلى وراء الكواليس .

إنّني غير متشبّث بلعب دور الفتى الأوّل في الشعر العربي .. ولا أسمح لنفسي أن أقعد على رقبة الشعب العربي مليون سنة ، وأقول له : أنا حبيبك .. أنا نجمُكَ المفضّل .. أنا فالانتينو .. أنا براندو .. أنا ترافولتا ..

ليس هناك إكراهٌ في الحبّ .. ولا هناك إكراهٌ في الشِعْر .. وما أسخف الشاعر الذي يظهر في إعلانات السجائر كعمر الشريف ، ليبقى محتفظاً بنجوميّته ..

إنني شديد الواقعيّة في النظر إلى نفسي ، والنظر إلى شعري .. ويومَ أشعر أن الورقَةَ التي أكتب عليها لا تُريدني .. فسوف ألبس معطفي وأنسحب .. لأنَّ وصالَ وَرَقَةِ الكتابة دون إرادتها يعتبر اغتصاباً ...

العصافير

لا تطلب تأشيرة دخول

الكتاب الثالث والثلاثون

١٩٨٣

كلّ الكميّة المعطاة من الحريّة في الوطن العربي
لا تكفي كاتباً واحداً .

الروائي يوسف إدريس

العصافير لا تطلب تأشيرة دخول

هذه الكلمات ، التي ألقيتُها خلال رحلاتي الشعريّة في العالم العربي ، هي الإفتتاحيّات التي سبقت دخولي لحظة الشِعْر .

وهي - كما أتصوّر - الباب الذي لا بدَّ من اجتيازه للوصول إلى القسم الداخلي من قصر الشِعْر .

وبتعبيرٍ آخر ، إنّها (الدَوْزَنَات) الموسيقية الأولى التي تسبق دخولَ المغنيّ ، وانفتاحَ الستارة ..

ولا أدري ، لماذا كنتُ أتصوّر ، أنه لا يجوز اقتحام الغرفة التي تنام فيها القصيدة .. قبل طرق الباب أو الاستئذان .. أو التأكّد من أن القصيدة في حالةٍ تسمح لها باستقبالنا ..

فتحضير الجمهور لاستقبال الشعر ، هو شيء أساسي ، وهو يشبه إلى حدّ بعيد تحضير طفلٍ لدخول المدرسة لليوم الأوّل .. أو تحضير الأرض الزراعية لاستقبال البذور ، أو تحضير الممثّلة المسرحيّة نفسها قبل مواجهة الأضواء ..

• • •

ربّما كان هذا الموقف طفوليّاً ، وعاطفياً ، ولا مبرّر له . ولكنَّ قناعاتي في الخمسينات والستّينات ، كانت تفرض عليَّ أن أكتب مقدّمات القصائد التي سأقرؤها في الأمسية الشعرية ، قبل تلاوة القصائد ..

كنتُ في تلك الأيّام مؤمناً (بالدَوْزَنَة الشعريّة) ..

ومهما تكن وجهة نظركم ، فإن هذه المقدّمات لم تكن مجرّد إيقاعات موسيقية ، أو لعبة مهاراتٍ لغوية ، ولا كانت حديثاً في المطلق ، وإنما كانت حديثاً في الشعر ، والحبّ ، والسياسة ، والحرّية ، والديمقراطية، والثورة ، وفي كلّ شؤون الحياة العربية ، وهموم الإنسان العربي .

لذلك ، فإن نشرها اليوم ، لا يعتبر عملاً عبثياً أو استعراضياً ، وإنما هو عمل يحمل كل معاني المسؤوليّة والإلتزام الشعريّ والقومي .

• • •

هذه المقدّمات ، قُرئت على امتداد الخريطة العربية ، من البصرة إلى وهران ، ومن الشارقة إلى طنجة ، ومن دمشق إلى قرطاج وفاس ومكناس .. ومن بيروت إلى رأس الخيمة ..

رحلة طويلة .. طويلة .. كان الشعرُ فيها ملكَ الملوك .. وكانت الكلمات تدخل إلى المدن العربية وهي أميرة .. وتخرج وهي أميرة ...

وخلال هذه الرحلات الشعريّة ، التي مشّطْتُ بها الوطن العربي من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، اكتشفتُ أن الكلمة هي صاحبة السلطة الحقيقية ، وهي الحاكمة بأمرها ، وهي المليكة التي لا يمكن لأحد أن يخلعها عن العرش .

كما اكتشفتُ أن الكلمة ، كالمرأة ، يمكنها إذا صمّمت ، أن تنقل الجبالَ من مكانها .. والبحارَ من مكانها .. والحكومات من مكانها .. وتعيد كتابةَ التاريخ ، ورَسْمَ الكرة الأرضية ..

صحيحٌ ، أن بعض الحكّام يجد في الكلمة منافستَهُ و(ضُرَّتَهُ) ..

وصحيحٌ أن بعضهم يقصُّ شعرها .. أو يقصُّ لسانَها .. أو يفرض عليها أن تلبس الحجاب حتى لا تثير الناس أو تبهرهم ...

وصحيحٌ أن بعضهم ، يريد من الكلمة أن تكون جاريته .. وعشيقته .. وشريكته في الفراش .. لا شريكته في الحكم أو في الحياة . وهو من أجل ذلك مستعدٌّ أن يعطيها كلَّ ما في بيت مال المؤمنين من ذَهَبٍ .. وفضّةٍ .. وحجارة كريمة ..

وصحيحٌ ، أن بعض الحكّام ، يسجن الكلمة في سجن النساء .. ويضع في قدميها الحديد .. ولا يسمح لها بتدخين سيجارة ، أو بقراءة جريدة ، أو بمطالعة كتاب ، أو حتّى باستعمال قلم رصاصٍ لكتابة وصيّتها ..

ولكن برغم كلّ المُقَاوِمَات الأرضيّة ، وبرغم كل الرادارات وشبكات الصواريخ التي تغطّي السماوات العربية .. فإن الكلمات ستبقى مستمرَّةً في طيرانها رغم كثافة النيران ..

ولن تستطيع أيُّ سلطة أن تمنع الكلمات من الهبوط في أيِّ مطارٍ عربيّ تختاره ..

لأن العصافير لا تطلب تأشيرة دخول ..

بيروت ٨١/٩/٢٠ **نزار قباني**

المقدّمات
التي استهلّ بها الشاعر أمسياته الشعريّة
في عددٍ من العواصم العربية

دمشق

آذار (مارس) ١٩٧٩

بدعوة من اتحاد الطلبة السوريين

1

قراءةُ الشعر في دمشقَ لها مذاقٌ مختلف .. ونكهةٌ أخرى. وقراءةُ الشعر على طلّاب وطالبات وطني ، هي نوعٌ من العَزْف المنفرد على أعصاب القلب.

في دمشقَ ، لا أستطيع أن أكونَ محايداً ..

فكما لا حيادَ مع امرأةٍ نُحبّها .. فلا حيادَ مع مدينة أصبح ياسمينُها جزءاً من دَوْرَتي الدموية ، وأصبح عشقي لها فضيحةً مُعَطَّرةً تتناقلها أجهزةُ الاعلام.

هذه المدينة تَخُضُّني ، تُشْعِلُني ، تُضيئني ، تَكْتُبُني ، تَرْسُمُني باللون الورديّ ، تزرَعُني قمحاً وشعراً وحروفاً أبجديَّة ، تُغيِّرُ تقاطيع وجهي ، تحدِّدُ طولَ قامتي ، تختارُ

لونَ عينيّ ، تؤكّدني ، تجدّدني ، تُقَبِّلني على فمي فيتغيّرُ
تركيبُ دمي ..
في الشام لا أستطيع إلاّ أن أكون شاميّاً .

لا أستطيع إلّا أن أكونَ حمامةً .. أو بنفسجةً ..
أو عريشةَ عنبْ ..
لا أستطيع إلّا أن أكون قصيدةً .. أو مِئْذَنةً ..
أو نَهْداً .. أو سَفَرْجَلَة ..
لا أستطيع إلّا أن أكونَ سمكةً في الفرات ،
أو سنبلةً في حوران ، أو صَدَفةً على رمال اللاذقيّة .
في الشام ، لا أستطيع أن أكونَ فيلسوفاً .. أو واعظاً ..
أو حكيماً ..
لا بدَّ لي أن أكونَ في داخل الجُنُون ، أو في
داخل الشّعْر ..
لا بدَّ لي أن أخترعَ لغةً استثنائيةً لهذه المدينة الإستثنائية .

لا بدَّ من الذهاب إلى الحدِّ الأقصى للعشق .. أو

إلى الحد الأقصى للشِّعْر .. حتَّى أتفاهم مع دمشق ،
وأتفاهم معكم ...

* * *

2

الواقع أن دمشقيّتي هي نقطة ضعفي وقوّتي معاً ..
إن دمشق تتكمّش بي كما يتكمَّشُ الرضيع بثدي أمه..
إنّها تسكنني كما يسكنُ اللهُ وجهَ امرأةٍ جميلة ...
مزروعةٌ بي دمشق ، كما الحَلَقُ الإسباني مزروعٌ
في آذان الإسبانيات . مستوطنةٌ في صوتي ، وفي حبري ،
وفي دفاتري ، كما يستوطنُ السُكَّر في شرايين العنقود ..
كل حُرُوف أبجديّتي مُقْتَلَعَةٌ حجراً حجراً من
بيوت دمشق .. وأسوار بساتينها ، وفسيفساء جوامعها ..
قصائدي كلّها مُعَمَّرة على الطراز الشامي ..
كلُّ أَلِفٍ رسمتُها على الورق هي مئذنةٌ دمشقيَّة ..
كلُّ ضَمَّةٍ مستديرة هي قُبَّةٌ من قباب الشام ..
كلُّ حاءٍ هي حمامةٌ بيضاء في صحن الجامع الأمويّ..

كلُّ عينٍ هي عينُ ماء ..
كلُّ شينٍ هي شجرةُ مشمشٍ مُزْهِرَة ..
كلُّ سينٍ هي سنبلة قمح ..
كلُّ ميمٍ هي امرأةٌ دمشقية .. وما أكثرَ الميمات في دواوين شعري ..

وهكذا تستوطن دمشق كتابتي ، وتشكّل جغرافيتُها جزءاً من جغرافية أدبي ..

لا يمكن الفصل أبداً بين الحبر الذي أكتب به ، وبين أنهار دمشق السبعة ..

لا يمكن الفصل أبداً بين صوتي وبين أصوات المؤذّنين الذين يؤذِّنون لصلاة الفجر في أحياء الميدان ، والقيمرية ، وسوق ساروجة ، والصالحية ..

لذلك أعتبر دعوة اتحاد الطلبة السوريين لي لقراءة شعري في دمشق .. دعوةً للقاء طفولتي وتاريخي ..

وما أحوجني بين الحين والحين إلى لقاء طفولتي .

3

في هذه الأمسية الجامعيّة ، يأخذ صوتي بُعْداً ثالثاً ..
فالطُّلَّاب ، كانوا على امتداد تاريخي الشعريّ ،
جيشي ، ورئاسةَ أركاني ..
كانوا أدقَّ تراجمتي . وأعظمَ سفرائي ..
هُمُ الذين طبعوا قصائدي في ذاكرتهم قبل أن
أكتشفَ المطبعة ، وهُمُ الذين نَقَشُوني على مشاعرهم ،
وحفظوني في ضمائرهم ، قبل أن تكون أشرطةُ
التسجيل .
وهُمُ الذين بحبّهم أغتنيتُ . وبشفاههم غَنَّيتُ ..
وبعيُونهم بَكَيْت ..
إنني هُنا لا أجامل ، ولا أضخّم الأشياء ، ولكنّني
أسجِّل اعترافاً أدبياً لا بدَّ من تسجيله . فلولا الطلابُ
ـ والطالباتُ طبعاً ـ لضاقتْ مساحةُ الشعر ، وجفَّ
ماءُ القلب .
إنَّ الشعر يبقى بخيرٍ طالما هو معكم ، وطالما ظللتم

تعطونه من إيقاعات نبضكم ، وتفجُّرِ شبابكم .

أمّا الخرّيجون . فإن أكثَرهم – مع الأسف – يفكُّ ارتباطه مع الشعر عندما يغادر باب الجامعة . ويتحوَّلُ إلى جسر من الأسْمَنْت . أو زهرةٍ من مشتقّات البلاستيك ..

* * *

أيُّها الأحباء :

ستكونُ قراءتي الشعرية هذه الليلة سَفَراً في أقاليم المرأة والوطن .. أي في الأقاليم التي لا يعتدل فيها الطَقْسُ .. ولا تَصْدُق النُبُوءآت .

قد تكونُ الرحلةُ مُتْعبَة . وقد تحرمكم النوم والطمأنينة . ولكن من قال إنَّ وظيفة الشِّعْر هي أن يحمل لأجفانكم النوم . ولقلوبكم الطمأنينة .

إنَّ وظيفةَ الشعر هي أن يغتالَ الطمأنينة ..

وهذا ما قرَّرتُ أن أفعلَهُ هذه الليلة ..

دمشق آذار (مارس) ١٩٧٩

بيروت

•

قاعة الإحتفالات الكبرى

الجامعة الأميركية ١٢ أيار (مايو) ١٩٨٠

1

هذه هي الجامعةُ الأميركية أخيراً . بعد خَمْس سَنَواتٍ من الغربة . والتمزّقِ .. والضَيَاعِ على أرصفة الحزن .

هذا هو منبرُها الذي كنتُ في الخمسينات . أمتطيه كحصانٍ أبيض .. وأقفز به من نَجْمَة إلى نَجْمَة .. ومن غَيْمَةٍ إلى غَيْمَة .. وأَمُرُّ به كالفاتحين تحت بَوَّابة الشمس ..

آهٍ .. كم اشتقتُ إليكم .. وإلى الشعر ..
آهٍ .. كم اشتقتُ إلى أقلامي . ودفاتري . وخَرْبَشَاتي ..
آهٍ .. كم اشتقتُ إلى صوتي الهارب منّي ..

آهٍ .. كم اشتقتُ إلى قلبي ..

آهٍ .. كم اشتقتُ إلى ضِحْكَةِ حبيبتي .. إلى عطرها المدرسيِّ .. إلى كُتُبها .. إلى أصابعها الملوَّثةِ بالحبر الأزرق .. إلى حقيبتها الجلديّة المُعَلَّقة بكَتِفِها .. إلى خواتمِها .. إلى أساورِها .. إلى صنادِلها .. إلى شعرها الغجريِّ الذي كان يُسَافِرُ في كُلِّ الدنيا ..

*

سنواتٌ خَمْسٌ ، كُنْتُ أبحث فيها عن الشِّعْر .. وعنكم .. وعن نفسي . لم أكُنْ إنساناً طبيعياً .. ولا كانَتْ بيروتُ طبيعية .. ولا كانت لغتي . ولا أصابعي . ولا عواطفي طبيعية .. وأنتُمْ كنتم مثلي غيرَ طبيعيين ..

فحين يفقد الشاعرُ شهيّةَ الشِّعْر لا يكونُ طبيعياً ..

وحين يفقد العاشقُ شهيّةَ العشق ، يصبح مثل الرجل الإلكتروني يتحرَّكُ على البطّارية .. ويُقَبِّلُ حبيبته على البطّارية .. ويرقُصُ معها على البطّارية ..

لذلك طويتُ أوراقي . واعتذرتُ من الشِّعْر ..
لأنَّ الاقترابَ من الشعر . يقتضي حدّاً أدنى من الطهارة ، والحضارة ، والرُقيِّ النَفْسِيِّ . لم أكُنْ أملكُهُ ، ولا كنتم تملكونه . في زمن الإنهيارات العصبيَّة .. والجُنُون .
سَنَواتٌ خَمْسٌ من الخراب العاطفيِّ والشِعْريّ . حتّى عثرتُ عليكم أخيراً . فركضتُ نحوكم فاتحاً ذراعيَّ .. كي أتأكَّدَ أنّ الشِّعْرَ لا يزالُ موجوداً .. والحبَّ لا يزالُ موجوداً .. واللهَ لا يزالُ موجوداً ..
فشكراً لكم لأنّكم أَعَدْتُموني إلى الشِعْر ..
وأعدتُموني إلى الله ...

2

تفتح لي قاعة (الأسمبلي هول) ذِرَاعَيْها .. فأدخل ...
كلّما أردتُ أن أختبر لياقتي الشعرية .. أذهب إلى الجامعة الأميركية في بيروت ..
أشمّ رائحةَ قصائدي التي ألقيتُها هنا في الخمسينات وبقيت عالقة بسقف القاعة وجدرانها ..

رائحةُ الشِعْر لا تذهب ..
إنّها تشبهُ رائحةَ امرأةٍ أحببناها في شبابنا الأول .
ولا تزال تطاردنا رائحتُها من مطارٍ إلى مطار .. ومن فندق إلى فندق ..

القاعة تضيقُ بعد كلِّ بيت شِعْر ..
والكراسي تزداد التصاقاً ..
والسقفُ ينحني قليلاً ليشمَّ عطرَ النساء الجالسات ..
وليلعب بعقودهنَّ وأساورهنَّ ..

بعد خمس سنوات من الحرب الأهلية .. ذهبتُ إلى قاعة (الأسمبلي هول) في الجامعة الأميركية .
لأطمئنَّ عن بيروت .. وعن الشعر ..
وجدتُهما جالسيْنِ في الصفّ الأوَّل .. وبكيتُ عندما رأيتهما .. (كطفل أعادوهُ إلى أَبَوَيْهِ ..) .

لم تتغيَّر بيروتُ كثيراً .. صحيح أنّها كانت شاحبةً قليلاً .. وناحلةً قليلاً .. ومُتْعَبَةَ العيْنَيْنِ من قلَّة النوم .. ولكنَّها كانت بيروت الجميلة التي تُلَوِّح بَشَرَتَها شمسُ

البحر .. وشمسُ الحريَّة ..

كانتْ تصغي إلى الشعر بابتسامة طفلةٍ . وطمأنينة حمامة ..

كانت بيروت تجلس في الصفّ الأول .. ومعها شقيقُها الأصغر .. الشِعْر ..

لم أسألهما من أين جاءا ؟ .. من بيروت الغربيّة أم من بيروت الشرقيّة .. من ضهور الشوير .. أم من صُور والنبطيّة ..

هذه أسئلة لا يطرحُها الشعر .. لأنَّ الشعر يطير دائماً فوق الجغرافيا ...

3

ما جرى في (الأسمبلي هول) كان شهادةً عظيمة لبيروت وللشِعْر . وتأكيداً جديداً على أنه لا أحدَ يستطيع أن يقتلَ بيروت .. أو يقتلَ الشِعْر ..

بعد خَمْسِ سنوات من الموت والدمار . دخلتُ إلى

القاعة الكبرى . فوجدتُ كلَّ الأشياء في محلها .. كأنّني تركتُها منذ خَمْسٍ دقائق .. لأُدخّنَ سيجارةً في حديقة الجامعة .. وأعود ...

الحنانُ ذاتُه .. بريقُ العيون ذاتُه .. ردودُ الفعل ذاتُها .. الإصغاءُ الحضاريُّ ذاتُه ..

حتى العصافير التي كانت تتجمّع على النوافذ لتسمَعَني في الخمسينات والستّينات .. لم تأتِ هيَ .. وإنما أرسلت أولادَها لتسمَعَني ..

وما قلتُهُ عن العصافير .. ينطبق على الطُلّاب والطالبات .. فماذا تعني هذه الملاحظة ؟

إنها تَعْنِي أن زمانَ الشعر ، هو خطٌّ هندسيّ لا انقطاعَ فيه ، وأنَّ الشاعر الذي كتب قصيدةَ حُبٍّ على حيطان مغارته في الصين ، أو في إفريقيا .. أو في بلاد الأسكيمو.. أو في صحراء نجد ، لا يقلّ أهميّةً و(حداثةً) عن الشاعر الذي يكتب قصيدته في مقهى (الفلور)

في الحيِّ اللاتيني في باريس ..
كلُّ قصيدةٍ جميلة .. هي قصيدةٌ (حديثة) ..
ولو كتبت سنة ٧٠٠٠ قبل الميلاد .

* * *

4

ويسألك سائل : ماذا تعني لك بيروت شعريّاً ؟
ليس سهلاً أن نشرح لماذا نحبّ امرأة .. أو نحبّ مدينة . من طبيعة الشروح أن تغتال الأشياء التي نشرحها .
فهناك علاقاتٌ تنشأ بينك وبين حجر صغير ..
أو بينك وبين شجرة .. أو بينك وبين مقعد في حديقة .. تنسيك كلَّ علاقاتك القديمة .

أكيد أن بيروت ليست نيويورك . أو برلين . أو طوكيو ، أو سان فرانسيسكو ..
فهناك مدنٌ أطول من بيروت .. وأعرض من بيروت.. وأغنى من بيروت ..

ولكن العلاقات مع مدينة لا تُقاس بالطول أو بالعرض ولا تُحسب بالمقاييس الهندسية .

إن ما يحدّد علاقتي بالمدن هو قدرتها على (تحريضي شعريّاً).. وعلى إعطائي الضوء الأخضر لأبدأ بالكتابة .

وبيروت كانت من هذه المدن النادرة التي حرَّضَتْ أصابعي عليَّ .. وحرضَّتْ صوتي عليَّ .. وحرّضَتْ دفاتري عليَّ ...

إنها لم تتركني لحظة واحدة في لحظة سكون ..

ولم تمنعني من التجوّل فوق أوراقي بعد الساعة السادسة مساءً ..

ولم تأخذني إلى محكمة أمن الدولة ، لأدفع رسوماً جمركية على أفكاري .. وأشعاري .

إن بيروت لم تضطهدني شعريّاً .. بل كانت تحمل فنجان القهوة إليَّ .. وتضعه على مكتبي .. وتتركني أشتغل ..

فأنا لا أستطيع أن أتعامل مع مدينة تجلس فوق

أصابعي .. أو تسرق أصابعي .. أو تكسر أصابعي ..

إنّني لا أتكلّم عن بيروت السياحيّة ، ولا عن بيروت شارع المصارف ، ولا عن بيروت الشقق المفروشة .. والتسهيلات والخدمات ..

فبيروت لها عشرات الوجوه ..

ولعلّ وجهها الأحلى هو ذلك الوجه الذي كان يغسلني بأمطار الشعر ...

بيروت ١٢/٥/١٩٨٠

بيروت

رابطة خريجي الليسيات اللبنانية ـ الفرنسية
فندق فينيسيا
١٩٧٠

سنةٌ مضتْ منذ أن التقينا آخرَ مرة في فندق فينيسيا .

كلُّ الوجوهِ التي عرفتْني وأدمنتْني ، وعرفتُها وأدمنتُها ، تحاصرني من جديدٍ حصاراً أتمنّى لو لا يُكْسرُ أبداً . من ذا الذي يحاصَرُ بسورٍ من العطر والأهداب ويتمنّى أن يُفلِتَ من حصاره . ويرفضُ نعمةَ الله عليه .

أنا أعرفُ العطرَ وأعرفُ صاحباتِه . وأعرفُ المعبَد وأعرفُ عابداتِه ، وأعرفُ الشِعْرَ وأعرِفُ قتيلاتِه ..

أعرفُ الوجعَ الذي تتركه الكلماتُ التي تُقَال ، وأعرفُ الوجَعَ الأشدَّ وجعاً الذي تتركه الكلماتُ التي لا تقال ..

سنةٌ مضتْ على لقائنا الأول .

الصالةُ المترفةُ ذاتُها . والمقاعدُ الوثيرةُ ذاتُها . والضوءُ الخافتُ ذاتهُ ، ورائحةُ قصائدي لا تزالُ بعد مرور عام تعشعش في الزوايا كالبهارات الهنديَّة العنيفة ..

نعم ، يا أصدقائي ، الشعرُ بهارٌ هنديٌ لاذع . يُحرِقُ كاتبَه ، ويُحرق سامعه ، ويحولّهما إلى جمرٍ أحمر ..

ومن أجل نجاح هذه الأمسية ، أتوسَّل إليكم أن تتحملوا جمري وحرائقي . أتوسّل إليكم أن تتحملوا زغردة النار في ثيابكم .

فالشعرُ هو حوارُ الأشياء التي تحترق . هو احتكاكُ أعواد الثقابِ ببعضها ..

والأمسية الشعريةُ ـ في أبسط معانيها ـ هي حفلةُ ألعاب نارية تنتهي باحتراق السماء والأرض والسقف والجدران والمتفرّجين جميعاً ..

ولكي تحترقوا كأشجار الغابة .. دعوناكم ..

ولكي تُضيئوا كشمس إفريقية .. دعوناكم ..

ولكي تكسروا ، كالأنهار الغاضبة سدودَكم ، دعوناكم ..

ولكي تهربوا من أسمائكم ، وتذاكر ولادتكم ، وعناوينكم ، وأعماركم .. وتثاؤب أيامكم .. دعوناكم..

فالشعر هو سَفَرُنا خارجَ التاريخ ، وخارجَ حدود الأشياء .. وخارجَ أنفسنا ..

الشعرُ هو دخُولُنا منطقةَ انعدام الوزن ، وتخلّصنا نهائياً من جاذبية الأرض ، ومن ضغط أفكارنا وثيابنا علينا ..

بالشعر وحده ، نفتَحُ ثقباً في جدار الكلْس والنحاس الذي هو حياتنا ..

بالشعر وحده ، نكسر بابَ المعتقل الذي لا يُسمح لنا فيه ، أن ندخِّنَ .. أو أن نبكي .. أو أن نصرخ .. أو أن نثور .. أو أن ننتحر .. أو أن نكتب رسائل الحبّ

أو نتلقّاها .. أو أن نلصق على الجدران صُوَر حبيباتنا ..

بالشعر وحده .. نفتح ثقباً في لحم الضجر ..

بالشعر وحده .. نقول ما نريد لمن نريد ..

بالشعر وحده .. يصير الله أكثرَ اقتراباً .. وتصبح عينا حبيبتي أشدَّ سواداً ..

* * *

فندق فينيسيا .. مرةً أخرى ..

كلُّنا قدامى في هذا المكان ..

الضيفُ الوحيدُ الجديد الذي ينضمّ إلينا هذه الليلة هو .. الحزن ..

هل تعرفون هذا الصبيَّ الرماديَّ النظرات الذي هو الحزن ؟

هل تعرفونَ هذا البستانيَّ الذي يملأْ مزهريَّاتنا وروداً صفراء ؟.

هل تعرفون هذا المسافرَ المجهول الذي ينقر بأصابعه

النحيلة الشاحبة أبوابنا كلّما هبط الظلام ؟
من منّا لم يزره الحزنُ في السنة الماضية .. من منّا لم
يبلل الدمعُ بياضَ شراشفه ؟
من منّا لم يسافر في عقيق جرح ؟
من منّا بعد حزيران لم يتحوّل إلى جرحٍ يمشي على
قدمين ؟
أنا شخصياً أعطف على حزني وأحبّه ..
كان أعنفَ حزنٍ عرفتُه في حياتي ، ولكنه كان أيضاً
أجملَ حزن ..
وشِعْري . هو الآخر ، عرفَ الحزنَ الجميل ..
وتعلَّمَ كيف يكتبُ بالأقلام الرمادية على أوراقٍ رمادية ..
تعلّم كيف يستعملُ اللونَ الأصفر ..
للمرة الأولى .. أستعمل في شعري اللونَ الأصفر ..
للمرة الأولى .. أرسمُ عُنُقَ من أحبّها بالأصفر ،
معصمَها بالأصفر .. صوتَها بالأصفر .. ضحكتَها
بالأصفر ..

للمرة الأولى .. يصبحُ الشحوبُ عندي سيّد الألوان .
ويصير طعمُ الفجيعة أطيبَ من طعم كلّ الخمور الفرنسية ..

* * *

مرّ عامٌ .. منذ أن افترقنا ..

لا أعرفُ أيَّ نوع من الشعر سأقرأ عليكم .

الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني سأقرأ قصائدَ لا عقلَ لها .. قصائدَ هي حصيلةُ تمزُّقي ، وغضبي . وضياعي . وشكّي . وقرَفي . وحبِّي ، وكرهي . وجنوني .. خلال عام ..

سأقرأ كلَّ الأشياء المجنونة وكلَّ الأشياء العاقلة .. كلّ الأشياء البيضاء .. وكلّ الأشياء السوداء .. كلّ القصائد القدِّيسة .. وكلّ القصائد الشرِّيرة .. كلّ القصائد المتداولة كالنقد .. وكلّ القصائد المطاردة كالأفيون .. كلّ القصائد المرضيّ عنها ، وكلّ القصائد المغضوب عليها ـ وهي بيني وبينكم ـ أحبُّ قصائدي إليَّ .

سأفتح دفاتري كيفما أتفَّق .. وأقرأ كيفما أتفَّق ..
ولن أترككم حتى تشتعلَ النار في ثيابكم ، وحتى يختلط رمادي ورمادكم في قارورةٍ واحدة .

ألم أقل لكم منذ البدء ، أن الأمسية الشعريّة هي حفلة ألعاب نارية ، تفترسني وتفترسكم في وقتٍ واحد ..

أيتها الصديقات ، أيها الأصدقاء ، لا تخافوا نار الشعر .. فإن الانسانَ العظيم هو الإنسان الذي يحترق ....

بغداد

١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩
الإتحاد العام لنساء العراق

أيّتها الصديقات

في عام ١٩٦٩ جئتُ إلى بغداد لأُلقيَ قصيدةً ..
وبعد قراءة قصيدتي . التقيتُ بقصيدةٍ ثانية إسْمُهَا
(بلقيس) وتَزَوَّجتُها ..

وأقمنا قبلَ عَشْرِ سَنَواتٍ ، أَوَّلَ مؤسَّسةٍ وَحْدَويّةٍ
بين قَلْبَيْن .. وبين وَطَنَيْن ..

مؤسَّستُنا الصغيرةُ هذه ، كانت رائدةً وطليعيةً
وشجاعة . وكنّا ـ بلقيس وأنا ـ نطمح إلى أن نكونَ
مثالاً ونموذجاً لوَحْداتٍ أُخرى قادمة ، تجعلُ سماءَ
الوطن أكثرَ اتساعاً .. ونُجُومَهُ أكثرَ عدداً .. وبحارَهُ
أكثر زُرْقَةً .. وأطفالَه يتكاثرون بالملايين ، كما

تتكاثرُ شقائقُ النعمان في أوَّل الربيع ، بين الرُطْبَة وأبي الشامات ..

عَشْرُ سَنَوَاتٍ ، ونحنُ ننتظرُ أن ينضمَّ إلى نادينا الصغير عشاقٌ جُدُد .. يؤمنون مثلنا ، أنَّ الحبَّ هو الحَجَرُ الأساسيّ في تكوين الإنسان .. وفي تكوين الأوطان .

كان نادينا صغيراً وجميلاً ، تلتصقُ جدرانُه ببعضها من فَرْط الحنان .. وفيه بُسُطٌ حمراءُ من شمال العراق ، وستائرُ من حرير الشام .. وبَلَحٌ من بساتين أبي الخصيب .. ومُشمشٌ ، ودرّاقٌ ، من غُوطَة دمشق .. و (استِكانات) شايٍ تُضيء كأنَّها شموسٌ من العقيق .. ومَنٌّ وسَلْوَى ، لا أدري حتّى الآن ، إذا كانتْ حلاوتُهُمَا تأتي من عند الله .. أم من شَفَتَيْ حبيبتي ...

لم يكن نادينا يُشبه أيَّ نادٍ آخر . فلا هو كنادي (لاس فيغاس) ، أو (مونت كارلو) .. أو (كان) ..

ولا هو كنادي (البلاي بوي) في لندن ، حيث ينزف دَمُ الديوك العربيّة كلَّ ليلة ، وتتهشّمُ عظامُهم كلَّما سقَطَتْ كُرَةُ (الرُوليت) على رقم من الأرقام ..

نادينا نحنُ ، أيَّتها الصديقات ، مفتوحُ الذراعيْن لكلِّ الرجال والنساء والأطفال والعصافير ...

شَرْطُ الإنتساب لنادينا بسيطٌ جداً ... وهو أن يكون طالبُ الإنتساب ، عربيّاً منذ ولادته ، وعاشقاً منذ ولادته .

وأن يتركَ على باب النادي لدى دخوله كلَّ عُقَدِهِ الإقليميةِ ، والفِئَويةِ ، والأنانية .. وكلَّ ميراثه القَبَـلِيّ .. وأن يكون مستعدّاً أن يتزوَّج الوطنَ في أيٍّ لحظة ..
الزواجُ من امرأةٍ .. والزواج من وطنٍ .. مشروعٌ قوميٌّ واحد .. ولا تصدّقوا من يقولُ لكم إنَّ المرأةَ شيءٌ .. والوطنَ شيءٌ آخر ..

فعندما يختارُ رجلٌ امرأةً ليسكنَ معها ، أو ليسكنَ

إليها .. فهذا يعني أنه اختار وطناً ..

والرَّجعيون ، والمعقَّدون ، والباطنيّون ، هم وحدهم الذين يسحبون من المرأة جوازَسفرِها ، ويفرضون عليها نظام مَنْع التجوّل ..

أيّتها الصديقات :

يشاء قدري الجميلُ ، أنْ يدعوني (اتحادُ نساء العراق) للاشتراك في هذا اللقاء الشعري .

فهل هذه مُجَرَّدُ صُدْفَة ، أم أنَّ النساء ، يعرفن جيّداً أنّني كنتُ خلالَ ثلاثين عاماً وطنهنَّ كما كنَّ وطني ...
أعتقد أنَّ التفسير الثاني . هو الصحيح .

وشكراً لبلقيس ، ولكلّ نساء العراق اللواتي كتبنَ معي قصيدتي .. فلولاهنَّ لكانت كتابةُ الشعر مستحيلةً .. وحياتي مستحيلة ....

بغداد ١٩٧٩/٢/١١

عمّان

جمعية أصدقاء القدس
حزيران (يونيو) ١٩٦٨

تدعوني جمعية أصدقاء القدس عشيّةَ مرور عامٍ على سقوط المدينة المقدّسة ، لساعة تأملٍ وخشوع .

وبكلِّ احترامٍ ، أرفض هذا الاقتراح الطيّب .

فالتأمّل والخشوع طقسان من طقوس الصوفيّة .

والصوفيّة تقاعد ذهني وانسحاب من الحياة والنضال . ولا مكانَ للصوفيّة والمتصوّفين عندما تكون بلادنا مذبوحة من الوريد إلى الوريد ..

أرفضُ أيضاً .. أن يأخذ اجتماعُنا طابعَ الوقوف على الأطلال ، والبكاء والاستبكاء ..

فأسوأ ما في شعرنا العربيّ هو حواره مع الأشياء الميّتة .. وأسوأ ما نفعله أن نبقى على أرض المعركة التي خسرناها .. نجمع عظامَ موتانا .. ونلملم حَدْوَات خيولنا المذبوحة ..

لا أريد أن تتحوّل هذه الأمسية إلى احتفال جنائزي..

فحزيران كان يوماً واحداً من الزمان .. والزمان ليس يوماً واحداً ..

الزمان مجلّد ضخم يضمّ تجارب الرجال ، وانتصاراتهم ، وهزائمهم .. أفراحهم ، وأحزانهم ، حسناتهم وسيئاتهم ..

ولا يجوز أبداً أن يبقى حزيران أندلساً ثانية ننظم فيها المراثي ، ونؤلّف الموشّحات .. ولا قبراً من الرخام نقصده كلّ عامٍ بأكاليل الزهر .. وملابس الحداد ..

حزيران حفرةٌ في التاريخ .. يجب أن نقفز فوقها ..

حزيران درسٌ .. وعِبْرةٌ .. وفرصة لترميم عظامنا ، لنقفز من جديد ..

حزيران إرادة جماعيّة للانتصار .. لا مقبرة جماعيّة .

حزيران جرح في الذاكرة .. وليس نصباً تذكارياً ، أو يوماً نضيفه إلى قائمة المناسبات التي نقفل فيها الأسواق، والمدارس .. ونتوقّف عن العمل .

إنني لا أغضب من حزيران لأنه أسال دمنا ..
فقد تخثّر دمنا بما فيه الكفاية .. وكان عليه أن يسيل ..

لا أغضب من حزيران إذا كوانا بسيفٍ من نار ،
لأن جلودَنا تخشّبتْ بما فيه الكفاية ، وصارت بحاجة
إلى حفلة كَيٍّ ..

لا أغضب من حزيران إذا أبكانا ، لأن غُدَدَ
الدمع في عيوننا قد توقّفت عن العمل ..

لا أغضب منه إذا أوجَعَنا وأحزننا ، لأنّنا منذ عصورٍ
نسينا نعمة الوجع وعبقرية الحزن ..

أيّها الأصدقاء :

لن أقيم في هذه الأمسية قدّاساً لراحة شهداء حزيران..
ولكنني سأقرأ عليكم قصائد شديدة الإنفجار ..

لأن حزيران ، على ما يبدو ، ألغى العقل العربي
نهائياً .. وألغى الشعر .. وألغى النثر .. وألغى الخطابة ...

فلنخطّط لتأسيس عصرٍ عربي جديد ..

وعقلٍ عربي جديد ...

ولغةٍ عربية جديدة ...

فكلُّ ما قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ خِرَقٌ بالية .. وأثاثٌ
مستعمَل .. وآثارٌ قديمة ..

عمّان ١٩٦٨/٦/٥

القاهرة

١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٧
الكلمة التي ألقاها الشاعر في منزل أمير الشعراء أحمد شوقي
(كرمة ابن هانئ) بمناسبة تحويله إلى متحف .

نحن مدعوونَ هذه الليلةَ إلى بيت شاعرٍ عظيم .
مدعوونَ للخُروج من دائرة الحَجَر والأَسْمَنْت التي تحاصرُنا ، والدخولِ في مملكة الحُلُم .
مَدْعُوونَ للتعرّف على أنفسنا ، والالتقاء بإنسانيتنا ..
فالإنسان يحتاجُ من حينٍ إلى حينٍ إلى أن يتذكَّرَ أنّه إنسان .
نحن مدعوونَ هذه الليلةَ إلى بيت أحمد شوقي .
الشاعرُ ليس هنا ..
إنّهُ مسافرٌ منذ خمسةٍ وأربعين عاماً ..
مسافرٌ في أيامنا ..
مسافرٌ في ضمائرنا ..
مسافرٌ في لغتنا ..

مسافرٌ في فَرَحنا وبُكائنا ..
مسافرٌ في حريّتنا ..
مسافرٌ في كتاب حُبّنا .. وعُيُون حبيباتنا ..

نحنُ في منزل الوحي ..
ولكنَّ من كان يُوحى إليه ليس هُنا ..
إنَّ مواعيدَه في السماء أنْسَتْهُ مواعيدَه على الأرض .
غير أنه قبل سفره ، أعطى مفاتيحَ بيته إلى وزارة الثقافة المصرية ، وكلّفها أن ترعى ضيوفه . وتكونَ سيّدةَ البيت في غياب سيّد البيت .
تنفتحُ أمامنا بوابّاتُ القصر المسحور ..
وتبتديءُ الرحلةُ في بلاد الدهشة ...
تخرج قصائدُ أحمد شوقي بالفساتين البيضاء ، والخضراء ، والزرقاء ، والورديّةِ لاستقبالنا . وهي تحمل أواني العطر ، ومراوحَ الريش ، وعقودَ الياسمين ،

وعلى أكمامها كُتِب بماء الذَهَب :

« أُدْخلُوها بسلامٍ آمنينْ .. »

تخرج قصائدُ أحمد شوقي بعد خمسةٍ وأربعين عاماً من مخادعها كما تخرجُ العصافيرُ إلى الحريَّة ..

نلاحظ أنّها لا تزالُ صبيّة .. فلا جَعْدةَ على الجبين .. ولا ذُبولَ في الشفاه .. ولا ترهُّلَ في الجسد .. ولا تراجعَ في طُمُوح النهدين ..

القصيدة امرأةٌ جميلةٌ لا تكبُرُ .. ولا تشيخ .. وليس لها تاريخُ ميلادٍ معروف ..

إنها تولَدُ كلّما قرأناها .. وتتوهَّجُ ـ كخاتم سليمانَ ـ كلّما فرَكْنَاها ..

٭

تستيقظُ (كَرْمَةُ ابنِ هانيْ) بعد رقادٍ طويلْ ..

تعودُ إلى العناقيد دورتُها الدمويّة .

وتمتلِيءُ الكؤوسُ بالنار والعقيقْ ..

تستيقظُ ليلى العامريّة . وتستيقظ تحت قُفْطَانها

حمامتانِ ... بَرِّيَتَان ... مَذْعُورتان ..

ألم أقل لكم إنَّ الحَمَامَ البريَّ هو المسؤولُ عن جنون قيسٍ بنِ الملّوح .. وأنَّ قيساً مات بضَرْبَة نهدٍ .. ولم يمتْ بضربة شمس ..

تسحبُ كليوبترا المصريّةُ سيفَ العشق في وجه روما ، وتتحدّى أساطيلَ قيصر .. ألم أقل لكم إنَّ الحبَّ هو قيصرُ القياصرة ؟

تستعيدُ (كَرْمَةُ ابنِ هانئٍ) ذاكرتَها الضائعة .

يتذكَّر الفمُ تاريخه حين كان وردةً ..

وتتذكَّر الوردةُ أصلها حين كانتْ فماً ..

ويبتدئ مهرجانُ الضوء والصوت في العيون الكبيرةِ التي لا أتذكر أوّلَهَا .. ولا أتذكَّرُ آخرَها ..

الليلُ في عُيُون المِصريّاتِ إيقاعٌ أسود .. مطرٌ أسود .. كتابةٌ سوداء قضيتُ عمري كلّه في فكّ رموزها .. ولم أجد الحلَّ الصحيح ، ولا أتمنّى أن أجدَه ...

في طفولتنا الشعريّةِ الأولى . كانت (كرمة ابنِ هانئ) في خيالنا مدينةً خرافيةً أعمدتُها من ذَهَب .. وقِبابُها من ذَهَب .. وأشجارُها وأزهارُها . وسلالمُها ، وأحواضُ مائها ، وأجسادُ نسائها من ذَهَبْ ..

خمسةً وأربعينَ عاماً . ونحنُ نطوفُ حول المغارةِ المسحورة . نشمُّ رائحةَ البخورِ المنبعثةَ من المقاصير الجوّانية . ونسمعُ إيقاعاتِ الشعر تأتي من البعيد البعيد ..

ولكنَّ البروتوكولَ الشعريَّ في تلك الأيّام ، لم يكن يسمح لنا باجتياز باب المغارة . واختراقِ الخطّ الذي يفصلُ الشاعرَ عمَّن يكتب لهم .. ولا يسمحُ برفع الكلفة بين العابد وبين المعبود ..

كانت (كَرْمةُ ابنِ هانئ) فردوسَنا المفقود ..

وكان وجهُ أحمد شوقي بالنسبة إلينا وجهاً مستحيلاً ليست له ملامحُ محددة .. أو خطوطٌ محددة .. أو

ألوان محددة ..

لذلك كنا نشكّله في مخيّلتنا كما نريد . فمرةً كنا نتصوَّره طاووساً إفريقياً .. أو غزالاً عربيّاً ..

ومرةً كنا نتصوّره زرافةً طويلةَ العُنُق تأكل العشبَ من مراعي القمر ..

ومرةً كنا نتصوّره سمكةً قزحيّةَ الألوان ، تخرج من البحر كلَّ ليلة لتقرأ لنا قصيدةً زرقاء ..

٭

بعد خمسةٍ وأربعين عاماً .. تغيّرت الصورةُ تماماً ..

وسقطَ نظامُ التشريفات في الشعر ..

وأُلغيتْ كلُّ البروتوكولات التي كانت تعتبر الشاعرَ وثناً .. أو ملكاً لا نستطيع أن نقابله إلا بربطة العُنُق السوداء .. والحذاء اللمّاع . والقبّعةِ العالية ..

اليوم ... تغيّر الشعرُ والشاعرُ والموقفُ الشعريّ . وصار بإمكاننا أن ندخلَ إلى بيت الشاعر ، نتجوّل في

باحاته وحجراته ، نتلمّس أبوابه وجدرانه ، نفتّش عن الكنز المخبؤ في دهاليزه ، ونلاحقُ أنفاسَ الشاعر ، وضَرَباتِ قلبه في كلّ زاويةٍ من زوايا البيت الذي يكاد من شدّة عنفوانه أن يطير ...

*

اليوم ندخل إلى بيت أحمد شوقي بملابسنا العاديّة .. والدعوة عامّة .

الشعر في أساسه هو من الأملاك العامة التي يستطيع كلُّ انسانٍ أن يدّعي أنّها له .. أو أنَّ له حصَّةً فيها ..

الشعرُ والشاعرُ معاً .. هما أملاكٌ قوميّة لا يستطيع أحدٌ أن يتصرف بها بيعاً .. أو شراءً .. أو رهناً .. أو مصادرة ..

*

لا بوّابةَ للشعر ، ولا جدرانَ حجريّة له ..

إنّه مسرحٌ في الهواء الطلق ، يدخل إليه الكبارُ والصغار .. في كلّ ساعات الليل والنهار .. مسرحٌ ليس

له شُبَّاكُ تذاكر .. وليس فيه بنواراتٌ .. ولا مقصوراتٌ مَلَكيَّة ..

في هذا المسرح القديمِ القديمِ الذي هو الشعر ، يجلس الناسُ في حضرة الكلمة متساوينَ ، متعادلينَ ، متشابهينَ .. تاركينَ خارجَ المسرح نعالَهم .. وتيجانَهم .. وألقابَهم .. وسيوفَهم .. ودفاترَ شيكاتهم .. وفروقَهم الطبقيَّة ..

لا طبقيّةَ في الشعر ..
لا طبقيّةَ في كتابته ..
ولا طبقيّةَ في تذوقه ..

هذا ما بشَّرتُ به ، وقاتلتُ من أجله ثلاثينَ عاماً ..

فلقد كنتُ أحلُم بديمقراطيةٍ شعريّة ، لا يبيعُ فيها الشاعرُ جلدَه لأمير المؤمنين ، ليصنع منه طَبْلةً يقرعها إرضاءً لغروره ونرجسيّته ..

كنتُ أريد أن أُنقذ الشاعرَ من هواية السلاطين في

تربية الحيوانات الشعرية الأليفة ، ومن ضغط الدنانير على صدره .. وأصابعه .. ووجدانه ..

كنتُ أحلم بديمقراطيةٍ شعريَّة ، يصبح فيها الشعر قماشاً شعبياً يلبسه كلّ الناس ، وحديقةً عامةً يتمدَّد على عشبها الأخضر ملايينُ المتعبين ..

وأخيراً .. كنتُ أحلمُ بديمقراطية شعرية لا فرقَ فيها بين من يملكون ومن لا يملكون . وبين من يحكمون ولا يحكمون .. وبين من تخرّجوا من أكسفورد ، وهارفارد ، وبرنستون .. وبين من تخرَّجوا من حقول القصب والذُرة على ضفاف الترع الحزينة .. وأخذوا شهاداتهم من جامعة الدموع ..

☆

(كرمةُ ابنِ هانئْ) تفتح لنا ذراعيْها ..
نضع رؤوسَنا المتعَبَة على صدر أحمد شوقي ونبكي ..
نشكو إليه سقوطَ دولة الشعر أمام دولة المقاولين .

والمرابينَ ، والسماسرةِ ، وتجّارِ السلاح ..

نشكو إليه هذا الزمنَ العربيَّ الذي انفصل نهائياً عن الشعر .. وتحوّل إلى نثر رديئ ..

نشكو إليه قسوةَ هذه الصحارى العربيةِ التي تَحُدُّها العصبيّاتُ القَبَلِيَة من شرقها ، وتحدّها جبالُ الأنانيّة من غربها . وتحدُّها الأورامُ النفطيَّةُ من جَنوبها .. والكلابُ البوليسيَّة من شمالها ..

نشكو إليه هذه السماءَ المعدنيَّة الممتدّة من المحيط إلى الخليج .. والتي تمطرنا ملوحةً وقَرَفاً وطاعوناً وجُنُونا ..

نشكو إليه كثافةَ الملح على شفاهنا .. وتراكمَ البشاعة في نفوسنا ، وجفافَ الينابيع في داخلنا ..

نشكو إليه موتَ جميعِ عصافير الحبِّ العربية .. مقتولةً برصاصٍ عربي ..

نشكو إليه حياتَنا التي أصبحت رحلةً مرعبةً بين

حَبَّة فاليوم أخذناها .. وحَبَّةٍ فاليوم سوف نأخذها ...

*

نحنُ في منزل الوحي ..
ولكنَّ الوحيَ الذي كان يطيب له السكنى في أجفان
أحمد شوقي . صار يخاف النزولَ علينا .. صار يخافُ منّا ..
صار يفكّر ألفَ مرة قبلَ أن يلمس بجناحيه الذهبّيين
أرضنا ..
صار يخاف الدخولَ إلى منازلنا .. حتى لا نذبحَهُ وهو
نائم ..
صار يخشى الهبوط في مطاراتنا حتى لا يُلقى عليه
القبضُ بتهمة تعاطي الشعر بصورة سرّية ..
آهٍ يا أرضَ الكُتُب المقدّسة التي لا قداسةَ فيها
لكتاب ..
ويا أرضَ النُبوءات التي أكلتْ جميعَ أنبيائها ...

*

إلى قناديل أحمد شوقي نلتجئ ..

إلى حنان عينيه نلتجئ ..

إلى دفء كلماته نلتجئ .. بعد خمسة وأربعين عاماً قضيناها في الزمهرير .. لعلَّ نارَ الشعر تُخرجنا من العصر الجليديِّ الذي نحن فيه ، وتحوّلنا من أسماكٍ متجمِّدة إلى خيولٍ تجرح بحوافرها وجه المستحيل ..

على صدر أحمد شوقي نضعُ رؤوسنا المتعَبَة .. ونستردّ طفولتنا .. ونقرأ صلاتنا .. علّنا بالشعر نقترب قليلاً من ملكُوت الله ...

القاهرة ١٩٧٧/٦/١٥

السودان

دار الثقافة ــ الخرطوم ــ ١٩٦٩

هذا الذي يحدث لي ولشعري في السودان شيءٌ خُرافيّ ..
شيءٌ لم يحدث في الحلم ولا في الأساطير ..
شيءٌ يُشرفني .. ويُسعدني .. ويُبكيني ..
أنا أبكي دائماً حين يتحوّل الشعر إلى معبد ، والناس إلى مصلّين ..
أبكي دائماً .. حين لا يجد الناس مكاناً يجلسون فيه، فيجلسون على أهداب عيوني ..
أبكي دائماً .. حين تختلط حدودي بحدود الناس ، فلا أكاد أعرف من بنا الشاعر .. ومن بنا المستمع ..
أبكي دائماً .. حين يصبح الناس جزءاً من أوراقي.. جزءاً من صوتي .. جزءاً من ثيابي ..

أبكي لأن مدينةً عربية .. مدينةً واحدة على الأقلّ .
لا تزال بخير ..

والسودان ، بألف خير . لأنه يفتح للشعر ذراعيه ، كما تفتح شجرة التين الكبيرة ذراعيها لأفواج العصافير الربيعيَّة المولد .

السودان ينتظر الشعر كما تنتظر الحلوةُ على النافذة فارس الأحلام . يأتي على صهوة جواده . حاملاً لها قوارير العطر . وأطواق الياسمين .. ومكاتيب الغرام ..

السودان . يجلس أمام الشعر . كما تجلس الأمّ أمام سرير طفلها . تغمر خديّه بالقبلات . وتطعمه حلاوة اللوز والسُكَّر .

السودان . يلبس للشعر أجمل ما عنده من ثياب .. ويذهب للقاء الشعر ، كما يذهب العاشق إلى موعد غرام..

السودان بألف خير ..

لأنه ربط قدره بالشعر .. بالكلمات الجميلة ..

والكلمات ، أيّها الأصدقاء ، جنّياتٌ رائعات الفتنة ، يخرجن مرةً من عتمة الظنون ، ومرةً من عتمة الدفاتر . .

الكلمات طيور بحريّة ، تخترق زرقة السماء ، دون تأشيرةٍ ، ودون جواز سفر ..

لم أكن أعرف ، قبل أن أزور السودان ، أية طاقة على السفر والرحيل تملك الكلمات .. ولم أكن أتصوّر قدرتها الهائلة على الحركة ، والتوالد ، والإخصاب ..

لم أكن أتخيّل أن كلمةً تُكتب بالقلم الرصاص على ورقة منسيّة، قادرة على تنوير مدينةٍ بأكملها ، على تطريزها بالأخضر والأحمر .. وتغطية سمائها بالعصافير ..

الشعر قادر على اختراع مدنٍ بأكملها ..
قادر على أن يقول لها كُوني .. فتكون ..

وأنا الذي زَرَعَتْني كلماتي في زوايا من الأرض لا أعرفها .. وفي عيونٍ لا أعرفها .. وعلى شفاهٍ لا أعرفها ..

أشعر بالزهو والكبرياء.. حين أرى حروفي التي نثرتُها في الريح منذ عشرين عاماً ، تُورق وتُزهر على ضفاف النيلين الأزرق والأبيض ..

فالشعر فنّ لا يكتمل إلا بالآخرين ..

والقصيدة إذا لم تسافر إلى وجدان الآخرين ، تبقى كالعصفور الميّت في حَلْق صاحبها .. تبقى كالقبلة من طَرَف واحدٍ ، لا طعم لها .. ولا نكهة ..

وكما كان نرسيس يعشق صورته المنعكسة في الماء .. يبحث الشاعر عن عيون الناس ليتمرّى بها .. يبحث عن كلِّ السطوح العاكسة التي تعيد له صورته مكبَّرةً ألف مرة ..

هذا ما يسمُّونه (النرجسيّة) ..

وما أحلى النرجسيّة إذا كانت تتيح لي أن أتخذ من عيونكم الطيبة مرايا .. أرى فيها شكل وجهي، وشكل عواطفي ..

أيها الأحبَّاء .

هذا الذي يحدث لي ولشعري في السودان شيء لا يصدّق .. وهو شهادة حاسمة على نقاء عروبتكم ..

فالعربيّ يرث الشعر كما يرث لون عينيه . ولون بشرته .. وطول قامته .. ويحمله منذ مولده كما يحمل اسمه وبطاقته الشخصيَّة ..

لذلك أتساءل . كلّما ألقيت شعري في مدينةٍ عربية . لماذا لا يكون الشعر منطقة الظلّ والأمان . على خريطة العالم العربي التي تحترق بأحقادها وخصوماتها؟.

لماذا لا تطير القصائد أسراباً من الحمام الأبيض فوق مدن عربية مطرّزة بالخناجر .. والأظافر .. والخوازيق ؟.

لماذا لا يكون الشعرُ البساطَ المريح الذي يتّسع لكل الأحبَّة ؟.

لماذا لا نلجأ إلى الشعر ؟.

إلى هذه اللغة النظيفة في حوارنا مع بعضنا نحن العرب .. بعد أن تعبت أضراسنا ، وتعبت مخالبنا من تمزيق لحم بعضنا ؟

لماذا لا يكون الشعرُ شجرةً يأكل منها الجميع .. وثوباً يلبسونه .. ولغةً مشتركة يتكلّمونها ..

العالم العربي ، أيها الأصدقاء ، بحاجة إلى جرعة شعرٍ . بعد أن جفَّ فمه .. وتخشَّب قلبه ..

إن الشعراء ، أيها الأصدقاء ، مدعوون لغرس السنابل الخضراء في كلّ زاوية من زوايا الوطن العربي ...

وها أنذا في السودان حاملاً وردةَ الشعر .. وسنبلةَ المحبَّة ...

* * *

مفاجأة المفاجآت لي .. كانت الإنسان السوداني ..

الإنسان في السودان حادثة شعرية فريدة لا تتكرّر ، ظاهرة غير طبيعية . خارقة من الخوارق التي تحدث

كلَّ عشرة آلاف سنة مرَّة ..

الإنسان السوداني هو الوارث الشرعي الباقي لتراثنا الشعري . هو الولد الشاطر الذي لا يزال يحتفظ ـ دون سائر الأخوة ـ بمصباح الشعر في غرفة نومه .. وبخزانة الشعر المقصّبة التي كان يعلّقها المتنبيّ في خزانة ملابسه ..

كلّ سودانيّ عرفتهُ كان شاعراً .. أو راويةَ شعرٍ .. في السودان إما أن تكون شاعراً .. أو أن تكون عاطلاً عن العمل ..

فالشعر في السودان هو جواز السفر الذي يسمح لك بدخول المجتمع ويمنحك الجنسيَّة السودانية ..

الإنسان السوداني ، هو الولد الأصفى ، والأنقى والأطهر الذي لم يبع ثيابَ أبيه ، ومكتبته .. ليشتري بثمنها زجاجة خمر .. أو سيّارة أميركية ..

هو الولد الوحيد في الأسرة العربية الذي لا يزال
يصلّي في معبد الشعر ، ويجثو في محرابه ..

هو الإنسان العربي الوحيد الذي لم يتشوّه من الداخل ،
ولم يبع تاريخه بفخذ امرأة بيضاء تسبح على شاطئ (كان)
أو (سان تروبيز) ..

* * *

أيها الأحبَّاء ..
أنا في السودان ، لأتلو عليكم شعري .. وأُتمِّم
ديني ...
فلقد أصبحتُ مقتنعاً ، أنَّ من لا يزور السودان ،
لا يكتمل دينُه .. ولا تتأكَّد شاعريّته ..

السودان

قاعة الصداقة في الخرطوم
كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠

ها أنذا مرةً أخرى في السودان .
أتعمَّدُ بمائه .. وأتكحّل بليله .. وأسترجعُ حبّاً
قديماً لا يزال يشتعل كقوس قزحٍ في دورتي الدموية .
عرفتُ في حياتي ، وفي رِحْلاتي ، كلَّ أنواع اللآلئ
البحرية .
عرفتُ اللؤلؤَ الأبيضَ ، واللؤلؤَ الرماديْ ..
وعرفتُ اللؤلؤَ الأخضرَ ، واللؤلؤَ الورديْ ..
وعرفتُ اللؤلؤَ الأوروبيَّ ، واللؤلؤَ الأسيويْ ..
واللؤلؤَ الذي يُزَانُ بالقيراط .. واللؤلؤَ الذي
يُزانُ بالقصائد والدموعْ ..

واللؤلؤَ الذي يتدلّى على صدور الكواكب ..
واللؤلؤَ الذي يتدلّى على صدور الجميلات ..

* * *

بعد ثلاثينَ سنةً من الغَطْس تحت سطح الماء ..
والغَرَقِ في بحار النساء .. اكتشفتُ أن اللؤلؤَ الأسودَ
هو الأغلى .. والأحلى والأكثرَ إثارة ..

كما اكتشفتُ ، أنّ الذي يملك مثقالاً واحداً من
اللؤلؤ السوداني .. يمتلك كنوزَ سليمان .. والحورَ
المقصوراتِ في الجنان .. ويصبح مَلِكَ الإنس والجانْ ..

* * *

الحبّ السودانيُّ ليس جديداً عليّ ..
فهو يشتعل كالشطّة الحمراء على ضفاف فمي ..
ويتساقط كثمار المانغو على بوّابة قلبي ..
ويسافر كرمحٍ إفريقي بين عُنُقي وخاصرتي .

هذا الحبُّ السودانيُّ لا أناقشهُ .. ولا أحتجّ عليه ..
لأنه صار أكبرَ من احتجاجي .. وأكبرَ منّي ..
صار وَشْماً على غلاف القلب لا يُغْسَل .. ولا يُمْسَح ..

* * *

قبل عشرة أعوام جئتُ إلى السودان ومعي وردةُ الحبّ .. وقنديلُ الشعر الأخضر ..

بعد عشرة أعوامٍ لا أعرفُ ماذا أحملُ للسودان ..

فوردةُ الحبّ التي كنتُ أشكُّها في عروة ردائي .. أَكَلُوها ..

وقنديلُ الشعر الأخضر الذي كنتُ أُضيءُ به ليلَ العرب .. كسَرُوهْ ..

حتى كلماتُ الغَزَلِ التي كنتُ أكحّلُ بها عينيْ وطني ..
صادروها .. فالكلمةُ العربيّة أدخلوها إلى (الكرنتينا) ..

لا لأنَّها تحمل جرثومة الكوليرا أو الملاريا .. ولكن لأنها تحمل جرثومةَ الحريَّة ..

والكلامُ العربيُّ أصدروا بحقه مذكرةَ توقيفٍ ، وأحالوه إلى محكمة تهريب المخدّرات ..

حتى الأفعالُ .. والأسماءُ .. والضمائرُ .. أخذوها إلى أقبية المخابرات ..

حتى نونُ النسوة .. أدخلوها سجنَ النساء ..

ماذا تريدون أن تعرفوا عن الكتابة .. وعمَّن يكتبون .. وعن الثقافة والمثقّفين .. وعن الكُتُب التي تُشنقُ صباحَ مساءَ على بوابّات المدن العربية ..

إنَّ الكاتبَ العربيَّ ، مطلوبٌ حيّاً أو ميتاً .. وصُوَرُه . وبَصَماتُ يديه ، موزّعةٌ على كلّ المخافر ومراكز الحدود . ورائحتُه . أو رائحةُ حبره وحروفِه ،

تحفظها الكلابُ البوليسيَّةُ عن ظَهْر قلب ...

* * *

ها أنذا مرةً أخرى في السودان ..
أبحث عن دفاتر حبيَ القديمة ..

ولكن ، ماذا تنفع العودةُ إلى دفاتر الحبّ القديمة ، ما دام العاشقُ قد تغيَّر .. والمعشوقُ قد تغَّير .. والعشقُ ذاتُه قد تغَّير ..

كلُّ شيء قد تغيّر في العالم العربي منذ أتيتكم للمرة الأولى عام ١٩٦٩ .

سقطت مؤسّسة الحبّ في الوطن العربي ، وقامت مكانَها مؤسَّسات لتعليب لحم الإنسان ، ولسانِه وعقلِه ، وسَلْخِ جلد المواطن العربي ، واستعمالِه في صناعة الأحذية أو في صناعة الطُّبول ..

تراجعَ الحبُّ إلى الوراء ..

وتراجعَ الوردُ ، والشعر ، والحلم ، إلى ما وراء الوراء ..

وصارت الكلمةُ جاريةً تضاجع السلطانَ ، وتحبل منه سفاحاً .

* * *

نعم ، أيّها السادة :

هذا عصرُ الزنى بالكلمات . والحاكمُ العربيّ لا يريد الكلمة رفيقةً ، أو شريكةً ، أو زوجةً له .. وإنما يريدها خادمةً تغسل له أصابع قدميه بماء الورد ، والزَعْفَران .. وجاريةً يقطفُ ثمارَ نهديها في الليل .. ويذبحها إذا أطلَّ الصباح على الطريقة الشهرياريّه ..

إنَّ شهريار ، أيّها الأصدقاء ، ليس خرافةً ، ولا وجهاً فولكلورياً من قَصَصنا الشعبي .

إنّه موجودٌ في خبزنا اليومي .. وطعامنا .. وشرابنا ..

وجرائدنا .. وفي خزائننا .. وتحت شراشفنا .. وهو يخرج إلينا من رَغْوَة الصابون .. وبالُوعَة الحمَّام .. وشاشة التلفزيون ..

إذَنْ ، فشهريارُ ليس صورةً مجازيّةً . ولا فصلاً من التاريخ القديم . إنه فصلٌ رئيسيّ من تاريخنا المعاصر .. بل هو كلٌّ تاريخنا المعاصر .

وشهريار ليس له وجهٌ واحد ..

فعنده مجموعةٌ كاملةٌ من الأقنعة .. والأثواب التنكريّة ..

فهو مرةً . يتجلّى لنا بهيئة جبريل .. ومرةً بهيئة دراكيولا .. ومرةً يكلّمنا بصوت أمّ كلثوم .. ومرةً بصوت أدولف هتلر ..

وشهريار ، لا يشتغل في فنِّ الغرام ، ومراودة النساء فقط .. وإنما يشتغل في السياسة . وفي الاقتصاد .

وفي التجارة ، وفي التخطيط . وفي المقاولات ، وفي الصحافة ، وفي الإعلام .. وله في التلفزيون برنامج يوميٌّ ثقيل الدم ، يُروِّع الكبار .. ويُخيف الصغار .

إنَّ شهريار هذا هو وراء كلِّ مصائب العالم العربي .

فهو يريد أن يُصادِرَ كلَّ الزوجات من أزواجهنَّ ..

ويريد أن يصادر كلَّ الأصوات من حناجر العصافير ..

وكلَّ الكلمات من دفاتر الشعراء .. وكلَّ الألعاب من خزائن الأطفال .

وشهريار ، بطبيعة تركيبه ، ضدَّ كلِّ الألوانِ ، والأصواتِ ، والروائح .

فهو ضدَّ الوردة ، لأنَّ عطرَها طيِّب .

وضدَّ اللون الأسود ، لأنه لونُ حبر المطابع ..

وضدَّ اللونِ الأزرقِ . لأنه لونُ الحريَّة .

وضدَّ السنابل لأنها ترتفع ، وضدَّ الرياح لأنّها

تعصف . وضدَّ البحر لأنه يُحرّض على السفر
وضدَّ الشِعْر لأنّه يحرّض الإنسان على نفسه ..

وضدَّ شعر حبيبتي ، لأنّه يسافر .. ولا يقولُ لي إلى أينَ ذهب ؟ ...

* * *

إنّ مشكلة العالم العربي الأولى ، هي مشكلة علاقة الكاتب بشهريار . فشهريار يريد ـ حفاظاً على سلالته ـ أن يَخْصيَ الكاتب . والكاتبُ يرفض ـ حفاظاً على فُحُولته ـ الدخولَ إلى غرفة العمليّات .

وهكذا يستنفر شهريارُ حرَسَهُ ، وعسَسَهُ ، وأجهزتَهُ ، لإقناع الكاتب بفضائل الخَصْي ..

ويستمرُّ الكاتبُ في المقاومة .. لأنّه يعرف مسبقاً ، أن تسليم جسده لأطباء الملك شهريار .. يعني تحوّلَه بعد العمليّة إلى أنثى .. أو في أحسن الأحوال إلى خُنْثى ..

هذه هي حقيقة الصراع بيننا نحن الكتّاب ، وبين شهريارات هذا الوطن الذي يبصق دَمَه ، من المحيط إلى الخليج ..

وأُحبُّ أن أطمئنكم باسمي ، وبالنيابة عن جميع الكُتَّاب الشرفاء في الوطن العربي ، أننا لا نزال بخير .. ولا تزال عذريّتنا بخير ..

وهذا من فضل ربيّ .. وفضل هذا الشعب العربي العظيم ..

* * *

ها أنذا مرةً أخرى في السودان ..

فهل يمكنني أن أصرخَ هنا كما أشاء .. وأنزفَ كما أشاء ..

أنا أعرف السودان جيّداً .. وأعرف السودانيّين جيّداً .. وأعرف أن صدورهم ، كغاباتهم ، مفتوحةٌ

للأمطار .. وللريح .. وللبرق والرعد والحريَّة ..

لقد قبلتُ دعوة وزيرِ الثقافة والاعلام للمشاركة في مهرجان الثقافة ، لأني أولاً عاشق للسودان ، ولأنَّ قصائدي هنا تعيش في بيت أمّها وأبيها ...

غير أن فرحتي بهذا العُرْس الثقافي ، لا تمنعُني من أن أسأل عن حال الثقافة في هذا العصر العربيّ الذي أصبح برميلُ النفط فيه ، أهمَّ من كتابِ (الأغاني) وكتابِ (العقد الفريد) ومقدّمةِ ابنِ خلدون ..

نعم أيها الأحباء .. النفطُ لا الشعر .. صار ديوانَ العرب ، والمتنبّي يقف اليوم يتيماً .. وحزيناً .. ومكسور القلب .. أمام أبواب منظمة (الأوبيك) .. فلا يجد من يستقبله .. أو يقدم له فنجان قهوة مُرَّة .. أو يشتري ديوانَه بنصف دولار ..

لماذا الشعر إذَنْ ؟

لماذا القصائد ؟

لماذا البحرُ الطويلُ ، والبسيطُ ، والوافرُ ، والكاملُ ، والرَجَزْ .. إذا كان بحرُ النفط هو سيّدَ البحار ؟ ..

لماذا الفصاحةُ ، والبلاغةُ ، والبديعُ ، والبيانُ ، إذا كانت المِصْفَاة التي تُكرِّر النفط .. أهمَّ من القلب الذي يكرّر الدم ..

ثم ماذا يفعل شاعرٌ مثلي رأسُماله الكلمة .. إذا كان الكلامُ ذاتُه محجوزاً عليه ، وموضوعاً تحت الحراسة ..

اللغة العربيّة في طريقها إلى الإنقراض .. لأنَّها لا تُستَعمَل ..

والشفاهُ العربيّةُ في طريقها إلى الضُمُور .. لأنَّها لا تهتزّ ..

والأصابعُ العربيَّةَ في طريقها إلى الزوال .. لأنها لا تتحرَّك ..

وما دامَ الكلامُ ممنوعاً من الكلام ..

وما دام الصوتُ ممنوعاً من أن يكون له صوت ..

وما دامت الدمعةُ لا تجد قناةً تصبّ فيها .. فإننا سائرون حتماً إلى عصر انحطاطنا الثاني .. فعصورُ الإنحطاط لا تجيْ إلا عندما تُمنَعُ أمةٌ من استعمال شفاهها ..

* * *

يا أحبَّائي .

لا تؤاخذوني على هذه المقدّمةِ المكتوبةِ بالحبر الرَمَاديّ ..

فهل لديكم دواةٌ خضراء .. أو زرقاء .. أو بنفسجيَّة .. تُعيروني إيَّاها ..

ومع هذا سأحاول أن أخرجَ من الصخر ماءً .. ومن الأرض العطشى عُشْباً .. ومن العتمة نجوماً ..

وسأحاول في قراءآتي الشعرية أن أركّز على شعر الحبّ .. لأن الحبَّ في الوطن العربي .. هو هذا الطفل اللقيط الذي لا يعترف به أَحَد .. ولا تُفْتَح أمامه الأبواب ...

ومن يدري ، ربَّما أشعل لي السودان قناديلَ الأمل .. وأرجَعَ لي حبّي الضائع .. وحبيبتي التي ليس لها أرضٌ .. أو وطنٌ .. أو عنوان ...

الخرطوم ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠

الجزائر

نيسان (ابريل) ١٩٧٩

... وهذه هي الجزائرُ أخيرا ...
عصفورةُ الحُلُم التي ما زلتُ أركضُ وراءها حتى أمسكتُها ..

هذه هي الجزائر أخيراً ..
لؤلؤةُ الأساطير التي طالما حلمتُ بامتلاكها ..
هذه هي الجزائر أخيراً ..

حبيبتي التي بقيتُ جالساً في غرفة انتظارها ثلاثين عاماً ، حتى سَمَحتْ لي بدخول مملكة عينيها السَوْدَاوَيْن .. وأذنتْ لي أن ألثم يَدَها .. وأعلّقَ في أُذُنْها قصيدةَ حبّ ..

إنَّ خمساً وعشرين سنةً في انتظار سَيِّدة نحبّها ، شيءٌ رهيب . شيءٌ لا يحتمله الإحتمال ، ولا يصبر عليه الصَبْر .

فَمَنِ المسؤولُ عن هذا الزمن الضائع ؟

أنا ، أم هذه الأميرةُ التي يَدعُونها الجزائر ، أم هذا العقلُ العربيُّ الذي يخافُ مواجهةَ الحبّ .. فيلجأ إلى السحر ، وقراءةِ فناجين القهوةِ .. والمُرَاسَلَة ..

إن الحبَّ بالمراسلة ، صناعةٌ قديمةٌ ومتخلّفة ، كالمحاريث الخشبيّة ، والأنْوَال اليدويّة ، لم تَعُدْ مقبولةً في عصر العقول الإلكترونية ، والواقعيّةِ الإشتراكية ، وكَسْر جدار الصوت .

وأريد أن أسأل ، هل هناكَ رجلٌ غيري في العالم ، بقي خمساً وعشرين سنةً ، يشرَبُ حبرَ الرسائل ، وهو مقتنعٌ أنّ ما يشربُهُ ، هو نبيذٌ فرنسيّ .. أو نبيذٌ جزائريّ ! !.

ثم أريدُ أن أسأل ، هل هناك رجل غيري في العالم بقي مربوطاً بحبل الحبِّ العذريِّ ، خمساً وعشرين سنةً .. ولم يختَنِقْ .

مَنْ هو المسؤولُ إذَنْ ، عن تخريب علاقاتي العاطفية مع المدن والنساء الجميلات ؟

من هو الذي سَرَق قَمَر الجزائر منّي ، وسَرَقَ كلَّ احتمالات البحر ، وكلَّ احتمالات اللون الأزرقْ ؟

من الذي منعني من التجوّل الليلّي في شعر حبيبتي ، وفرض على شعر حبيبتي النفيَ والإقامةَ الجبريّة ؟

من الذي ثقبَ سفينتي وهي في عرض البحر ، وسرقَ حقيبة الشعر مني قبل أن تقرأها حبيبتي .. وسرقَ مني أشواقي التي فصَّلتُها على مقاييس جسدها ؟

أكيدٌ أنّ ثمّةَ مخطّطاً عربياً لمكافحة العشق والعاشقين ..

وأكيدٌ أنّ ثمّةَ مخططاً عربياً لمنع النساء من قراءة

الشعر ..

وأكيدٌ أن نِصْفَ الرجال العرب هم ضدّ الشعر . لأنّهم لا يريدون أن تتسرَّب المياهُ تحت فراشِهم الزوجيّ ، ولا يريدون أن يتوزّع ولاءُ محظياتِّهم أو ما ملكتْ أيمانُهُم ، ولا يريدون أيَّ شغبٍ في سجن النساءالذي يديرونه باقتدارٍ وخبرة ..

والأكيدُ الأكيدُ أن الرجال لديهم حساسيةٌ مفرطةٌ ضدّ الشعر ، لأن الشعر بطبيعته ضدَّ الشركات المحدودة الأسهم والتي تتعاطى تعليبَ النساء ، ودفنَهنّ تحت طبقةٍ كثيفة من ملح الطعام .. حتى لا يفسَدْنَ ..

إنني لا أحاسبُ أحداً . فكلُّ الحسابات التي نُجريها مع اللواتي نُحِبهنّ حسابات خنفشارية لا تنتهي إلى شيء ..

لذلك ، فإن أفضَلَ حساب نحاسب به واحدةً نُحبُّها ، هو أن لا نحاسبَها ..

أيُّها الأحبَّاء .

للمرة الأولى ، أدخُلُ الزَمَن الشعريَّ الجزائري .

أكتشفُه ، ويكتشفُني .. أخترقُه ويخترقُني .

عرفتُ الأزمنة العربية كلَّها ، بضيقها واتّساعها ، بذكائها وسُخْفِها ، بارتفاعِها وانحدارِها ، بعافيتها ومَرَضِها ، بحنانِها وهمجيّتِها ، بجاهلّيتها وإسلامِها ، بمآثرها وصغائرها ، بعُهْرها وتُقاها ، ونظامها وفوضاها ، وجدواها وقِلَّة جدواها ..

عرفتُ الأزمنةَ العربية كلَّها . بجنَّاتها التي تجري من تحتها الأنهار ، وصحارها التي تتوضّأ بالنفط .. ورجالِها الذين يتوضّأون بدم النساء ، أو يتوضَّأون بدم مواطنيهم .. أو يتوضَّأون بدم الفكر ..

إنّني أدخل الزمنَ الشعريَّ الجزائري . علّه يعوِّضني عن الزمن العربيِّ الآخر الذي تركتُهُ ورائي في المشرق ، وهويترنَّح .. ويتكسَّر .. ويزني .. ويتعهَّر ..

أدخل الزمن الشعري الجزائريَّ ، هارباً من عصرٍ يحاول أن يعلّمنا اللغةَ العِبْريَّةَ رغم أنوفنا . ويجعلنا رغم أنوفنا من سكّان حارة اليهود .

من أجل هذا ، أُحاول تهريبَ آخر الحروف العربيّة إليكم ، قبل أن تصبح اللغةُ العبريَّةُ هي اللغةَ الرسميَّةَ التي نكتب بها .. ونُؤذّن بها .. ونؤدّي الصَلَواتِ الخَمْسَ بها ..

أحاول تهريبَ بعضَ القصائد العربيَّة إليكم ..
قبل أن يجيءَ العصرُ العبرانيُّ ، وقبلَ أن يصبح المتنبيَ ، وأبو تمام ، والمعرّي ، وابنُ الروميَ ، وأبو فراس الحَمَداني ، أساتذةً في الجامعة العبرية ، يتولُّون تدريسَ اللغةِ العربيةِ ، باعتبارها لغةً من اللغات المنقرضة . كاللغات اللاتينية . والمسماريَّة ، والهيروغليفية..

قبل أن تحدثَ هذه الفضيحةُ القوميّةُ الكبرى ،

وقبلَ أن نُضيّعَ آخرَ قطرةٍ من دماء عذريّتنا . وقبلَ أن تُصبحَ اللغة العربيّة عملةً ملغاةً ، وغيرَ قابلة للتداول ..
جئتُ إلى الجزائر ومعي حقيبةُ شعرٍ مهرَّبة .

نعم . حقيبةُ شعرٍ مهرَّبة ...

وأعتقد أن السلطات الجمركيةَ الجزائرية ستسامحُني حين تعرف أن المادةَ المهرَّبةَ هي قصيدةُ حبّ .. أو قطعةٌ من وطن ..

*

أيها الأحبّاء :

أفْركُ خاتَم الشعر في إصبعي .. فتخرجُ لي الجزائرُ حوريةً خرافيّة الشكل ..

والشعرُ هو آخرُ خيط حنانٍ يربط الإنسان العربي بالإنسان العربي ، وآخرُ ساعي بريد يحمل مكاتيب الهوى إلى قبائل متناحرةٍ متذابحةٍ .. لا تكتب رسائلَ الحبّ ولا تستلمها ..

والشعرُ ، هو آخر حصانٍ جميل لم يقتلوه بَعْدُ .. وآخر وردةٍ لم يأكلوها بَعْد .. وآخر شمسٍ لم يُطْفئُوها بَعْد ..

الشعر هو تعويذتي ، وسيفي ، ومفتاحي الذي أفتح به المناطقَ السرّيةَ في النفس العربيّة . هو القنبلة الموقوتة التي أضعها تحت خيمة أهل الكهف ، فتنفجر بهم ، وهم يمارسون العُهْرَ السياسيّ ، ويتسلُّون مرةً بمَضْغ لحم النساء ، ومرَّاتٍ بمَضْغ لحم الوطن ...

الشعر هو الشهادةُ التي تُؤكد وجودَنا على قيد الحياة ، وبأننا لم نتحوَّل إلى مجموعة من الديناصُورات المُنْقَرِضَة ..

والشعر ، هو هذه اللغة الراقية الباقية من عالمٍ عربيٍّ رمى نفسَه من مقصُورة الشعر . وتحوَّل إلى نثرٍ رديئ ..

والشعرُ أخيراً ، هوفرصتُنا الأخيرة للخروج من

حالة الحجر .. إلى حالة الماء .. ومن حالة الرماد إلى حالة النار .. ومن عتمة المَحَارة إلى شمس الحضارة ..

فكلُّ الحضارات العظيمة تشكَّلَتْ في رَحِمِ الشعر .. وترعرعتْ بين يديه ..

أيُّها الأحباء :

تفتح لي أميرتي الجزائرية ستائِرَها .. وضفائرَها .

أصعد إليها على سلالم الشَعْر الأسود ..

تنتابُني قشعريرةُ الموعد الأول ، فلا أعرف أين تبتدئ يدي ، وأين تنتهي ضفائرُ حبيبتي ..

هذه الحالة المجنونةُ تنتابُنِي دائماً ..

فكلّما اكتشفتُ قطعةً جديدةً من الوطن العربي ، أشعُرُ أنني اكتشفت قطعةً من جسدي ..

لا فرق بين جغرافية الأرض العربية .. وبين جغرافية جَسَدي ..

كلُّ جبال الوطن العربي هي امتدادٌ لكبريائي .

وكلُّ بحاره وأنهاره وأمطاره هي امتدادٌ لدموعي ..

إنّني أشعر في بعض الأحيان أن مسامات جلدي هي مساماتُ الصحراء العربية ، إذا عَرِقَتْ عَرِقْتُ ، وإن نَزَفَتْ نَزَفْتُ .

وإذا انكسرت نَخْلَةٌ واحدةٌ في مكانٍ ما من هذا الوطن ، بصرف النظر عن اسْمِها وعُمْرِها وجنسيّتها ، أشعر أن الذي انكَسَر هو قلبي ..

هذا بصورةٍ موجزةٍ موقفي من الشعر .

إنه موقفٌ شُمُولي يشبه موقف المَطَر .

ولن ترتاحَ نفسي ، ما دمتُ أشعر أنَّ شِبراً واحداً من هذه الأرض العربيّة لم يتبلَّلْ بمطر الشعر .. وأنّ ثمّةَ مواطناً عربياً واحداً لم أتعرَّفْ عليه بعد ... ولم أستطع أن أوصِلْ إليه قصيدتي ...

فيا أحبّائي على أرض الجزائر العظيمة :
إنّني أحبس في عيوني كلَّ دموع العرب ..
فاسمحوا لي أن أمْطِرَ قليلاً ....

الجزائر ١٩٧٩/٤/١

أبو ظبي

(الإمارات العربية المتحدة)

نيسان (ابريل) ١٩٧٦

للمرّة الأولى .. أقرأُ كتابَ (أبو ظبي) ..

يَنْفَتِحُ البحرُ أمامي كسيفٍ من الفيروز ، قبضتُه هنا .. ورأسُه على حائط الصين العظيم ..

أستغرقُ في قراءة الرمل والبحر والشمس . حتى ليخيّلُ إليَّ في لحظةٍ من لحظات الحلم . أنني أسافر على ظهر سفينةٍ يقودُها البَحّارُ العربيُّ الكبيرُ ابنُ ماجد ، حاملين معنا من بلاد الشام ، ياسمينَ دمشق . وفاكهةَ الغُوطَتَيْن ، والمصاحفَ المخطُوطَةَ بماء الذَهَب .. لنقدّمَها للمؤمنينَ الجُدُدَ في شرقيّ إفريقيا وجنوبيّ آسيا ..

تثقبُ السفينةُ طهارةَ البحر وتقتحم عذريّتَه .
وابنُ ماجدَ واقفٌ كالرمح في مقدّمة السفينة ، عينٌ على أسماك القرش المتوحّشة ، وعين على الشواطيْ التي لم تَلُحْ بعد ...

*

أُواصل قراءةَ كتاب (أبو ظبي) بمتْعةٍ لا توصف ..

أجلس مع صيّادي اللؤلؤ ، وأُدخّنُ التبغَ معهم ، وفي الليل أتمدّد على الشاطيْ الرمليّ وحدي ، أنتظر عودةَ السندباد ..

السندباد شَغَل طفولتي كثيراً كما شغل كلَّ أطفال العالم . ولعلّه يشغلني اليوم أكثر من أيّ يومٍ مضى .

كان السندبادُ مواطناً عربياً خليجيّاً ، وكانت مراكبُهُ وحبالُه تُصْنع هنا .. وكانت قلوعُ أشرعته تُنْسَجُ هنا .. وكانت أحلامُه الكبيرةُ تُصنع هنا أيضاً ..

إن السندباد ليس شخصيةً خياليّة نجدها في الفولكلور

العربي ، ولا هو مادةٌ روائية تجلِبُ لنا التسلية ، ولا هو واحدٌ من الممثلين المحترفين على مسرح ألف ليلة .. ولا هو سائحٌ أميركيّ يرى العالم من خلال آلة تصويره ، ودفتر شيكاته السياحيّة ..

إنّ السندباد هو في تصوّري ، رمزٌ هام جدّاً لانعتاق العربيّ من حدود المكان والزمان ، ونزوعهِ إلى المطلق . وهو أيضاً رمزٌ لنَزْعة الكَشْفِ والاستقراء والبحثِ المستمرّ عن الأجمل ، والأنبل ، والأفضل .

السندبادُ هو اقتحامٌ ، ووثوبٌ ، وإبحارٌ في المدهش والمستحيل .

والسندبادُ هو ثورة على المعلوم والمحدود والمُسْتَهْلَك ..

والسندبادُ هو السفرُ نحو المستقبل ، لا البقاءُ في مرافئ الماضي ..

والسندبادُ ، أخيراً ، هو التحوّل والتغيير

والولادة بجلد عربيّ جديد ، وعقلٍ عربيٍّ جديد .

فأين هو هذا السندبادُ الذي انتظرتُه في طفولتي ولم يأتِ ، وانتظرتُه في ربيع العمر ولم يأتِ .. وانتظرتُه في خريف العمر فلم يأتِ ؟..

أين هو السندباد ؟ هل مات مسموماً .. أم مقتولاً .. أم مات على أيدي رجال المخابرات لأنّه تجرَّأ وطلب تأشيرةَ خروجٍ للعلاج في إحدى مصحات الأمراض العصبيّة في الخارج ؟ .

أين هو السندباد ؟ إنّني أُعطي نصفَ عمري لمن يدلُّني على عُنوانِهِ الجديد .

*

أنا قادمٌ من الزمن الرديْ في لبنان ، لأبحث عن الزمن الجميل في (أبو ظبي) . قادمٌ من القارة التي شاختْ ، وتعبتْ ، وأكلتْ نفسَها .. إلى القارة التي لا تزال

تلبَس ثوبَ العافية ..

قادمٌ من الأرضِ التي فقدت ذاكرتَها .. إلى الأرض
التي تتشكّلُ ذاكرتُها من جديد .

كلُّ أحلامي تركتُها في لبنان مكسورة .
كلُّ مراكبي تركتُها ورائي غارقة .
كلُّ دفاتري أكلتها النار ، أو أكلتها الكراهية .

والبحر الذي كانوا يسمُّونه البحرَ الأبيضَ المتوسط ،
أخذوه إلى شاطيءٍ مهجور ، وعَصَبوا عينيه ، وأطلقوا
النار على قميصه الأزرقِ فمات .

أما عيونُ حبيباتي ، فلا تسألوني عنها . فقد سرَقوا كلَّ
كنوز اللؤلؤ الأسودِ المخبوءةِ فيها .. وهربوا ...

كلُّ الجرائم مغفورةٌ إلا سرقَةَ اللؤلؤ الأسودِ
امن العيون الكبيرة ..

وكلُّ الاغتيالات يمكن تفسيرُها إلا اغتيالَ قصيدةِ

شعر ...

* * *

يحاصرني الحزن من كل مكان .. فأقرّر السفر ..

ولكن أين أسافر ؟ . ولماذا أسافر ؟ . ومن أجل من أسافر ؟

إن سفرَ الشاعر في الوطن العربي هو سفرٌ على لوح من الزجاج المهشَّم ، إن لم تنجرحْ أقدامُكَ انجرحتْ اصابعُك ، وإن لم تنجرح أصابعُك انجرح قلبُك ، وإن لم ينجرحْ قلبُكَ انجرح ضميرُك ..

آهٍ .. كم سافرتُ في هذا الوطن العربي ، فوجدتُني أخرج من دمعةٍ لأدخل في دمعةٍ أكبر .. وأجتازُ حدودَ جرحٍ قديم ، لأدخلَ في حدود جُرحٍ جديد .

ولكي يدخلَ الشاعرُ العربيّ سالماً ، ويخرجَ سالماً ، من رحلته الزجاجيّة هذه ، لا بدّ أن يكون نبيّاً .. أو

بهلواناً ..

وأنا مع الأسف لا أملك الموهبتين .

كلُّ ما أملكه هو هذه العادةُ السيّئة التي رافقتني منذ ولادتي ، وهي عادةُ قول الحقيقة .

ولأنّني مصابٌ بهذا الانحراف الأساسي في تكويني ، ولأنّني أعاني من هذه الفضيلة ـ الرذيلة ، ولأنّني لم أكن في يوم من الأيام عضواً في نقابة كَـذّابي الأدب ، أشعر بأنني غريبٌ وضائع .. ومنفيٌّ عن الخريطة العقلية والنفسيَّة للعالم العربي .

ولأنّني أشتغل بمادةٍ ممنوعةٍ من التداول لدى العرب ، وهي الحقيقة ، تُسَدُّ في وجهي بَوابّاتُ الدول العربية ، وينظر إليَّ حُرَّاسُها من ثقوب الأبواب متعجّبين ومرتابينَ .. كأنّني حيوان شِعْريٌ نادر .

بعضُهُمْ يفتح لي نصفَ بابه ونصفَ قلبه ، وبعضُهم

لا يفتح لي لا بابَه ولا قلبه . وبعضهم يلاقيني بالورد الجُوريّ . وبعضهم يطلق خلفي كلابَ الحيّ ، وبعضُهم يذبح لي الخرافَ والنُوقَ على الطريقة العربيَّة .. وبعضُهم يذبَحُني على الطريقة العربيّة أيضاً ...

يقولون لي ما أنتَ في كلّ بلدةٍ ؟
وما تبتغي . ما أبتغي جلّ أن يُسْمَى
كذا أنا يا دنيا ، إذ شئتِ فاذهبي
ويا نَفْسُ ، زيدي في كرائهها قُدْمَا
فلا عَبَرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني
ولا صحبتْني مُهْجَةٌ تقبلُ الظُلْمَا ..
وإنّي لمن قومٍ كأنّ نفوسَهُمْ
بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعَظْمَا ..

سؤآلٌ طرَحُوه على المتنبيّ ، هذا الشاعِر المسافِر في العنفوان . منذ أكثر من ألف عام ، فحدَّد بمثل هذا البيانِ الشجاعِ ، المنهجَ العام لرحلاته الشعريّة ،

ووضع بذلك أوّلَ مانيفستو للرفض والتحدّي في الشعر العربي ..

فهل تغيَّرتِ الأمورُ منذ عصر المتنبّي ؟ وهل الزمانُ الرديءُ الذي وجد المتنبي نفسَه في مواجهته ، غير الزمان الرديئ الذي يواجهه الشاعرِ العربيّ اليوم ؟

على تباعد المسافة الزمنية بين عصرنا وعصر المتنبيَ ، تظلُّ المسافةُ النفسّية والخُلُقيةُ والمناقبيّةُ بين العصرين ، ضيقةً بشكلٍ مذهل .

ويظلّ غضبُ المتنبيّ على الواقع السياسي لعصره شرعيّاَ ومبرَّراً .. ويظل صراخُه في وجه ملوك الطوائف شرعيّاً ومبرّراً .. حتى شتائمُه لها في الطبّ النفسيّ ما يبرِّرها .. لأنَّ الرجل في أعماقه كان عربيّاً ووحدويّاً وثورياً .. ولكنَّ ارتطامَ حلمه بالواقع التجزيئي العربيّ ، أخرجهُ عن طوره ، فاختار العصيانَ والخروجَ على القانون .

والخروجُ على القانون ، هو القاسم المشترك لكلّ الشعراء العرب اليوم ، إذْ لا سبيلَ لكتابة شعرٍ عربيٍ جيّدٍ وجديدٍ ، دونَ التصادم مع التقسيميّين . والشُعوبيّين في الوطن العربي .

وأمام هذا الثوب المرقّع بألف وَصْلَة . وألف لون ، وألف عشيرة ، وألف دجّال .. وألف شيخ طريقة ..

أمام هذا الثوب المرقَّع الذي هو الوطن العربي ، لا يمكن للشاعر أن يسكت على هذا الترقيع القوميّ الذي يشاهده ، وإلا كان هو نفسُهُ شاعراً مُرَقَّعاً ..

من هنا حتمية التصادم بين الشاعر الذي يريدُ أن يُغيِّر ، وبين الأشياء التي لا تريد أن تَتَغيَّر . إنّه الصدامُ القديمُ الأَزَلي بين المطرقة وبين الحجر ، بين المسمار وبين الخشبة ، بين الخنجر وبين الجرح ..

إنني لا أنكر بأنني شاعرٌ تصادمي . وربّما كان خطأي الكبير أنني لا أملك غريزةَ القطيع . وانصياعَ القطيع ، وتفكيرَ القطيع ..

وهذه هي مشكلةُ الشاعر في كلّ العصور . فهو بطبيعة تكوينه ، وبطبيعة الإبداع نفسه ، مضطر إلى تغيير العلاقات العضويّة والتاريخيّة السابقة لحضوره .

إنّ طبيعة الشعر طبيعة انقلابيَّة . ولا قيمة لشعر ينحني أمام القناعات الجاهزة . ويأخذ التحيّة العسكرية للباب العالي ولزوجته ، وللحصان الذي يجرُّ عربته ..

إن المكانَ الحقيقيّ للشاعر هو في صفوف المحتجّين ، لا في صفوف الموالين . وليست الغربة التي يعيشها الكاتب إلا نتيجة هذا التصادم اليوميّ بين الواقع الذي يعيش فيه . والمثلِ الأعلى الذي يحلم به .

وفي الظروف الإنفجارية التي يمرُّ بها العالم العربي ،

مطلوب من الكاتب العربي أن يبقى متأهباً .. ومتحفّزاً .. ومشدودَ الأعصاب كفهد الغابة . لأنَّ أيَّ استرخاء في أعصابه وأعصاب كلماته . يحوّله إلى حيوانٍ داجنٍ ، وعصفورٍ من عصافير الكناري التي يلعب بها أطفالُ المنزل.

الكاتب في الوطن العربي لا يملك خيارين أبداً .

إنّ عليه أن يكون إمَّا في داخل النار .. وإما في داخل الماء ..

وبكلمة أدقّ .. لا يمكن للكاتب أن يصطاف ستة أشهر في إقليم اللون الأخضر .. ويُشتّي ستة أشهر في إقليم اللون الأحمر .. والا سقط على الحدود الفاصلة بين اللونين . وخسر الصيفَ والشتاء .. والأرضَ والسماء .

*

وصلتُ إلى الصفحة الألف من كتاب الخليج ..

إنني أحبُّ الكتبَ التي يتولّى طباعتَها البحر .. وتتولىّ نشرَها الريح ..

ولي هواية خاصة بجمع الكتب التي غلافها أزرق .. وكلامُها أزرق . ومحتواها أزرق . أتابعُ تاريخَ الطموح العربي في هذه المنطقة ابتداءً من أيام عَمْروِ بنِ العاص حتى اليوم .. فأجد أن الخيول التي غمست نواصيها في مياه بحر العرب والمحيط الهندي ورأسِ الرجاء الصالح ، بدأت تركض من جديدٍ على امتداد شواطئ الإمارات السبع، والنارَ التي كانت مشتعلةً في عيني البَحَّار الرائد ابنِ ماجد .. بدأتْ تشتعلُ مرةً أخرى في عيون من تحدَّروا من صُلْب ابن ماجد ..

ولذلك عندما استلمتُ الدعوة التي وجهتها إليّ وزارةُ الاعلام والثقافة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، لأقدّمَ أمسيةً شعرية هنا ، شعرت بأهميّة الشعر ، وأهميّة الإمارات العربية المتحدة معاً ..

فالدولة عندما تفكّر بالشعر ، وتجعله همّاً من

همومها اليوميّة . فهذا يعني أن قلبَ هذه الدولة لا يزال يضرِبُ بصورةٍ طبيعية . وأن وجدانَها لا يزالُ في صحة جيدة ..

فمستوى الأمم يقاسُ بقدرتها على كتابة الشعر ، أو الإصغاء إليه .

هناك دولٌ ، أيّها الأصدقاء ، تعيش بقلب من الحَجَر أو البلاستيك .

دولٌ أوصدتْ أبوابها في وجه شمس الشعر ، وطمرت نفسها في الثلج والزمهرير ،

دولٌ قطعتْ جسورَها مع الشعر ، وبالتالي قطعتْ جسورَها مع الله .

ثم هناك دول تخاف الشعر ، وتضطهده ، وتعتبره وَلَداً مشاغباً .. ومخرِّباً .. وخطراً على النظام العام ..

ثم هناك دول تعتبرُ الشعرَ سحراً .. أو خرافةً .. أو حفلةَ استحضار أرواح ، أو عملاً من أعمال التنجيم .. ولذلك فهي تلقي القبض عليه بتهمة السحر والشعوذة .. وتضعه في الزنزانة الإنفراديّة ...

ثم هناك دولٌ تعتبر أن تحليةَ مياه البحر ، أكثرُ أهميةً من حلاوة البحور والقوافي ، وأن صوتَ محرّك الديزل أجملُ من صوت قلب العاشق ، وأن تدفّقَ الماء من بئر ارتوازيّ ، يُشقّ في الصحراء ، أروعُ من تدفّق الينابيع من عينين خضراوَيْن ..

طبعاً ، هذه مواقفُ من العالم ومن الأشياء لا يمكن تغييرها ، فالذين يعشقون جسراً من الأسمنت المسلّح أكثر مما يعشقون قوامَ امرأةٍ مَيْسَاء ، لا نناقشُهُم في حبّهم أو كرههم .. والذين يتحمّسون لرائحة الدخان المنبعث من مصنعٍ للحديد والصُلْب ، أكثر مما يتحمّسُون

لرائحة عقد الياسمين الذي تتزيَّن به حبيبتُهم ، لا نقول لهم شيئاً .. وإنما نشكوهم إلى الله ..

إنني لا أهاجمُ أبداً الدول ذاتَ التكوين اللاشعريّ . فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً للحجر ، ولا أستطيع تغييرَ عواطفه . وإنما أُشفق على هذه الدول ، تماماً كما أُشفق على عين لا تستطيع أن ترى ، وأُذُنٍ لا تستطيع أن تسمع ، ويدٍ لا تستطيع أن تكتشفَ حجمَ العالم .

فبغير الشعر لا يوجد طموحٌ ، ولا انفلاتٌ من محدوديّة الحواسّ الخمس ، ولا ارتفاعٌ عن قشرة الكرة الأرضية ، وشوارعِ الأسفلت السوداء التي نمشي عليها ، أو تمشي علينا ...

وبغير الشعر لا يمكن لمياه الحياة أن تفيض ، ولورق الشجر أن يخضرّ .. ولمواعيد الحُبّ أن تُعطَى ، وأن تُؤخَذ ..

وبغير الشعر لا يوجد حركةٌ لشيء .. لا للريح ، ولا للمراكب ، ولا للأمواج ، ولا للنجوم ، ولا للخيول، ولا للنهود ، ولا للعصافير .. ولا للأصابع على الورق ، ولا للمشط المسافر في الشعر الأسود ...

الشعر يسبق ولادةَ الأشياء ويهيئ لها .

الشعر هو الافتتاحيّة والمقدِّمة ..

إنّه الرَحِم الذي تنضج في داخله كلُّ التصوراتِ والطموحاتِ والأعمال الباهرة .

قبل أن تتشكّلَ التفّاحة تكون تخطيطاً شعريّاً ..

وقبل أن يتكوّن البحرُ ، والوردةُ ، والسنبلةُ ، والمرأةُ الجميلةُ ، تكون في بال الله هاجساً شعرياً ..

وقبل أن تتأسَّس الدولُ ، تكون في وجدان الشعوب خاطرةً شعرية تنتظر من يجسّدها ، ويعطيها شكلاً ..

ودولةُ الإمارات العربية المتحدة هي أحدُ الأحلام

المدهشة في تاريخ التخيّل العربي ، وهي واحدة من التجارب الوحدوية العربية الفذّة التي يلجأ إليها العربيّ من حينٍ إلى حين .. ليؤكّد ذاتَه الواحدة .. ويحفظَ نوعه وعرضه وتراثه ، وينتقمَ ـ ولو انتقاماً متأخّراً ـ من حكم ملوك الطوائف ، ومن الفكر الفئويّ والشعوبيّ ، والتجزيئيّ ، الذي جعل من أمّتنا العربية فتَافيتَ ورقٍ تمضغها الريح ..

إن دولةَ الإمارات العربية المتحدة هي الحلُمُ الوحدويّ الشعريّ الثاني ، بعد الحلم الوحدويّ الأوّل الذي حققته سورية ومصر عام ١٩٥٨ . وإذا كان الحلم الأول قد تكسّر نتيجةً للنرجسيّة ، والأنانيّة ، وضعف البصر والبصيرة ، فهذا لا يعني أن الحلم بحدّ ذاته كان هَشّاً .. ولكن الذين رأوا الحلم البنفسجيَّ الجميل لم يتمسّكوا بخيوط الحلم .. فطار منهم ..

درسٌ جميلٌ في القوميّة العربية يأتينا من الجناح الشرقي لشبه جزيرة العرب . ومعلِّمُنا هذه المرة هو الإمارات العربية المتحدة ...

ومهما يكن من أمر ، فلا خيالُ العربيّ ينتهي ، ولا مخيِّلتُه تتوقّف عن توليد الأفكار والأماني الوحدويّة ، وليس الزواج السعيد الذي عقدته الامارات العربية فيما بينها في ٢ ديسمبر ١٩٧١ ، سوى دليلٍ على أن العربيّ وحدويٌّ بطبعه . أما العرب الذي يرفضون فكرة الزواج السياسيّ بحجّة أنهم لم يتعوّدوا أن يناموا مع غيرهم في سريرٍ واحد .. فسيبقون عانسين إلى يوم القيامة ...

أيّها الأحباء ، إنني قادم اليكم من عالم عربي .. قديمٍ .. ومحترق .. ومُنْتَحِر .. فامنحوني الولادة .....

أبو ظبي نيسان (أبريل) ١٩٧٦

أبو ظبي

(الإمارات العربية المتحدة)

أيار (مايو) ١٩٧٩

بيني وبين أبي ظبي حالةُ حبٍّ بدأتْ منذ ثلاث سنوات .

ومن ذا الذي لا يُحبُّ الظِبَاء ..

ليس عندي تفسير مقنعٌ لما حدث بيننا . ولكنَّ التفسير النفسيَّ لهذه العلاقة الاستثنائية بين شاعرٍ وظَبْي .. هو أن الشاعرَ يبحث دون أن يدري عن المخلوقات التي تُشبهه ..

ما وجهُ الشَبَه بين الشاعر العربيّ ، وبين الظَبْي ؟ تسألونْ .

كثيرةٌ هي وجوهُ الشبه بينهما . فالشاعرُ العربيّ والظَبْي ، ينتميان إلى فصيلةٍ من الحيوانات الجميلة ،

المكحُولةِ العيون ، الدقيقةِ القوائم ، الرقيقةِ ، الحزينةِ ، التي هي في طريقها إلى الإنتحار .. أو الإنقراض .

والشاعرُ والظَبْي ينتميان إلى فصيلةٍ من الحيوانات العربيّة ، تُولد في الخوف ، وتترعرع في الخوف ، وتموتُ في الخوف . فصيلةٍ تعيش ليلاً ونهاراً حالةَ الاستلاب ، والقَهْر ، والمطارَدَة .. وتنتظر دائماً من يبلّغُها أمرَ القبض عليها حيّةً أو ميّتة ..

والشاعرُ والظَبْي ، بحساسيّتهما المفرطة ، ودقّة بصرهما وبصيرتهما ، وقدرتِهما على التخيّل والنبوءة ، وخبرتهما في التجوّل داخلَ الليل وداخلَ الإنسان ، أصبحا موضعَ ريبة من أجهزة التنصُّت العربيّة . فلا الظبي قادر على أن يرقص فوق الرمل كما يريد .. ولا الشاعر قادر على أن يكتبَ فوق الورقة ما يريد ..

في بادية الشام ، كنتُ أسمعُ وأنا طفل ، أخبارَ الصيّادين الذين يطاردون الغزلان بسياراتهم الأميركيّة

السريعة ، حتى إذا وقف قلبُ الغزال من التعب والإعياء.. أطلقوا رصاص بنادقهم عليه .. ورموه في صندوق السيّارة ..

إن صورةَ الغزالِ المكحولِ العينين ، الدقيقِ القوائم ، وهو يلهثُ أمام السيارة الأميركية التي تطارده ، لا تزال محفورةً على جدران ذاكرتي ..

ودار الزمانُ دورتَه .. وكبُرنا .. ولم تتغيّر الأشياء .
نقص عددُ الغزلان في الصحارى العربيّة .
ونقص عددُ الشعراء الذين يتكلّمون العربيّة .
وزاد عددُ السيّارات الأميركيّة .. وزادتْ سرعتُها ..

إنني لا أقصُّ عليكم حُلُماً ، ولا أعرض عليكم مسلسلاً تلفزيونياً ، ولا أقدِّم لكم فيلماً من أفلام هيتشكوك ..

إنني أقدِّم لكم الحقيقة ، لا على طبقٍ من الكريستال ، ولكن على طبقٍ من اللحم المحروق ، والدم المتجمّد .

لم تعد القضيةُ قضيةَ غزلانٍ وظباءٍ ووعولٍ مهدَّدةٍ بالإبادة .

كلُّنا ، أيّها السادة ، مطاردون بشكلٍ أو بآخر .

الأمَّةُ العربيةُ مطارَدَة . اللغةُ العربية مطارَدَة . الشعرُ العربي مطارَد . التراث العربي مطارَد . العقلُ العربي مطارَد . .

الأشجارُ العربية مطارَدَةٌ حتى لا تُثْمِر ..

النساء العربيات مطارَدَاتٌ حتى لا يلِدْنَ ..

الجامعات العربية مطارَدَةٌ حتى لا تحبل بالثورة ..

المآذنُ العربيّة مطارَدَة ، حتى لا تدعو الناس إلى الصلاة ...

إنني لا أقصّ عليكم حُلُماً ..

ولكنّ السيّارة الأميركية التي رأيتُها في طفولتي تطاردُ الغزال .. وتسحق عظَامَه ، هي ذاتُ السيَّارة

التي تطاردنا الآن ، وتحاول أن تسحقَ عظام كلِّ المارة في الشوارع العربية .

ولا تطالبوني باعطائكم أوصافَ السيارة ، ورقمَ محرّكها ، واسم سائقها .. فالسيّارةُ صارت معروفةً لديكم جميعاً . وهي تتجوَّلُ في شوارع الوطن العربي كلّه . وقد رأيتها أمس من نافذة فندقي في الخليج .

أما ركّابها المشبوهون فصوَرُهم معمَّمة على الأنتربول الدوليّ. وهم مطلوبون أمام جميع محاكم الجنايات العربية.

* * *

أيها الأصدقاء .

كان النقدُ العربيُّ القديم يقول عن الشاعر : إنه يغنّي شعرَه .

اليوم . سقط هذا المصطلح النقديّ وصرنا نقول

عن الشاعر : إنه يصرخ بشعره .

لا يستطيع الشعر أن لا يصرخَ في وجه عالمٍ عربيٍ قانع بقناعاته ، ومستريحٍ على مخدّاته ، وموزّع الولاء بين كأسه وسُجَّادة صلاته ، وبين رضاء ربه .. ورضاء زوجاته ..

لا يستطيع الشعر العربيّ أن يتستَّر .. أو يتنكَّر .. أو يكونَ مهذّباً ودبلوماسياً في معركةٍ يُعرُّون فيها الأمة العربيّة في الشارع العام ، ويغتصبونَها بالتناوب ..

لا يستطيع الشعرُ العربيّ أن يكون متفرّجاً ، أو سائحاً يعلّق الكاميرا برقبته ويلتقط الصُوَرَ التذكارية..

لا يستطيع الشعرُ العربيّ ، أن يتردَّد .. أو أن يتساهَل .. أو أن يمنح السماحَ والغفران . إن رقَّةَ السيِّد المسيح لا تناسبنا في الوقت الحاضر .

والشعر العربيّ بالذات ، وفي هذه المرحلة بالذات ،

لا يستطيع أن يكون سمساراً .. ولا قوّاداً .. لأيٍّ نظام يمارس العُهْرَ السياسيّ في وضح النهار .. ويشنق التاريخ العربيّ في وضح النهار ..

وفي غياب السلاح المعدنيّ الذي تدافع به الأمّة العربية عن شرفها ، على الشعر أن يكونَ البديلَ ، والرديف .

وإذا لم يكن بوسع الشعر أن يجتاح القلاعَ والحصون .
وإذا لم يكن بوسعه احتلالُ الأرض احتلالاً مادياً ، فإنه يستطيع أن يحتلّ النَفْسَ البشريّة ، احتلالاً ثقافياً كاملاً على المدى الطويل .

إنَّ أهميّة الشعر تكمن في قدرته على الصراخ ...

وربّما كانت أبو ظبي هي المكانَ المثاليّ الذي أستطيع فيه أن أصرخَ قليلاً .. وأبكي قليلاً .. وأغضب كثيراً ...

وإن وزارة الثقافة والاعلام في الإمارات العربيّة المتّحدة ، حين دعتني للمشاركة في موسمها الثقافي ،

كان تعرُفني جيداً . وتعرف أن غريزة الصراخ داخلي ، هي كتركيب دمي . ولونِ عيوني . قدرٌ لا يمكنني أن أهرب منه ..

وأعترف لكم ، أن وزارة الثقافة والإعلام في الإمارات العربيّة المتّحدة ، لم تحاول أن تفتّش ملابسي .. أو تقرأ أوراقي .. أو تغسل دماغي .. وإنما تصرّفت معي بمنتهى الحضارة .. وتركتني أصرخ بحرية . كما لو كنت أصرخ في هايد بارك كورنر في لندن ..

اللهَ .. كم أنا سعيد (بأبي ظبي) كورنر ..

أبو ظبي أيار (مايو) ١٩٧٩

الجماهيرية العربيّة الليبيّة

طرابلس ١٩٧٥

1

أحمل إلى الشعب العربي في ليبيا أحلى ما أملك ..
وأعزَّ ما أملك ..
قلبي .. وكلماتي ..
حقائبُ الشعراء صغيرة ..
ولكنّها تسع الكون كلّه ، بشموسه وأقماره ،
وليله ونهاره ، وغاباته وبحاره ..
حقيبتي صغيرة .. ولكنني خبأتُ لكم فيها كنزاً
من الكلمات ..
والكلمات ، أيّها الأصدقاء ، طيور بحريّة
تثقب قميص السماء الأزرق بمناقيرها الحادَّة ..
وتخترق الأبعاد دون تأشيرة دخول ..

الذين يطلبون من الكلمة تأشيرةَ دخول .. أو يفتّشون ثيابها .. وحقائبها بالأجهزة الألكترونية ، يضحكون على أنفسهم .

فالكلمة تنتقل في دم الناس ، وفي خلاياهم ، وفي أنفاسهم . وليس ثمّة جهاز ، مهما بلغت قدرته وحساسيته ، يستطيع اكتشاف كمية الغضب في دم إنسان ما ..

وليس ثمّة عَدَسة في العالم ، تستطيع تصوير دموع الشعب قبل أن تتشكّل ..

ولم يخترع اليابانيون حتى الآن جهازاً يتنبأ بنوع الجنين المتكوِّم في رحم القصيدة ..

تلك هي معجزة الكلمة .

إنّها أشبه بالنباتات ، الاستوائية التي تكبر .. وتزهر .. وتتوالد في عتمة الظنون ..

إنها هذه الزهرة الشيطانية ، السريّة الرائحة ، التي لا تستطيع الكلاب البوليسية أن تكتشفها ..

2

الكلمة هي أول شجرة زرعها الإنسان على باب بيته ، يوم كان الله لا يزال يواصل تجاربه على اللون الأخضر ..

أوّل نجمةٍ اهتدى بها الإنسان قبل اختراع الشمع . والقناديل ..

أوّل وسيلة اتصال ، قبل أن يكون البريد ، والأقمار الصناعية ..

أول وردةٍ بيضاء خرجت من دواة الحبر .. يوم قوارير العطر لم تخترع بعد ..

الكلمة هي أول محاولةٍ للرسم ، يوم الفراغ لم يملأه أحد .. والألوان لم تنفصل عن بعضها . ولم تكتمل شخصيتها ..

أول تجربة صوتيّة .. يوم كان العالم مسكوناً بالصمت.

وهي أوّل. وأقدم منشورٍ ثوري كتبه الإنسان . احتجاجاً على سوء توزيع الثروة .. وعلى غياب العدل . وغياب الحريّة .

والكلمة، بعد ذلك، هي الإنقلاب الوحيد في التاريخ، الذي يستعمل أدوات الحضارة من ورقٍ.. وحبرٍ.. وأقلام.. لتغيير الشرط الإنساني.. وتغيير العالم..

3

يقول الكتابُ المقدّس:

« في البدء كانت الكلمة.. »

وهذا يعني بوضوح، أن الكلمة جاءت، من حيث الترتيب الزمني للخَلْق، قبل العناصر الأربعة: الماء.. والنار.. والهواء.. والتراب..

كما أنه يعني بداهةً، ومنطقياً، أن الكلمة كانت قبل السلطة، وقبل السجون، وقبل محاكم التفتيش، وقبل الكرابيج.. والزنزانات.. والمشانق.. وساحات الاعدام.

ولأن الكلمة قديمة قديمة.. وعريقة عريقة.. فإن رجل البوليس، عندما يحقّق معها، يتحاشى التطلع في عينيها، حتى لا يبكي.. أو ينهار فوق أوراق ملّفاته..

لماذا تتحمّس ليبيا للشعر .. وتتجمَّل له .. وتتكحَّل له .. وتلبس له أساورَ الذهب ، وخواتمَ الفيروز ؟

لماذا تنتظره على شرفتها البحريّة ، كما تنتظر العاشقة عودة حبيبها المسافر؟ .

لماذا تضيء ليبيا القناديل لهذا الطفل الذي يخبيء في جيوبه الأزهار .. والجنادب .. والكواكب .. والمنشورات الثوريّة ؟

لماذا تجلس أمام سريره متيّمة ، وتغمر خدّيه بالقبلات ، وتُطعمه حلاوةَ اللوز والسُكَّر ؟

لماذا تفعل ليبيا كل هذا للشعر ؟

لماذا تهتّم بهذا الفن السماويّ ، وعندها من كنوز الأرض ما يغنيها عن كنوز السماء ؟

إن الجماهيرية العربية الليبية ، تضع الشعر في بؤبؤ عينيها .. لأن وجدانها لا يزال نظيفاً ، ولأن إحساسها بالكلمة لا يزال رهيفاً .. ولأن عروبتها لا تزال صافية كفيروز السماوات ..

لأن الذين يخطّطون لليبيا الحديثة ، يعرفون أن أية حضارة لا تدخل في حسابها قلب الإنسان هي حضارة بلا جذور ولا أعماق ..

الذين يخطّطون لليبيا الحديثة ، يعرفون أنّ كل إنجازات الإنسان المادية ، وكل آلاته ومختبراته وأقماره الصناعية وآبار نفطه ، لا تساوي دمعة واحدة تسيل على خدّ طفل ..

الذين يخطّطون لليبيا يعرفون أن الشعر يولد مع الثورة وفي الثورة .. وأن كلّ ثورة تطمح إلى تغيير العالم ، لا بدّ أن تتحالف مع الشعر وتخطّط معه لرسم مستقبل الإنسان .

في عام ١٩٦٦ حملتُ أوراقي إلى ليبيا وقرأتُ شعراً..

وفي عام ١٩٧٥ أحمل أوراقي من جديد لأقرأ شعري..

ولكن هل أنتم أنتم ؟.. وهل أنا أنا ؟.. وهل الشعر هو الشعر ؟ .. بكلِّ تأكيدٍ لا ...

فخلال تسع سنوات حدثت ألوف التحوّلات في بنية المجتمع العربي .. وجرف الطوفان ألوف الخرافات المستوطنة في تلافيف العقل العربي ..

خلال هذه الحقبة ، وُلدتْ ثورة الفاتح من سبتمبر كوردة جميلة في صحارى الملح والعطش ..

تغيّر شكلُ الشمس .. وشكلُ الشجر .. وشكل الإنسان الليبيّ .. وشكل كبريائه وطموحاته ...

وخلال هذه الحقبة كسر الشعر العربي رخامة قبره وخرج .. وكسر قوانين الدفن ومراسيمه وخرج .. وأعلن عصيانه على الموت وخرج .. صار الشعر خارجاً على القانون ..

إن الشعر والثورة يلتقيان عند هذه النقطة بالذات . نقطة الخروج على القانون ..

فكما أن الثورة تأتي لتقتلع ، وتُحرق ، وتجرف أنقاض الأنظمة القديمة .. فإن الشعر أيضاً يأتي ليجرف كلَّ السحرة والثعابين والدجّالين ومرتزقة الكلمة . ويُلغي كلّ أنماط التعبير التي تحوَّلت مع الزمن إلى تحف أثرية ، وصناديق خشبية لا تحتوي على شيء .. ولا تقول شيئاً .. ويؤسّس لغة جديدةً تكون بمساحة الطموح ، والتطلُّع ، والمغامرة الفذَّة .

يتلاقى الشعر والثورة في ثلاث نقاط رئيسية هي : الطفولة ، والتحريض ، والجنون ..

وكما لا يمكن للشعر أن يتخلّى عن طفولته وجنونه وقدرته على التحريض . فإن الثورة أيضاً لا يمكنها أن تتخلّى عن هذه المقوّمات الرئيسية .. وإلا تحوّلت إلى مؤسَّسة عثمانية .. وتحوّل الثائر إلى موظف من

الدرجة العاشرة في مصلحة الضرائب ..

كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ إعلاناً عن سقوط العقل العربي القديم بكل أسسه العنكبوتيّة . والغيبيّة . والرومانتيكية . وإيذاناً بولادة عقل عربي جديد يقوم على هندسةٍ أخرى ..

لذلك كان لا بدَّ للشعر أن يشترك في التحريض على إسقاط العهد العربي القديم .. وتغيير كلّ المعادلات العربية القائمة على التبصير . والتنجيم .. وقراءة الكفّ ..

إن ثورتنا على التخلّف يجب أن تكون كاملةً وشاملةً . وتحرير النفس العربية والجسد العربي من الكوابيس والشيزوفرينيا . والاحتقان الفكريّ والجنسيّ ، لا يقلّ أهمية عن تحرير أيّ جزء من أجزاء الوطن العربي من الاستعمار الصهيوني .

إننا مع الأسف . ورغم كلّ دعاوى التحرر التي

نطلقها . لا نزال مسكونين بألوف العُقَد والانحرافات والموروثات الجاهلية . ولا يزال شهريار الملك يقطع رؤوس نسائنا في النهار .. ويضاجعهنَّ في الليل ...

5

في الجماهرية العربية الليبيّة ..

تنتهي الإجازة الطويلة التي أخذتها الكلمة العربية . وقَضَتْها في الأكل .. والنوم .. واصطياد الذُباب ..

تنتهي فترة جلوس القصيدة في المقهى . ولعبِ الورق . وإرتشاف القهوة المُرَّة .. وتدبيج المدائح .. وتأليف المواويل ..

في الجماهيرية العربية الليبيّة ..

يطرأ تحوّل كبير على بنية اللغة العربية . واشتقاقاتها وجذورها ..

تهرب المفردات من قاموس (محيط المحيط) .. وتُفَجر كل ذرة ترابٍ من الخليج إلى المحيط ..

تخرج اللغة العربية من هدنتها الطويلة . لتلبس ملابس الميدان . وتقود الفتح بإتجاه أرض الروم ..

يتغيّر عدد الحروف الأبجديّة .. ويصبح الثمانية وعشرون حرفاً .. ثماني وعشرين كتيبة . بمشاتها .. ودروعها . وناقلات جنودها . ومدفعيّتها . وطيرانها ..

تصبح السين سيفاً يرفعه عُقْبَةُ بنُ نافع ..

وتصبح الألف على شكل ماسورة مسدّس ..

وتصبح الحاء حصاناً يركبه عمر المختار ...

طرابلس ١٩٧٥

لعبت بإتقان
وها هي مفاتيحي

الكتاب الرابع والثلاثون

١٩٩٠

حوارات

مدخل

شرحُ الشِّعْر ، حَمَاقة .

والتنظيرُ له ، أكبرُ أنواع الحماقات .

هذا رأيي منذ زمنٍ بعيد . ورغْم تشبُّثي بهذا الرأي ، فإنّني لا أدري ، ما عددُ الحماقات التي ارتكبتُها ، على مدى خمسينَ عاماً من مسيرتي الشعريّة ، حين قبلتُ أن أكونَ واعظاً . . أو معلّماً . . أو شيخَ طريقةٍ في الشّعر . . ثم ما عددُ المرّات التي اسْتَدْرَجوني فيها ، لأكونَ ملاكماً . . . أو لاعبَ كاراتيه . . أو مصارعَ ثيرانٍ في (كُوريدا) الشِّعْر .

وبرغم ألوف الأحاديث الصحفيّة التي أعطيتُها منذُ الأربعينات حتى اليوم عن الشعر ، فإنني متأكّد أن الشعرَ بقي دائماً خارج الغرفة التي جرى فيها الحوار .

فكلّما دخل صحافيٌّ ، أو ناقدٌ ، أو رجلٌ إذاعيّ أو تلفزيونيّ عليَّ ، لبسَ الشعرُ معطفَه ، وهَرَب من الباب الخلفيّ . . .

أي أن الشعرَ ، كان يرفُضُ دائماً أن يستقبلَ زُوّاري . .

ويـرفُضُ أن يسلِّمَ عليهم . . أو يشربَ القهـوة معهم . . بـل كـان يرفضُ أن يردَّ عليهم حتى على التلفون . . .

وعنـدما كـان ضيوفي يسـألـونني عن الشِّعْـر . . كنتُ أختـرع عشرات الأعذار الكـاذبة ، فـأقول لهم مـرةً إنّه مسـافر ، ومـرةً إنّه مريض ، وحيناً إنه مصابٌ بمرض الكآبة ، وحيناً آخر ، كنتُ أقول إنَّ عنده حساسيَّة من دُخَان السَّجَائر . . .

●

وهكـذا كانت كـلُّ حواراتي عن الشعـر . . تجري في غيـاب الشعر .

كـان الشعرُ ، هـو ذلـك الـطفـل المفقـود الـذي يُنـادون عليـه بمكبِّرات الصوت في المـطارات ، والمرافيء ، ومحـطّات السكّة الحديدية ، ولكنه يرفضُ أن يسلِّمَ نَفْسَه . .

هل هذا معقول ؟ قد تسألون .

وهل من الممكن أن تقضيَ خمسينَ عاماً من عمرك ، تنامُ مع الشعـر . . وتصحُو مـع الشعر . . وتـأكلُ وتشـربُ مـع الشعـر . . وتتخانقُ مع الشعـر . . ثم تأتي الآن لتقـول : إن أهرامـات الورق والحبر التي تحدّثتَ فيها عن الشعر . . لا تُشْبِهُ الشّعْر ؟ . .

بكلِّ شجاعة ، أقول لكم : نعم .

الشعر لا يُشْبِهُ أحداً . . ولا يُشْبِهُهُ أَحَد . . .

ومن لديه صورة فوتوغرافية للشّعر ، من عصر فيرجيل ودانته ، وهـوميـروس ، إلى عصـر المتنبي ، وأبي تمـام ، والعبّـاس بن

الأحنف ، فليتقـدّم بها إلى أوّل مخفـر بـوليس ، أو إلى أيِّ وزارة ثقافة . . وله مكافأة عشرة آلاف دولار . . .

طبعاً . . لن يتقدَّم أحدٌ لنيل المكافأة .

لأنَّ الشِعْرَ نفسَه ، ليس لديه صورة محفوظـة في الأرشيف ، فهـو منـذُ طفـولتـه يهـرب من كـلِّ الكـاميـرات . . . ومن كـلِّ المُصوِّرين . . .

ورغم أن أكثر الشعراء يُحِبُّونَ أن يتصوَّروا . . وأصابعهُم على جبينهـم . . والغـليـونُ في فـمهـم . . ومجـلَّداتُ الكـتُب فـوق رؤوسهم . . فإنَّ الشِّعْرَ لا يُحِبُّ أن يتصوَّر . . . لأنه يعتبـر التقاطَ التصاوير ، نوعٌ من الاستعراضيَّة . . والنرجسيَّة . . وقِلَّةِ العقل .

ولكنْ ما ذنبي أنا . . إذا كـان العرب يُحبُّـونَ أن يُصوِّروا كُـلَّ شيء . . من العيون البنفسجيَّة . . إلى (الجيشا) اليابانية . . إلى (جانين الفرنسية) . . إلى النُهود البيضاء التي جاءتنا مع الحروب الصَّليبيَّة ؟ . . .

ثمَّ مـا ذنبي أنا . . إذا كـان أكثر الشعـراء العـرب يُحبُّـون أن يَتَصَـوَّرُوا وهُمْ في حالـة (الطَلْق) . . والقـابلةُ القانـونيّـة تَمْسَـحُ عَرَقَهم . . وتكتمُ صراخَهم . . وتـدهنُ بطنَهم بـالزيت . . . وهي تعـرف مسبقـاً أن رأسَ الـطفـل لن يخـرج أبـداً . . . لأن حَمْلَهُم كاذب . . .

وأخيراً ما ذنبي . . إذا كانت الصحافة العربيـة التي لا تمتلىء أمعـاؤهاالغليـظةُ أبداً، تـطالب الشعراء بـأن يقدِّمـوا للقرَّاء صحنـاً

يـومياً . . فيـه الكثير من (حـواضـر البيت) . . والقليـل من الشّعر . . .

●

إنَّ مطاعم الشِّعْر ، تفتح كالصيدليّات المناوبة ، ليلاً . . ونهاراً . . .

ولكنَّ أكثرَ الزبائن ، هَرَبُوا . . أو تسمَّموا . . .

وقد كان من رأيي ، أنَّ على الشاعر ، ـ إذا كان يملك الشهيَّة ـ أن يتحدَّث حديثاً طويلاً عن أشيائه الأدبية الجديدة مرةً كلَّ عامٍ أو عامين . ثم يدخُلُ بين الكواليس ، لأن الوقوفَ الطويل تحت أضواء الكاميرات ، سوف يُحْرِقُ وجهَهُ . . ويُحْرِق تاريخَه . .

ولذلكَ ، اتَّخذتُ بيني وبين نفسي قراراً ، بأن أكتبَ شعراً . . ولا أتورّطَ في شرحه ، أو تفسيره أبداً . . .

وقد التزمت بهذا القرار أدبياً وواقعياً ، إلا في الحالات التي كنتُ أشعر فيها ، أن الفريقَ الذي جاء ليحاورَني، على مستوى حضاريّ وشعريّ مرتفع ، وأن الحوارَ المُقْتَرَح ، يمكن أن يفتَحَ كُوّةً صغيرة في فضاء التجربة الشعريَّة ، ويضيءَ زاويةً خلفَ ستائر النفس . .

●

إن مقابلاتي الصحفية ضاع أكثرُها ـ والحمدُ لله ـ لأن أسفاري الكثيرة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، لم تسمح لي بأن أحملَ أهراماتٍ من الورق على كتفي . . وأقطعَ بها المحيط . .

هناك أدباء ، يجمَعُون كالنّمْلَة ، كُلّ حرفٍ قيل عنهم ، أو قالوه عن أنفسهم ، منذ عصر جَلْجَامِشْ إلى يومنا هذا . . . ويفرضون على الصحافة صُوَراً أُخِذَتْ لهم أيام كانوا في دار الحضانة . . .

أما أنا ، فغيرُ مكترثٍ بجمعِ (كلماتي المأثورة) . . لسبب بسيط ، وهو أنه ليس عندي كلماتٌ مأثورة . . .

وغير مكترثٍ بسماع صوتي المسجّل على شريط في إحدى الأمسيات الشعريّة ، لأنني أضيق بسماع صوتي مرةً ثانية ، عندما تتغرغرُ به آلةُ التسجيل ، وأعتبرُ ذلك ، ذروةَ العذاب الإنساني .

ثم إنّي غير مكترثٍ بتوجيه النصائح الشعريّة إلى الأجيال الصاعدة . . لأنني لا أزالُ بحاجة إلى من ينصحُني . . .

لا (الفَهْرَسَة) تَعْنيني . . .

ولا (الأرْشَفَة) تَعْنيني . . .

ولا (البَرْمَجة) تَعْنيني . . .

كلُّ ما يَعْنيني ، أن أُقفلَ على نفسي بابَ الغرفة ، وأنطحَ رأسي بالحائط . . حتى يسيلَ دمي . . ودمُ الشِّعْر . . .

●

وإذا كنتُ لا أُحِبُّ تصريحاتي الصحفيّة التي أعطيتُها . . ولا التصريحات التي سوف أُعطيها . .

فلماذا أنشُرُ هذا الكتاب الذي يضمُّ بعضاً من الحوارات التي

أُجْـريت معي خـلال السنـوات الأخيـرة ، وأرى أنهـا تُشْبِهُني ، وتخترقُني كأشعّة (اللايزر) ؟

إنَّ سبَبَ النشر ، يعود إلى طبيعة هذه الحوارات ذاتها ، فهي حواراتٌ تتميّز أولاً ، بالبُعْد الحضـاريّ ، والثقافيّ ، والإنسـانيّ ، ولا تسقُطُ في السطحيَّة ، والعـدوانيَّة ، والإبتذال . . .

وهـذه الحوارات ، ثـانيـاً ، هي حـواراتُ مـواجَهـة ، وَتَحَدٍّ ، واستفزاز . . لا حواراتُ مجامَلَة ، وتَدْلِيس ، ونفاقٍ نقديّ ، تُمْليه روحُ الشلليّة والإخوانيّات . . .

وهـذه الحـوارات ، ثـالثـاً ، محـاولـةٌ للبحث عن الجُـذُور ، والدُخولِ تحت جِلْد القصيدة ، وقراءةِ النّصّ الشعريّ ، من موقفٍ حضـاريٍّ مـرتفـع ، بعيـداً عن الفكـر السَادِيّ ، والشُـوفينيّ ، والجادانُوفيّ . . .

●

إنَّ أسئلةَ الشعر ، التي تُطْرحُ على الشـاعر ، يمكنُ أن تفتـحَ نافذةً على البحر . . كما يمكن أن تكون كالسيّارات المُفَخَّخة التي تقتل القمرَ . . والأطفالَ . . وسنابلَ القمح . . لا لشيءٍ إلّا لشهوة القتل .

وأنا ، إذْ أسمحُ لنفسي بنشر هذه الحوارات الحضاريّة الراقية ، التي أُجريتْ معي في أزمنة وأمكنةٍ مختلفة ، فلكي أؤكّدَ عبثيَّة أيّ نقدٍ يحاول أن يغتالَ قصيدةً . . أو يَضَعَ لغماً فوق سطح القمر . . .

جنيف ٢١/٣/١٩٨٩ نزار قباني

لماذا أكتب ؟

١

أكتُبُ لكي أتكاثَرْ . .
لكي أتعدَّدْ . .
لكي أتناسلَ سنابلَ ، وأقواسَ قُزَحٍ ، وأبجديَّاتْ . .
أكتُبُ . .
كي أصبح ١٥٠ مليون نزار قباني . .
إذا نَقَصُوا واحداً ، أتضايقْ . .
وإذا نقصوا مئةً ، أقْلَقْ . .
وإذا نَقَصُوا ألفاً . . ترتفعُ درجةُ حرارتي
وأستدعي الطبيبَ فوراً
لأنّني أعتبر حالتي الشعريَّة خطيرة .
هذه خارطةُ طموحي
وعيني دائماً على البحرْ . .

٢

الكتابةُ السِريَّةُ ، لا أُتقِنُها
وإذا فتَّشتُمْ جواريري
لن تجدوا قصيدةً واحدة
حبستُها في زنزانةٍ إنفراديَّةْ
لن تجدوا فَرَاشةً واحدة
ماتت اختناقاً . . .

٣

كُلُّ بناياتي بنيتُها على أرضِ البَشَرْ
ولم أُشيِّدْ بنايةً واحدة
لسُكْنَى الملائكَةْ . .
خمسين عاماً . . ركضتُ وراءَ جمهوري
حتى ألقيتُ القبضَ عليه . .
كما يقبض الطفلُ على بنفسجة . . . .

٤

كتبتُ للنساءْ . .
فتفتَّحتْ أنوثتُهنّ بوقتٍ أسرعْ
وكتبتُ للعصافيرْ . .
فأصدَرَتْ بيانَها الأوَّل عن الحريّةْ
وكتبتُ للعيون السُودْ . .
فازداد سوادُها . .
وكتبتُ للشفاهْ . .
فاكتشفَ العالمُ صناعةَ النبيذْ
وكتبتُ للنَهدْ . .
فازدادت ثقتُهُ بنفسه . . . .
وكتبتُ للأشجار . .
فطالت ضفائرُها . . .

٥

لماذا أكتب ؟
ربّما لأنني لا أعرفُ أن أفعل شيئاً آخَرَ
غير الكتابَةْ . .
وربّما لأنَّ هوايتي
هي أن ألعبَ بأعواد الكبريتْ . .
وربّما لأنني أريدُ أن أنقذ القَمَر
من رصَاص القنّاصِينْ
وأثداءَ النساء من التعليبْ
ووردةَ الشِعرْ . .
من تحت جنازير الدبَّابَاتْ . . .

٦

لماذا أكتب ؟
ربّما كي أنتصر على موتي .
وربّما . .
للدفاع عن آخر الأحرف الأبجديّةْ
وآخِرِ مطبعةٍ . .
وآخِرِ كتابٍ . .
وآخِرِ كاتبٍ . .
لم تصرَعْهُ المسدَّسَاتُ الكاتمةُ للصوتْ . .

بيروت ١٦/٥/١٩٨٥

لعبتُ بإتقانٍ ،
وها هي مفاتيحي(*) . .

(*) حوار مع مجلة الكرمل ـ نيقوسيا ـ العدد ٢٨ /١٩٨٨

حكاية هذا الحوار

حين قرّرنا إجراء حوار لمجلة الكرمل مع الشاعر نزار قباني ، كان علينا الوصول إلى متميِّزٍ كثيف في شخصه ، ووعيه ، فالحوارات معه كثيرة لا تُحصى في الصحافة ، وهي تُلْقي ـ أبداً ـ بظلٍّ نَمَطي بين يدي القارىء ، في حين ينفلتُ الشاعرُ من مواجهته الأقسى : ما الّذي فعلتَ بالشِّعْر ؟

ومن أجل أن لا يكونَ هذا الحوار استنطاقاً أُحادياً ، يُحدِّد السياقَ لخطابٍ واحد ، فقد استنفرتُ بعض الأصدقاء الذين يكتبون الشعر والنقد معاً ، لنضَعَ صيغةً أكثرَ شمولاً ـ بالتقويم الذي تحتكم إليه ذائقةُ كلّ واحد ، ثقافياً ـ في مواجهة أنفسنا ، كجيل ، وفي مواجهة الشاعر الذي وحّدَ من حوله مفارقاتٍ هائلة في التاريخ الراهن ، على المستوى النثري ، والشعري .

لهذا ، وبحكم اختلافنا ـ كالتناقضات التي في خطاب الشاعر نفسه ـ كانت الأسئلة التي كتبناها قاسيةً وحنونةً ، شاردةً ومنسّقةً في

الآن ذاته ، فنزار قباني « جبهة » على خطّ التاريخ ، ولا نستطيع التكهّن بالأسلحة التي تُخفيها تلك « الجبهة » من أجل اقتحامٍ أكبر ، في اتجاه زمنٍ أكبر .

كتبنا الأسئلة ، وحملتُها إليه قبل ستة أعوام .

أخذ على نفسه وعداً بتسليم أجوبته في أسبوع ، فحطّم الإسمنتُ الذي تطاير ، في انفجارٍ مجنون ، وعْدَهُ : لقد قَضَتْ زوجُهُ « بلقيس » في لعبة التناحر العمياء . فلم أعد إليه إجلالاً لألمه .

لكنَّ الوقتَ داهَمَنا بحصار إسرائيليٍّ لبيروت ، فيما بعد ، بفترةٍ لم يكن ألمُهُ أعادَ إليَّ شجاعةَ سؤاله ، كصديق ، عن أسطرٍ من كلامٍ مكتوب : فإذا بي أذكِّرُهُ بعد سنين ـ هو في منفى ، وأنا في منفى ـ فيداهمني بأجوبته ، بعد أن زار أوراقَهُ في بيروت زيارةً قصيرة ، مُدَوَّناً في رسالته المُرْفقة :

« حَدثَتْ المعجزة ، ووجدتُ الأسئلة التي وجَّهتَها إليَّ في نهاية القرن العاشر للهجرة » . .

سليم بركات

● قيل كثيراً : « الشعر يغيّر العالم ». لكنّ الصراعات الاجتماعية (الطبقية تحديداً) وكذلك السياسة ، والحروب ، التي هي ذروة اللاحوار؟ كلها ، مجتمعة ، تغير العالم . ما واقع هذا القول في ضوء تجربتك الطويلة ؟

- عندما يقول الشاعر بأنه بشعره سيغير العالم فيجب أن نصدقه ، تماماً كما نصدّق الطفل عندما يخبرنا أنه امتطى غيمة ، أو اصطاد نجمة ، أو تكلّم مع فراشة .

وعندما يقول لنا نابوليون، أو كارل ماركس ، أو ماكيافيلي ، أو هتلر ، أو الاسكندر المقدوني ، أو ستالين ، أو هولاكو . . أو نيرون . . أو اسحق شامير . . إنهم غيّروا العالم ، فيجب أن نصدقهم أيضاً .

وعندما يقول لنا الطيّار الأميركي الذي ألقى القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما ، وقتل نصف مليون ياباني في ثانية واحدة ، أنه غيّر مصير الجنس البشري ، فيجب أن نصدقه أيضاً .

كلّ من يملك السلطة يغيّر العالم على طريقته : الديكتاتور يغير العالم على طريقته ، والعسكريّ يغير العالم على طريقته ، والشرطيّ يغير العالم على طريقته ، والراهبة تغير العالم على طريقتها ، والمومس تغير العالم على طريقتها ، والأنبياء ، واللصوص ، والملوك ، والصعاليك، والسكارى، والمجانين، والحشّاشون؛ كل واحد من هؤلاء يقول إنه سيغير العالم. والواقع أن جميع الناس يحلمون بالتغيير ، ولكنّ الوسائل تختلف ، والمواقف تختلف، والسّلوكيات تختلف.

ثم أن النساء أيضاً يغيّرن العالم . كليوبترا غيرت خرائط الامبراطورية الرومانية ، ونفرتيتي غيّرت خطوط الحضارة الفرعونية ، وشجرة الدّر غيرت تاريخ المماليك ، وماريا كالاس غيرت مسار السفن اليونانية التي يملكها أوناسيس، وماري انطوانيت رفعت سعر الخبز في باريس ، وجورج صاند غيّرت موسيقى شوبان، وجيهان السادات شدّت أنور السادات من أذنيه الى تل ابيب ، وجسد مارلين مونرو الجميل لخبط أدب أرثر ميللر ، وأحذية مدام ماركوس ساعدت على طرد زوجها من الفيليبين ، وألبرتو مورافيا دخل بين شفتي زوجته الصغيرة جداً كارمن ولم يعد حتى كتابة هذه السطور.

اذن فدعاوى التغيير لا تنتهي ، حتى النملة تستطيع ان تدّعي انها المسؤولة عن تنظيم حركة المرور تحت قشرة الكرة الارضية ، كما يستطيع العصفور ان يدّعي أنه أسس أول شركة طيران في العالم، قبل أن تكون شركة ألبان اميركان ، والاير فرانس ، والخطوط الجوية البريطانية.

واذا كان الجنرالات ، والعقداء، وأصحاب الميليشيات يغيرون أسرع منا، ويقتلون أسرع منا، ويغيرون العالم بالسيارات المفخخة ، والمسدسات المكتومة الصوت، وطائرات الـ ف ـ ١٦ فإن الشعراء يغيّرون بالسرعة الإملائية، ويغيّرون ضمير الانسان ، كما تفعل حنفيّة الماء : نقطة . . نقطة . . نقطة . .

نحن الشعراء ، نؤمن بسباق المسافات الطويلة .

صحيح أن المسدّس المكتوم الصوت أشطر منا ، والرصاصة

أسرع منا، ولكن الوردة، حتى تطلع، بحاجة الى تسعة أشهر من الصبر، والشغل، والتحضير.

نحن لا نريد أن ندخل في سباق مع المسدّس، أو مع المشنقة، أو مع الكرسي الكهربائي، ولا نؤمن أصلاً بالورد البلاستيكي المزروع في المختبرات.

نحن من سلالة أيوب عليه السلام ، ولدينا من مخزون الصبر والتحمل ما يرشّحنا للانتصار بالضربة القاضية ، أو بالقصيدة القاضية ، على كل جبخانات الأسلحة النووية المخزونة في العالم.

أمّا اذا سألتموني عن تجربتي ، فأقول لكم انني حفرت الوجدان العربي ، خلال أربعين عاماً ، على طريقة حنفيّة الماء : نقطة . . نقطة . . نقطة.

لم أستعمل المواد البلاستيكية ، ولم ألجأ الى العبوات الناسفة، والديناميت، ولكنني في كل أمسية شعرية ، بين المحيط والخليج، حرّكت المياه الجوفية في داخل الانسان العربي ، وزرعت نخلاً، ورمّاناً ، وتفاحاً، في الارض المالحة.

وبعد أربعين عاماً من التنقيط، والريّ، وتوزيع قنوات الماء، أشعر أن الارض صارت أقلّ ملوحة، وأن نهد المرأة العربية صار شجرة ياسمين، وأن الرجل العربي صار يستعمل الشوكة والسكين ، وهو جالس على مائدة الحب، بعد أن كان يأكل بأظافره ، وأنيابه، على طريقة الماو ماو . .

وهذا تقرير موجز عمّا أحدثت من تغييرات على خارطة الشعر

العربي ، وأرجو أن تقرأوه دون أن تتهموني بالنرجسيّة والغرور :

أولاً ـ بعد أن كان الحبُّ مقموعاً، وخائفاً، ومطارداً، وملعوناً، ومكروهاً، ومرفوضاً، وسرّياً، أخرجته من «التابو» ، ومنحته الشرعية والعلنية.

ثانياً ـ بعد أن كانت اللغة الشعرية ، إقطاعيّة، وطبقيّة، ومتجبّرة، ومتكبّرة، وغليظة، وثقيلة الدم، علّمتُها فن العلاقات العامة، وطريقة الحوار الديمقراطي، وأجبرتُها على النزول الى المقاهي والمطاعم الشعبية والشوارع الخلفيّة، والاختلاط بالبروليتاريا. وباختصار كنتُ أوّل من أعلن «تأميم الشعر» ، قبل أن يؤمم جمال عبد الناصر قناة السويس.

ثالثاً ـ بعد أن كان «الخطاب السياسي» خطاباً تلفيقياً، انتهازياً، انكشارياً، ارتزاقياً، حكومياً، انبطاحياً، حوّلته الى حزب راديكالي، وأغلقت باب الارتزاق في الشعر، سواء كان بالدولار، أو بالمارك، أو بالجنيه الاسترليني، وشنقت جميع المرتزقين بحبال قصائدهم.

● **في كل شعرك «السياسي» أنت ناقم، ثائر. لكنك ـ كشخص ـ لم تنخرط في مواجهة مع نظام، كأنّ شعرك «عموم» وكأنّك ـ كفرد ـ تخصيص. ونحن نعلم أن الكلام، في عمومية إطلاقه، لا يستثير نظاماً. والشخص، كتخصيص في الموقف، يجعل من نفسه عرضةً للانتقام. أين أنت من هذا وذاك؟**

ـ إنني خلاف ما تقول تماماً ، في مواجهة مع جميع الانظمة . والمعيار لهذه المواجهة الشرسة والمستمرة، هي كُتُبي ، فكلّ

الأنظمة تستعمل «الفيتو» ضدّ كتاباتي، وكل الكلاب البوليسية صارت تعرف رائحة حروفي عن ظهر قلب.

وأنا لا أوافقك على ضرورة التسمية في الشعر، فالتسمية في الشعر تسيء الى الشعر، وتحوله الى خناقة في شارع. أو الى ثأر شخصي. وأنا كشاعر. لا أثأر من أشخاص، وانما أثأر من أفعال وممارسات وانحرافات قومية.

الشعر هو فن الاشارة والايماء، ولا علاقة له بفن الكاراتيه، والمصارعة اليابانية، والاعلانات المبوبة.

أنا حين، أتحدث عن الديكتاتورية، فإنني أثير الاذهان، أكثر مما لو تحدثتُ عن ديكتاتور واحد. وحين أتحدث عن الكذب والعهر السياسي، فإنني أحرّك فضول الناس، أكثر مما لو تحدثت عن كذّاب واحد، أو متعهِّر واحد. وحين أتحدث عن الطاعون الذي يفترس جسد الأمة العربية، فإنني أكون أكثر تأثيراً مما لو تحدثت عن حالة واحدة، أو عن مريض واحد.

إن المواجهة الجسدية مع نظام من الأنظمة؛ ليست بذات أهمية، فالشاعر ليس مجموعة من العضلات، بل هو طاقة روحية هائلة، وسلطة فكرية تتقدّم على كل السلطات.

ولو كان جسد الشاعر بهذه الأهمية التي تصوّرها، فإن كلاشينكوفاً واحداً يكفي لتصفية جميع شعراء العالم.

وباختصار أقول، ليس هناك عمومية أو خصوصية في الشعر. وأنا لم أكن في يوم من الأيام شاعراً سرّياً، أو باطنياً، أو لجأت الى مبدأ التقيّة فيما أقول، أو أكتب.

إنني لم أدخل في حياتي حزباً سياسياً ، ولم أربط نفسي بأي تجمّع ثقافي، ولم أنخرط في أي تنظيم سرّي ، ولم أضع شعري في خدمة أية ايديولوجية. لقد كان الانسان هو انتمائي الوحيد ، وكانت الحرية هي الأنثى الوحيدة التي تزوجتها. فأنا رجل لا يؤمن بتعدّد الزوجات، ولا بتعدّد الانتماءات ، ولا بتعدّد السروج.

● الى أي مدى يمكن للرجل أن يتماهى مع المرأة ؟ أي يتحدث الشاعر عن المرأة، بعامة، من موقعه الذكوري، وقد يجنح في حالات قليلة الى التقول بلسانها عن أحاسيسها كأنثى. لكنك أكثرتَ من ذلك. فهل أنت تجسيد للقول البليغ البليغ : «في كل ذكر أنثى أيضاً؟ . . ».

ـ نعم. . نعم. . أنا تجسيد لهذا القول البليغ. وهو قول ليس بليغاً فقط بمعنى البديع والبيان والفذلكة الكلامية، ولكنه قول له أسانيده العلمية والطبية والتشريحية.

فالمعروف أن الجنين في رحم أمه يكون، في أسابيعه الاولى، حائراً بين الذكورة والأنوثة ، أي أنه يكون خلطة كيميائية لا جنس لها ، ثم يحسم ربك الأمر ، فيرسم نهديْن هنا ، وشاربينْ هناك ، ويحلُّ القضية بالتي هي أحسن ، ويفكُّ الارتباط بين الجنسين ، ويرسم حدود المنطقة المنزوعة السلاح.

ولكن ، برغم معاهدة فكّ الارتباط بين الجنسين ، فإن العلاقة التاريخية الأولى، التي بدأت في الرحم، تبقى مخزونة في ذاكرة الذكر والأنثى معاً ، بحيث لا ينسى الذكر أصوله الأنثوية ، ولا تنسى الأنثى جذورها الذكورية.

فاذا كنتُ قد كتبتُ عن المرأة بمثل هذه الدقة ، والتطويل ، فلأن ذاكرتي الأنثوية لا تزال نشطة، ولأنني وفيٌّ جداً لمرحلة ما قبلَ فك الارتباط.

● **ضربة حظّ أنت في الشعر ، أم قرار شعري؟**

ـ لو أن دواليب اليانصيب تُفرز شاعراً كلّما دارت، لكان عدد الشعراء في العالم أكثر من سكان الصين الشعبية .

أنا قرار شعري اتّخذه الشعب العربي بالإجماع ، ولا يزال قرار انتخابي رئيساً لجمهورية الشعر يتجدّد اوتوماتيكياً كل خمسة وعشرين عاماً ، مثل كل رؤساء وملوك المنطقة العربية . ولكن الفرق بيني وبينهم ، أن الناس هم الذين ينتخبونني ، وأجهزة المخابرات هي التي تنتخبهم بنسبة ٩٩٩ بالمئة .

● **في شعرك ، وفي موضوعات شعرك ، قيل ويقال الشيء وضده ، فأنت مجدّد ومحافظ ، شكلاني ومضموني ، والمرأة حرّة عندك، وعبد، تطالبُ لها بالإفلات من القيود الاجتماعية ، وتشيئها بحيث تكون مجرد انعكاس سلبي لرغبات محددة، كيف يمكن أن تحل ، أنت ، هذا التناقض؟**

ـ إنني أحبّ تناقضاتي ، ولا أجد سبباً لانكارها أو التنصّل منها. فالشاعر نسيج من الدم واللحم ، والزوابع والبروق ، وليس «قالب بالوظة».

أنا الأبيض والأسود ، والثلج والنار ، والقدّيس والشيطان، والمحافظ والليبرالي، والأصولي واللا أصولي، والقانوني والخارج

على القانون، والأكاديمي والفوضوي، والحضاري والبدويّ، والتاريخي والهارب من مقبرة التاريخ.

المرأة في حياتي لم تكن أبداً صورة معلقة داخل برواز.

عرفتُ، خلال أربعين عاماً، جميع أنماط النساء. فعلى أوراقي تجد العشيقة، وتجد الصديقة، وتجد الطاهرة، وتجد العاهرة، وتجد الباردة، وتجد الشهوانية، وتجد السلطانة، وتجد الجارية، وتجد العذراء، وتجد المحترفة، وتجد من تقول لك شفتها العليا: «لا»، في حين تقول لك شفتها السفلى: «أدخلوها بسلام آمنين..». إذن، فالمرأة طقس، ومناخ، ومطر استوائي. لذلك كان شعري يتابع تحوّلات الحبّ، وتحوّلات النساء، كما يفعل موظفو مصلحة الأرصاد الجوّية.

إن التناقضات في الشعر حالة صحية جداً، والشاعر الذي لا يتناقض هو معلم حساب في مدرسة ابتدائية لا يعرف سوى جدول الضرب، وأعمال الجمع والطرح والقسمة.

أنا لست أبا العلاء المعري، ولا زهير بن ابي سلمى، ولا أبا العتاهية، وليس عندي حكم مأثورة تصلح لكل زمان ومكان.

قد أكون اليوم بابلو نيرودا، وغداً رامبو، وبعد غد ديك الجن الحمصي، وعندما أتجول في شوارع باريس قد أصبح بول ايلوار، وعندما أهبط في مطار هيثرو في لندن قد أصبح ت. اس. ايليوت.

إن جواز السفر الذي استعمله ليس عليه صورة، ولا أختام، ولا تأشيرات، ومع ذلك فإن صالات الشرف تفتح لي في كل مطارات العالم، لا بصفتي جنرالاً من جنرالات الحرب، أو خبيراً

من خبراء الأسلحة، ولكن بصفتي خبيراً بقلب الانسان.

● عودتك، دورياً، الى القصيدة العمودية، تحدث ـ في الغالب ـ بناءً على رغبة تتقصد الشهادة في حدث ما ، كأن متطلبات القول العام (السياسي ربما) هي التي تفترض الشكل المسبق للكتابة. هل الشكل وظيفي الى هذه الدرجة؟ أم أن الأذن العربية ، وبلاغتها الايقاعية ، هي التي تحدّد وظيفة السلوك؟

ـ اللغة زيّ قومي. وكل شعب يلبس اللباس الذي يريحه ، ويتناسب مع الطقس الذي يعيش فيه. إذن فالملابس جزء من حاجات الانسان ، ومستلزمات وجوده، وبالتالي فإن الملابس أصل ، والعري هو استثناء.

وأنا ، كشاعر ، لا بدّ لي أن ألبس لغةً ما؛ خرقة ما ، حتى أتفاهم مع محيطي ومجتمعي، وإلا سقطتُ من مواطنيتي ، واتُهمت بالشذوذ أو بالجنون.

والقصيدة العمودية ثوب من الأثواب موجود في خزانتي، مثل جميع الأثواب. لا أحد يرغمني على ارتدائه ، ولا أحد يرغمني على بيعه في المزاد العلني.

إنها موجودة جنباً الى جنب مع قصيدة التفعيلة ، والقصيدة الدائرية ، وقصيدة النثر ، كما توجد بدلة السموكن الى جانب العباءة ، وبدلة الفراك الى جانب الدشداشة ، والقنباز الى جانب بنطلون الجينز، والطربوش الى جانب البيريه ، والعمامة الى جانب المايوه.

خزانة التاريخ اذن ملأى بعشرات الأزياء ، والأشكال ،

والألـوان ، والمهم أن لا يفـرض عليّ أحــد مـاذا ألبس ، وأن لا يتـدخـل أحـد في اختياراتي ، وذوقي ، وألـواني المفضلة ، ومثلمـا يفرض المسجد عليك أن تلبس لباساً كلاسيكياً محتشماً ، ومثلمـا تفرض الجامعة على أساتذتها أن يلبسوا لباساً أكاديمياً معيناً ، فـإن الخـطاب السيـاسي يفـرض عليـك لغـة قـادرة على التـواصـل والاختراق ، قد لا تستعملها وأنت تكتب قصيدة حب تتوجه بها الى حبيبتك فقط .

إنني ، حين أكتب القصيدة العمودية لأغطي بها حادثاً سياسياً ما ، فـإن هـذا لا يعني بشكـل من الاشكـال أنني أخـون قضيـة الحداثة . فهنـاك توقيت لشعـر الحداثـة ، كما هنـاك توقيت لشعـر الوزن والقافية . وعدم مراعاة هذا التوقيت ، بدقة ، يدخل الشتاء في الصيف ، وشهـر شعبان بشهـر رمضان ، ويسبب للمتلقّين الـدوار والإغماء .

ثم إن الأذن العربية ليست زائدة دودية يمكن قطعها متى أردنا ، واستبدالها بأذن من البلاستيك . وكما أن أم كلثوم لا يمكن أن تغني غنـاءً أوبرالياً على طـريقة مـاريا كـالاس ، فإن المغني المصـري العظيم سيّد درويش لا يمكن أن يتحول ، بين ليلة وضحاها ، الى مايكل جاكسون . .

● الالتباس الذي يسـود الكتابـة الواحـدة ، ليس نتاج اللغـة كمعطى ، بل يتعدّى اللغة الى نسيجها الدلالي . فقصائد المعاني ، وقصائد المضامين ، وحتى قصائد الحكايـة (المشاغبـة) تظل في المناخات المعنوية للقصيدة الكلاسيكية نفسها ، أي : إن الكـلام الـذي يتنـوع في قصيـدتـك ، على صعيـد المفـردة ، والجملة ،

يخضع لنسق جمالي سابق له. ويظل ـ تالياً ـ كلاماً قابلاً للمعنى الشامل، وربما للتشابه؟

ـ لا أفهم الى أين تريدون الذهاب في سؤالكم التعجيزي؟ هل تريدون القول إنني لم آت بجديد في خطابي الشعري، وإنني صورة منسوخة بالكاربون لعنترة العبسي، والشنفرى، وعمرو بن كلثوم، وجرير، والفرزدق؟ ثم، هل تريدون القول إن المفردة عندي لا تزال نجدية، حجازية، صحراوية، وإن المعاني والصور عندي هي ذات المعاني والصور التي استعملها شعراء القرن الاول للهجرة؟ وبالتالي، هل تريدون القول إن جميع الثياب التي لبستها خلال أربعين عاماً كانت ملابس مستعملة SECOND HAND، وان كل القماش الذي استعملته كان من وبر الجمل، وانني لا أزال أربط ناقتي على باب فندق دورشستر في لندن؟

اذا كنتم تقصدون ـ وأرجو أن أكون مخطئاً في فهمي ـ أن كل ما صنعته في الشعر وللشعر خلال أربعين عاماً، كان صناعةً بدوية صرفة، فإن الكارثة من هذا المفهوم العشوائي للنقد، هي كارثة عظمى.

فتطبيق أساليب غسل الدماغ على التجربة الشعرية، يحول الناقد الى رجل بوليس، ويضع شعراء العالم جميعاً في قفص الاتهام، بدعوى أن مفرداتهم مسروقة، وسراويلهم مسروقة، وثقافتهم مسروقة، فيدخل شكسبير الى الزنزانة بتهمة تقليد شوسر، ويدخل أحمد شوقي الى السجن بتهمة تقليد البحتري، ويدخل ت. اس. ايليوت الى السجن بتهمة تقليد إزرا باوند، ويدخل أدونيس الى السجن بتهمة تقليد سان جون بيرس، وتدخل

كل ثقافة أوروبا الى السجن لأنها من أب يوناني وأم ايطالية .

اذا كانت الحداثة لديكم تعني «تكنيس» رأس الانسان ، من كل معرفة سابقة ، وكل لغة سابقة ، وكل تجربة سابقة ، فبأي لغة تقترحون علينا أن نكتب ؟ وما هي المفردات التي تقترحون علينا أن نستعملها ، حتى نتفاهم مع الوجدان العام ، ونستحق أسماءنا كشعراء ؟

إن اللغة التي صغتم بها أسئلتكم ، هي لغة راقية ، وبالتالي فهي ليست لغة هابطة ، ولا متخلفة ، ولا معاقة ، ولكنها، بكل تأكيد، منقولة عن نموذج سابق.

إن ذاكرتكم اللغوية جيدة جداً ، ولذلك كان حوارنا ممكناً . اللغة مثل فصيلة الدم ، وكما لا يمكن للانسان أن يغير فصيلة دمه كل يوم ، فليس بإمكانه استبدال لغته باللغة المسمارية ، أو السنسكريتية.

ثم ان اللغة شجرة تورق ، وتزهر ، وتثمر ككل الاشجار. وكما الشجرة قابلة للتلقيح ، وتغيير شكل أوراقها ، وأغصانها ، ونكهة ثمرها ، فإن اللغة ايضاً قابلة للتلقيح ، والتشذيب ، والتقليم ، بحيث تكتسب أشكالاً جديدة، وإيقاعاً جديداً، وعادات جديدة.

إن اليابانيين استطاعوا أن يتحكموا في حياة الشجر ، ويغيروا طبائعه ، وطول قامته ، ونوعية ثماره ، ونظام مواسمه ، فلماذا لا نطوّر لغتنا على الطريقة اليابانية ، ولماذا نصرّ على اغتيال كل ما لدينا من أشجار نخل بحجة أن النخلة ميراث بدوي ، جاهلي، صحراوي، لا يليق بعصر الكومبيوتر؟

إنني لست متعصباً للنخلة ؛ ولا أنا ضد زهرة التوليب الهولندية ، ولكن أنفي يبقى ـ حتى أموت ـ من حزب الياسمين الدمشقي.

● **أنت لا تقف عند اختيار ألفاظك في النص الشعري ، فكل ما حولك من أسماء ، أفصيحة كانت ، أم عامية ، أم أجنبية هي في وارد الحضور ، كأنك تختزل قارئك ، وذوقه الشعري (واللغة أساس الشعر) الى حال محضة. ألك تبريرك؟**

ـ الجمهور كتلة جمالية غامضة . عجينة لينة وغير محدودة الشكل ، حتى يأتي الشاعر فيعجنها ويعطيها شكلها البديعي والذوقي. نعم. . أنا أختزل قارئي ، وبعبارة اخرى أنا أصنعه وأصوغ ذوقه. إنّ مهمتي كمهمة المصفاة في المختبرات وفي مصانع العطور. إن لغتي الشعرية ليست لغة جاءت بالمصادفة ، أو طلعت لي باليانصيب. إنها عملية انتقائية أخذت مني عشرات السنين حتى تكوّنت. وليس صحيحاً أن كل الكلمات والاسماء في قصائدي واردة الحضور . لو كان الأمر كما تقولون لكان هناك ألف نزار قباني على المسرح الشعري العربي . ولكن ليس هناك سوى نزار قباني واحد ، له خصوصيته في اللغة ، وله ورشة للقصّ ، والتفصيل ، والخياطة ، كما لبيير غاردان، وايف سان لوران، وتيد لابيدوس، وكريستيان ديور .

● **في تجربتك ميل الى ادماج المفردة العادية ، والتفصيل العادي ـ ربما في الصياغة الشعرية. كأنّ ثمة تأكيد على الحميم ، وعلى العابر ، وعلى الأدوات البسيطة للمشهد أو للفكرة أو للإحساس المباشر ، في حدود انسجام هذه العناصر «العادية» مع**

القول الشعري «الجميل» أو «المؤثر» أو «الدراماتيكي» الذي لا يبتعد عن حكمة في «العيش» ، أو فهم «للعيش». أتجربتك في أساسها تجربة شعرية؟

- يؤسفني أن أقول لكم إن لنا رؤيتين للشعر متباعدتين جداً ، بل متناقضتين جداً. ففي حين تعتبرون كل ما هو حميمي ، ويومي ، ومعاش، ضدّ الشعر ، أعتبره أنا أساس الشعر وجوهره. فما هو العيب في أن يكون الشعر جزءاً من خبزنا اليومي ، وعشقنا اليومي ، وحزننا اليومي ، وكلامنا اليومي؟

ما هو العيب أن يكون الشعر «خلاصة عيش»، أو «حكمة عيش»، أو مخطوطة لسيرتنا الذاتية؟

إن شعوب العالم الثالث بحاجة الى قصيدة تشبه استدارة الرغيف ، ولها رائحة الحنطة . ولديها من المآزق الاقتصادية ، والصحية، والسكنية، والتعليمية، والمذهبية، والاستعمارية، ما يفيض عن اللزوم.

والشعر ليس مادة كمالية مخصصة للملائكة ، وزوجات الملائكة، وأولاد الملائكة، فحسب، ولكنه شحنة مستعجلة من الدقيق، والبطانيات، والحليب المجفّف، يحتاج اليها ملايين الأطفال في السودان وبنغلادش. .

وأرجو أن لا تتصوروا انني أخلط في كلامي بين الجميل والمفيد ، لأن تجربتي الشعرية ، على مدى أربعين عاماً ، أكّدت لي أن النص الشعري الذي يتوجه للانسان ، يمكنه أن يكون جميلاً ومفيداً في الوقت ذاته.

أمـا النصوص الشعـرية المـوجهة الى فضـاءات غير مسكـونة بأحد ، وقارات غير مسكـونة بـأحد ، والمكتـوبة بلغـة لا يتكلمها أحد ، فهي مثل الاسلحة الفاسدة التي تنفجر في أيدي صانعيها قبل إطلاقها.

أما سؤالكم عن تجربتي ، واذا كانت في أساسها شعرية أم غير شعرية ، فهو بحاجة الى استفتاء شعبي عام ، يقول الجمهور كلمته فيه ، برغم أن كلمة الجمهور تسبب لكم حساسية جلدية ، وحكّة دائمة. . . شفاكم الله.

● ترمز في مذكراتك الى الشعر بسمك أحمر يقفز اليك من البحر. وكل شيء عندك يكسب شرعيته الشعرية عبر إغرابية ، أو مجلوبية Exotism من هذا النوع. فما القول في قارىء يتعامل مع شعـرك بتعميم لهـذه النـظرة : أي : اعتبـار قصـائـد الحب أشبـه ببطاقات بريدية من بلد بعيد ، ومن « شرفة على قمر »؟

ـ أنا ما أزال مقتنعاً أن الأبيات الشعرية الأولى التي قفزت من مياه البحر الأبيض المتوسط في العام ١٩٣٩ ، كانت مجموعة من السمك الاحمر ، ومـا دام القراء قـد صدّقـوا رؤيتي فهذا يعني أن السمك الاحمر كان سمكاً حقيقياً ، لا سمكاً مجازياً، او رمزياً.

ثم ما هو الشعر اذا لم يحمل الى الناس الدهشة ، والانبهار ، ويُخرج العصافير والاسماك ، والغزلان من صندوق الفُرْجَة؟

إنني أكتب شعراً لا تقريراً اقتصادياً ، أو وصفة طبية ، او اضع أرقام موازنة الدولة. وبالتالي فأنا أقصّ على الناس حلمـاً ، وأترك لهم مطلق الحرية في تصديقه ، أو رفضه.

ولمعلوماتكم أقول إن أكثرية الشعب العربي صدَّقت أحلامي ، أما الأقلية فلا أهتمّ بها ، لأنها مصفّحة ضدّ الحلم.

● كيف يمكن ان تتصالح ـ وأنت القائل مع سارتر إنك لم تتوقف لحظة من اللحظات عن تغيير جلدك ـ مع هذه الصورة التي أصبحت ثابتة ، في ذهن قارئك ، عن المتعة الفنية التي يجب أن ينتظرها هذا القارىء؟ كيف يمكن أن تتصالح مع كونك شاعراً مصنَّفاً؟

ـ تغيير الجلد لا يعني ان نطلب من سارتر أن ينام فيلسوفاً وجودياً ، ويستيقظ في اليوم التالي ، وهو راقصة من راقصات الفولي بيرجير. ولا يعني أن ينام راسين ويستيقظ في اليوم التالي وهو رينيه شار، ولا يعني أن ينام فيكتور هوغو شاعراً كلاسيكياً، ويستيقظ في اليوم التالي وهو اندريه بروتون. وتغيير جلدي ، لا يعني أن أنام وأنا شاعر الحب ، وأستيقظ في اليوم التالي ولي لحية الشيخ محمد عبده ، أو جمال الدين الافغاني. تغيير الجلد ، يعني أن لا يبقى الشاعر مزروعاً كأهرامات الجيزة. في المكان ذاته خمسة آلاف سنة ، وأن لا يبقى كأهل الكهف يتعاطى الأفكار ذاتها ، ويؤمن بالقناعات ذاتها ، ويحتفظ بنقود لم تعد صالحة للتداول.

تغيير الجلد ، هو حالة من اليقظة ، والطموح، والتحفز تمنع الكاتب من الدخول في مرحلة الغيبوبة ، وتدفعه الى ان يكون جزءاً من ايقاع العصر ، وحركة التاريخ.

أما كوني شاعراً مصنَّفاً ، فليس في العالم كله شاعر غير

مصنّف. فالتصنيف معناه أن يكون لنا وجه، وملامح، وبصمات، وجواز سفر نعبر به الى العالم.

أما الشاعر الذي لا يدخل تحت أي نوع من أنواع التصنيف، فلا وجود له على خريطة الشعر أصلاً.

● كيف تتصور الشيخوخة؟ ومتى يمكن أن تعتبر نفسك «متقاعداً»؟ وهل لديك تصور لحياة المتقاعد الذي قد تكونه ذات يوم؟

- بالنسبة لي هناك شيخوختان. شيخوخة الجسد، وشيخوخة الكتابة. أما شيخوخة الجسد فهي حالة كيميائية تتعرض لها كل الكائنات الحية، بغير استثناء، وقانون يطال الجميع. وشيخوخة الكتابة، هي التي تتيبس فيها الأصابع، ويتخشّب فيها القلب، وتتحول فيها ورقة الكتابة الى ضريح.

هذه الشيخوخة هي التي تخيفني.

أما متى أتقاعد عن الكتابة، فهو اليوم الذي ينسحب فيه جمهوري من القاعة، ليبحث عن نجم جديد.

انني أعرف أن «فتى الشعر الأول» مثل فتى الشاشة الأول، لا بدَّ أن يدخل في الكسوف، وان تتحول عنه الأضواء والكاميرات. ولحسن الحظ، فأنا أملك من الشجاعة والواقعية، ما يسمح لي أن ألبس معطفي، واتكىء على عصاي، وأنسحب من الباب الخلفي للمسرح.

أما كيف سأقضي حياة المتقاعد، فانني لا أعرف أن ألعب

الورق ، ولا الشطرنج ، ولا الدومينو ، ولا البلياردو ، لذلك فلن أكون متقاعداً « كلاسيكياً » يشرب القرفة واليانسون، في نادي المتقاعدين. إنني أتصوَّر انني سأبقى كالهولندي الطائر مبحراً فوق سفينة لا تعرف الى أين ، حتى تأكلني الأسماك.

● بلغت مبلغ الحكمة عمراً (أطاله الله). أيشغلك الموت ، مع حسباننا أن هذا الشاغل ليس حكراً على عمر ؟ وهل الكتابة عن الأنثى ـ لديك ـ هي احتيال على مشاغل الموت، الآن ؟

ـ كوني أكتب شعراً ، هو حصانة ضدّ الموت. الشعر هو المضادّ الحيوي أو « الأنتيبايوتيك » الذي ينتصر على جراثيم الموت.

عندما رثيت الشاعرة ناديا تويني ، قبل أعوام في بيروت ، قلت إن الموت كان يطرق الباب عليها ، فاذا رآها تكتب شعراً ، انسحب على أطراف أصابعه ، واختجل من نفسه.

الشعراء وحدهم هم الذين ينتصرون على موتهم ، أو يؤجلونه على الاقل. والموت الشعري ، مثل الموت الفرعوني ، غير ممكن. فدانتي ، وشكسبير ، والمتنبي ، وبودلير ، ورامبو ، وايلوار ، واراغون ، ولوركا ، مثل الفراعنة الجالسين حتى الآن في مقاهي الجيزة ، والكرنك، وأسوان، ووادي الملوك، يشربون الشاي ويدخنون الشيشة.

● لا نُحسّ في شعرك هاجساً بالموت ؛ جَدَلَهُ مع اللَّذة ، أو مع الحبِّ؟

ـ عندما أكون في فراش واحد مع حبيبتي ، فلماذا أسمح

للموت أن يندسَّ تحت شـراشفي؟ إن سريـر الحبّ لا يتسع أبـداً لثلاثة أشخاص.

الشهوة غايتها الأولى هي حفظ السلالة ، أما الموت فهو مثـل حبوب منع الحمل ، قاطع لجميع السلالات .

● أنت شاعر حواس لا تجريد : لَمْس ، لسان، شَمّ، عَينْ. هل تعتبر واحدة منها مدخلك الى العصر؟

يقـول مارسيـل بروست مثـلاً : « الشمّ هو حـاسـة الـذاكـرة » L'odeur C'est le sens de la mémoire . ويقول محمود درويش ، وكأنه يستعيد أرضاً بالأنف : « ورائحة البن جغرافيا » .

- الحواس الخمس هي النوافذ التي تدخل منها شمس الشعر. ومن دون هذه النوافـذ لم يكن هناك رسـامون ، ولا نحـاتون، ولا مـوسيقيون، ولا شعـراء، ولا روائيون، ولا مسـرحيـون، ولا حتى طبّاخون. .

والمـرأة قبـل أن تكـون فـاكهـة عقليـة صـرفـة، هي رائحـة، وارتفاعات، وانخفاضات، ودوائر، وخطوط هندسية.

والمرأة التي رسمها ليونارد دافنشي، ورفائيل، وميكيل انجلو، في عصر النهضة، على سقوف الكنائس، لم تكن امرأة تتبع قواعد الـريجيم، وانما كانت المرأة الممتلئة، المربْرَبة، المتهدّلـة الثمار كشجرة المانغو.

وهذا يعني أن الدين في محاولاته التبشيرية الاولى ، لم يكن ديناً تجريدياً ، وانما كان ديناً واقعياً يخاطب جسد الانسان وحواسه

الخمس. وليست الحور العين اللواتي جاء ذكرهن في النصّ القرآني والتصوير الجميل لمشاهد الجنّة ، سوى تأكيد على أن الدين الاسلامي كان دين تجسيد لا تجريد .

واذا كان الشعر الصوفي قد حاول أن يعلّم الناس أن يأكلوا الحبَّ بالشوكة والسكّين ، فإن غالبية شعوب العالم ـ حتى في الدول الأوروبية المتحضرة ـ لا تزال تمارس الحب بأصابعها العشرة في الحدائق العامة ، وفي دهاليز المترو.

أما قول محمود درويش إن « رائحة البنّ جغرافيا » ، فهو ليس جديداً ، لأن قهوة أمه في فلسطين مثل قهوة أمي في دمشق ، دخلت في أطلس الجغرافيا من زمان بعيد . وفي شعري الذي كتبتُه عن النباتات التي كانت تزرعها أمي في بيتنا الدمشقي العتيق ، من شمشير ، وخبيزة ، ومنثور ، وأضاليا ، وياسمين ، وورد بلدي ، ما يكفي لكتابة معجم زراعي . . ومن قصيدتي « من مفكرة عاشق دمشقي » أحبّ أن أذكّركم بهذه الأبيات :

أنا قبيلةُ عشّاقٍ بكاملها
ومن دموعي سقيت البحر والسُحُبَا
فكلُّ صفصافةٍ حوّلتُها امرأةً
وكل مئذنةٍ رصّعتُها ذهبَا
هذي البساتينُ ، كانت بين أمتعتي
لما ارتحلتُ عن الفيحاء مغتربَا
فلا قميصَ من القمصان ألبسُهُ
إلا وجدتُ على خيطانه عِنَبا . .

فإذا كانت قهوة محمود درويش في الغربة قد صارت جغرافيا ، فإن قمصاني في الغربة صارت عرائش عنب ، ومآذن دمشق صارت أشجار صفصاف ، وما في حدا أحسن من حدا . .

● أنت شاعر ذاكرة : تفاصيل وتفاصيل وتفاصيل. هل جرَّبت المحو والنسيان؟ كما أنك لست داخلاً في التباس مع الأشياء، كأن المعالم واضحة عندك. لماذا هذا الوضوح الواضح؟

- ولماذا هذا الغموض الغامض في أسئلتكم ، وفي رؤيتكم الشعرية؟ هل من الضروري أن نتخانق مع ورقة الكتابة، أو أن نكسر مزراب العين، أو أن نتبوّل في الشارع العام، أو أن نعضّ نهد امرأة في بيسين السباحة ، لنثبت للناس فحولتنا أو تحرّرنا ، أو تقدميتنا ، أو حداثتنا؟؟

إنني لا أؤمن بالفلتان الشعري ، كما لا أؤمن بالفلتان الأمني. فالشعر نظام ، وانضباط مع النفس ، ورقابة صارمة على الذات. قد أكون مجنوناً ما بيني وبين نفسي ، ولكنني عندما أجلس أمام ورقة الكتابة فإنني أشعر بأنني مسؤول عن مستقبل هذا العالم.

أما اعتراضكم على الذاكرة، وعلى التفاصيل ، وعلى الشؤون الصغيرة ، فاعتراض عجيب ، لأن التاريخ كله تفاصيل ، والروايات ، والمسرحيات ، والسمفونيات ، والفنون التشكيلية ، والسير الذاتية ، والعلاقات الغرامية ، كلها تفاصيل .

والشعر العربي ، ولا سيما الجاهلي منه ، كان أعظم شعر تفصيلي في العالم ، لأنه كان يخلق من بعرة الجمل فردوساً ، ومن ملقط شعر تركته الحبيبة ثروةً قومية . .

الذاكرة هي خزّان ماء ، وخزانة ثياب، وحقيبة سفر، ولا أفهم أبداً كيف يمكن لشاعر معاصر أن يستغني عن خزانة ثيابه وحقيبة سفره.

الذاكرة لا تعني أبداً التكرار ، والاجترار ، واستحضار أرواح الأجداد، ولكنها جواز سفر قابل للتجديد كل سنة أو سنتين، يسمح لنا أن نقوم برحلة حول العالم.

● ثمة من يقول إن كل نقد للفن ، وكل مدخل إلى الشعر، يقتضي أن يبدأ من الشكل. يبدو نصك الشعري نقيضاً لهذا الإفتراض؟ ألديك ما تقوله في هذا الافتراض؟

ـ أنا لا أؤمن بوثنية الشكل، ولا أؤمن بأن الأشكال هي قوالب من الأسمنت أو الجبس لا يمكن كسرها. فالإنسان هو الذي يصنع أشكاله وهو الذي يكسرها. صحيح أن الشكلانية في النص العربي استمرت حوالي ألفي سنة ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور شعراء جرّبوا أن يكسروا هذه الشكلانية. ولكن التجربة لا تزال خجولة ومتواضعة ، وقصيدة النثر . برغم ان عمرها تجاوز الثلاثين عاماً وأكثر ـ لم تستطع ان تربح المعركة مع الأذن العربية.

بالنسبة لي ، ما زال الشكل مركزياً عندي ، وما زالت موسيقى الشعر العربي تجتاحني كما تجتاح محمود درويش ، وأشك أنني سأصل في يوم من الأيام الى كتابة قصيدة اللاّ شكل . . .

● قلت مرة ، في حديث صحفي، إنكَ تسطو على أقلام أطفالك الملونة لترسم « وتخربش » كطفل ، كأن طفولتك كانت مختصرة ، واختصار الطفولة ، مردُّهُ، تحليلاً، إلى قمع عائلي، أو

أسىً يبكّر في النضوج. غير أنكَ رسمت رسماً وردياً لطفولتك في مذكراتك، وكل طفولة لها أساها. أحَجْبُ الأسى هو مكابرة منك؟

- الطبيب النفساني الذي قال لكم: إن سرقة الأقلام الملوّنة من علب ألوان أطفالي، يعني انني في طفولتي كنتُ مقموعاً، هو طبيب نفسي «خرفان»، أو «تعبان».

طفولتي، من أهنأ الطفولات بين رائحة «الفانيليا» في معمل أبي، وأشجار الياسمين التي كانت تعرّش على أكتاف الشبابيك وأكتافنا في بيت أمي. فلماذا تصرّون على أن تخترعوا لي أسىً لم أعرفه، وتلبسونني عباءةً من الحزن لم ألبسها؟.

أما اللون الوردي الذي رسمتُه لطفولتي في سيرتي الذاتية «قصتي مع الشعر»، فهو لون حياتنا العائلية في دمشق. وما تعودت عندما أكتب أن أخترع ألواناً لا وجود لها، او أكتم دمعةً لم تغرغر في عيوني.

«قصتي مع الشعر» تقرير عفوي عن مسيرتي الحياتية والشعرية، وشهادة بمنتهى الصدق لم أُجْرِ عليها أي شطب، أو تجميل، أو رتوش. ومع هذا.. فاذا كان طبيبكم النفسي «الخرفان» يصرّ على أن أهلي ضربوني، وجوّعوني، وصلبوني على شجرة الليمون، فسوف يدفعني كلامه الى الشك بأنه هو الذي تعرّض للضرب، والقمع، والتعذيب، فقرَّرَ ان يُسقط عُقَدَهُ النفسية عليّ.

● ألا تنظر، وأنت الشائع بهذا القدر المذهل، الى شعر

الآخرين باستخفاف ما؟ أتحبّ من لا حظٌ لشعرهم؟ ثم.. ألك تبرير للشيوع ونقصانه؟

- لا تسمح لي مناقبيتي، كشاعر وكإنسان، أن استخفَّ بأحد. فالنجاح أو عدم النجاح، حال من صنع الشاعر ذاته.

هناك شعراء اختاروا العزلة، والانفصال عن الذوق العام، واعتبروا الجمهور كتلة من الغرائز السطحية لا تليق بخطابهم الشعري. وأنا احترم قرار هؤلاء الشعراء، وان كنتُ لا اتفق معهم في الرأي والموقف.

وهناك شعراء، وأنا واحد منهم، يؤمنون أن لا طبقية في الخطاب الشعري، وان الشعر يجب ان يكون مطراً يسقط على جميع الناس، وقماشاً شعبياً يرتديه المواطنون جميعاً، وحواراً يومياً على جميع المستويات الاجتماعية والثقافية.

إنني لا أناقش زملائي الذين اختاروا هذا الخط النخبوي، الانعزالي، الاقطاعي في الشعر، كما لا أسمح لهم بمناقشتي في خطي الاشتراكي والشعبي. فكل شاعر في آخر الامر يكتشف معادلته الخاصة، وليس هناك قانون شعري عام يلزم الجميع، كقانون السير، أو قانون الاحوال المدنية.

أما الشيوع فليس دائماً مؤشراً على الجودة، كما يحدث بالنسبة للأغاني الشعبية الهابطة، ولكنه مؤشر على ان المبدع قد التقط اللحظة التاريخية، أو النفسية، أو السياسية، أو العاطفية المناسبة ليتحد بالوجدان العام أو بالذوق العام.

إن ظاهرة مثل ظاهرة مادونا، ومايكل جاكسون، وعبد الحليم

حافظ ، ولاعب الكرة مارادونا ، ليست ظواهر عابرة ، أو سطحية، ولـكنهـا استفتاءات شعبيـة لها دلالتهـا ومعانيهـا ، وتعكس ، في مرحلة ما ، متطلبات العصر وحساسية الاجيال الجديدة.

● شعـرك استحـوذ على جيــل ، وسيستحـوذ على أجيـال، وحـتـى إشعـار آخر ، ألا تتمنى أن تمتـد بك الحيـاة مـائـة عمـر لـتقطـف هذا المجد حياً.. حياً؟

ـ ليس عندي طموحـات « فرعـونية » حتى آخذ معي طعامي، وشـرابي ، وأقلامي، وأوراقي ، الى العالم الآخر. وليست عندي الشهية لأغني أكثر من اللازم ، وأبقى على المسرح أكثر من اللازم. فالكلام له آخر ، والطرب له آخر ، وصوت الربابة يتحول في آخر الليل الى صفارة قطار ، وطلقات كلاشينكوف.

والنجومية لا تعني أن يتحوّل النجم الى دجاجـة محفوظـة في الفريزر؛ النجومية موسم كمواسم العنب، فلماذا لا يعترف العنقود أنه في يوم من الأيام سوف يصبح خَلاً ؟ .

إنني شــاعــر مــرّ في مــرحلة نبيــذ « كســارة » . . ونبيــذ « جـانـاكليس »، ونبيـذ « بـوجـوليـه »، ونبيـذ « بـوردو »، ونبيــذ « الألـزاس »، ونبيذ « كيـانتي» ، ونبيذ « ابـو كلبشه ». وأنـا مقتنع «بالحال النبيذية» التي وصلت إليها، كما أنني مقتنع بأن أية سَكْرَةٍ، تطول أكثر من اللازم ، ستقتل شاربها وتقتل السامرين. . .

لقد لعبتُ دوري باتقان لمدة خمسين عاماً ، وأشعر أن الوقت قد حان لتسليم مفاتيح مدينة الشعر إلى شاعر آخر .

لقد عشت دائماً شاعراً « مُدلَّلا »، فاسمحوا لي أن أنسحب بصمت قبل أن أصبح « مُخلَّلا ».

● جمعُك التفاصيل ، أعطاك وجه الفنان الدهري ، الذي يستطيع أن يكون لامعاً وبارعاً في كل غرض. لكنّ فناً مثل هذا لا يزيد وحدتك إلا عمقاً، والكرنفال الذي نمرّ به لنصل إليك، يميل إلى أن يصبح هو كل شيء؟ هل هذه هي ضريبة الجمال؟

ـ ما تسمّونه « كرنفالاً » أسميه أنا « ديمقراطية شعرية »، أو « دستورية شعرية ». أنتم تخافون الكرنفالات الشعرية الشعبية لأنها تعقدّكم ، وتحولكم الى « أقلية » شعرية معزولة عن الذوق العام.

ثمَ انني لا أشعر، وأنا في وسط الكرنفال ، أنني وحيد ، أو انني أدفع ضريبة لأحد ، بل على العكس : الكرنفال هو مكافأتي.

قد نكون ـ نحن والاتحاد السوفياتي ، من الشعوب القليلة التي تقيم للشعر كرنفالات ، وهذه في نظري ظاهرة صحية جداً، وحضارية جداً ، تدل على أن فصيلة دم الإنسان العربي هي فصيلة شعرية.

● إحساسك الذكوري تجاه المرأة هو ، بالضبط ، إحساس الغريزة المقدسة. وتالياً، ترتبط حرية المرأة، في توجهات شعرك، بحرية امتلاكك لجسدها، وتوظيفه في اتجاه الغريزة. إلا أنك ـ كذكر ، وبحكم ارث شرقي ، تنزع الى « شهرياريتك » كأنما تلغيها لتستتب أنت :

لم تبقَ زاوية بجسم جميلة   إلا ومرَّتْ فوقها عَرَباتي
فصَّلتُ من جلد النساء عباءةً   وبنيتُ أهراماً من الحَلَماتِ..

فعبارتك مفاتيح ، وشواهد على دعوانا : عباءة . . تفصيل جلد النساء . . . إلخ . .

ـ الكلام بضمير المتكلم في قصيدتي « الرسم بالكلمات » . . سبَّب لي الكثير من المشكلات والإدانات ، وانضم « المثقفون » الى الجوقة ، ليفتحوا عليَّ النار ويدينوني بتجارة الجواري .

القصيدة لا تُقرأ بمثل هذه النظرة المباحثية، أو البوليسية. وإنما تُقرأ على ضوء علم الاجتماع . وضمير المتكلم فيها ، هوضمير الجمع ، أي ضمير جميع ذكور القبيلة الذين اعتبروا جسد المرأة ورشة للقصّ ، والتفصيل ، والخياطة .

أنا، بهذه القصيدة، رفعت تقريراً إلى محكمة الشعر العليا، قلت فيه إن المرأة العربية تُباع وتشترى بالكيلو، ويدفع الرجل مهرها عنزتين، وبقرة ، وثلاث دجاجات. لكن قضاة المحكمة العليا، وأصدقائي المثقفين ، غيّروا إفادتي ، ووجهوا كل الأدلة ضدّي .

طبعاً ، أنا لا أدعي العفة والرسولية ، ولا أزعم انني مواطن من السويد أو سويسرا ، فأنا بدوي يدخن البايب ، ويلبس السموكن ، ويترك نعليه على باب مطعم ماكسيم في باريس .

على أن البدوي في داخلي ، لم يبق بدوياً من « الدقة القديمة »، وانما صار بدوياً يقصّ أظافره ، ويقصّ شعره ، ويستعمل الشامبو، ويلثم يد حبيبته الجميلة ، دون أن يأكل منها إصبعين .

كل هذه التفاصيل البدوية مكتوبة في شعري وفي نثري . ولأنني أتكلم بعفوية، وطفولة، ورفع كلفة، فقد أصدر وزراء الداخلية العرب مذكرة توقيف بحقي ، وأخذوني الى المخفر ، بتهمة « الشهريارية » .

والحقيقة أنني لم أكن في يوم من الأيام شهرياراً، ولا راسبوتين، ولا دراكولا ، ولا إيفان الرهيب ، ولم أعتد على عذرية نحلة. لكن الشعر ـ سامحه الله ـ أدخلني في مآزق وورطات لها أول ، وليس لها آخر.

ثم .. لماذا قرأتم أول القصيدة ، ولم تقرأوا آخرها ؟ :

.. واليوم ، أجلس فوق سطح سفينتي
كاللصِّ، أبحثُ عن طريق نجاةٍ ..
أين السبايا.. أين ما ملكت يدي
أين البخورُ ، يضوعُ من حُجُراتي ؟
الجنسُ ، كان مخدِّراً جربتُهُ
لم يُنهِ أحزاني ، ولا أزَمَاتي
اليوم.. تنتقم النهودُ لنفسها
وتردُّ لي الطَعَنات .. بالطَعَناتِ ..
كلّ الدروب أمامنا مسدودةٌ
وخلاصُنا.. في « الرسم بالكلماتِ » .

إني اعتبر قصيدة « الرسم بالكلمات » من أكثر قصائدي ارتفاعاً وحضارة وأخلاقية. ولكن ماذا أفعل اذا كان النقد العربي يرى عباءاتي النسائية ، ولا يرى عباءات أحزاني؟ .. ماذا أفعل.. اذا كنتم تريدون رأسي بأي ثمن؟..

● بين « الجميل » و« النافع » فرق كنت قد حاولت أن تعبر عنه في بداية تجربتك الشعرية؟ ولكن، مع أنك لم ترد يوماً أن ترتدي وجه المنظِّر الجاد ، نريد أن نسألك عن مدى وفائك ، أو عدم وفائك للمبدأ

الأول . فإذا لم يكن هذا التميز قد غاب عنك ، عبر كل أعمالك ، فما هو تعبيرك عنه اليوم ؟

ـ سأعترف لك انني انقلبت ١٨٠ درجة عن تنظيراتي الجمالية الأولى . ففي مقدمتي لمجموعتي الشعرية « طفولة نهد » سنة ١٩٤٨ ، كنتُ أعتبر ابتسامة الجوكوندا للفنان ليونارد دافينتشي معجزة المعجزات ، وبستان كرز تقطف منه العين ، ولا تشبع .

بعد هذا، بأربعين سنة، لم أعد أرى في ابتسامة الجوكوندا ورداً، ولا كرزاً ، ولا سيما بعد ان اكتشف النقاد والخبراء العالميون في الرسم أن النموذج الذي نقل عنه ليوناردو دافينتشي كان رجلاً له شوارب وعضلات ، وان الجوكندا لم تكن في حقيقتها غير ابو عنتر في مسرحيات دريد لحام .

أريد من هذا الكلام أن أقول إنني لم أعد متحمساً للجميل لأنه جميل ، ولكنني صرت من حزب الجمال الذي ينفع .

كنتُ في بداياتي ، أعتبر الكتابة نوعاً من العزف على البيانو، وأمارس على لغتي رقابة موسيقية شديدة، كما كان يفعل بول فاليري، مستبعداً كل لفظة لا تدخل في سياق « السولفيج » ، وبالتالي كنت مقتنعاً بأن ثمة لغة خاصة بالشعر، ولغة أخرى خاصة بالنثر ، وأن كلام الشعراء شيء ، وحوار المقاهي شيء آخر.

في أواخر الستينات تخليت عن كل هذه الافكار ، وقررت أن أكسر الحدود بين لغة القاموس ولغة الناس ، كما وصلت الى قناعة بأنه ليس هناك مفردة شعرية وأخرى غير شعرية ، وان الشاعر الحقيقي يستطيع أن يحوّل حتى الاعلانات المبوّبة الى شعر.

● ما عسى أن يكون مستقبل الشعر الذي يقوم على مشكلات اجتماعية وحضارية معينة ، ثم يأتي يوم تُحلّ فيه ، ولا تعود مطروحة؟

أتؤمن بأن شعرك سيعيش بعدك طويلاً؟ أترجو له الخلود ؟

ـ هذه الكرة الارضية ستبقى حبلى بالمشاكل حتى يوم القيامة . فاذا حلت مشكلة اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو سياسية ، جاءت مشاكل أخرى. والمشاكل الجديدة سوف يُغطيها كتّاب آخرون ، وشعراء آخرون .

أما ماذا سيبقى مني ومن شعري بعد رحيلي ، فأمر لا يستوقفني كثيراً ، لأن كلمة الخلود تشبه البالونات الملونة التي يطلقها الأطفال في الأعياد ، ثم ما تلبث أن تنفجر بعد دقائق من إطلاقها .

● الجمالية التي أطلقت « لغة الحب » في الشعر العربي أواخر الخمسينات وبداية الستينات ، لها جذور بعيدة في القصيدة العربية الجاهلية ، والأموية ، والعباسية ، وصولاً الى المؤثرات الجمالية الغربية (البرناسية ، الرمزية . . الخ) ، أي أن هنالك استرجاعاً لحالة ـ حضارية ـ لغوية ، تفترض استجابة النص الشعري لفكرة تتنوع بين مشاعر الحزن والحب . . ولكن هل اختلفت دلالات هذه المشاعر ، وهل اختلفت المرأة . . أو الحب ؟

ـ أعتقد أن تجربة الحب التي نقلها الشعراء العرب ، منذ بدايات القرن حتى الآن ، كانت تجربة ثقافية ، ولم تكن تجربة حياتية . فامرأة أحمد شوقي لم تختلف عن امرأة البحتري ، أو ابن زيدون ، وامرأة الجواهري ، أو بدوي الجبل ، أو الزهاوي ، لم تختلف عن امرأة المتنبي أو أبي تمام ؛ وامرأة سعيد عقل ، والياس أبي شبكة ، وصلاح

لبكي ، لم تختلف عن امرأة بول فاليري ، أو مالارميه ، أو بودلير.

وأنا اتفق معكم ، أن الخطاب الغزلي العربي في النصف الاول من هذا القرن كان حالة استرجاع لأشواق قديمة ، وصبابات قديمة ، وشهوات قديمة ، وأن العاشق العربي موجود في النصوص فقط ، ولكنه غير موجود على فراش الهوى.

أما العاشقات العربيات ، فرغم كونهن قد تعلمن ، وتوظفن ، وسافرن ، ورجعن بأعلى الشهادات الجامعية ، فلا زلن بانتظار « الخاطبة » ، ولا زلن ينتظرن مكاتيب الهوى يحملها اليهن « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، عن طريق النافذة ، لا على طريق البريد.

وباختصار أقول ، إن أكثر حالات الحب لدى شعرائنا لا تزال حالات ذهنية ، افتراضية ، عذريّة ، وأنها تجري جميعاً في أنابيب الاختبار ، لا على أرض الواقع.

● أنت أكثر الشعراء العرب رواجاً ، وبذلك لا تعاني إلا عزلة نسبية ، أو خاصة. لكن يبقى : ماذا يعني رواج الشاعر؟ ماذا تعني عزلته؟

- رواج الشاعر يعني أنه ولود ، وعزلته تعني أنه عاقر.

● مجلة «شعر» التي افتتحت سجالاً تستعاد أطرافه على نحو ما ، كانت المقدمة الفعلية لإدخال مفاهيم جديدة إلى الشعر العربي وبرزت معها ، على نحو ظاهر ، « قصيدة النثر ». فأنت كشاعر رافق مسيرة « شعر » والتيار الموازي لها ، وظللت على مقربة حذرة بعض الشيء. كيف ترى الى هذه التيارات اليوم ، وكيف ترى الى « قصيدة النثر » ؟..

ـ مجلة « شعر » كانت مثل هونغ كونغ ، دخل إليها تجار محترمون ، ودخل إليها مغامرون ، ودخل إليها مهرّبون . وبرغم « التجاوزات » و« الزعرنة » التي حصلت ، فإن « مجلة شعر » تبقى أجمل سفينة اختبار أبحرت في حياتنا الثقافية .

ولقد سبق لي ان قلت في حفلة تكريم يوسف الخال ، في لندن ، إن يوسف كان قبطاناً لسفينة ، وأنه ليس مسؤولاً عن سُكْر البحّارة، وعربدتهم ، وعن قناني البيرة الفارغة التي تركوها على ظهر السفينة .

كما قلت : إن يوسف الخال كان بطريرك الحداثة ، وانه غير مسؤول عن القراصنة ، والقرامطة ، والأزارقة ، الذين فتحوا ثقوباً في خاصرة السفينة .

أما « قصيدة النثر » فهي أجمل بنت أنجبتها مجلة « شعر » ، واذا كانت لم تتزوج حتى الآن ، فلأن العرسان العرب لا يحبّون البنات اللواتي يلبسن الجينز ، ويُدخنَّ سجائر المالبورو ، وبيدهنّ العصمة .

● في خارطة الشعر العربي اليوم ، ما الواقع الذي تراه؟ ماذا يكتب الشعراء؟ وما نظرتك الى النتاج الجديد؟

ـ أرى امرأة تصرخ على سرير الولادة ، ولكن رأس الطفل لم ينزل بعد .

● اذا كان صحيحاً أن واقع الشعر العربي يرتبط ، بقدر ما ، بواقع النقد الشعري ، فما هو ، في رأيك ، واقع هذا النقد؟

ـ الشعر العربي يمشي في طريق ، والنقد العربي يمشي في الاتجاه المعاكس . وليس ثمة نقطة لقاء تجمعهما . .

المبدع العربي فوق. . فوق. . والناقد العربي تحت. . تحت. . ونصيحتي لكل شاعر عربي، يريد أن ينجح، أن يغسل يده من اكثر النقاد العرب، لأنهم مجموعة من الميليشيات الثقافية المرتزقة، التي تباع بدولار وتشترى بدولار.

● هل الشعر ضروري حقاً؟

- اذا كانت لديكم بعض الريبة في ضرورة الشعر، فلماذا أطلقتم عليَّ رصاص اسئلتكم الجميلة؟ . .

نزار قباني

جنيف ٢٨ / نيسان (ابريل) ١٩٨٨

كتب الاسئلة في العام ١٩٨٢:

سليم بركات/ محمد علي شمس الدين

بسام حجّار/ علويّة صبح

محمد أبي سمرا.

لو رشحت نفسي لرئاسة جمهورية الشعر
لفزتُ بأكثرية الأصوات(*) . . . .

(*) حوار مع الشاعر أحمد فرحات ـ مجلة الكفاح العربي ـ بيروت بتاريخ ٣٠/١٢/١٩٨٤

● لنبدأ في حديثنا بداية غير تقليدية . هل تُحبّ ؟

ـ نعم . . فمن قال لك إني لا أحبُّ مثل هذه البـدايات ؟ إن التقليدية تقتلني .

● كثيرة هي الأسئلة التي طُرحت على نزار قباني حول الشعر والمرأة . ما السؤال الذي يراه نزار مهماً جداً ، ولم يطرح عليه ؟

ـ السؤال الـذي أُحبُّ أن يُطرحَ عليَّ هـو : مـاذا نـريـد من الشعر ؟ أو (لماذا الشعر) ؟ فإذا أجبنا على هذا السؤال نستطيع أن نحلّ هذه الإشكالية الكبيرة التي وقع فيها الشعر العربي الآن .

أقول إشكاليَّة ، لأنني أحسّ أن هذا الشعر ، قد فقد إحساسه بالزمان والمكان ، مثل طائرة تعطّل فيها جهاز تحديد الإرتفاع .

القصيدة اليوم ، تبدو وكأنها عانس ، لا تريد أن تتزوج أحداً . . ولا يريد أحد أن يتزوجها .

إنها قصيدةٌ في المنفى . لم ينفها أحدٌ . ولكنها هي التي نفتْ نفسَها .

وهذا تحوّل خطير في تاريخ القصيدة العربية . فبعدما كانت هذه القصيدة تختصر الوطن بأكمله ، ثقافياً ، وقومياً ، وحضارياً ، وفكرياً ، وعاطفياً . . أصبحت بحجم قرص الأسبيرين ، أو حجم الزنزانة الانفرادية .

وبعدما كانت القصيدة العربية ، مؤسسة المؤسسات ، والبرلمان ، والقصر الملكي ، والقصر الجمهوري ، ووزارة الثقافة ، ووزارة الاعلام ، ووزارة العدل جميعاً . . أصبحت مثل المرافيء غير الشرعية في لبنان تمتهن التهريب .

وبعدما كانت القصيدة العربية ، تُشعل الثورات ، وتُسقط الحكومات ، وتهزّ العروش ، وتمشي على رأس المظاهرات . . هربت من الجندية . واتخذت مقراً دائماً لها في مقهى (الإكسبرس) في بيروت .

وإذا كان شعراء القصيدة الحديثة لا يعترفون بالأرض ، وبثقافة الأرض ، وبهموم الأرض ، وبلغة الأرض ، وبالذين يمشون على وجه الأرض ، فلماذا يحملون جواز سفر هذه الأرض ؟ ولماذا يكتبون في جرائدها ؟ . .

إنني ألاحظ أن جغرافية الشعر بدأت تنكمش ، ورقعته بدأت تضيق ، والشعب العربي الذي هو من أكثر الشعوب حساسية شعرية ، بدأ (يطفش) ، ويعود إلى دفاتره القديمة باحثاً عن قبر المتنبيّ ليقرأ الفاتحة على روحه . . .

والعودة إلى الدفاتر القديمة ، ليس فيها شيء من الرجعية ، كما قد يخطر ببال البعض ، ولكنها حنين إلى الماء ، والعشب ،

واللون الأخضر ، بعد هذا الجفاف العظيم الذي يحاصر حياتنا الشعرية .

مرة أخرى أسأل : ماذا نريد من الشعر ؟

لا نريد منه شيئاً كثيراً . كل ما نريد منه أن يشبهنا . . أن يحمل ملامحنا ، ولون عيوننا ، ونبرة صوتنا ، ونبض شرابيننا ، ويكون الناطق الرسمي بلسان أفراحنا وأحزاننا . .

وشعر اليوم ؛ بكل أسف ، لا يشبهنا لا من قريب ، ولا من بعيد . إنه يشبه مستشرقاً تعلّم اللغة العربية على كَبَر .

لذلك نشعر بصعوبة كبرى في التفاهم معه .
الحداثة كذبةٌ عمرها خمسة عشر عاماً .
إشاعة عمرها خمسة عشر عاماً .

ورغم جميع من نظّروا لها ، وعرّفوا بها ، وكتبوا عنها ، بقيت إشاعة . لأنها تفتقر إلى النصوص الداعمة لها . كانت تفتقر إلى توثيق .

إن مجرّد أن يقول لي الشاعر الحديث : (أنا حديث) لا يكفي . . إذا لم يبرز نصّاً شعرياً واحداً يقتنع به العالم .

والعالم العربي ـ حتى كتابة هذه السطور ـ لم يبلع النصوص الحديثة التي يقرؤها ، ولم يستطع أن يتفاهم ، أو يتصالح معها .

قد يكون العالم العربي (دَقّة قديمة) . . أو متخلفاً ، أو أمّياً . أو سطحياً . . كما يروّجون عنه . ولكنه أمام النصوص الشعرية الرديئة لا يمكنه أن يكون شاهدَ زُور . . .

أرجو أن لا يُفهم من كلامي أنني ضدّ الحداثة . ولكنني ضدّ الفَلتَان الشعري . . كما أنا ضدّ الفَلَتان الأمني . .

لا يمكنني قبول التخريب على أنه ممارسة ديمقراطية أو تقدميّة . ولا يمكنني قبول أيِّ هذيان مكتوب ، على أنه تفجير في داخل اللغة . . ولا يمكنني الموافقة على قلع أي شجرة من حديقة الشعر ، قبل أن أزرع مكانها شجرة بديلة . لأنني لا أريد أن أموت كالبعير في الربع الخالي .

لقد سئمنا من هذه التعابير المأخوذة من قاموس حرب العصابات . . . كتفجير اللغة ، واغتيال الأبجدية ، ووضع عبوة ناسفة تحت قاموس محيط المحيط . . فهذا كلام يقوله كارلوس ، ولا يقوله شاعر مسؤول عن تأسيس المستقبل .

● المقصود بتفجير اللغة في رأيي هو تفجير للنمطية السائدة في اللغة الشعرية وصولاً للجديد .

- عن أية نمطية تتحدث يا أخي أحمد ؟ أنت تعرف أن الجاحظ وابن المقفع ، والقلقشندي ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وجرجي زيدان . . قد ماتوا . . وشبعوا موتاً .

من الذي يعتمد اليوم لغة (ظلال الزيزفون) و (ماجدولين) و (الآم فرتر) ؟ . .

من الذي يكتب بلغة الجواهري غير الجواهري . . وبلغة بدوي الجبل غير بدوي الجبل ؟

ألا تشعر أن لغتنا تتفجّر تلقائياً ، دون أن يفجّرها أحد . واننا

كل صباح نستيقظ على تحولات لغوية لم تكن موجودة قبل أن ننام . فلا نحن نتكلم مثل آبائنا . . ولا أولادنا يتكلمون مثلنا . .

بعد خمسين سنة ، لن يكون هناك لغة فصحى ، ولغة عامية . ستذوب الجدران الفاصلة بينها مع انتشار التعليم والثقافة . . وسيكون لدينا لسانٌ واحد نستعمله لا لسانان .

فلماذا يصرّ الحداثيّون على استعمال الديناميت ، في حين أن ميكانيكية اللغة العربية الذاتية كفيلة بتفجير سدّ مأرب . . .

من هنا ، أريد أن أقول إن حركة الحداثة في الشعر العربي تكبر بسرعة نموذجية ، من غير استعمال الأسمدة الكيماوية ، واللجوء إلى التلقيح بالأنابيب . .

وفي رأيي أن هذا الشعر قفز خلال الخمسين سنة الأخيرة قفزة نوعية لم يقفزها خلال ألفي عام . . .

إنني بطبيعتي مع الولادة الطبيعية ، وضدّ العمليات القيصرية في الشعر . إن الربيع يبقى تسعة أشهر في مختبره تحت الأرض ، بين القوارير ، وزجاجات الألوان ، والفراشي ، ليصنع زهرة صغيرة . . . فلماذا لا نصبر عاماً أو عامين ، لتشكيل قصيدة جميلة ؟

إنني مع التغيير مئة بالمئة . ولكنني لست مع تفجير نفسي ، وقطع شراييني بحجة أنها قد أصبحت خُرْدَة . . .

ليس بإمكاننا أن ننسف لغةً كما ننسف بناية ، وإلا أصبحنا إرهابيين . . لا حداثويين . .

شعراء الأربعينات والخمسينات الذين تسمونهم جيل الروّاد ، لعبوا لعبةَ الحداثة بذكاء ومهارة . . بعد أن درسوا خرائطهم ، وضبّطوا بوصلتهم .

كانوا عارفين قواعد اللعبة ، ومتمكنين من أدواتهم ، لذلك لم يضيعوا في البحر كما ضاع شعراء السبعينات والثمانينات . .

هؤلاء ، غيّروا مسار قطار الشعر العربي الذي كان يمشي على سكّة ضيقة من العصر الجاهلي إلى عصر النهضة . ولكنهم لم يُشعلوا النار فيه . . ولم يقتلوا ركابه، أي أنهم أدخلونا عصر الحداثة دون أن يرتكبوا جريمة قتل . . ضد التاريخ ، وضدّ الذوق العام .

بدر شاكر السيّاب لم يقتل أحداً باسم الحداثة . ولا أتذكر أنه ظهر على شاشة التلفزيون مرةً ، وبيده مسدس . . وقال : (أنا رسول الحداثة ، وكل من لا يتبعني سوف أقتله) .

السياب اشتغل بصمت ، وجدّد بصمت ، ومات بصمت .

أما (مافيات الحداثة) في هذه الأيام ، فقد أصدرت حكمها بالاعدام على الشعراء الجاهليين ، والأمويين ، والعباسيين ، والنهضويين . . وعلى كل الشعراء (الماضويين) الذين شاء لهم سوء حظّهم أنهم ولدوا قبلهم بخمس دقائق . . .

● هل نستطيع القول إذن ، أن زمن القصيدة العربية الحديثة لا يزال في بدايته ، ولا يزال قابلاً لمزيد من الإنقلابات والمفاجآت ، قد يتصورها الناظر من الخارج ، على أنها تشكّل انقطاعاً له ؟

ـ تاريخ الشعر هو مجموعة انقلابات. ولولا هذه الانقلابات

المستمـرّة في جسـد الشعـر ، لتحـوّل إلى جـدار من الأسمنت المسلّح .

لا يوجد شعر بغير إنقلابية شعرية . هـذا شيء مفروغ منـه . ولكن الانقلابية شيء . . والفوضوية شيء آخر . .

الشاعر الانقلابي ليس قاطع طريق ، وإنما هو رجل لديه رؤى وأفكار ومخططات ، وتصورّات إصلاحية يحلم بتنفيذهـا إذا استلم الحكم . .

وكل انقلاب ليس خلفـه رؤية ، ولا يـرتكز إلى ورقـة عمل ، مغامرة قد توصل بصاحبها إلى حبل المشنقة .

إنني أؤمن أن الشعـر هـو (نـظام) قبـل كـل شيء . كمـا للمجموعة الشمسية نظامها ، وللفصول نظامها ، وللدورة الدمويـة نظامها ، وللموسيقى نظامها . حتى الفوضى التي تسود الطبيعة في بعض الأحيان ، كالزلازل ، والبراكين ، والطوفانـات ، هـي جـزء من ميكانيكية النظام .

حتى (قصيدة النثر) التي تبدو وكأنها هاربة من بيت الطاعة ، تتمتع بانضباطية ومسؤولية قد لا تكون متوفرة في قصيدة الوزن . .

إنني بلا تردد مع كلّ انقلابي يضيف إلى بيدر الشعر العربي ولو حبّة قمح صغيرة ، ويضيـف إلى معارفي شيئـاً لا أعرفـه ، ويضيف إلى أحاسيسي شعوراً جديداً بالدهشة . . .

كل من يدهشني هو صديقي . ولن أناقشه أبداً في الشكل . أو في الصيغـة ، أو في المصطلح . ليس عنـدي أي عقدة من عقـد

البلاغة القديمة ، ولست من حـزب القصيدة العمـودية . . ولا من حزب قصيدة التفعيلة . . ولا من حزب القصيدة الحرة . . ولا من حزب قصيدة النثر . . أنا من حزب الشعر . من عنده شعر حقيقي ، فسوف آخذه بالأحضان . ولا يهمني أبداً إذا كان يلبس الدشداشـة والنعـل . . أو يلبس سـروال الجينـز الأزرق . . أو يلبس أوراق الشجر . . .

وإذا كنا قد سألنا (لمـاذا الشعر ؟) ، فـلا بدّ لنـا أن نسأل : (لمن الشعر ؟) ، ومن المستفيد منه ؟

إذا كان الشعر شركة محدودة الأسهم لخمسة أو عشرة أشخاص يجتمعون في غرفة مغلقة ، ويتعاطونه كنشرة سـريّة ، فهـذا يجعله مؤسسة نخبوية ، ويعطيه صفة النوادي الخاصة كنوادي البـريدج ، ونوادي العراة . .

أنا شخصياً ضدّ مثل هذا الشعر . لأنه يعيد الشعـر إلى سلطة البلاط والأمراء والنبـلاء والخلفاء ، ويـرجعه إلى مـرحلة (ما قبـل الاشتراكية) . وهذا شيء ضدّ حركة التاريخ ، وضدّ طبيعة الشعر .

وإذا كان الإقطاع على الأرض قد انتهى ، والإقطاع على جسد الإنســان قـد سقط ، فمن الأولى أن يسقط الإقـطاع الشعـري ، وامتيـازات الطبقـة المستفيدة من الشعـر ، وتتحـول القصيـدة إلى شاطيء شعبي تسبح فيه كل طبقات الشعب دون تذاكر دخول .

إن الشعر هو ذلك المطر الـذي يهطل على الإنسـانية كلهـا ، وتلك الشمس التي تشـرق على نـافـذة الفقيـر والغني ، والأبيض والأسـود ، والمثقف ونصف المثقف ، وعلى الـذين يعيشـون في

ستوكهولم وكابري . . وعلى الذين يعيشون في بانجلادش وزينبابوي . .

ومثلما أنا ضد التفرقة العنصرية ، فأنا ضد التفرقة الثقافية .

إن مهمتي كشاعر عربي تجعلني مسؤولاً عن كل شجرة ، وكل عصفور ، وكل فلاح ، وكل صياد سمك ، وكل طفل ذاهب إلى المدرسة من طنجة إلى رأس الخيمة . .

هؤلاء هم أولادي في الشعر ، ولن يغمض لي جفن حتى يعود جميع أطفال الوطن العربي ، ويجلسوا معي على مائدة العشاء .

● إتفقنا على أن من اصطلحنا على تسميتهم بالروّاد ، قد حققوا انعطافة هامة على مستوى القصيدة . ونزار بين هؤلاء الرواد بامتياز . ولكن أنت كنت تبدو دائماً وكأنك على هامش الحداثة وسياقها التاريخي بالمعنى الأكاديمي للكلمة . يعني أنك كنت دائماً تؤسس لنفسك مساراً خاصاً لا علاقة له بالمسار العام .

- إن الاستعراضية ليست هماً من همومي . وليس يعنيني مطلقاً في زحمة من يلهثون للحصول على بركة الحداثة ، أن أكون أحد اللاهثين .

هناك من يشتغلون على الحداثة ولا يتكلمون . وهناك من لا يشتغلون على الحداثة ويعقدون مؤتمراً صحفياً يقولون فيه أنهم كانوا يتعشون مع نازك الملائكة عندما كانت تكتب (قصيدة الكوليرا) . . كما أعرف (نسواناً) يقلن في كل مقابلة صحفية تُجرى معهن ، إن المرحوم بدر كان يكتب لهن كل يوم قصيدة غزل عندما كان طالباً في معهد المعلمين العالي في بغداد . .

أما نازك الملائكة ، فدورها في الحداثة متواضع جداً ، والغداء أو العشاء معها ، ليس امتيازاً أو بطاقة لدخول الجنة . . . ولا سيما بعد أن كسرت طبلة التجديد . . ودخلت في سلك الدروشة . . .

أما بدر شاكر السياب ؛ فقد كان رحمه الله مستعداً للوقوع في غرام أية ذبابة تدخل من نافذة معهد المعلمين العالي في بغداد . . لذلك فإذا كتب قصيدة غزل لفلانة . . أو لعلتانة من زميلاته في المعهد ، فإن ذلك يعتبر بالنسبة لبدر جزءاً من سعاله اليومي . . .

كل ذلك أورده لأقول أن مدّعي الحداثة كثيرون ، حتى صارت الحداثة كما سبق لي وذكرت ، (إشاعة) نسمع عنها ولا نراها .

لقد اهتممتُ بمساري الشعري الخاص ، ولم ألتفت لا إلى فوق . . ولا إلى تحت . . ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار . كان هاجسي أن أكتشف الدروب التي لم يمشِ عليها أحد قبلي . . وأستولد الأزهار التي لم يزرعها أحد قبلي . . وأن أحمل جواز سفري الخاص إلى العالم .

وأعتقد أنني ، بعد أربعين سنة من العمل ، استطعت أن يكون عندي مُحْتَرفٌ صغير ، أعجن فيه السيراميك على طريقتي ، وأخبزه على طريقتي ، دون أن أشغل بالي بما يصنعه الآخرون في محترفاتهم .

وعلى ذكر الحداثة ، أريدكَ أن تقول لي ما هي ؟ ما هي مرتكزاتها ؟ ما هي مواصفاتها ؟ ما هي خصائصها ؟

لا أريد تعريفاً لها في المطلق . أريد نموذجاً عملانياً .

أريد نصاً حداثوياً استطاع أن يتفاعل مع الذوق العربي العام ، ويثير الدهشة ، ويغطي هموم الناس في هذا الوطن .

على صعيد الثرثرة الإيديولوجية ، ومزايدات المقاهي الثقافية ، هناك كلام كثير عن الحداثة . ولكن ميدانياً وعلى الأرض . . (ما في حدا . . لا تندهي ما في حدا . .) كما تقول مطربتنا فيروز .

● ولكن في رأيي ـ أستاذ نزار ـ أن القصيدة تبقى عبارة عن تجريب دائم . يعني ليس هناك قصيدة نفضّلها على نموذج معين ، ونقول : هذه هي الحداثة ، أو هذا النصّ هو شاهد عليها . هناك تجريب دائم . هناك مغامرة دائمة في اللغة . . وفي الشعر . . وأنا أعتقد أنك ستوافقني على هذا الكلام لأنك ذات يوم قلت (دعونا نلعب) .

ـ يا أخي ، لقد جربتم برؤوسنا خمسة عشر عاماً . . وحان الوقت أن تبحثوا عن مختبر آخر لتجاربكم . .

حان الوقت لكي تقولوا لنا ماذا وضعتم بعد خمسة عشر عاماً من الحمل . . صبيّ . . أم بنت . .

صحيح أنني قلت ذات يوم (دعونا نلعب . .) ولم أتراجع عن قولي . ولكنني أريد أن أضيف أن جميع الألعاب في الدنيا ، بما في ذلك ألعاب الأطفال ، لها أصول وقواعد . .

فالعبوا كما تشاؤون . ولكن لن نسمح لكم أن تغشوا في اللعب . ولن نسمح لكم أن تخفوا (الجوكرات) تحت الطاولة . . وأخيراً لن نسمح لكم أن تهدروا خمسة عشر عاماً في التنقيب عن

الشعر في جسد الإنسان العربي ، دون أن توفقوا باستخراج قطرة شعر واحدة من حفرياتكم .

● ولكن على ذكر الشعراء التجريبيين ، كان هناك دائماً موهوبون وطفيليون . أشجار ورد . . وأشجار علّيق . .

- هذا صحيح . ولكنني ألاحظ أن أشجار العلّيق صارت أطول من أشجار الورد ! ! .

● هذه مسألة في التاريخ الشعري العربي وتاريخ كل الشعوب . ويكفي لأمة أن يكون فيها خمسة شعراء . . أو شاعر واحد .

- لا أختلف معك على أن الكيفية أهم بكثير من الكمية . ولكن الذي حصل أن ظاهرة الرداءة صارت الأصل ، حتى صارت الحداثة مقترنة بنماذجها (التعبانة) أكثر من اقترانها بالنماذج الجيدة .

إنني رجل أصولي وخارج على الأصول في الوقت ذاته . إنقلابي ومتشبث بجذوري . . .

● لو كنت خارجاً على الأصول ، لما كنت تكلمني بطريقة أصولية .

- ولماذا تغضب إذا كلمك إنسان بطريقة أصولية ؟ أنتَ شاعر وناقد وتحضر لدرجة الماجستر في الأدب . وهذا يفرض عليك أن تكون أصولياً لتستطيع أن ترى الأشياء بعين أكاديمية ، وتميز بين الأبيض والأسود ، وبين المحارة واللؤلؤة ، وبين الشاعر والبهلوان .

أن تكون أصولياً ، ليس معناه أن تبقى مدقوقاً كالمسمار في الحائط ، ولا أن تكون وتداً في خيمة . وإنما معناه أن تكون جسراً يربط بين قارة الماضي ، وقارة المستقبل ، وأن تكون تلك المحطة التاريخية التي تتلاقى فيها القطارات القادمة من كل مكان . . والمسافرة إلى كل مكان . .

إن الأصولية هي جهاز المناعة الذي يمنعنا من أن نكون هلاميين ، وهوائيين ، وعدميين .

هل تعرف أن بيكاسو ، وسلفادور دالي ، وسان جون بيرس ، كانوا من أكبر الأصوليين وأكبر الانقلابيين أيضاً . وانه إذا لم يكن الفنان أصولياً كبيراً ، فلا يمكنه أبداً أن يكون انقلابياً كبيراً . . .

● نفهم مما طرحته ، أن الحداثة الشعرية العربية لم تستطع أن تتواصل مع الجماهير العربية ، وبقيت في (المنفى) . ولكن الفن عموماً ، ولدى جميع الشعوب المتقدمة حضارياً هو فن نخبوي .

ـ هذا ليس صحيحاً . فالاتحاد السوفياتي دولة متقدمة حضارياً ، ومع ذلك فالشعر فيه يتجه إلى شعوب الاتحاد السوفياتي كلها ، وليس للنخبة المثقفة (الانتلجنسيا) في موسكو ولينغراد .

إن الشعب في موسكو يقف في الطابور ساعات طويلة ليحصل على تذكرة دخول إلى أمسية شعرية يقيمها الشاعر يفتشنكو .

والشعب العربي في دمشق ، أو بغداد ، أو الخرطوم ، يعتبر الأمسية الشعرية عرساً من الأعراس ، ومهرجاناً قومياً يحرص أن لا يفوته .

ولا أدري لماذا يذكرني مصطلح (الشعر النخبوي) بمصطلحات الكانتونات ، والفيديراليات ، والكونفيديراليات ، والدوقيات ، ودول ملوك الطوائف . .

إنه نوع من الحكم الذاتي أو الإنفصالي ، يريدون أن يطبّقوه في الشعر . . كما يطبقونه في السياسة .

وإذا كنتُ أقاوم نظام (الكانتونات) و (الجيتويات) في السياسة ، فأنا أشدّ شراسة في مقاومتي للكانتونات الشعرية .

إن الشعر هو رغيف الخبز الساخن الذي يجب أن يوزع مجاناً على جميع المعذبين في الأرض . أما النخبة التي تأكل (الكافيار) وسمك السومون المدخن ، فلن يسأل الشعر عنها سواء غابت أم حضرت .

إن الشعر ، ولا سيّما في عالمنا العربي المشتت والممزق والضائع ، هو رسالة يبعث بها الشاعر إلى كل بيت . أما الشاعر الذي يكتفي بمخاطبة جيرانه في الحارة من على البلكونة . . فسوف يبقى شاعر الحارة . . .

● في كثير من الأمسيات الشعرية التي اشتركت بها أنت مع شعراء عرب مبرّزين ، كانت الجماهير تتدافع على نحو هائل ، سواء كان في المغرب ، أو في دمشق ، أو في السودان ، أو في أي مكان .

جيل النيوكلاسيكية ـ عمر أبو ريشة مثلاً ـ يعتبر الشعر الحديث مؤامرة على اللغة والحضارة العربية ، فأنتم كروّاد سرتم في الخطّ ، ولم تأبهوا لهذه الاتهامات ، وكان يواكبكم تأييد شعبي

عارم . أريد أن أصل إلى نقطة ، وهي أن نـزار قباني الـذي كسر النـظرة التقليديـة ، وبرهن أن قصيـدته الجـديدة هي قصيـدة لهـا شرعيتها ، ولها حضورها الجماهيري والفني في آن .

من هنا ، أنا أدعو نزار قباني ، إلى أن يعتبر أيضاً أن مغامرات التجريب الحاصلة الآن ، هي أيضـاً قابلة لأن تكـوكب حضورهـا الشرعي والشعري أيضاً . .

ـ لسنا مختلفين أبداً على احتضان كل صـوت واعد ، وكـل تجربة تحمل معها ماءً وعشباً وسنابل قمح . .

إنني ليبـرالي أكثر ممـا تتصور ، يـا أحمد ، بـل أنـا مجنـون ليبرالية . ولا أريد أن يقال عني ، ذات يوم ، أنني أغلقت نوافذي في وجه عصفور يغنّي جيداً .

والحق أنني لا أتأخر عن إعطاء مقعدي ، لأي شاعر يستـطيع أن يؤدي دوري . فأنا أفرح بولادة شـاعر جـديد كمـا أفرح بـولادة نجمة .

طالما صفّقتُ للخيول التي تركضُ جيداً . ولم أقف يومـاً في وجه حصانٍ جميل الصهيل ، ذهبيّ الحوافر .

غيـر أني ـ وأقولهـا بصراحـة ـ لا يمكن أن أجامـل أحداً على حساب الشعر . ولا يمكن أن أسمح لحصانٍ قليـل الفطنـة ، بليد الحركة ، كـان يجرّ محـراثاً في إحـدى المزارع ، أن يشتـرك في الأولمبياد .

● ما هو المعيار الشعري الذي يؤكّدك ؟

- يؤكدني عيون من يقرأونني ومن يسمعونني . إنهم المرايا التي أرى بها وجهي على طبيعته . وفي بعض الأمسيات الكبرى ، أشعر أنني لو رشحت نفسي لرئاسة الجمهورية في ذلك البلد ، لفزت بأكثرية الأصوات .

كل قارىء أو مستمع هو صوتٌ انتخابي . وبالطبع صوت يعطيه صاحبه باختياره وحريته المطلقة ، دون تدخل وزارة الداخلية وأجهزة المخابرات .

إذن ، فالجمهور هو جائزتي الكبرى ، وهو الذي يحميني ، ويقويني ، ويمنعني من السقوط بين أسنان السلطة .

طبعاً . . الحداثيون لا يعجبهم هذا الكلام ، لأنهم يعتبرون أن الجمهور متخلّف ، وأمّي ، وسطحيّ الانفعالات ، وأن طبلةً تجمعه ، وطبلةً تفرّقه . . .

إنني أعرف عقدة الحداثويين من الجمهور ، وأعرف منطقهم الذي هو نفس منطق الثعلب الذي لا يستطيع أن يصل إلى عنقود العنب . . فيقول إنه حامض . . .

وفعلاً ، إن الجمهور العربي حامضٌ جداً بالنسبة لبعض الشعراء الذين يتلقّطون بذباب المقاهي ليسمع شعرهم . . ولكنه يعتذر بكثرة المشاغل .

مرةً أخرى أقول : إن الجمهور هو لجنة الإمتحان التي يقف أمامها الشاعر ، فإما أن تعطيه العلامة الكاملة ، وإما أن تعطيه صفراً . .

الجمهور هو البوصلة ، وبغير هذه البوصلة ، لن يتمكن الشاعر

من تحديد النقطة الجغرافية التي هو فيها ، ولن يستطيع أن يعرف أين الشرق ، وأين الغرب ، وأين الشمال ، وأين الجنوب .

جمهوري ، ليس جمهوراً من المراهقين ـ كما يتقوّلون ـ ولكنه قطاع عريضٌ جداً من الناس ، يجمع الوزير إلى رئيس الجامعة ، إلى الموظف ، إلى معلمة المدرسة ، إلى السكرتيرة ، إلى الممرضة ، إلى سائق سيارة الأجرة ، إلى كنّاس البلدية . . .

أستطيع أن أجمع في يدي الأكاديمي ونصف الأكاديمي ، والمثقف ونصف المثقف ، والرسّام ، والمغني ، والصيرفي . . .

كل هؤلاء هم رعيّتي . أعاملهم بحبٍ وديمقراطية ، ولا أطبق قواعد البروتوكول عليهم ، فأضع الوزير في الصف الأول ، وسائق التاكسي في الصف الأخير . . فالناس جميعاً متساوون تحت مظلة الشعر .

إذن ، فالشعر يا صديقي ، ليس حفلة (زعبرة) وكرنفال (تجليط) . .

(المزعبر) يستطيع أن يقف على المسرح خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع ساعة على الأكثر . . ولكنه لا يستطيع أن يقف أربعين سنة .

المهمّ ، أن يكتشف الشاعر المفتاح . مفتاح بيت الشعر . وبكل مرارةٍ أقول إن أكثر شعرائنا أضاعوا مفاتيح بيوتهم . . وناموا في الشارع . .

منذ سنتين ، جاءني الشاعر سليم بركات ، وقال لي : نريد في (دار النورس) أن نصدر لك مختارات شعرية تتوجه إلى الأطفال .

قلت له : لكن ، يا سليم ، أنا ما عندي شعر للأطفال .

قال لي : بل عندك كثير . . كثير . . أترك لي مهمة الإختيار .

وبالفعل غاب سليم عني شهراً كاملاً ثم عاد حاملاً من شعري مختاراتٍ شعرية أذهلتني . فقد كانت مكتوبة للأطفال . . وللأطفال فقط . .

وصدرت المختارات عن (دار النورس) في إطار فني رائع .

وعندما كان الأطفال بين سن ٨ و ١٢ عاماً يأتون إليّ في معرض الكتاب الذي ينظمه النادي العربي في بيروت ، لأوّقع لهم على كتاب المختارات ، كنت أدخل في حوار معهم (لأنني لا أريد أن تمرّ هذه التجارب دون أن آخذ منها درساً) .

كنتُ أسأل الطفل : أنت ، حبيبي ، لماذا تقرأ شعري ؟
فيجيبني بنبرة طفولية وعفوية :
(لأنك ، يا عَمُّو ، بتشبهني) ! . . .

كلمة (بتشبهني) هذه . . تساوي عندي كل كنوز الدنيا . والواقع أنه كان يريد أن يقول أن لا الفرزدق يشبهه . . ولا الحطيئة يشبهه . . ولا امرؤ القيس يشبهه . . ولا أحمد شوقي يشبهه . . إنما (عَمُّو) نزار قباني يشبهه . .

هذا أعظم تعريف للشعر سمعته من فم طفل . . .
إذن (فالشعر هو أن نقول كلاماً يُشبه الآخرين) .

● لا خلاف معك حول وظيفة الشعر ، أو عملية توصيله إلى أكبر حشد ممكن من الناس . لكن في المقابل ، ثمة مفارقة رهيبة حول هذا الموضوع بالذات . فثمة أقلية نادرة تستمع إلى المطرب

الفلاني ، وهناك حشد هائل من البشر يزحف لسماع مطرب سخيف كأحمد عدوية مثلاً . فهل المقياس هنا على مستوى الغناء والموسيقى نستطيع أن نسحبه على الشعر ؟ فنقول مثلاً ان هذا الموسيقار لم يستطع أن يصل ، لذلك فإن فنه ضعيف ، بينما هذا الفنان مهم . . مهم لأنه خاطب مزاج الناس ، ودغدغ قشرتهم السطحية ؟

ـ أولاً ، أنت تأتي بمثل هابط جداً اسمه أحمد عدوية لتدين ذوق الجمهور . لماذا تبدأ من أسفل السُلّم لإصدار الأحكام ؟ على صعيد الموسيقى يمكنك أن تبدأ بمارسيل خليفة ، الذي استطاع أن يجمع حوله في أحد ملاعب بيروت الرياضية خمسين ألف مستمع .

يمكنك أن تبدأ بزياد الرحباني أو بالشيخ إمام . . بل يمكنك أن تبدأ بفيروز والرحابنة وعبد الحليم حافظ . .

الخمسون ألفاً الذين ذهبوا لسماع مارسيل خليفة ، لم يذهبوا ليحرّكوا خصورهم ، أو ليترنحوا طرباً . فموسيقى مارسيل لا تحرك الخصور ، ولا توزّع حشيشة الطرب ، ولكنهم ذهبوا ليحرّكوا عقولهم وضميرهم السياسي . ذهبوا ليعيشوا هذه (الحداثة الموسيقية) التي لم يألفوها .

إذن ، فالحداثة الحقيقية والأصيلة يمكن أن تكون (شعبية) لا (نخبوية) كما تقولون . يمكنها أن تخترق ، وتتواصل مع الناس ، وتصبح جزءاً من الفولكلور الشعبي .

مارسيل خليفة وزياد الرحباني يمثلان (الحداثة) التي وجدت

مفتاحها الشعبي ، واكتشفت المعادلة التي تجمع الخاص والعام ، و (الانتلجنسيا) مع الدراويش . .

هذا على صعيد الموسيقى ، أما على صعيد الشعر ، فإن محمود درويش ومظفر النواب يمثلان أيضاً الحداثة الشعرية التي وجدت مفتاحها الشعبي .

محمود درويش استطاع بموهبته الفذّة ، أن يخترق جدار الجماهير ، ويزرع الثورة الفلسطينية في كل بيتٍ من الخليج إلى المحيط .

ومظفر النواب ، هذا الكربلائي الحنجرة ، الشفاف كدمعة فاطمة الزهراء ، استطاع هو الآخر أن يكتشف مفتاح الحزن العربي ، ويقرع أجراس الثورة والغضب في ليل المدن العربية النائمة .

إذن ، الحق ليس دائماً على الحداثة ، وإنما على المحدثين ، أو على بعض المحدثين حتى أكون عادلاً وموضوعياً في أحكامي .

الحداثة التي تستحق اسمها تستطيع أن تضيء . أن تشعل دم الجماهير . أن تحّرضها . .

● **أنت في رأيك أن وظيفة الشعر تحريضية ؟**

- نعم . . نعم . . وظيفة الشعر تحريضية ، انقلابية ، تغييرية . وظيفته أن يحرض الإنسان على نفسه ، على جلده ، على عظمه ، على تاريخه ، على أوكار الوطاويط المعششة في داخله .

الشاعر يأتي ليغيّر وجه العالم . فإذا بقي العالم (على حطّة يدك) بأفكاره العتيقة ، وقناعاته العتيقة ، وكتبه العتيقة ، وأمثاله العتيقة ، وحكمه المأثورة . فما هي الفائدة من الشاعر ؟ إن أي كرسيّ من الخشب يكون عندئذ أهمّ منه .

● إذن . . فلنجأ إلى الخطاب السياسي . . .

- لا . . لا . . الخطاب السياسي مثل خطبة الجمعة ينتهي بانتهاء صلاة الجمعة . في حين أن القصيدة تدخل دم الناس ، وتبدأ بالتوالد ، والتناسخ . فالشجرة تصبح غابة ، والنهر يصبح بحراً ، والقمحة تصبح بيدراً ، والنجمة تصبح قطيع نجوم . . والشرارة الصغيرة تصبح ثورة . .

إذا نفيت عن الشعر صفته التحريضية ، تحوّل إلى كلام فارغ يشبه الشعر الذي يؤرخون به ولادة صبي . . أو يكتبونه على شواهد القبور .

● المناسبة لا تصنع شعراء .

- أي مناسبة ؟

● يعني إذا كان محمود درويش ـ وهنا لنكن صرحاء ، وأنا مسؤول عن كلامي هذا ـ محمود درويش صحيح أنه شاعر حسّاس ، ومن الأسماء المهمة في خارطة الشعر العربي الحديث . ولكن ساهمت القضية الفلسطينية أو المناسبة الفلسطينية إلى حد كبير في إطلاقه . . .

- إسمح لي أن أصحح التعبير . فالقضية الفلسطينية ليست

مناسبة ، وإلا كان الشعر المكتوب عن الجنوب اللبناني هو مناسبة أيضاً .

ومحمود درويش ليس شاعر (المناسبة) الفلسطينية ، ولكنه فلسطين كلها ، بزيتونها ، وكروم عنبها ، وبحرها ، وبيّارات برتقالها .

محمود أعطى القضية الفلسطينية أكثر مما أعطته ، ونشرها على كل كوكب . .

ولأنه شاعر كبير وموهوب ، فقد كبرت القضية الفلسطينية على يديه ، في حين أنها صغرت على يدي غيره . إذن فالقضية الفلسطينية وحدها ـ على أهميتها وقداستها ـ لا تكفي لإطلاق شاعرٍ تنقصه الموهبة . محمود درويش صنعته موهبته وحدها . . ولم يصنعه أحد . . .

● إنني أحترم نزار قباني الشاعر ، وأعتبره فعلاً من الروّاد الذين جعلوا اللغة أكثر شفافية ، ونقلوها من حال التخضرم التي ظلت مع السياب ، أو قبله البريكان ، وجعلوها لغة نقية شقراء . أنا أعترف بهذه المسلّمة لنزار قباني وبشيء من التقدير الكبير .

ولكن أيضاً ، فليسمح لي الأستاذ نزار بالقول إنه أتكأ على مشكلة كبيرة في المجتمع العربي هي مشكلة المرأة . يعني المرأة العربية بما هي جوع جنسي ، وعلى إيقاع هذا الجوع عزف نزار طويلاً . . ونجح . . ولكنه استقطب الكبار والصغار ، والمراهقين وغير المراهقين في عموم الخارطة العربية . وهذا التجييش من حوله تمحور حول نقطة ، هي همّ المرأة العربية في علاقتها مع الرجل .

ـ إذا لم يتكيء الفنان على قضية ما . . فعلى أي شيء يتكيء . على الهواء ؟ أم على التخّيل والتجريد ؟

إنني لا أستورد المواد الأولية التي أستعملها في شعري من القمر . ولا أخترع عالماً كعالم الحشّاشين أسكنه وأكتب عنه . إن بضاعتي كلها محلية ، والتراب الذي أعجن منه نماذجي هو تراب دمشقي ، ولبناني ، وعراقي ، ومصري ، وأردني ، وخليجي ، وسوداني ، وشمال إفريقي . . .

والمرأة التي تقول إنني اتكأت عليها . . لم تكن فرنسية ، أو إنكليزية ، أو دانمركية . وإنما كانت من حيّ (القيمرية) في دمشق . . أو من حيّ (الغورية) في القاهرة . . أو من حيّ (الأعظمية) في بغداد . . أو من حيّ (الأشرفية) في بيروت .

إنني لم اخترع شيئاً من بنات أفكاري . ولكنني منذ فتحت عيني على الدنيا ، رأيتُ امرأةً تولول بين أسنان رجل يمضغها ، وينكِشُ بعد الطعام أسنانه . .

ارتعبتُ كثيراً من همجيّة المشهد ، وحين سألتُ أبي : شو القصّة ؟ قال لي وهو يبرّم شواربه :

« المرأة دائماً هي أصل البلاء . . هي التي دخلت بين أنياب الرجل ، فأكلها . . وإذا كنتَ تريد رأيي ، ورأي البوليس ، ورأي المحاكم أيضاً . . فإنّ الحقّ عليها . . » .

منذ ذلك التاريخ عرفت أن الحكم النهائي على المرأة قد صدر عن محكمة الذكور ، وانه غير قابل للاعتراض أو الاستئناف أو

التظلم لدى القاضي ، لأن القاضي نفسه أكل زوجته ، ونكُش أسنانه بعد الطعام .

هذه هي القضيّة التي اتكأت عليها . . وأنا لا أقصّ عليك حلماً أو كابوساً . . وإذا كنت لا تصدقني ، فافتح باب أي بيت ، أو باب أي خيمة في الوطن العربي التي تشكل أسنانُ الرجل حدوده الطبيعية . إفتح أيَّ باب . . وسترى المشهد إياه . . .

إن قصائدي عن المرأة ليست أفلام (بورنو) ، ولا مشاهد مركّبة على طريقة (الميكساج) . . ولكنها وثائق اتهام تحمل تواقيع سبعين مليون امرأة عربية ، في الدعوى التاريخية الشهيرة التي أقامتها النساء على الرجال منذ عشرة آلاف سنة ، ولا تزال نائمة في الجوارير ، تنتظر فرج الله . .

● اسمح لي ، أستاذ نزار ، أن أكون أكثر جرأة معك . هناك شعراء مثل أدونيس مثلاً همّه النصّية الحضارية . القصيدة عنده عبارة عن نص حضاري تتشابك فيه هموم الإنسان العربي في التاريخ الحاضر والمستقبل . يعني عمل توليفي لكل ما يعتمل في الذات العربية وطرحها كجسر شعري إلى المستقبل . بينما نزار طرح قضية هامة هي المرأة وظل في إطارها أو في شرنقتها .

ـ مقارنتي بأدونيس أو بغير أدونيس غير واردة .

فأنا شاعر مثل مدينة الفاتيكان ، أو أمارة موناكو ، لي سيادتي وأعلامي ، وأختامي ، وسفرائي ، ووزرائي ، وتمثيلي الدبلوماسي .

إنني متمسك جداً بخصوصيتي ، ولا أرى ضرورة لكي أرى

الأشياء بعيون شاعر آخر . فالشعراء هم مجموعة من العدسات اللاقطة التي تختلف بؤرها . فإذا كان صديقي أدونيس يستعمل العدسات البعيدة المدى في رؤية العالم . فإنني أستعمل عدسة (الزوم) . فإذا اختلفت الصور التي التقطناها . . فلأن عدساتنا كانت مختلفة ، والزوايا التي وقفنا فيها كانت مختلفة .

وأود هنا أن أسأل : لماذا نعتبر الكتابة عن همومنا الجنسية من المحرمات . إننا نقف على أرض جائعة جنسياً . والرجل فيها جائع جنسياً أكثر من المرأة . . وأناني ، وسفّاح ، ونرجسي أكثر منها .

إن الجنس هو هذا الذئب الأسود الذي يعوي على أبوابنا ليلاً ونهاراً ولا يتركنا ننام ، أو نفكرّ ، أو نكتب ، أو نمارس عملنا بشكل طبيعي . ولقد سبق لي إن قلت إن تحررنا السياسي والثقافي مرتبط بتحررنا الجنسي .

إن أوروبا تحررت من عقدها الجنسية واستراحت ، ودخلت سباق الفضاء . أما نحن فلا نزال مستعدين لقتل عشرين قتيلاً . . للوصول إلى فخذ امرأة . .

طبعاً . . إن كتاباتي عن المرأة ليست نهاية طموحاتي . ولكنني أعتقد أنه لا بد لشاعر ما ، أو لكاتب ما ، أن يتصّدى للمشكلة بشجاعة . وأعتقد أنني حطّمتُ - في حدود إمكانياتي - جزءاً من الخرافة الكبرى .

● **ما ردّك على الذين يقولون إنّك (سلّعت) المرأة ؟**

- الذين يقولون هذا الكلام لم يقرأوني جيداً . . لأنني لو

اشتغلت في (تسـويق المرأة) أو (تسليعهـا) أو (تعليبها) لكنت اليوم أكبر مليارديرفي العالم .

ولكنني مع الأسف ، تاجرتُ بالنار حتى احترقت . . فلا المرأة استـدعت فرقـة الإطفاء لإنقـاذي ، ولا الرجـل ـ الذي بيني وبينـه ثارات قديمة ـ رضي أن يأخذني بسيارته إلى قسم الطوارىء . . .

هناك كثيرون يعتقـدون أنني طالبت بتحـرير المـرأة من أنياب ومخـالب الرجـل لأمتلكهـا أنـا . . وأنني نسخـة طبق الأصـل عن شهريار ، أو دراكيولا ، أوجمال باشا السفاح . . .

ألقاب ما أنـزل الله بها من سلطان ألصقت بي ، ولكن الـذين يعرفونني جيداً يعرفـون أن (شهريـار القباني) هـذا . . ليس عنده شفرة حلاقة لذبح النساء ، وليست عنده الشجاعة لقتل عصفـور ، وأنه في آخر الليل ، ينام على سرير منفرد كأسرة المستشفيات . . أو السجناء . .

● **لندع الشهريارية جانباً . لقد لفتني في حديثك ما قلته من أنك ضد التجريد ، مع أنك في الماضي كنت تقول بأن الغموض فيه كثير من الجمال . والتجريد هنا يدخل في باب هذا الغمـوض الضروري للجمال . فما تعليقك ؟**

- في المرحلة الثقافية والسياسية التي نحن فيها ، أعتقـد أن التجريد سلعة كمالية لا حاجة لنا بها . فمواجعنا واضحة ، وأحزاننا واضحة ، وتخلفنا واضح . وحين يكون خنجر إسرائيـل داخلاً في خاصرتنا حتى العظم ، فما تنفعني التورية والمجاز والتعتيم ؟

وحين تكـون رقبة الإنسـان العربي في حبـل المشنقة ، فـأي خدمة يمكن أن يقدمّها له سان جون بيرس مثلاً ؟

لنعـد إلى صديقنـا أدونيس . إنه بكـل تأكيـد شـاعـر كبيـر ، ومؤسسـة قائمـة بذاتهـا . ولكنني أسأل بمحبة كم واحداً من هـذا الشعب العربي يستطيع أن يستوعب أدونيس ؟ كم واحداً يستطيع أن يرافقه في رحلة الحدس والتجريد والماورائيات ، دون أن يسقط من التعب ؟ .

لـو كـان أدونيس يكتب للشعب البـريـطاني ، أو للشـعب الفرنسي ، لكان الأمر طبيعياً . . ولكنه يكتب لعالم عـربي لا يزال في منتصف الطريق بين الثقافة والأمية ، بين النهار وبين الليل ، بين الوعي واللاوعي .

وإذا كانت الكتابات التجريدية تستطيع أن تغطي خمسة بالمئة من مجموع الشعب العربي ، فماذا نفعل بالـ ٩٥ بالمئة الباقية ؟ .

هل نُسقطها من حسابنا ، أم نحاول أن نـأخذ بيـدها قليلاً ، ونصبـر عليها قليـلاً ، ونتسامـح معها قليـلاً ، حتى تكتمـل بنيتهـا الثقافية .

الشعـراء الروس يـذهبون إلى (الخـولكوزات) أي المـزارع الجمـاعيـة ، ليقـرأوا شعـراً على الفـلاّحين يكـون على مستـوى مداركهم ، ومستوى استيعابهم الثقافي . أي أنهم ينحنـون قليلاً ، ويتنازلون قليلاً عن عنفوانهم الثقافي ، ليجلسوا مع الفلاحين على الأرض . مايافسكي كان أيضاً يقرأ شعره في مقاهي موسكو . . وفي ساحاتها العامة .

وأعتقد أن على الشعراء العرب أن يسلكوا ذات الطريق . . وأن يقبلوا الشعب العربي كما هو . . لأن الكتابة لهذا الشعب هي قدرنا . . ولا يمكننا استيراد شعب من اسكاندينافيا لنقرأ له شعرنا . . .

● أنت هنا تطرح مشكلة تربوية ثقافية ، مختلفة عما نتناقش فيه . فعندما تكون نسبة الأمية مرتفعة جداً على المستوى العربي ، إضافة إلى نسبة الأمية الثقافية ، وهي أخطر في نظري من الأمية الأبجدية . فكيف نحلّ هذه الإشكالية ؟ .

- إنني لا أطرح مشكلة تربوية . إنني أطرح قضية الشعر . كيف نتعامل معه . . وكيف نوصله إلى الآخرين .

إن المهم عندي كشاعر أن أصل إلى الناس كائناً من كانوا . . أنا لا أستطيع أن أنتظر عملية التعليم الكامل للمجتمع العربي حتى أكتب شعري وأنشره . . فربما تأخذ العملية مئة سنة أو أكثر . . .

فماذا تقترح عليَّ أن أفعل في هذه الفترة الانتقالية . هل تريدني أن أبقى عاطلاً عن العمل ؟ .

● في أي اتجاه ، أستاذ نزار ؟

- في كل الاتجاهات . أنا مفروضٌ فيَّ أن أرفع الذوق العام ، وأخرج السواد الأعظم من ترابيته إلى آفاق أخرى .

إذا رفعتُ هذا السواد عشرة سنتمترات عن الأرض ، فإنني أعتبر هذا إنجازاً . إن كلمات الشاعر لا تذهب في الهواء . فأنا بعد أربعين سنة من العمل الشعري أشعر أنني نجحتُ في تدريب

الناس على الإصغاء للشعر، وعلى جعله عادةً من عاداتهم اليومية.

استطعت أن أكون حنجرة الذين لا يستطيعون أن يصرخوا . . ودموع الذين لا يستطيعون أن يبكوا . . وأحلام الذين لا يستطيعون أن يحلموا . . .

استطعتُ أن أكتب بلغة شعرية لا أثـرَ فيها (للعنطزة) والتعالي . . والتشاوف . . ورفعتُ الكلفة نهائياً بين الناس وبين الشعر .

● **وهل تحريضك هذا ، آتى ثماره ؟ .**

- طبعاً . . طبعاً . .

● **كيف تعاين هذا الثمار ؟ .**

- ثماري ، أقطفها بيدي كلما ذهبت إلى مدينة عربية لأقرأ شعري . ما حدث لي في السودان ، في دمشق ، في بغداد ، في الكويت، في أبو ظبي ، في الشارقة ، في الأردن ، في تونس ، في المغرب ، في الجزائر . .

هذا هو المعيار الذي أقيس به انتصاراتي . فحين يسمعك عشرة آلاف شخص في غابة من غابات السودان ، وتدق من حولك الطبول ، تشعر بأنك واحد من اثنين . شاعر أو قديس .

إن أعظم انتصار في الدنيا ، ليس انتصار الإسكندر المقدوني ، ولا انتصارات هانيبعل ، أو نابوليون بونابارت . . ولكنه انتصار القصيدة .

● **ثمة شعراء ، أستاذ نزار ، ظلمهم الإعلام . هناك شاعر**

مه ١ في رأيي مـا زال حتى الآن مغموراً من نـاحية الإعـلام ، هـو الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر . كيف تعلل هذه الظاهرة ؟ .

- الإعـلام لا يصنع الشعـراء . قـد يجمّلهم ، ويعـطّرهم ، ويكحّلهم . . ولكنه لا يستطيع أن يجعل من المكنسة عروسا . غير أني أريـد أن أشيـر هنـا إلى فنّ أصبـح أسـاسـاً في النجـاح الفني والاقتصـادي ، هو فن العـلاقات العـامة public Relations . وفي هـذا العصر لا يمكن أن تنـطلق سلعة تجـارية ، أو أسـطوانة ، أو مسحوق صابون ، أو غسالة كهربائية ، أو تلفزيون ملوّن . . إلا إذا كان خلفه دائرة علاقات عامة .

والشاعر إذا أراد أن ينجح ، وينطلق ، ويتألق فإن عليه أن يتقن فن العلاقات العامة ، تماماً كالمغنين العالميين الذين لا يتحركـون في رحـلاتهم إلى الخـارج إلا ضمن مخـطط إعـلامي يضعـه مستشاروهم لشؤون العلاقات العامة .

أدونيس مثلاً ، شاعر يتقن جيداً فن العلاقات العامة ، فهـو لا يتوقف عن الحركة في خدمة شعره ، فمن بيروت ، إلى باريس إلى لندن إلى موسكو ، إلى واشنطن ، إلى أي مكان يرى أن وجوده فيه ضروري .

ولو أن أدونيس كان أقل حركة لما كانت له هذه الأهمية .

الشاعر اليـوم ، لا ينتظر العـالم كي يأتي إليـه ، بل عليـه أن يذهب إلى العالم . لا يستطيع الشـاعر في هـذا العصر ، أن يبقى قاعداً في خيمته كزهير بن أبي سلمى ، ثم يبيض قصيدة كل سنة .

الشاعر اليـوم صار بحـاجة إلى سكـرتيرة تنـظم له مـواعيده ،

وتتلقى رسائله الهاتفية ، وتفتح له بريده . . كما يفعل أي رئيس وزراء . . أو أي مدير مصرف .

● **إنطلاقاً من قول بوشكين (أيها الشاعر أنت المحكمة العليا لذاتك) . نزار قباني ، كيف ينقد نفسه كشاعر ؟ .**

- إنني أجلس أمام ورقة الكتابة كما يجلس تلميذ أمام لجنة الامتحان . دائماً هناك خوف في داخلي أن أكون اليوم أقل من البارحة ، وأن تكون القصيدة التي كتبتُها قبل شهر ، أحسن من القصيدة التي أكتبها الآن .

هذا الخوف لازمني منذ بداياتي الأولى . ولا يزال يلازمني حتى اليوم . ولم أطمئن إلى هذه الحالة المرضية التي أنا فيها ، إلا عندما رأيت الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب يقرأ (آية الكرسي) خلف الكواليس ، قبل أن تغني له أم كلثوم لحنه الأول .

هذا الخوف أمام الجديد ، أسميه المسؤولية . والمسؤولية هي هذه المراقبة العقلية الصارمة التي تحمي الفنان من الطيش والحماقة والغرور ، وتذكّره في كل لحظة أن عليه أن يحترم تاريخه .

وربما من حسناتي ، انني في كل لحظة قادر على قياس حجمي الشعري بموضوعية تامة . فلا أتصور نفسي ديكاً . . أو طاووساً . . ولا يدفعني الغرور إلى اعتبار نفسي فتى الشاشة الأول ، ومغني الجماهير الذي لا تغيب عنه الشمس .

وإذا كانت الامبراطوريات تزول ، والدول تدول ، فإن الشاعر

الحكيم هو الشاعر الذي يعرف كيف ينسحب من المسرح ، قبل أن يُطفئوا الأضواء عليه . .

ولكن هل يستطيع الشاعر أن يقدم استقالته من الشعر بمحض إرادته ؟ أعتقد أن الجمهور هو الذي يقرر هذه المسألة .

وأنا في اللحظة التي أشعر بها أن الجمهور الذي كنت أغنيه بدأ يتململ في مقاعده . . فسوف ألملم أوراقي . . وألبس معطفي . . وأنسحب .

إنني شاعر لا يؤمن بالاغتصاب بكل أنواعه . واغتصاب الكلمات لا يقلّ بربرية وتوحشاً من اغتصاب النساء . .

● ألا تخاف ، يا نزار ، من النقد المستقبلي المعياري ؟ .

ـ أبداً . . أبداً . . ولماذا أخاف ؟ فما دمتُ قد غطيت عصري تغطية شعرية كاملة ، فما سيقوله نقاد المستقبل عني لا يشغل بالي . لأن لكل عصر موازينه ومعاييره . .

يسألونني دائماً عن الخلود . الخلود كلمة كبيرة جداً على الكائن البشري الذي حياته ليست أطول من فيلم سينمائي قصير .

ليس من خالدٍ إلا الله . . كل الملوك ، والأباطرة ، والجنرالات ، والطغاة ، والغزاة ، صاروا غباراً .

يضحكني بعض الشعراء الذي يقولون لك ـ في تبرير عدم انتشارهم ـ : نحن لا نكتب لهذا العصر ، وإنما نكتب للعصور التي سوف تأتي . شعرنا شعر مستقبلي . .

وأنا أسأل هؤلاء : إذا لم تكونوا موجودين في الحاضر ، فكيف ستكونون موجودين في المستقبل ؟ .

بعد مئة سنة ، أو خمسمئة ، أو ألف سنة . . لا نعرف ماذا سيحصل على صعيد الشعر . . والكتابة . . والثقافة . .

يجوز أن يصبح الكتاب حبةً صغيرةً نبتلعها قبل أن ننام .

وشعر الحب ، ما مستقبله بعد ألف سنة ؟ .

يجوز أن تنتهي مؤسسةُ الحب ، أو تقفل أبوابها ، أو تُشْهر إفلاسها .

يجوز أن يأتي (جنس ثالث) لا يعرف كيف يُحبّ . . ولا يعرف أن يفرّق بين ثغر الحبيبة . . وبين إشارة المرور الحمراء . . وبين حضنها وبين حضن الموتوسيكل . . .

كل شيء جائز . لذلك من الحكمة أن يكون الشاعر واقعياً ، ولا يعتمد كثيراً على قرّاء المستقبل ، لأنهم لا يزالون في عالم الغيب .

● **هل تبتهج بجمهورك ، وتتمتع بحال النجومية التي أنت بها ؟ .**

- أبتهج ابتهاجاً عظيماً ، كما يبتهج الحصان عندما يربح السباق ، ويحصد المداليات الذهبية . .

هناك ناس يسكرون بالويسكي ، وناس يسكرون بالعَرَق ، وناس يسكرون بالفودكا . . أنا سكرتي الكبرى هي جمهوري .

عندما يتحول خمسة آلاف أو عشرة آلاف مستمع إلى خاتم في يدي ، أشعر أني ملك الملوك .

● قبل قليل تكلمت عن ناحية مهمة جداً هي سلوك الشاعر. هل يخطط نزار قباني لدماثته ، أم هو دمث بالسليقة ؟

- أنا طفل يا أحمد. طفل يلعب على ورقة كتابة. ولا أحد يستطيع اختراع طفولته، أو شراءها من محل لبيع الألعاب.

ليس هناك شيء إسمه تخطيط للدماثة، كما توضع خطط التنمية، ومشاريع السنوات الخمس. فإما أن يكون الانسان غليظاً. . وإما أن يكون لطيفاً. . وليس هناك على حدّ علمي مدرسة لتعليم الرقة والعذوبة. . كالمدارس التي تعلم قيادة السيارات.

إن من طبيعة الأشياء أن يكون الشاعر رقيقاً. وإلا كان عليه أن يصبح مدير بوليس.

واللافت عند بعض شعرائنا العرب هو لعبة (الدكتور جيكل والمستر هايد) التي يلعبونها باتقان. فبينما تراهم على ورقة الكتابة ملائكة بمنتهى العذوبة والشفافية، تجدهم في سلوكهم اليومي، وتصرفاتهم قبيحين كالشياطين.

● نزار، الذي يستطيع أن يعيش من خلال وضعه الاقتصادي الجيد في أجمل مدينة، وأجمل بقعة في العالم. لماذا هو متمسك ببلد كلبنان يتجاذبه الخراب من كل صوب؟

- أشكرك على هذا السؤال، فبرغم كل ما كتبته عن بيروت،

أشعر انني لا أزال مقصراً معها. علاقتي يا أحمد ببيروت علاقة عشق كبير. وأريد أن أفرّق بين من اتخذوا من بيروت (صاحبةً) لهم، يشربون معها كاساً. . وينصرفون. . وبين من عشقوا بيروت حتى نخاعهم الشوكي.

وأنا، بالرغم مما يقال عني، بأنني أجمع المدن كما أجمع النساء، فأنا شاعر أُحاديّ. أحبُّ مدينةً واحدة. . وامرأةً واحدة. .

بيروت بالنسبة لي هي الجغرافيا كلها. جغرافية الشعر. . وجغرافية الأرض. أطفش منها أحياناً وألتجيء إلى باريس، أو جنيف، أو لندن، أو واشنطن. ثم أرحل من هذه المدن كلها، وأعود إلى حبيبتي بيروت، فأجدها تلبس الكيمونو الحريري الوردي . . وتنتظرني على العشاء . .

أطفش من الشانزيليزه. . وأعود الى (زاروبة) بيتنا في حي مار الياس. أطفش من ساحة الكونكورد وأعود الى ساحة (رياض الصلح). . أطفش من (برج إيفل) وأعود الى (برج أبي حيدر). .

هل هذا معقول؟ هل هذا منطقي؟ طبعاً عندما يكون المرء عاشقاً حتى نخاعه الشوكي يصبح اللامعقول معقولاً . . واللامنطقي منطقياً.

إنني لا أقيس المدن بطولها وعرضها وعظمة أوتوستراداتها، وفخامة فنادقها ومطاراتها. إنني أقيسها بقدرتها على تحريضي شعرياً.

ولأن بيروت تبلّلني، بأمطار الشعر، وتشعل بي شهوة الكتابة، فهي عندي أعظم من نيويورك. . وأهمّ من طوكيو. .

لا أتذكّر أن بيروت ضايقتني في يومٍ من الأيام.

لا أتذكّر أنها (زعّلتني)..

لا أتذكر أنها استجوبتني كما تفعل أكثر النساء.. (فين رايح يا أستاذ؟).. (أين كنت يا أستاذ؟).. (ما هذا الأحمر على قميصك يا أستاذ؟)..

بيروت لم تتلصّص عليّ من ثقب الباب، ولم تفتّش جُيوبي وأوراقي، ولم تطبّق عليّ الأساليب (المخابراتية)....

كانت تضعُ ركوة القهوة أمامي.. وتقول لي: عندما تحتاج إليّ.. فنادِني..

بيروت مدينة جبّارة. ففي حين كانت الصواريخ تتطاير فوق رؤوسنا، والبنايات تنقلع من أساساتها، كانت المطابع تدور، والكتب تتوالد كالفطر، وكنا نقضي أياماً بكاملها في قبو المطبعة، نراقب البروفات، ونلاحق الضمّة، والكسرة، والفتحة..

هذه هي معجزة بيروت.. إنها مدينة ترفض موتها. ففي ذروة اشتعال الحرب الأهلية، كانت بيروت تطبع خمسين كتاباً جديداً كل يوم، في حين لا تستطيع باريس أو لندن أو نيويورك في زمن السلام، أن تدخل هذه المغامرة الثقافية الكبرى.

وتسألني: لماذا لا تعيش في لندن؟ لماذا لا تسكن باريس؟ ماذا أفعل هناك؟ أجلس على مقهى من مقاهي الرصيف.. وأقرأ جريدة (لوموند).. وأبكي على ضياع الأندلس؟

لا في لندن أستطيع أن أكون (شكسبير).. ولا في باريس أستطيع أن أكون بول فاليري.. أو شارل بودلير.

أما في بيروت، فأستطيع أن أبقى نزار قباني . .

ثم إنني ضد جميع المنافي. والتسكّع على أرصفة العالم ليس مهنتي. هناك ناس يحملون وطنهم في حقيبتهم، ويهربون عندما تنطلق أول رصاصة . . .

وهناك ناس وطنهم موجود في دفتر شيكاتهم.

وهناك ناس يعتبرون الفنادق بديلاً لأوطانهم . .

أنا شخصياً لا أستطيع أن أفعل ذلك. فعندما اضطرت الى الرحيل مع أولادي بمركب شحنٍ الى قبرص، فوجئت وأنا أفتح حقيبتي في الفندق ان الحشيش البحري على شاطيء (عين المريسة) كان يُغطي كل قمصاني . .

● بعيداً عن أي متاجرة استهلاكية، بدأت حركة المقاومة في الجنوب اللبناني تقنع العالم أن للدم ثقافته. هل يعتقد نزار ان ما يجري في الجنوب هو الرد الحقيقي على الهزائم المتكررة التي نتخبط فيها منذ سنوات طويلة على مستوى الوطن العربي؟

ـ ما يجري في الجنوب هو الشمس. وكل ما حوله على امتداد الوطن العربي عتمة. ما يجري في الجنوب هو الحقيقة، وكل ما عداه غزوات إذاعية، وحروب دونكشوتية لا يموت فيها أحد سوى الشعب.

منذ ١٩٤٨، ونحن نتلقى الهزائم على رؤوسنا، حتى صارت جزءاً من إفطارنا الصباحي.

المقاومة الجنوبية الآن هي الفرح الحقيقي في تاريخنا المضرّج بالحزن .

وأهم ما في المقاومة الجنوبية ان الاستشهاد فيها صار معادلاً للحياة، وان المقاتل الجنوبي صار يتزوج الموت كأنه يتزوج حبيبته . .

كل ما أرجوه أن تبقى المقاومة في الجنوب محتفظة بنضارتها وشبابها، وأن تبقى الثورة ثورة . . لأنّ أكثر الثورات العربية تحوّلت مع الأسف الشديد، الى مؤسسات حكومية تشتغل بالمعاملات الورقية، والشؤون الادارية، حتى صارت نصف الثورات العربية محفوظة في الملفّات . .

إنني موافق على ما تقوله من ان للدم ثقافته. وأعتقد ان حركة المقاومة الجنوبية ستكون مصدر ثقافتنا الجديدة، ومصدر كل إبداع جديد، وشعر جديد، وموسيقى جديدة.

ولكنني لا أريد أن تصبح المقاومة الجنوبية مثل (قميص عثمان) يلبسه أنصاف الموهوبين، أو أرباع الموهوبين. من عنده شيء يقوله بمستوى المقاومة الجنوبية فليقله . . وإلا فنرجوه أن يستريح ويريح.

● لنتكلم عن جائزة نوبل. هل خامرك شعور بأن تستيقظ ذات يوم، على تلفون من الأكاديمية السويدية يقول لك: مبروك . . لقد أعطيناك جائزة نوبل.

ـ يا أخي . . شيلوا من دماغكم قصة جائزة نوبل . . واستريحوا. أنا شخصياً شايلها من بالي تماماً . . لأنني أعرف مسبقاً أن كل الخيول العربية خارج هذا السباق.

هذه الجائزة جزء من الحرب الباردة بين المعسكرين . . ورشوة

سياسية لكل (تحريفي) يخرج من الاتحاد السوفياتي، ويشتم النظام الشيوعي.

هل من المعقول ان البلاد العربية كلها لم تنجب من عصر النهضة الى اليوم، كاتباً أو مفكراً أو شاعراً عربياً يستحق جائزة نوبل، من رفاعة الطهطاوي، الى محمد عبده، الى جمال الدين الأفغاني، الى طه حسين، الى جبران خليل جبران، الى ميخائيل نعيمة، الى الطيب صالح، الى نجيب محفوظ، الى توفيق الحكيم، الى يوسف ادريس..

انني على يقين بأن شعرنا أهم من شعرهم، وبعض رواياتنا أهم بكثير من رواياتهم. لكن جلودنا السمراء لا تعجب على ما يبدو رجال الاكاديمية السويدية.

وما دامت الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، بدأت تنسحب من منظمة اليونسكو، بحجة أن دول العالم الثالث تسيطر عليها، وأن (البرابرة) أصبحوا أكثرية فيها.. فلماذا لا تأخذون العبرة من هذه المؤسسة الثقافية العالمية التي توقفت الولايات المتحدة والدول الغربية عن تمويلها لأن فيها عرباً وأفارقة ويساريين وغاضبين.. ولأن الثقافة في تصوّرهم هي الثقافة البيضاء.. أو الشقراء.

● كيف يعاني نزار قباني من تطور القصيدة عنده، أقصد كيف يتحقق الانقلاب الشكلي والمضموني لدى نزار؟

- صعب أن أدخل في تفاصيل كيمياء القصيدة، فكيمياء القصيدة عملية معقدة جداً، وليس لها نظام تسير بموجبه، أو روزنامة تتقيد بها.

(هي) مزاجية جداً، وكاذبة في مواعيدها جداً، ومحتالة جداً. تنتظرها من الشرق، فتأتيك من الغرب.. أو لا تأتي أبداً..

و (هي) المرأة الوحيدة بين النساء التي تخطب الرجل وتتزوجه ويحبل ويلد منها.. وهو آخر من يعلم.

القصيدة تلعب بنا كما تريد. ننتظرها على المكتب، فتدخل علينا في غرفة النوم. نخطط لاستقبالها في الصالون، فنجدها تأخذ (دوشاً) في الحمام. نضعها في الفراش ونغطّيها في الشتاء. فنجدها عارية تحت المطر في الشارع العام.

ليس لها مكان معروف تتردد عليه. فهي في كل الأمكنة، ولا تُعطي عنوانها لأحد. وليس في بيتها تلفون، ولا صندوق بريد..

كاذب من يقول لك إن القصيدة تزوره كل يوم، وتتناول إفطار الصباح معه. وكاذب من يقول لك إن القصيدة أقامت معه شهراً كاملاً في أحد الفنادق.

وكاذب من يقول لك أنه رأى القصيدة في حالة عري كامل..

القصيدة لا تسكن مع أحد أكثر من خمس دقائق.. ثم تتركه..

والقصيدة لا تخلع ملابسها الداخلية دفعةً واحدة أمام شاعر.. ولكنها تفعل ذلك بالتقسيط.. كما تفعل كل امرأة ذكية مع حبيبها.

ربما تقول لي ان هذا الجواب ليس علمياً لتحولات القصيدة، وكيفية تشكلها في مختبر النفس.

صدقني. أنا لا أعرف ما يجري تحت جلدي.

فلا بالشكل أفكر، ولا بالإيقاع أفكّر، ولا بالتفاصيل أفكر، ولا باللغة أفكّر. فجأة.. تنشقّ الأرض وتطلع القصيدة معطّرة، مكحّلة، مُفَلْفَلَة، مُعَصْفَرَة، وتجلس على حافة السرير، وتقول لي: (هالو.. أنا زوجتُك..).

سامحني مرةً ثانية، اذا كان جوابي ليس علمياً.

ولكن ما علاقة العلم بتكوين القصيدة؟

أنا لا أملك مصنعاً للألبسة الجاهزة حتى أقول لك من أين نستورد القماش، وكيف نقصّه، وكيف نخيّطه، وما هو عدد العمال الذين يشتغلون في المصنع، وما هي الموديلات الأكثر رواجاً عندنا..

كل ما أعرفه أن طبيعة الشعر تشبه طبيعة الزلزال.

ومن ذا الذي يستطيع أن يكتب تاريخ زلزال؟؟

● كيف ينظر نزار الى عوامل المدّ الديني، وكيف تقومه، وهل أنت تخاف من نتائجه؟

- الدين عدل وديمقراطية وشورى وأخلاق وخير. وأنا لا أخاف من دينٍ يحترم فكري وانسانيتي ويدخل في حوار ديمقراطي معي، بعيداً عن أي تعصب، أو تزمت، أو قهر.

الحركات الدينية، أو الأصولية، هي ردود فعل لإفلاس الحركات السياسية والحزبية. ففي غياب العمل السياسي المبرمج والمنظم، تحرك الدين ليسدّ الفراغ.

والحركات الدينية، كانت صمّام الأمان، للخروج من عنق

الزجاجة التي حبستنا فيها الأنظمة الأوتوقراطية والفـردية. وسقـوط أنور السادات على أيدي رجال الدين كان سقوطاً حتميـاً للتخلص من الفكر الفردي والاستبدادي والمقامر. بعد أن عطّل السادات كل المؤسسات الدستورية ووضع مصر كلها في السجن.

إذن، فالدين يمكن أن يكون عاملاً إيجابيـاً في حركـة النضال الشعبية، وأن يصحح كثيراً من الانحرافات في حياتنا. شريـطة أن يكـون هذا الـدين مستنيراً، منفتحـاً على أفكار العصـر، متجدداً، وقابلاً للحوار، ومتفاعلاً مع ما حوله من مستجدّات .

أما إذا بقي الدين في شرنقته، لا يقبل أن يخرج منها، ولا يقبل أن ينـاقشه أحـد في حرفيـة النصوص، فسـوف يتحول بـدوره إلى ديكتاتورية أخرى كبقية الديكتاتوريات التي تسود المنطقة.

● نقل شعرك الى العـديد من اللغـات. هل استـطاعت هذه النقلة أن تعطي وجه نزار الشعري الى العالم غير العربي؟

ـ سبق لي أن قلت إن الشعـر العـربي عــظيم، ويملك كـل اللياقات الجسدية والروحية ليسافر الى العـالم. فلماذا لا نشجعـه على السفـر؟ كفانـا نقـرأ شعـرنـا على بعضنـا، ونصفق لبعضنـا، ونصـرخ: (أحسنتَ.. أعِـدْ.. يـا سـلام.. هـائـل.. مش معقـول...) ان الأنتولـوجيات التي صـدرت في أوروبـا وأميـركـا والاتحـاد السوفيـاتي لعدد من الشعـراء المحدثين، كـانت ناجحـة جـداً. وعلينا أن نستمـر في هذه التجـربة، لأن العـالم ليس لديـه الوقت ليبحث عنا. علينا نحن أن نبحث عنه.

هنـاك لغات أوروبيـة تليق بترجمـة الشعـر أكثـر من غيـرهـا.

فالفرنسية والايطالية والاسبانية، لغات قادرة على نقل رفيف الاحاسيس في القصيدة العربية أكثر من الانكليزية والألمانية والروسية.

تجربتي مع اللغة الإسبانية كانت تجربة مثيرة، فقد ترجم المستشرق الاسباني المعروف بدرو مونتافث مختارات من شعري الى الاسبانية صدرت في كتاب عنوانه (أشعار حب عربية)وقد استقبل الجمهور الاسباني هذه النصوص المترجمة بحماس كبير، ذكرني بالحماس الذي كان يستقبل به الجمهور العربي قصائدي.

أما الترجمة الانكليزية التي قامت بها مؤسسة (بروتا) التي تشرف عليها الشاعرة والناقدة سلمى الخضراء الجيوسي، لعدد كبير من الشعراء العرب المحدثين، فقد كانت من أدق وأجمل الترجمات. والسبب في نجاحها يعود الى أن بعضاً من الشعراء الأميركيين شاركوا في مراجعة هذه الترجمات.

ان ترجمة الشعر من لغة الى لغة مغامرة مشحونة بالمخاطرة، لأن لكل لغة أسرارها وشخصيتها وحساسيتها الخاصة.. وحتى تكون المغامرة ناجحة، فان الذي يتولى عملية الترجمة، يجب أن يكون شاعراً أو مسكوناً بالحساسية الشعرية.

● **لماذا أنت تنظر للغة الشعراء الشباب ولقصائدهم بأنها فاقدة للأصول. أنا أرى أن أصولهم قائمة في الموروث الشعري.**

- أرجو أن لا تعمّم كلامي على كل الشعراء الشباب. فأنا أقرأ بشغف كبير شعر محمد علي شمس الدين، وحسن العبد الله، وشوقي بزيع.

هؤلاء في نـظري (أصّلوا) الحـداثـة. . ولم يبهـدلـوهـا. . فجذورهم ضاربـة في أعماق الشعـر العربي، ومـوروثهم الشعري حافظوا عليه، ولم يبيعوه في المزاد العلني.

اذا كانت الحداثة الشعريـة هي هؤلاء، فأهـلاً بهم وبها. وأنـا أرضى أن أوقع اسمي تحت أي قصيدة لهم دون أي تردد.

أما الكتابات الهيستيرية التي تملأ صفحات الثقافة في الجرائد اليومية، فهي مسوخ شعرية غير صالحة للحياة.

إنني غير متعصب لقديمٍ ضد حديث، أو لحديث ضد قديم، ولكنني لا أسمح لأحدٍ أن يغتالَ تاريخي.

● الـروّاد هؤلاء. منهم من بقي يـراوح مكـانـه، ومنهم من تجاوز نفسه، هل توافقني على هذا الكلام؟

ـ جداً. .

● وهل تنصح الذين يراوحون بالتوقف عن كتابة الشعر؟

ـ بكل تأكيد، الشاعر لا يستطيع اغتصاب الجمهور اغتصاباً. القصيدة المغتصبة، كالقبلة المغتصبة. . كالمرأة المغتصبة. . هي محاولة مستحيلة.

على الشـاعر أن يكـون لديـه (تـرمـومتـر) يقيس بـه حـرارتـه الشعرية. . أو صحته الشعريّة. . فاذا نزلت حرارته عن الصفر، فإن عليه أن يذهب الى غرفة العناية الفائقة. . ويترك الشعر.

ليس ثمة خديعة في موضوع الشعر أبداً.

ومثلما ليس هناك إكراهٌ في الدين، فليس هناك اكراهٌ في الشعر.

وعلى الشاعر الذي لم يعد يملك اللياقة الشعرية للظهور على المسرح، أن ينسحب برضاه.. والا سحبته شرطة النجدة من رجليه..

خذ مثلاً بلند الحيدري. أعلن في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمرئية أنه توقف عن كتابة الشعر. ثم عاد ليكتب..

إنني لا أؤمن بإصدار البيانات حول كتابة الشعر.. أو الاستقالة منه. فالشاعر لا يستقيل بارادته من الشعر.. إنما يُقال منه..

الجمهور وحده هو صاحب السلطة. وهو الذي يضع الشاعر في رئاسة الجمهورية.. أو يضعه في السجن..

● في كتابك (١٠٠ رسالة حب) تقول إنك تركت مواقعك القديمة لتخرج الى برية قصيدة النثر، حيث السماء أرحب، والحُريّة تُقطف بالأصابع. وتضيف: وهكذا تجدني أتحرك باستمرار وأعجن كالأطفال على الشاطىء الرمال بيدي بحثاً عن أشكال أتجاوز بها تاريخي الشعري نفسه. فهذا الكلام على المستوى الفني، أفهم منه أن هناك تغييراً دائماً، تجريباً دائماً على مستوى الشعر. إذن استناداً الى هذا الكلام، ماذا تعني (بخصوصية نزار التي لا أغيرها). فالخصوصية هي لغة أيضاً، وهي هوية شعرية؟.

- الخصوصية هي البصمات الخاصة لكل شاعر. هي رائحته الخاصة وعلاماته المميزة.

والخصوصية ليست وقفاً على القديم، كما أنها ليست وقفا على الحديث. ففي القديم كان هناك خصوصية للمتنبي، وخصوصية لأبي تمّام، وخصوصية لأبي نواس، وخصوصية لعمر بن أبي ربيعة، بحيث تستطيع إذ أسمعوك بيتاً من الشعر لواحدٍ مَن هؤلاء، تستطيع أن تقول: هذا فلان.

خصوصيتي، إذن، هي ما يميزني عن الآخرين. كطول قامتي، ولون بشرتي، ولون عينيّ. وهذه الخصوصية أبقى دائماً محتفظاً بها سواء كتبتُ شعراً، أم كتبت نثراً، أم كتبت مقالةً سياسية.

وقد كان الناس يقولون عن مقالاتي السياسية الأسبوعية إنها قصائد سياسية.

أما بعض شعر الحداثة الذي نقرؤه، فهو مخلوق بلا ملامح، بحيث لا تستطيع أن تميِّز بين أنف هذا الشاعر، وبين أذن الشاعر الآخر.. وبين رأس فلان.. وأقدام فلان..

إذن، فأنا حين أقول لك إنني لا أغيّر خصوصيتي، فمعنى هذا أنني لا أغير فصيلة دمي، لأن هذا غير ممكن طبياً.. وغير ممكن شعرياً...

● أستاذ نزار، أنت تعرف أنه كان الي جانب رواد الشعر، أصوات شعرية مهمة كانت تشكل (نشازاً) كبيراً للرواد. وكان يوسف الخال مثلاً في مجالس (مجلة شعر) يمانع أن ينشر لهم، ثم فيما بعد بدأ ينشر لهم. وتحديداً هنا تجربة أنسي الحاج و (النشاز) الذي كان أنسي يفتعله، أعطى أنسي حضوره الشعري المميز.

والحقيقة أنه استطاع أن يكون صوتاً شعرياً متميزاً على مستوى الخارطة الشعرية العربية. أنت ما رأيك بتجربة أنسي؟

ـ أؤيدك مئة بالمئة فيما ذكرته عن أنسي . فهو من (التاريخيين) . في حركة الحداثة ، بل هو أهم أولئك التاريخيين وأشجعهم .

وأقول (أشجعهم) ، لأن كتابة قصيدة النثر في الخمسينيات ، كانت تعادل صعود أرمسترونغ إلى القمر . . في تلك الأيام من الخمسينيات ، كان الكلام عن قصيدة النثر أو كتابتها نوعاً من (التابو) .

ولكن أنسي (فَعَلها)، رغم ألوف اللعنات التي نزلت فوق رأسه. وحين أصدر أنسي مجموعته الأولى (لن) لم يجرؤ أحد منا أن يقول له (يعطيك العافية) بصوتٍ عالٍ، حتى لا تتساقط الحجارة فوق رأسه.

اليوم، صارت كتابة قصيدة النثر أسهل من شرب زجاجة (كولا). . فاذا كانت قصيدة النثر قد وصلت الى شاطيء السلامة، فإن الفضل يعود الى هذا البحّار الشجاع الذي اسمه أنسي الحاج، والى بحّار ثانٍ رافقه في اجتياز البحر. . هو محمد الماغوط.

● **سأسرد أسماءً شعرية هي رموز في خارطتنا الشعرية العربية الحديثة، طالباً منك رأياً صريحاً ومكثفاً بها.**

ـ تفضّلْ. .

● **بدر شاكر السياب؟**

- أخذ حجماً مبالغاً فيه على خارطة الحداثة. فشعره الأول مدرسي وتقليدي كشعر الرصافي والزهاوي.

ولكن اتصاله بالحداثة اللبنانية، وبجماعة مجلة (شعر) فتح أمامه الأبواب، فغيَّر بسرعة ملابسه القديمة، ونزل الى الملعب وفي يديه (أنشودة المطر).

وربما كان مرضه الطويل، وميتته المأساوية سبباً في التعاطف معه، وتسليط أضواء النقد على أعماله..

● **يوسف الخال؟**

- بطريرك الحداثة في الخمسينات، (والدينامو) الذي كان وراء اشتعال أكثر الكواكب الشعرية، ليس لديه ادعاءات شعرية عريضة، وأهم قصيدة كتبها في حياته هي (مجلة شعر)...

● **أدونيس. أين تضعه على خريطة الشعر. وما هي نقاط الالتقاء والافتراق بينكما؟**

- أدونيس شاعر كثير المهارات. باع نار القلب، واشترى حجر الفلاسفة. كتب نصاً شعرياً لم يُكتب من قبل. ولكنه رغم كثرة مقلّدية ظل بلا تركة ولا ورثاء.

هاجر منذ زمن من سواحله الأولى المفروشة بالعشب والطفولة وقواقع البحر، واختار السباحة حيث لا يسبح الآخرون.

كل واحد منا مقتنع بطريقته، وكل واحد منا مقتنع بجمال صوته.. وبما أعطاه الله..

هو مقتنع بـ (مفرد بصيغة الجمع)، وأنا مقتنع بصيغة منتهى

الجموع. هو مهتم بالنخبة، وأنا مهتم بأصغر ذرة تراب على الأرض العربية . هو مهتمّ بالتجريد ، وأنا مهتمّ بالتشخيص . هو يحاضر في الغرف المغلقة . . وأنا أغني في الهواء الطلق . هو يحبني . . وأنا أحبه . . رغم أننا نتكلم على موجتين شعريتين مختلفتين .

● أنسي الحاج؟

- كان اللاعب الرئيسي الذي دخل ملعب الحداثة في الخمسينات، وحصد كل الميداليات الذهبية، أبو قصيدة النثر بغير منازع، وهو الذي وضع مع محمد الماغوط الحجر الأول في بناية هذه القصيدة.

● خليل حاوي؟

- المحتوى القومي العربي الوحدوي في شعره هو الذي كرّسه . ولم يلعب ورقة شعرية جديدة على طاولة الحداثة .

● شوقي أبو شقرا؟

- له قماشة مختلفة عن شعراء (مجلة شعر)، ويتحدث بلغة تشبه لغة الأطفال والمجانين والحشّاشين. تنتظره من الشرق، فيأتيك من الغرب. ساخر، وكاريكاتوري، وفيه شيء كثير من غرابات سلفادور دالي . . .

● توفيق صايغ؟

- لم يسجّل أي هدف شعري في ملعب الحداثة. وانما بقي لاعباً عادياً لم تساعده الريح وسوء الحظّ على التفرّد . .

● عصام محفوظ، وفؤاد رفقة؟

ـ لم يتخذا الشعر قدراً لهما، وانما اعتبراه نشاطاً هامشياً يأتي بعد الصحافة والتدريس. والشعر يريد فدائيين لا متطوّعين.

يعجبني عصام محفوظ ناقداً وقارئاً ذكيـاً للنص، ولا سيما في كتاباته الأخيرة التي حاور فيها كتابّنا الـراحلين كمارون عبـود وعمر فاخوري وغيرهما.

● عبد الوهاب البياتي؟

ـ هـو (حكواتي) الشعـر العربي، والـواشي الكبيـر، والمـرأة المـطلّقة، وابن آوى الـذي يهـاجم في الليـل أعشـاش الشعـراء، ويسرق بيضهم، ويخنق فراخهم.

تـوقف عن قراءة الشعـر وكتابتـه منذ عشـرين عامـاً، وأصبـح عـانساً، وعـاقراً، وتفـرّغ ليشوي زمـلاءه الشعـراء على نـار نفسـه المريضة.

لـو كنتُ مسؤولاً، لحاكمتـه بتهمة رمي الـزبالـة في الحـدائق العامة.

● جبرا إبراهيم جبرا ؟

ـ جبرا مثقف كبير. وفنان كبير بعشرات المواهب.

دوره لا يزال دوراً مؤثراً ومستمراً في حياتنا الثقافية على أكثر من صعيد: الرواية، النقد الأدبي، الترجمة، الشعـر، وقبل كـل شيء دراساته المعمّقة للفن التشكيلي العراقي.

أهم ما في جبرا استمراريته، وانضباطيته، وعقله المنظّم. ففي حين تبعثر كل التلاميذ في مجلة (شعر) بقي جبرا التلميـذ الوحيـد

الذي يكتب فروضه المدرسية بانتظام، ويتقدم إلى الامتحانات في مواعيدها. .

● سعدي يوسف؟

- أحبّ هذه الرطوبة والنداوة في شعره. . وهذه المائية التي تتغلغل في مفاصل أبجديته.

إنه من جيل الرواد بكل جدارة. ولكنه هو والشاعر حسب الشيخ جعفر غير مكترثين على ما يبدو بفن العلاقات العامة .

قصائدي وحّدت العرب
أكثر من جامعة الدول العربية*. . .

(*) حوار مع هدى المر. مجلة (المجلة) لندن ٥ ـ ١ ـ ٨٥.

● منـذ سنين، وسفينتك دائخـة في عـرض البحـار. طـوراً تلاحقك أسمـاك القرش ، وطـوراً تلاحقـك أسماك الحزن، وتارةً تلاحقك مراكب القراصنة . ألم تجد حتى الآن مرفأك ؟

- سؤالـك يذكّـرني بفيلم قديم رأيتـه من تمثيل آفـا غاردنـر ، وجيمس مايسون اسمه (الهولندي الطائر). وقصـة الفيلم تدور حول رجل حكمت عليه الأقدار أن يبقى مبحراً مـلايين السنين، دون أن يكون له الحق أن يشيخ . . أو يتعب. . أو يموت. . أو يستقـر في مرفأ من المرافىء. . .

وكان شرط الآلهة الوحيد على (الهولندي الطائر) للخلاص من اللعنة التي تلاحقه، أن يجد امرأة تحبه، وترضى أن تصعد معه الى ظهـر السفينة الملعـونة، وتشـاركه طـوافه الـلا مجـدي في جميـع المحيطات، وتقبل بإرادتها أن تبحـر معه، وتـرسو معـه. . وتموت معه. .

قصـة (الهولندي الطائر) هي قصّتي باختصار.

فلا مرفأ من المرافيء يقبل دخولي اليه. . ولا أسماك القـرش ترضى أن تصالحني. . ولا العاصفة ترضى أن تكون لطيفةً معي. .

ولا القراصنة يقبلون مناقشتي. وأخيراً . . لا امرأة قابلتُها لديها الاستعداد لتحبّني الى درجة تقبل معها ان تصعد الى سفينة الأشباح التي أركبها، وتبحرَ الى آخر العمر معي . . وتموت معي . .

إنني لا أقول هذا الكلام مللاً أو ضجراً . . ولا أقوله استجداءً لمرفأ يأويني . . أو امرأة تحميني . . وأرجو أن لا تعتبروا كلامي إعلاناً مبوّباً لاستثارة دموع النساء ، أو دموع أسماك القرش . . فأنا طول عمري كنْتُ وحيداً على مركب الشعر .

صحيح أن سفينتي ثُقبت أكثر من مرة، وغرقتْ أكثر من مرة، ونهشتني حيتان البحر أكثر من مرة، وخطفتني جنيّات البحر أكثر من مرة . . لكنني كنت أجد نفسي دائماً وحيداً على ظهر السفينة، أعقّم جراحي بملح البحر، وأداويها على الطريقة البدائية، وأرتّب سريري بنفسي، وأطهو طعامي بنفسي، لأن أكثر الجنيّات اللواتي عرفتهن غير متحمسات لدخول المطبخ .

أن تكون وحيداً، لا يعني أن تكون رجلاً متوحشاً، أو مريضاً، أو سوداوياً، أو هارباً من العالم .

أن تكون وحيداً، يعني أن تنسحب من ضوضاء العالم لتصغي الى موسيقى نفسك. وموسيقى النفس موسيقى جميلة جداً لمن عنده الوقت لكي يصغي اليها. فالمقاهي، والشوارع المزدحمة، والشواطيء المكتظة باللحم البشري، تثير عندي نوعاً من الحساسية والاختناق .

عندي قدرة خارقة على أن أبقى في غرفتي شهراً، وشهرين،

وثلاثة . . . دون أن أشعر بالحنين إلى ضجة السيارات ، ورائحة البنزين .

وما دام معي قلم . . وورقة . . وفكرة تشغلني . . فأنا مَلِكٌ حقيقي . وما دمت أستطيع أن أنام على صدر ورقة بيضاء . . فلماذا أبحث عن فنادق أخرى ؟؟

في طفولتي، كانت أمي تدخل عليَّ، فتجدني مستلقياً على ظهري، وعيناي مسمّرتان في سقف الغرفة. فتسألني : هل أنت ساخن؟ هل ضربك أحد؟ هل تخانقت مع أحد؟ هل طفل بمثل سنك يكلّم السقف والجدران ؟

في تلك السنين الأولى من الطفولة، لم تكن أمي تستوعب العلاقة بيني وبين جدران البيت. ولم تكن تعلم أن أعظم الكتابات في الدنيا هي التي كتبها السجناء على جدران سجونهم . .

وكبُرتُ . . وظلت علاقتي بالجدران من أعظم وأمتن العلاقات. فاذا دخلتُ الى مطعم، ولم أجد طاولة خالية قرب الجدار، خرجت من المطعم، وبقيت بلا عشاء . .

أما عن المرافيء، فهي آخر ما أفكر فيه. فالمرافيء هي رموز الثبات والطمأنينة والسلامة. المرافيء هي نهاية طموح المراكب. هي ملجأ العجزة للمراكب التي تعبت، وأحيلت على المعاش.

والشعر هو مغامرة بحرية خارقة . . وصدام مستمر مع اللون الأزرق . . وصراع مع المجهول واللا منتظر . .

إن القصيدة العظيمة هي التي تدخل البحر دون أن تحمل

(مانيفستو)، أو بوليصة تأمين. أما الشاعر الذي يخاف دوار البحر، وينظر كل دقيقة الى ساعته، ويسأل: هل وصلنا الى الاسكندرية؟ هل وصلنا الى مرسيليا؟ هل وصلنا الى هونج كونج.. فهو سائح اميركاني مستعجل لا يفرق بين البحر الأبيض المتوسط وطبق البيتزا.. وبين متحف اللوفر.. ومطعم الوينبي..

● ولكن.. هل أنت سعيد على هذا المركب المجنون الذي ليس له مرفأ معلوم.. ولا موعد معلوم.. ولا اتجاه معلوم؟

- المرافيء المعلومة لا تثير شهيتي. فأنا الذي أكتشف مرافئي. أنا الذي أخترعها. واذا كان مركبي مجنوناً - كما تقولين - فان هذا العالم كله مجنون. والعالم العربي الذي انتمي اليه، هو سيّد المجانين. سياسته مجنونة، وتصرفاته مجنونة، وخلافاته مجنونة، وإذاعاته مجنونة، وتلفزيوناته مجنونة..

وأنا - شئتُ أم أبيت - جزء من هذا العالم العربي. جزء من تاريخه، جزء من غضبه، جزء من الزلازل التي تتجمع في أحشائه، جزء من انتصاراته، وهزائمه، وانهياراته العصبية..

إنني لا أستطيع أن أكون شاعراً سويسرياً، أو سويدياً، أو دانمركياً.. فهؤلاء ليس عندهم (صبرا) و (شاتيلا) و (الشياح) و (رأس النبع) و (معتقل أنصار).. ولا يأكل الغزاة الاسرائيليون برتقالهم، وليمونهم، ويسرقون مياههم، وينسفون بيوتهم كما يشعلون سيجارة.

هؤلاء الشعراء ليس لديهم مشكلة تتعلق بالحاضر أو المستقبل، بأولادهم أو بأحفادهم، بمرضهم أو بشيخوختهم.

أما أنا كشاعر عربي، فقصبة تهزها الرياح، وعصفور لا وطن له.

الشاعر السويسري غير مهتم بخلافات (أبي عمّار) مع (أبي موسى)، وخلافات البصريين والكوفيين في الشأن اللغوي، وخلافات أصحاب المذهب الشافعي مع أصحاب المذهب الحنفي في شؤون الشريعة.

والشاعر السويسري لا تهمه (بوّابة المتحف) اذا فتحت أو اذا أغلقت، ولا يعرف شيئاً عن (خط ماجينو) الذي يفصل بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية، ولا يعرف لماذا يُغلق مطار بيروت الدولي فجأة، فيضطر اللبنانيون الى السفر الى قبرص، سباحة.

وبالطبع، لا يعرف الشاعر السويسري، شيئاً عن حرب الخليج، أو حرب البوليساريو، أو حرب الفصائل الفلسطينية مع بعضها، وعن أسماء الميليشيات التي تتقاسم لبنان كأنه تركة موروثة عن أبيها. ولا يدري من أطلق اسم (سويسرا الشرق) على بلدٍ كلبنان يتعامل سكانه مع بعضهم بالبلطة.. والساطور.. والمسدسات الكاتمة للصوت.

أما الشاعر العربي فهو زبون دائم في فندق الجنون.. وما دام أصحاب الفندق كلهم عرباً.. ومموّلوه عرباً.. وطبّاخوه عرباً.. فإلى أين يتجه الشاعر العربي، وجميع الفنادق العربية محجوزة لرجل غامض يستعمل عدة جوازات مزورة اسمه (القمع).

ان الشاعر العربي لا يستطيع أن يحبس نفسه في أنبوبة معقّمة من الجراثيم، في بيئة ملوّثة، ولا يستطيع أن يشمّ الهواء فوق كوم

من النفايات، ولا يستطيع أن يقول إنني لا أحب اللون الأحمر في منطقة غارقة بالدم حتى الرُكَب.

إن الشاعر العربي هو الوارث الشرعي لأحزان كربلاء. وأهميته تتجلى في قدرته على زراعة شجرة ورد، في غابة من المتفجرات.

وهكذا، فإن صراخ الشاعر العربي صراخ مبرر، وجنونه جنون شرعي، لأن كل ما حوله يدفعه الى الصراخ والجنون.

● أنت شاعر الجماهير المسموع الصوت، المزروع على امتداد الوطن العربي. منذ زمن طويل لم تقرأ شعرك على الناس، كما كنت تفعل في الستينات، ماذا حدث لحنجرتك؟

- لم يحدث شيء لحنجرتي. ولكن الذي حدث انني لا أستطيع في هذه الحرب اللبنانية التي تفترسنا، أن ألقي شعري على (خطوط التماس).. ولا أن أقيم أمسية شعرية بين خرائب (الأسواق التجارية).. ولا أن أغني على منبر من أكياس الرمل، والأسلاك الشائكة...

إن قراءة الشعر هي طقس من طقوس العبادة. ولا يمكن ممارسة العبادة في ظل السلاح.

أما العالم العربي، فهو مشغول كالديكة، بنزاعاته العشائرية، وحواره اليومي بالأسنان والأظافر، بحيث ليس لديه وقت لقراءة الشعر أو لسماعه.

والحقيقة أن الشعر هو سفير المحبة الى الشعوب العربية

والعالم، فاذا كانت الأنظمة لا تستطيع أن تتفق مع بعضها، فليتركوا للشعراء هذه المهمة .

وإنه ليسعدني ويشرفني أن أقول إن قصائدي جمعت الشعوب العربية، ووحّدتها، أكثر مما فعلته جامعة الدول العربية منذ تأسيسها.

● أنت مثار لجدل كبير في العالم العربي. . فبعضهم يحبّ شعرك حتى الموت. . وبعضهم يكرهه حتى الموت. .

بعضهم يخبيء شعركَ تحت وسادته. . وبعضهم يرميه الى النار. . أين أنتَ من هذه الحرائق؟

ـ أنا كأستاذي أبي الطيب المتنبي أنام ملء جفوني عن شواردها. . الذين يحبونني أشكرهم مرة. . والذين يكرهونني أشكرهم خمسين مرة. .

والسبب ان الذين أشبعوني ضرباً. . ولكماً. . وعضاً. . انما فعلوا ذلك، لأنني كسرتُ شيئاً ما في ضمائرهم، وأضرمت النار في ثيابهم، وأفكارهم، وعاداتهم المكتسبة، وربّما لأنني نزعتُ ورقة التوت عن أجسادهم الشاحبة. . والمشوهة. .

وحين رأوا أنفسهم في المرآة. . صرخوا. . وربما لأني أضأتُ شمعةً في ليل جاهليتهم، وحين فاجأهم النور خافوا. . لأن نور الحقيقة فضّاح . . .

إنني اعترف أنني شاعر صداميّ، لا يتنازل، ولا يساوم، ولا يقبل أنصاف الحلول .

أعترف أيضاً انني شاعرٌ لا يغشّ بورق اللعب، ولا يلبس الملابس التنكرية. . ولا يمسح الجوخ لأية سلطة أو أي سلطان. .

وأخيراً. . أعترف لكم أن الباطنية ليس مهنتي. . .

إنني اكتب لوجه الكتابة، ولا أريد مكافأة من أحد. . ولا رشوةً من أحد. . ولا أريد جائزة نوبل. . .

ان جائزتي الكبرى هي هذا الشعب العربي العظيم، الذي يلتفّ حول شعري، ويعطيني القوة والعنفوان، ويحميني بصدره، ويعطيني المناعة كي لا أكون شاعر النظام. . أو شاعر (الباب العالي).

انني أستمدّ سلطتي من أعلى السلطات، وهي الشعب. فالشعب وحده هو الذي يصنع شعراءه، والشعب وحده هو الذي يسقطهم اذا خانوا قضية الشعر، وشرف الكلمة.

والشعب العربي بمنتهى الذكاء والحساسيّة الشعرية، وهو يستطيع أن يفرّق بسهولةٍ بين الشاعر والبهلوان. .

إنني شاعر أكتب بأصابعي العشر. . واذا لزم الأمر أكتب بأسناني. . وأظافري. . .

أما الشعراء الذين يكتبون بخمس أصابع. . أو بثلاث. . . ويتركون بقية أصابعهم في الجارور، ويظهرون بوجهين. . ويتكلمون بصوتين. . فان الجمهور العربي سوف يكتشف نفاقهم وازدواجيتهم، ويضربهم بالنعال العتيقة. . ويختم أفواههم بالشمع الأحمر.

الشعر، هو عملية استشهاد حقيقية، والذين لا يعرفون كيف يموتون على ورقة الكتابة.. فالأفضل لهم أن يبحثوا عن مهنة أخرى...

● نزار قباني. لماذا الشعر؟

- إسمحي لي أن أجيبك بسؤال معاكس. فأقول:

ولماذا الشمس؟ لماذا الكواكب؟ لماذا السحاب؟ لماذا المطر؟ لماذا الشجر؟

الشعر جزء من التركيب البيولوجي للشعب العربي، جزء من نبضه وتنفّسه وحرارته وجهازه العصبي.

والشعر، هو هذه المياه الجوفية المخزونة في داخل الانسان، والتي تنتظر الفرصة لتتفجر كالطوفان من أعماق الأرض المالحة.

والشعر، هو هذه الطبقة السميكة من ملح البحر التي نغطي بها أجسادنا حتى لا تتعفّن.

والشعر، هو البوصلة التي يستعملها الانسان العربي في هذا التيه العظيم، ليصل الى نوافير الماء وبساتين النخيل.

والشعر، هو هذا الصراخ الذي نطلقه في وجه الليل حتى يصير صباحاً. وفي وجه اليأس حتى يصير اخضراراً.. وفي وجه السجون حتى تصير حدائق.. وفي وجه الخنجر حتى يصير وردة...

والشعر، هو هذا الانقلاب الذي يقوم به الشاعر في داخل اللغة، وفي داخل القناعات الثابتة، من أجل تغيير صورة الكون.

والشعر، هو هذا السلاح السرّي الذي يدافع به الشعب العربي عن نفسه ضد القهر والظلم والاستبداد.

والشعر أخيراً . . هو راية الحرية التي يسلّمها شاعر لشاعرٍ آخر. وهو انتصار اللون الأزرق على المعتقل . . وانتصار شجرة الياسمين على حبل المشنقة . .

● **بيروت. أوجعتكَ كثيراً . . وأبكتكَ كثيراً . . خلال سنوات الحرب، حتى فكرت مراراً أن (تطلّقَها) . . وتبحث عن مدينة أخرى تسعدك وتريح أعصابك . ولكننا كلما كلمناك في الهاتف من لندن، وجدناك مرابطاً في بيروت. ما هي قصتك مع بيروت؟ ولماذا تحب المدن التي تعذّبك ؟**

ـ قد أكون مصاباً بعقدة (المازوشية) أي تعذيب الذات. وكأيّ رجل يغضب من امرأة يحبها . . يحمل حقيبته، ويلبس معطفه، ويضرب الباب ضربة قوية . . ويحلف أغلظ الأيمان انه لن يعود . .

وما أن يصل الى أول منعطف، حتى يدور على كعبه ١٨٠ درجة مئوية . . ويدعي أنه نسي في البيت فرشاة أسنانه.

والحقيقة، انني كنت إخترع ألف عذر لأعود الى بيروت . . مرةً لأنني نسيت فرشاة أسناني . . ومرةً لأنني نسيتُ معجون الحلاقة، ومرةً لأنني نسيت علبة الكلينكس . . ومرةً لأنني نسيتُ حبوب الضغط . .

وكلما رأتني بيروت من نافذة البيت عائداً . . ضحكت ضحكة ساخرة، وقالت: أنتم الرجال عقلكم صغير . تقيمون الدنيا

وتقعدونها على رأس امرأة تعشقونها. . ثم تعودون الى صدرها نادمين. . مستغفرين. .

والحقيقة، أنني كنت أعود الى بيروت، لا من أجل فرشاة أسناني، فالصيدليات ملأى بكل أنواع فراشي الأسنان. . ولا من أجل رباط عنق. . أو منديل. .

كنت أعود الى بيروت، لأن قطع علاقتي معها، يعني قطع جميع شراييني، فعندما تصبح امرأةٌ أو مدينةٌ جزءاً من دورتنا الدموية. . ومن قهوتنا الصباحية. . وجزءاً من حركة الدقائق والثواني. . فان هجر هذه المدينة ـ المرأة يساوي هجر الحياة، ويعادل الانتحار. . .

إن بيروت أعطتني جرعةً من الحرية عجزت أي مدينة أخرى أن تعطيني إياها. لذلك أجد صعوبة كبرى في التفاهم مع المدن الأخرى.

إن ميكانيكية الكتابة عندي صارت مرتبطة ببيروت. وعندما أتركها أنسى القراءة والكتابة.

وأذكر انني كنت أنزل في فندق (برنس دي غال) في باريس، عندما طُلب مني أن أكتب مقالي الأسبوعي لاحدى المجلات العربية الصادرة في باريس، وظننت ان الجلوس على مقهى من مقاهي الرصيف في جادة الشانزيليزه سيفجّر براكين الكتابة في صدري. ولكنني رجعت الى فندقي بخفَّيْ حنين. . وقد تأكدتُ بعد هذه الحادثة، أن برج (أبي حيدر) و (برج البراجنة) و (برج المرّ) في بيروت، تحرضني على الكتابة أكثر مما يحرضني (برج إيفل) في العاصمة الفرنسية الجميلة.

● هنـاك عـلاقـة مصيـريـة بينـك وبين الحـزن ، حتى لا نقول بينك وبين الموت. بدءاً من هـزيمة حـزيران (يـونيو)، الى موت ابنك تـوفيق، الى موت زوجتـك بلقيس، الى عملية القلب التي أجريت لك في اميركا، الى آخر هذا المسلسـل الدرامـاتيكي المثير.

هل تعتقد ان هـذه الأحداث هي التي فجـرت ينابيـع الغضب والحـزن في أعماقـك، وحولتـك من شـاعـرٍ (يكتب شعـرَ الحب والحنين، لشـاعـرٍ يكتب بـالسكّين)، كمـا تقـول في قصيـدتـك المشهورة (هوامش على دفتر النكسة)؟

- التراجيديا هي أساس المسرح الإغريقي. فـالبطل مـلاحق دائماً بالبروق، والرعود، والصواعق. وأنا دفعت ثمن الشعر بـاهظاً من صحتي وجسدي وروحي.

وأنا لا أعترض على الأقدار، ولا أناقشها فيما خطَّطته لي. فأنا أعرف أن الشاعر مخلوق سريع العطب، واستثنائي، لذلك لا بد ان تكون جراحه استثنائية، وأحزانه استثنائية، وموته استثنائياً.

ان كتابة الشعر بحدّ ذاتهـا هي عمل انتحـاري. . وكل كلمـة نكتبها على الورق تقصّر من أعمارنا. ومع ذلـك ندخـل التحدّي، ونقبل الرهان.

لو كنتُ بقّالاً، أو شيّالاً، أو تاجر خضراوات، أو بائع قطع غيار للسيارات، لكنتُ ربما أكثر طمأنينة وسعادة.

ولكن الطمأنينة هي مقتلي، ومقتل الشعر أيضاً.

وأنا أفضّل ألفَ مرة أن يغيّروا لي ثلاثة شرايين في قلبي، على أن أكون رئيس مجلس ادارة المصرف المركزي.

إن كل واحد في الدنيا يدفع ثمن حرفته. وأنا احترفت الشعر، وأنا متأكد من انني سأدفع الفاتورة، وفائدة الفاتورة أيضاً.

ثم إنني شاعر أمسك بكرتين ناريتين مشتعلتين، هما شعر الحبّ.. وشعر السياسة..

وفي هذه المنطقة العربية التي يقتلها العطش والجفاف وتشتهي نسمة الحرية، ممنوع عليك أن تلعب بكرةٍ واحدة، فكيف اذا تجرأتَ ولعبت بالكرتين؟

الشعر هو كرة النار التي لعبتُ بها أربعين عاماً.. ورغم أنها أحرقت أصابعي.. وأحرقت أعصابي.. إلا أنني لا أزل أمارس رياضتي يومياً. ولا أفكّر أبداً أن أخرجَ من المباراة.

● بين أول مجموعة شعرية كتبتها (قالت لي السمراء) التي صدرت عام ١٩٤٤ وآخر مجموعة شعرية (الحب لا يقف على الضوء الأحمر) التي صدرت عام ١٩٨٣ مسافة زمنية بعيدة. ما هو الفارق في مفهوم الحب بين أول مجموعة وآخر مجموعة؟ وهل الحب بقي على عنفه واندفاعته الأولى، أم أنه فقد كثيراً من حماسه وجنونه؟

- هذا سؤال غير علمي. فالإنسان لا يمكن ان يبقى مزروعاً في مكانه أربعين عاماً كالشجرة.. أو كعمود الكهرباء..

أشكالنا تتغير.. أفكارنا تتغير. لغتنا. مفرداتنا. طريقة كتابتنا. كلها تتغير.. وإلا لم يعد ثمة فرق بيننا وبين الحجر.

الشعر هو نهر عظيم يتـدفق باستمـرار، ويتغير بـاستمرار. ولا أستطيع أن أتصوره تمثالاً من البرونز في إحدى ساحـات روما، أو عموداً من أعمدة بعلبك. . أو مسلّة فرعونية في معبد الكرنك.

والحب. . ليس سمكة سردين محفوظة في علبة. ولكنه سمكة قزحية الألوان تجوب البحار السبعة ، وليس لهـا وطن محدد ، ولا عنوان معروف .

إن الفتى في السادسة عشرة ، يتحرك باتجاه رائحـة الأنوثـة ، كما تتحرك النحلة باتجاه الأزهار.

وفي العشرين والخامسة والعشرين، يبدأ الرجل يرصد تكوين المرأة الخارجي ، ويركّز على تقاطيع جسدها، وزينتها، وعطرهـا، وأناقة ملابسها.

وبين الثلاثين والأربعين. . يتوقف الرجل عن الاهتمام بتكوين المرأة الجسدي، ليهتم بتكوينها العقلي.

وفي الخمسين ينضـج الحب كفـاكهـة استـوائيـة، وتتـراجــع الانفعالات السطحية، والنزوات الصبيانية، وفي هذه المرحلة لا بد للمرأة لكي تنجح في الامتحان من ان تكون ذاكرت دروسها جيداً، وعرفت جغرافية الرجل وتاريخه جيداً.

● أحيـاناً يتكلم نـزار قباني، وكـأنه محـامي المـرأة الأول، وأحيـاناً يـوحي لنا بـأنه رجـل كبقية الـرجال، يتكلم كشهـريار. . ويتصرف مع النساء كشهريار. . ما هي حقيقة نزار قباني؟

ـ شهريار مظلوم. وأنا مظلوم معه. فهو لم يكن ذلك السفاح

الرهيب الذي يقتل النساء، ويمتصّ دماءهن. فشهريار مثلي، ومثل كل الأطفال، يحب أن يسمع القصص قبل أن ينام. وعندما اكتشفت شهرزاد هذه النقطة الطفولية في طباعه، استثمرتها بذكاء المرأة، فاستسلم لها وأحبها..

شهريار، إذن، رجل فنان وطفل. أي أنه يبحث عن امرأة تثير خياله وفضوله.. وتتركه معلقاً على حبال الأسئلة.

أما المرأة البليدة، الثقيلة الدم، المطفأة الروح، الميتة الأحاسيس، التي كانت تنام الى جواره كجدارٍ من الجليد.. وتشخر. فقد كان يذبحها من شدة الغيظ والملل. وأنا أعطيه كل الحق. ولو كنت مكانه لذبحتها..

صحيح انني كنتُ محامي النساء، ولا أزال، ولكنني لا أسمح لنفسي ولا يسمح لي القانون، أن أدافع عن امرأةٍ متلبسة بجريمة الغباء، أو الثرثرة، أو التسلط، أو موت الأنوثة..

ماذا أستطيع أن أفعل لامرأةٍ لا تريد أن تكون امرأة؟ ماذا أستطيع أن أفعل لامرأةٍ لم تفكر بتغيير ملابسها، أو تغيير أفكارها وكلامها، ومنطقها، وجلستها، وضحكتها.. بعد خمسين عاماً على زواجها؟

ماذا أستطيع أن أفعل لامرأة تدخل مع أثاث البيت، وتقيم علاقتها الزوجية مع السجّادة.. والكرسي.. والخزانة.. والسرير. والكومودينة.. لا مع الرجل الذي تزوجته..

● **المرأة التي يمكن أن يحبها نزار قباني اليوم، من هي؟**

- إنني في موضوع المرأة سهل.. وصعب..

سهل، لأن مطالبي منها طفولية. فقطعة شوكولاته تفرحني.. ولمسة حنان ترضيني..

وصعب، لأنني في الحب لست وحدي، بل معي شريك عزيز عليّ جداً، هو الشعر. أي اننا (اثنان) لا واحد.

فعلى المرأة الفدائية التي ترضى أن تكون حبيبتي أن تحبني أنا وشريكي معاً.. أي أنا والشعر.

ولقد فشلت علاقاتي مع أكثر النساء، لأنهنَّ كن يعتبرن الشعر (ضُرَّةً) لهن. أما أنا فلا أستطيع أن أتعامل مع امرأة تعادي الشعر أو تكرهه، أو تعتبر ان فساتينها.. وخواتمها.. وأساورها.. أهمّ منه. أنا لا تهمني فساتين المرأة.. ولا (خشاخيشها).. ولا (دشاديشها). كل ما يهمني أن تتصالح مع شعري، وتكون صديقته..

من كان حبيب الشعر فهو حبيبي.. ومن كان عدو الكلمة الجميلة فهو عدوي، ولو كان ملكة جمال العالم.

هذه هي شروطي. قد تكون شروطاً همايونية.. أو بوليسية.. أو فاشستية.. أو نازية.. ولكنني لا أتخلّى عنها.

سامحيني على صراحتي وقسوتي. فأنا أدافع عن النساء اللواتي يستأهلن الدفاع عنهن. أما النساء اللواتي ليس لهن قضية، ويتساوى لديهن الماء والخشب.. والصيف والشتاء.. والرجل وبلاطة الحمّام.. وقصيدة الشعر.. وصحن (التبّولة)..

إن امرأةً بهذه المواصفات، لا أتعاطى معها، ولا أدافع عنها، وإنما أرسلها الى السجن..

● نـزار قباني، الـذي كانت المـرأة محور حيـاته، ومحـور شعره، هل يستطيع الآن أن يعيش دون امرأة؟

ـ لا تتصوّري أنني أعيش في زنزانة انفرادية. وان وجود (امرأة ما) هو الوسيلة الوحيدة لإطلاق سراحي .

هذه صورة مضخّمة جداً لواقعي. فأنـا لا أعيش في العراء أو في المنفى. . ثم ان (امرأة ما) لا تحل قضيتي. فاذا لم أجـد هذه الـواحدة الاستثنـائيـة الفـريـدة UNIQUE التي تغـطيني بـالعشب والياسمين والورق الأخضر. . فإنني أفضّل أن أبقى في الزنزانة. .

ففي الزنزانة، أستطيـع على الأقل أن أقـرأ، وأكتب، وأفكر، وأدخل في حوار حميم مع نفسي، وأستحضر جميع نساء الأرض.

● دور نـزار قبـاني. بعضهم يعتبـره دوراً رائـداً ومؤثـراً. وبعضهم يعتبـره دوراً هامشيـاً. كيف يقيّم نزار قبـاني شعـر نـزار قباني؟ وما هي الإضافات التي أضفتها الى ديوان الشعر العربي؟

ـ إنني لا أدعي انني نابوليون بونابارت الشعر. ولا أدّعي أنني فتحتُ العالم. ولكنني أقول بكثير من الغرور، وقليل من التواضع، أنني جعلت الشعـر خبـزاً شعبيـاً يـأكله الجميـع. . وعملة رائجـة يتداولها الجميع. وانني استطعت أن اخترق بشعري جميع حواجز اللغـة، وحواجـز البلاغـة القديمـة، والقوالب الجـاهـزة، وأسـوار القواميس العالية، كاسراً بذلك جدار الخـوف الذي كـان يقوم بين الناس وبين الشعر.

الشعر الذي يخاطب الناس من (فوق) لا يسمعه أحـد. . ولا يكترث به المارة في الشارع. .

وربما كانت مشكلة الحداثة هي مشكلة الديمقراطية في مخاطبة الناس. فهناك اليوم سوء تفاهم كبير بين الشاعر الحديث وبين الناس . هو يصرخ في وادٍ ، وهم يعيشون في وادٍ آخر .

هو يدّعي أن الجمهور غبي ، وأمّي ، ومتخلف ثقافياً وعقلياً. والجمهور يحسّ ان الشاعر مستشرق أجنبي يتكلم لغةً أخرى.

إنني لا أعتقد أن هناك أزمة شعر، وانما أزمة شاعر عجز عن اكتشاف المعادلة التي توصل صوته الى الناس.

ان الشعر هو فن التوعية لا فن التعمية. ولا سيما في بلادنا التي تحتاج الى ضوء نجمة تضيء ليلها الطويل، والى كلمة جميلة تنقلها من مرحلة أهل الكهف. . الى مرحلة الفضاء.

بالنسبة لتقييم شعري، أترك ذلك لسواي. لكنني أشعر أن شعري استطاع أن يغطي هموم الناس القومية والعاطفية من الخليج الى المحيط، وان كلماتي التي نثرتها على تراب الوطن العربي منذ أربعين عاماً، أصبحت غابةً من الشجر، وبيدراً من القمح ، يأكل الناس منه ويطعمون أولادهم .

● لكل فنان عصره الذهبي، يكون فيه في أوج تألقه وعطائه. هل ما زال نزار قباني في نفس مرحلة التوهج والعطاء. أم أن زلازله بدأت تنحسر ؟

- العصر الذهبي لا يستمر لأحد. لا للامبراطوريات، ولا للحضارات، ولا للنساء، ولا للرجال.

إن قوانين الطبيعة لا تسمح لأحد أن يبقى خالداً في الزمان

والمكان. فلا الزهرة مسموح لها أن تعيش أكثر من أيام، ولا القمر مسموح له أن يبقى مضيئاً طوال الشهر، ولا الشجرة مسموح لها أن تزهر وتثمر في كل الفصول. والشاعر هو جزء من هذا النظام الدقيق الذي يحكم العالم والكائنات. ولا يمكنه أن يدّعي أنه شمشون الجبار.. أو أنه (دوريان جراي) ذو الجمال الأبدي، كما في قصة أوسكار وايلد.

انني لا أستطيع أن أزعم أن زلازلي وانفجاراتي التي أطلقتها في الخمسينات والستينات لا تزال على عنفها.

ترى هل أستطيع أن أكتب اليوم (هوامش على دفتر النكسة) و (خبز وحشيش وقمر) و (قصائد متوحشة) و (يوميات امرأة لا مبالية) و (الرسم بالكلمات) بالزخم القديم ذاته؟

انني أشك بذلك. فما كتبته أيام الجنون والنزق والتهور، لا أستطيع أن أكتبه الآن. ان رقابة العقل على أعمالي تشبه الرقابة على الصحف والكتب أكرهها.. ولكنني لا أستطيع أن ألغيها..

ان ملامح نزار قباني اليوم، فيها من ملامح نزار قباني الأمس، ولكن بعد المرور على مصفاة العقل.. وما أتعس الشعر الذي يضطر الى المرور بالمصفاة!!

● في مجموعتيك الشعريتين (كتاب الحب) و (قاموس العاشقين) قلت إنك تريد أن تصنع قصيدة عربية مكثفة وقصيرة تتخلص من الثرثرة الشعرية العربية، والزوائد الدودية.

فهل هذه (القصيدة ـ التلكس) هي نوع من إيثار السهولة، أم أن لك تفسيراً آخر لهذه التجربة؟

- تجربتي في (كتاب الحب) و (قاموس العاشقين) ليست تجربة هينة ولا سهلة، كما تتصورين، فالايجاز أصعب بكثير من التطويل.

عندما يكون لديك مئة متر من القماش لتفصيل بدلة، فانك تتصرفين على راحتك، وتأخذين وقتك، لأن القماش الكثير والفائض عن اللزوم، يسمح لك أن تقصّي، وترمي، وتترحرحي الى درجة البطر.

أما اذا كان لديك متران من القماش لتفصيل بدلة، فعندئذ تظهر شطارة الخياط، وقدرته على ايجاد التوازن بين القماش ومقاييس الجسد.

الكلام الكثير في الشعر ليس في مصلحة الشعر. والثرثرة كانت دائماً ضد الشخص الثرثار. القصيدة الجيدة لا تحسب بالفدادين أو بالكيلومترات، بل بقدرتها على الإضاءة السريعة، كما يضيء البرق الدنيا بثانية..

ثم ان هذا العصر هو عصر التلكس والأقمار الصناعية، لا عصر الياذة هوميروس، وألفية ابن مالك، ولا عصر الملاحم والمعلقات. إنه عصر طائرة الكونكورد.. لا عصر عربة الكارو..

لذلك، فان ما فعلته هو عملية تحديث، توخيت منها أن أكتب للناس قصيدةً تشبه إيقاع حياتهم. وربما لم تتعود الأذن العربية بعد على هذه البرقيات الشعرية القصيرة، لأنها لا تزال مرتبطة تاريخياً بالمواويل.. والمقامات.. والموشحات.. ولكنني أعتقد أن الأذن العربية سوف تتطور مع الزمن بحيث تنتقل من مرحلة الربابة الى

مرحلة البيانو. . ومن مرحلة (قفا نبك). . الى مرحلة الميلوديا. .

● في هذه الفترة الرديئة التي يمر بها العالم العربي، هل تعتقد أن الشعر أصيب بالعدوى، ودخل هو الآخر في عصر الانحطاط؟ أم أنه لا يزال قادراً على أن يلعب دوراً في حياة الأمة؟

ـ لا يمكن فصل الشعر عن بيئته، ولا الثقافة عن اطارها التاريخي. ففي هذا الزمن العربي الرديء، لا يمكن للشعر أن يبقى في خيمة أوكسجين حتى لا تصيبه الجراثيم. إن صحة الشعر من صحة الوطن. وما دام الوطن العربي يعاني من الحمى، والهيستيريا، والانهيارات العصبية، فإن صحة الشعر تعبانة جداً.

غير أن هذه المرحلة المرضية من تاريخ الأمة العربية لا يمكن أن تستمر، لأنها حالة شاذة. ولا بد للضمير العربي أن يصحو، وللوجدان القومي أن يتحرك، وللإنسان العربي أن يجد نفسه بعد هذا الضياع الطويل.

والشعر في هذه المرحلة المالحة، مصاب بالإحباط والقنوط، ولكنه لم يصل إلى مرحلة اليأس. إنه قادر دائماً أن يفجر الماء من أعماق الصخر، ويخترع النجوم في عزّ الظلام، ويزرع الورد الأبيض في الأرض الخراب.

إن الشعر يجب أن يبقى واقفاً على قدميه، ويجب أن يستمر في المقاومة، والدفاع عن المثل العليا، لأن الشعر إذا سقط، سقط معه جهاز المناعة في جسد الأمة العربية.

إذن. . ممنوع على الشعراء العرب أن يستقيلوا. . أو يهربوا. .

أو يستسلموا . . أو يسقطوا في اللون الأسود . . لأن كلماتهم الرائدة ستقرر مستقبل هذا الوطن .

● مرةً أخرى، نعود لنسألك عن بيروت. ما هي أهميتها بالنسبة لمصيرك، ومصير الشعر كله في العالم العربي؟

ـ لا شعر بغير بيروت. ولا كتاب شعر يمكن أن يصدر عن غير بيروت. ولا شاعر يمكن أن ينطلق الى العالم، اذا لم تطلقه بيروت.

هذا ما اثبتته السنوات العشر الماضية. فحين مرضت بيروت، مرض الشعر في المنطقة العربية كلها.

هذه ليست شهادتي فقط، وانما هي شهادة التاريخ لهذه المدينة العظيمة التي احترقت مطابعها أكثر من مرة، ومكتباتها أكثر من مرة، ومستودعات الورق فيها أكثر من مرة، وظلت تنبض شعراً وثقافةً وفكراً.

ولقد صار الشعر جزءاً من صادرات لبنان، كما التفاح والكرز والبرتقال. ولا أعتقد أن بلداً في العالم يباهي بأن الشعر هو ثروته القومية إلا لبنان.

أما بالنسبة للعشق الذي يربطني ببيروت، فهو عشق يدخل في باب الخرافات، وهو عشق أكبر من أن يقال بكل اللغات التي أعرفها:

كلماتُنا في الحب، تقتلُ حبَّنا
إن الحروفَ تموتُ حين تُقالُ . .

بيروت كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥

أنا الذي أمّمتُ
الشعر العربيّ (*) . .

(*) حوار مع الأستاذ لامع الحر ـ مجلة الشراع بتاريخ ٢٠ أيار (مايو) ١٩٨٥ .

● منذ أربعين سنة وأنت تحمل صليبك .. وتحاول أن تنقذ الإنسان بالشعر . آمن بدعوتك كثيرون .. وكفر بك كثيرون .. وصدر بحقك أكثر من مذكرة توقيف .. وخصصت جائزة قيمتها عشرة آلاف دولار .. لإلقاء القبض عليك حياً أو ميتاً ... ألا تشعر بالخوف من اعتقالك ؟ .

- ليس هناك سجن في العالم يكفي لاعتقال الكلمة . ثم ان الدولارات ، أو البترو - دولارات .. إذا كان بوسعها أن تلقي القبض على ثدي امرأة فرنسية أو سويدية .. وإرغامها على دخول بيت الطاعة ...

فإن القصيدة لا تعطي جسدها بعشرة آلاف ، أو مئة ألف ، أو مليون دولار .. وليس لها طموح في مغازلة أعضاء منظمة الأوبيك ... وهي ترفض بكل تأكيد دخول بيت الطاعة .

كل الشعراء الذين دخلوا إلى بيت الطاعة ، تحولوا إلى مماسح .. أو إلى أحذية .. أو إلى (بيبي - سيتر) لأولاد الباب العالي .

إن ضـرب رأس القصيدة لا يعني مـوت القصيـدة . وخـلافـاً لقواعد علم التشـريح ، فـإن القصيدة المقـطوعة الـرأس ينبت لها عشرة رؤوس مكان الرأس الأول . .

السيَّاف مسرور ليس شخصية خيالية في كتاب ألف ليلة وليلة . إنـه لا يزال حيـاً يرزق يتمنـطق بسيفه ، ويـراقب كلَّ جـريدة ، أو مجلة ، أو مطبوعة ، أو كتاب يصدر عن المطابع العربية .

السيَّاف مسرور ، ليس شخصاً مجهولاً ، ولكنه يُشغل منصب مدير عام في وزارة الإعلام . . . أو رئيساً لقسم الرقابة . . أو وزيراً للثقافة . .

السيَّاف مسرور يلبس عشرات الأقنعة الثقـافية . وكلنـا يعرف اللعبة . وتسألني : ألا تخاف السيّاف مسرور ؟ .

وبكل صدق أقـول لك، إن السيَّـاف مسرور هـو الذي يشعـر بالخوف والارتباك أمام القصيدة . . . فهي تدخـل عليه بكـل فتنتها وذكائها وغـرورها . . . فـلا يعرف كيف يقـرؤها . . من اليمين إلى اليسار . . أو من اليسار إلى اليمين . . أو من فوق إلى تحت . . ولا يعرف أين مكان القنبلة . . أفي حقيبة يدها . . أم في النفق السرّي الذي يصل ما بين النهدين . . .

حتى الكـلاب البـوليسيـة المـدرّبـة على اكتشـاف القصـائـد الممنـوعة . . تعجبهـا رائحة هـذه القصائـد ، فتخالف التعليمـات المشددة الصادرة لها . . وتنبح ضدَّ الحكومة . . .

هذا يؤكد أن القصائد كالقطط بسبع أرواح . . وعلى السلاطين أن يتذكروا أن الكلمات نباتات شيطانية تتكاثر في أقسى الظروف . .

وتطلع من تحت الشراشف.. والمخدّات.. وسجّاد الكرمان الممدود في غرف نومهم...

لا أحد يستطيع أن يلقي القبض على قصيدة... فالقصيدة لُغْمٌ مؤقت.. وكل الذين حاولوا اعتقال الشعر، انفجر بهم كما انفجرت سناء محيدلي بالقافلة العسكرية الإسرائيلية، في لحظةٍ من أبهى لحظات البطولة.

● إذن.. أنت تفهم الشعر عملاً إنتحارياً..

- نعم.. نعم.. الشعر هو عمل إنتحاري بامتياز. ولا أستطيع أن أتصور قصيدة (تمشي من الحائط إلى الحائط.. وتقول: يا ربي السترة..).

إن ورقة الكتابة ليست رقاقةً من العجين نصنع منها قالب كاتو...

إنها دائرة النار التي ندخل فيها.. ولا نعرف إذا كنا سنخرج منها.. أم سنتحوّل إلى رماد..

كلُّ كتابة شعرية لا تنطلق من هذه الرؤية الإنتحارية تكون (طقّ حَنَك).. وكل كاتب يخاف على نعومة يديه من جروح المعركة... خير له أن يقعد في بيته، ويمارس الأعمال المنزلية.. كأيّة خادمة سيرلانكية...

نحن لسنا بحاجة إلى (شعراء سيرلانكيين)... يمسحون الأرض.. أو يمسحون كرامتهم وجباههم بالأرض. لقاء مئة دولار أميركي بالشهر..

إنني لستُ ضد العمالة الأجنبية ، فيما يتعلق بقطاع الخدمات . . ولكنني ضدّ العمالة الأجنبية في قطاع الفكر والثقافة .

على الكاتب العربي أن يتوضأ قبل أن يلامس ورقة الكتابة : . وأن يخلع نعليه قبل أن يدخل عليها . .

إن ورقة الكتابة ليست حانة . . ولا ملهى . . ولا مبغى . . ولا سوقاً للأوراق المالية . . ولا مزاداً علنياً للمغامرين والمضاربين . . والرجعيين . . والانتهازيين ، والمرتزقة . . .

إن ورقة الكتابة هي بيت الكاتب . . فإما أن يحوّل هذا البيت إلى بيت عبادة . . أو يحوله إلى بيت دعارة . . .

من هو الكاتب الانتحاري ؟ .

الكاتب الانتحاري هو الذي كان يأخذ في المدرسة صفراً في مادة الحساب . . هو الذي يتزنّر بحزام من المتفجرات . . . وينسف كل أوكار المشعوذين . . والنصّابين . . والشعوبيين . . ويهدم قصور ملوك الطوائف فوق رؤوسهم . . هو الذي يبيع كل ملذّات الدنيا وإغراءاتها بقشرة بصلة . . هو الذي يكتب على قماشة كفنه . . إذا لم يجد دفتراً يكتب عليه . . هو الذي يأتيه بيان حسابه المصرفي . . في آخر كل شهر . . وعليه بالخط الأحمر كلمة (مديون) . . .

وتمنحه وزارة الداخلية جواز سفر جديداً وعليه كلمة (ملعون) . . . ويتلقى في عيد ميلاده ١٥٠ مليون وردة من الشعب

العربي ، وعليها بطاقة بغير توقيـع تقول : (نحبّـك . . نحبّك . . نحبّك . . .) .

هل تعرفون الآن لماذا اخترتُ أن أكون شاعراً انتحارياً . . . لا شاعراً (سيرلانكياً) ؟ . . .

هل تعرفون لماذا اخترتُ الحرية ؟؟؟ .

● العـالم العـربي يمشي على حقـل من الألغـام . وحــرب القبائل على أشدّها ، والغرائز أطفأت قناديل العقل ، والتاريخ في مأزق . . .

فإلى أين يتجه قطار الشعر . . ومن الذي يقوده ؟

ـ قطار الشعر كما قطار السيـاسة ، بـلا قائـد . . . ولا ناظـر محطة . . ولا مفتش للتذاكر . . .

والركاب جميعاً إما مهاجرون . . أو مهجّرون .

إنهم يحملون معهم أطـفــالهــم ، وحقــائـب أحــزانهــم . . ويسـافـرون من محـطة تحتـرق . . إلى محـطة في طـريقهـا إلى الاحتراق . . .

والشعر ، هو أكثـر الركـاب حزنـاً ، لأنه أشـدّهم حساسيّـة ، وأكثرهم قدرة على النبوءة . .

لذلك يجلس الشعر ساكتاً ، وأمامه زجاجـة بيرة سـاخنة . . . وساندويشة مورتاديلا مقدَّدة . . وجريـدة جميع أخبـارها وعنـاوينها مقدَّدة . . .

الشعر يعرف أن الرحلة عبثية . . وأن القطار بلا سائق . . . وأن الوقود شارف على النهاية . . والصبر شارف على النهاية . . وأن المحطة القادمة ربما لاحت بعد خمسين عاماً . . وأن الأطفال الذين ولدوا في القطار . . سوف يتزوجون . . ويشيخون . . وهم في داخل القطار . .

والشعر يعرف أن المسلحين سوف يهاجمون القطار . . ويسرقون مقاعده . . وشبابيكه . . وأساور النساء . . وساعات الرجال . . ويشربون الحليب المتبقي في (بيرونات) الأطفال . . .

ولكن الشاعر لا يستطيع أن يكذب . . ويخترع محطات وهمية . . لذلك يبقى ساكتاً . . وأمامه زجاجة البيرة الساخنة التي صار طعمها كطعم بول البعير . . . .

لا تؤاخذوني إذا استعملت تعابير غير شعرية في وصف القطار . . فرائحة البشر بعد أحد عشر عاماً من السفر الطويل صارت روائح غير بشرية . . وروائح كلماتهم وأفكارهم لم تعد روائح بشرية . . والمسافرون في القطار الملعون ، نسوا ثقافتهم ، ولغتهم ، وحضارتهم وأصبحوا يتحاورون مع بعضهم . . بالزئير . . أو بالنهيق . . أو بالعواء . . .

إنني أدلي بشهادتي هذه باعتباري أحد المسافرين الذي حبستهم الأحداث في قطار الشعر طوال أحد عشر عاماً.

إنني لا أخترع الأحداث والوقائع ، وإنما أسجل مشاهداتي وانطباعاتي يوماً فيوماً ، ولحظةً فلحظةً . . عمّا كان يجري داخل الممرات والمقاصير .

وإذا كان السرد دراماتيكياً وتراجيدياً ، وإذا كان الراوي متوتر الأعصاب ، فلأن قطار الشعر العربي لم يكن قطاراً سماوياً يمشي فوق الغيم والكواكب . . وإنما كان قطاراً يحمل في أحشائه ملايين المعذبين في الأرض ، ويبحث عن محطة للحرية يتوقف فيها . . وعن أرض للحب والعدل والديمقراطية يتجه إليها . .

قطار الشعر العربي تعرض لأكثر من حادثة سطو . . وأكثر من عملية تفتيش . . وأكثر من عملية غزو . . ولم يتورع قاطعو الطريق من سرقة عجلاته . . والصفّارة التي ينفث بها دخان أحزانه . . .

وباختصار . . إن قطار الشعر العربي دخل إلى الكاراج . . . وهو بحاجة إلى أكثر من قطعة غيار . . .

ولكن وزارات الاقتصاد والتخطيط في البلاد العربية ألغت كل إجازات الاستيراد المتعلقة بقطع غيارات القطارات . . والسيارات . . . والدراجات . . والكلمات . . والأغنيات . . والفراشات . . . وكل ما يمكن أن يقفز . . أو يطير . . أو يسافر . . .

فسفر القطارات ، وسفر الكلمات ، فيهما هدر للعملة الصعبة ، واستنزاف للثروة القومية .

والله المعين على ما تصفون . . .

● إذن فالشعر في نظرك في مأزق .

ـ ليس الشعر وحده في مأزق . بل الثقافة كلها في مأزق . . والعقل العربي على وجه الخصوص في مأزق كبير .

لا يمكن فصل الشعر عن إطاره التاريخي ، والسياسي ، والاجتماعي ، والحضاري . فهو نتيجة ومحصّلة ، وليس جزيرة معزولة عن محيطه الكبير .

العالم العربي ، يمرّ في حالة جنون ، وفوضى ، وتشرذم ، وضياع لا شبيه لها . فكيف يمكن أن نطلب من الشعر أن يكون جميلاً في مهرجان من القبح .. وأن يكون قديساً .. في غابة من الشياطين ... وأن يكون صادقاً بين طوابير من الكاذبين ... وأن يكون مؤمناً بين جيوش من الكافرين .. وقومياً .. في مستنقع من الشعوبيين ...

لكن الناس لا يعترفون بكل هذه الإحباطات والمعوقات ، ولا يقبلون من الشاعر أي عذرٍ سواء كان عذراً صحيحاً أو عذراً عائلياً . فهم يعتبرونه المحارب والقائد .. الذي لا يستطيع أن ينسحب من المعركة ... أو أن يستقيل من دور البطولة الذي أسندته الجماهير إليه ...

ويذهب آخرون إلى أن الشاعر هو المخلّص الذي لا بد أن يموت على صليب الشعر من أجل إنقاذ البشرية .

وأنا في أعماقي أتعاطف مع الموقف الأخير ...

● **أيّ الميتتين في نظرك أروع . الموت على صدر قصيدة .. أم الموت على صدر امرأة ؟؟ .**

- طبعاً .. الموت على صدر قصيدة .. لأنه أكثر طمأنينة ، وأكثر ديمومة .. مع الاعتذار من جميع نساء العالم .

● لو طلب منك أن تُعرِّف نزار قباني . شاعراً وإنساناً فماذا تقول ؟

- في كتابي (قصّتي مع الشعر) الذي سجلت فيه سيرتي الذاتية قلت إن علاماتي الفارقة الثلاث هي الطفولة ، والثورة ، والجنون . . . .

ومهما يكن فإن تعريف الشاعر مهمة مستحيلة . . لأنه (حالة) متحركة . . وليس مسماراً مدقوقاً في الحائط . . .

● يقول الجاحظ : « إن الشعر فضيلة العرب » . هل ما زال كذلك . . أم أن لديك رأياً آخر ؟

- لو قدّر للجاحظ أن يعيش في عام ١٩٨٥ ، ويقرأ شعر هذه الأيام ، ويتعرَّف على شعراء هذه الأيام معرفة شخصية . . لتراجع عن رأيه . . .

وأعتقد أن الجاحظ كان يقصد بكلمة الفضيلة . . القيمة . وأن الشعراء هم حفظة القيم الكبرى ، وأن الشعر هو موقف أخلاقي من النفس ومن الآخرين . . .

فهل تنطبق هذه الصورة الجميلة التي رسمها الجاحظ على سلوك بعض شعرائنا ومناقبيتهم ، ومواقفهم إزاء بعضهم ؟ . .

بكل أسف أقول إن شعراء العصر العباسي الذين عناهم الجاحظ كانوا أكثر طهراً . . فقد كانوا ينتقدون القصيدة نقداً منهجياً . . . دون أن ينهشوا لحم صاحب القصيدة ، ويتهموه بالجاسوسية والعمالة والقبض من وكالة الاستخبارات المركزية .

هذا كلام العاجزين والمعقّدين والضعفاء . . لأن الشاعر الواثق بنفسه ومن أداته الشعرية . . لا ينزل إلى هذا المستوى الشارعي في نقد الشعر .

● قلت على أثر ردود الفعل حول قصيدتك (خبز وحشيش وقمر) أن « العمائم نفسها التي طالبت بشنق جدك الرائد المسرحي أبي خليل القباني طالبت بشنقي . والذقون المحشوة بغبار التاريخ التي طلبت رأسه طلبت رأسي » .

هل تحدثنا عن هذه المعركة الشهيرة ، والمعارك الأخرى الهامة في حياتك الأدبية . ولا سيما المعركة الأخيرة مع بعض الأدباء والصحافيين المصريين ؟

ـ لا أدري لماذا كتب الله عليَّ أن أخرج من معركة شعرية لأدخل في معركة شعرية أخرى . هل هذه هي طبيعة الشعر ؟ أم هي طبيعة الشاعر الذي يرفض أن يكون مغنياً في الكورس الجماعي . . ورأساً بين رؤوس الماعز .

منذ عام ١٩٤٤ ، حين نشرت مجموعتي الشعرية الأولى ، بدأ صدامي مع الرجعيّات . . والرجعيّات في العالم العربي أكثر من الهمّ على القلب . . فهناك رجعية دينية . . وهناك رجعية ثقافية . . وهناك رجعية سياسية . . وهناك رجعية نفطية . . ولا أدري لماذا اختارتني هذه الرجعيّات دون سواي من الشعراء لتصفّي حسابها معي . .

لم تبق تهمة كبيرة لم تلصق بي . . إبتداءً من الانحلال ، إلى الزندقة، إلى التعهّر، إلى الإباحية ، إلى قلة الأدب . . إلى إفساد

أخلاق الشباب العربي . . . وانتهاءً بالتآمر على الوطن ، والخيانة العظمى . .

وقد وصل الأمر ببعضهم أن اعتبرني المسؤول الأول عن هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، كأنني أنا الذي كنتُ أقود المعركة من غرفة العمليات .

الرجعيَّة الدمشقية عام ١٩٥٤ التي كانت لا تعرف من الشعر غير شعر السلف الصالح . . لم تكن على استعداد لسماع شعر هذا الولد الطالح والبودليري الصوت . . الذي هو أنا . . .

حملوا الفؤوس . . والبلطات . . وحبال الشنق . . وأرادوا أن يشنقوني في (ساحة الشهداء) في دمشق . . لأنني هاجمت هذا المجتمع المسطول الذي يؤمن بالتواشيح . . وضوء القمر . . وأكل القضامة . . وقرقشة بذور البطيخ . والتمسك بالحصول على أربع زوجات . . . من سن الأربع عشرة وما تحت . . عملاً بأصول الدين الحنيف . . والتوقف عن إنجاز أي عمل بانتظار يوم القيامة . .

في تلك الأيام ، وفي مدينة محافظة مثل دمشق . . كان مثل هذا الكلام كبيراً . . وكبيراً جداً . . . ومن حسن حظي أنني كنتُ عند نشر القصيدة أعمل دبلوماسياً في لندن . . . ولو كنتُ في دمشق لربطوني بسيارة أجرة . . وجرجروا جثتي في الطرقات . .

ورغم الخوف العظيم الذي اعتراني ، وأنا أتصور نفسي مشنوقاً في إحدى ساحات دمشق . . فقد تولّد عندي إحساس باطني (بالتحرُّش) . . بكل الأشياء (الأنتيكا) . . وبكل الأفكار

(الأنتيكـا) . . وبكل الـرجال التـاريخيين المحفوظين في متحف التقاليد الشعبية . . . تحت طبقة سميكة من (النافتالين) . . .

رغبـة التحرّش هـذه ، أدخلتني في ألف ورطـة وورطـة . . . وجعلت كـل قصيدة أنشـرها مـدانة سلفـاً . . . وجعلت (صـوفتي حمراء) عند أكثـر الرقـابات العـربية . . . حتى أنني حين أدخـل مجتمعاً ، ويريدون أن يعرّفوا بي يقولـون : « هذا الـذي فصّل من جلد النسـاء عبـاءةً . . . . » إشـارة إلى بيت من أبيـات قصيـدتي (الرسم بالكلمات) . . .

ويبدو لي أنني أصبحت (شاعر الفضيحة) على صعيد الحب والسيـاسة جميعـاً . . وانني سوف أظـل ملاحقـاً ومتّهمـاً ، سـواء كتبت . . أم لم أكتب . .

أما الإخوة المصريون ، فقد قامت قيامتهم عليَّ ، لأنني قلت إن الثقافة في مصر ، بعد عصر العمالقة ، أصبحت في يد أحمـد عدوية ! ! !

لقد قال أستاذنا توفيق الحكيم عن الثقافـة المصريـة في عصر الانفتاح أكثر مما قاله مالك في الخمر . . . مؤكداً أن القيم الثقافية في مصر، أصبحت في يد (السبّاكين) . . وأن راقصة واحدة في شـارع الهرم تجبي من فلوس (النقـوط) في ليلة واحدة أكثـر مما يدخل على تـوفيق الحكيم ونجيب محفوظ من حقـوق التأليف في ٢٥ سنة . . .

هذا الكلام أقسى بألف مرة من كلامي ، ولكن الوسط الثقافي في مصر ترك توفيق الحكيم ، واستلمني أنا . . لأن توفيق الحكيم

هو ابن البلد ، وابن البلد له حصانة دبلوماسية ككل السفراء .

والغريب أن اخوتنا في مصر ، يسمحون لأنفسهم أن يقولوا عن ثقافتهم ، ما لم يقله مالك في الخمر .. في حين لا يسمح (للغرباء) أمثالنا .. أن يقدّموا مداخلةً صغيرة في موضوع الثقافة المصرية .. فهل الحقيقة داخل روما .. هي غير الحقيقة خارجها ؟

وأريد أن أسأل : متى كان ممنوعاً على المثقفين المصريين أن يناقشوا الشأن الثقافي العربي ، وينتقدوه ؟

أليس العالم العربي ، وحدة ثقافية متكاملة ؟ أم أن الإخوة المصريين لهم رأي آخر ؟

إن الهبوط الثقافي ليس وقفاً على مصر وحدها . فالعالم العربي كله يمر في حالة هبوط ثقافية ، وسياسية ، وقومية ، لا وصف لها .

فلماذا خرج الزملاء في القاهرة على موضوعيتهم ، وهم الذين أشبعوا الانفتاح الثقافي في مصر ، كتابةً .. ورسماً .. وكاريكاتوراً .. ونكتة .. حتى سقط مضرّجاً بدمائه ...

ثم إنني حين أتحدث عن جيل العمالقة ، طه حسين ، والعقاد ، والمازني ، والحكيم ، فإنني لا أقفل الباب في وجه الجيل الثاني والثالث من الأدباء والصحافيين والمفكرين الكبار ، كنجيب محفوظ ، ويوسف ادريس ، والدكتور زكي نجيب محمود ، والدكتورة بنت الشاطيء ، وكامل الشناوي ، وخالد محمد خالد ، ولويس عوض ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، ومحمد

حسنين هيكل ، وأحمد بهاء الدين ، ولطفي الخولي ، ومحمود السعدني ، وصلاح عبد الصبور ، وأحمد عبد المعطي حجازي ، ورجاء النقاش ، وأمل دنقل ، وصلاح جاهين ، وأحمد فؤاد نجم ، وعبد الرحمن الأبنودي . . وغيرهم . . وغيرهم من قائمة المبدعين والمفكرين .

نحن نعرف أن مصر هي (أمُّ الدنيا) ، وهي تعرف أننا نحبها (قدّ الدنيا) . . ولكننا نرجو من أصدقائنا المصريين أن لا يبالغوا في النرجسية وعبادة الذات ، لأن فرض (الأستذة) بالإكراه ، ليس من أخلاق العلماء والمثقفين . .

فشمس الإبداع قد تطلع مرةً من القاهرة . . ومرةً من بلاد الشام . . ومرةً من بلاد ما بين النهرين . .

وليس ضرورياً ولا مستحباً ، أن نقول إن شمس الإبداع هي مصرية ، أو سورية ، أو لبنانية ، أو عراقية ، أو فلسطينية ، أو جزائرية . .

فهذا الكلام الفئوي والإقليمي تجاوزه الزمن . . كما تجاوزه الفكر العربي الوحدوي .

● نزار الحقيقي ، أين يلتقي وأين يختلف مع نزار قباني الشاعر ؟

ـ الحق مطلب من مطالب الشعر . وكذلك الحقيقة . وإذا كنت قد تعلمت في كلية الحقوق كيف أدافع عن قطاع صغير من الناس ، فقد علمني الشعر أن أكون محامي الإنسانية كلها .

المحـامي يتولى عـادة الدفـاع عن عشرة. . أو عشـرين. . أو خمسين مظلوماً. . في مدينته، أو قريته، أو حارته. . أمـا الشاعـر فيضـع نفسه تحت تصـرف المظلومين بصـرف النظر عن لـونهم، وجنسهم، وجنسيتهم، وديانتهم، وطائفتهم، ولغتهم.

إنه يطارد الـظلم الواقـع على الإنسان في أي زاويـة من زوايا الأرض . .

وفي حين يدرس المحامي في الليلة ملفّاً واحداً . .
فإن الشاعر يدرس في قصيدة واحدة ملفّ البشرية كلها.

● **ما هي سلبيّات عملك في السلك الدبلوماسي، وايجابياته؟**

ـ سلبيات عملي في السلك الدبلوماسي هي أنه حـولني الى قميص منشّى. . وفكر منشّى. . وعقل منشّى. . وحذاء لمّاع. .

الـدبلومـاسيــة وضعت على رأسي قبعـة من قبعــات العصـر الفيكتوري. . وأخذت طفولتي. . وشيطنتي. . وسراويلي القصيرة.

في الدبلوماسية كنت مثل تلميـذ معاقب مـطلوب منه أن يقف ٢١ سنة على قدم واحدة. . .

وعندما استقلت من الدبلوماسية عام ١٩٦٦، بقيت منقوعاً في البانيو الساخن شهراً كاملًا. . لأتخلص من خَدَر رجلي. . وأعطيت قبعة الملكة فيكتوريا الى أولادي، فوضعوا فيها قطة البيت الحبلى وحولوها الى مستشفى ولادة. . .

أما إيجابيات العمل الدبلوماسي، فهي أنه أعطاني تذكرة سفر حـول العالم. . . وكـاميرا تصـوير. . وألف فيلم ملون. . وحقيبـة ملأى بالدفاتر والأقلام. . وطلب مني أن لا أعـود إلا وقد صـورت

القارات الخمس.. وملأت جميع الدفاتر التي أعطاني إياها...

وشهد الله انني لم أضيع وقتي، فكنت في الصين صينياً، وفي إسبانيا إسبانياً، وفي لندن انكليزياً.. وفي تايلاند تايلاندياً.. وفي الهند كنت مهراجا هندياً...

وعندما عدتُ من رحلتي الطويلة التي استغرقت عشرين عاماً، حمضّت الأفلام التي التقطتها.. ونقلتُ الملاحظات التي سجلتُها.. والقصائد التي كتبتها.. وتأكّدت، وأنا أقلّب أوراقي، وأتأمل مجموعة العصافير، والأسماك، والغزلان، التي اصطدتُها، أن ثقافة الرحيل هي أهمّ الثقافات...

● بعد أربعين سنة من النضال الشعري، كيف يقوّم نزار قباني تجربته؟

- مثلما (أمّم) عبد الناصر قنال السويس.. أمّمت أنا قصيدة الشعر. ومثلما أنهى حكم الباشاوات على الأرض.. أنهيت أنا حكم النظّامين، والنجّارين، وشعراء الأضرحة والجنائز والكتاتيب...

كسرتُ طبقيّة الشعر.. وأعلنت الشعر (جمهورية شعبية ديمقراطية) ووضعت جميع الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتبرون الشعر أملاكا خصوصية لهم.. في السجن...

أزلتُ الكلفة بين الفرزدق ورامبو. فجعلتُ الفرزدق يشرب نبيذ بوردو.. وجعلت رامبو يشرب العرق الزحلاوي.. ويأكل (التبّولة) و (الكبّة النية).. أزلت جدار الخوف بين الشعر والناس، وأنهيت غلاظة القواميس، ولعبت مع الأطفال بكرة الشعر، وشربت

معهم البيبسي كولا.. وفتحت للعصافير مدرسة صيفية لتعليم فن الشعر. فتخرجت في أوائل تشرين وهي تحمل دكتوراه في الشعر..

صممتُ على دخول منازل وخيام وأكواخ ١٥٠ مليون عربي.. ودخلتها.. جلستُ معهم على الأرض بكل بساطة. شاركتهم الخبز.. والقهوة.. والحزن.. والفرح.. والحرية.. وأهديت للنساء دواوين شعري، فأصبحت عيونهنّ خضراء.. وبنفسجية...

خلّصت اللغة العربية من البروتوكولات.. والرسميّات.. وجعلتُها تلبس (الشورت).. وتركب الدرّاجة...

آخر انتصاراتي في بيروت أن كل سائق سيارة (سرفيس) يطلب من ركابه أن يسمعوا شريطاً يضم آخر قصائدي...

هذه حادثة شعرية لا تحدث في لندن.. ولا في باريس.. ولا في نيويورك.. ولكنها تحدث في بيروت.. بارك الله ببيروت.. وأعاد اليها ابتسامتها الضائعة...

● ذات يوم حاولت الصحافة أن تسرقك من الشعر.. حدثنا عن هذه التجربة. هل تعتقد أن الصحافة تغتال الشعر، أم تعتقد أن الصحافة والشعر يكملان بعضهما؟.

ـ الصحافة حوت كبير.. والشعر سمكة صغيرة.. وبكل صراحة أقول لك إن الإقامة في بطن الحوت، ليست سعيدة ولا مريحة..

والحيتان على أنواع. ففيها الحوت الشاطر، وفيها الحوت الماكر، وفيها الحوت التاجر.. وفيها الحوت المثقف.. وفيها

الحـوت الأمّي.. وفيهـا الحـوت النفـطيّ.. ورغم تعـدد أنـواع الحيتان، فإنها تلتقي في شهوة الإفتراس...

وعندما خرجتُ من بطن الحوت... واستعدتُ حرية السباحة في المحيط الكبير.. تأكّدت أن الشاعر يجب أن يبقى طليقاً، وحراً في تفكيره وحركته ومواقفه، لأن الصحافة مهّما كـانت اغراءاتهـا، هي نوع من الاعتقال والارتهان..

لا شـك أن الصحـافـة، بمـا تملك من امكـانيـات الانتشـار السريع، تستطيع أن تطرح الشاعر طرحاً أسبوعياً أو يومياً...

ولكن هـل هذا الـظهور اليـومي أو الأسبوعي هـو في مصلحة الشاعر؟ لا أعتقد. فالظهور المتصل، يفقد الشاعر تألّقه وبـريقه ويحوله إلى إعلان مبوّب...

إن الشاعر الذكي هو الذي يعرف أين يظهر.. ومتى يظهر.. ومتى يغيب.. ومتى يحضر..

عليـه أن يبقى محتفظاً بسـريّته، وأن يتـرك النـاس في حـالـة الدهشة والتوقّع، وأن يبقى دائماً في المنطقة الموجودة بين الضوء وبين العتمة...

أما الظهور بمناسبة أو بغير منـاسبة، فـإنه يحـوله الى عـارضة أزياء.. أو مسحوق للغسيل...

● نزار قباني بعد بلقيس زوجة وقصيدة. الى أية امـرأة وأية رؤيا يطمح؟

ـ مطامحي شعرية وليست نسائية. لا وجود للمـرأة عندي إلا

بمقدار ما تعطي من شعر، أو تتّحد برؤاي وطموحاتي الشعرية.

لا تنفع معي أية امرأة ـ مهما كانت جميلة ـ إذا لم تدخُل عليّ دخول القصيدة.. ولم تكن مغتسلة بالشعر من رأسها حتى أصابع قدميها..

الشعر يأتي أولاً في نظام الأولويّات عندي.. ثم تأتي المرأة في حاشيته الملكية..

لا أستطيع أن أحدّد من هي المرأة ـ الشعر. ولكنني أعتقد انها الذّرة التي تنشطر بين يديك الى ملايين الذّرات.. والمرأة التي تتحول وأنت جالس معها الى ملايين النساء.. والقصيدة التي تحاول ان تُكملها.. ولكنها تمنعك من كتابة البيت الأخير.

هي المرأة التي تسافر معها الى القمر.. ومن هناك تبعث باستقالتك الى الأرض.

هي المرأة التي تلتصق بك كالقِطّة المنزلية الأليفة، عشرة ملايين سنة.. وعندما تطلب منك الإذن بالذهاب.. تطلب اليها تمديد اقامتها..

هي التي من كثرة أسمائها، لا أعرف ماذا أسمّيها...

● نزار قباني، شاعر سياسي في حديثه عن المرأة. وليست الدعوة الى تحريرها إلا من قبيل الرغبة الجامحة في تحرير الوطن. ما وجه العلاقة بين جسد المرأة، وجسد الوطن؟

ـ الجسدان واقعان تحت الاستعمار، ويعانيان القهر والقمع والابتزاز.

جسد المرأة محاصر منذ آلاف السنين حصاراً طروادياً رهيباً، والرجل يتعامل مع هذا الجسد، كما يتعامل إقطاعيو القرون الوسطى مع الأرض. فهو السيِّد، المالك، المطلق التصرف، الذي يحمل وكالة عامة ببيع المرأة، وشرائها، واستثمارها، وتشغيلها، والزواج منها دون موافقتها . . وطلاقها دون موافقتها . . ومنعها من تعلم القراءة والكتابة ، ومن السفر ، ومن ممارسة حقها الانتخابي . . ومن مغادرة (بيت الطاعة) .

وجسد الوطن، هو الآخر، يتحرر من اعتقال قديم ليدخل في اعتقال جديد، ويتخلص من كرباج الأجنبي، ليتلقى ضربات الكرباج الوطني . .

الوطن ملازم بيته، فهو لا يتردد على المقهى، ولا يعلّق على خبر في جريدة، ولا يجيب على التلفون . . ولا يكتب رسالة . .

الوطن نسي غريزة الكلام، بعد أن حولوه الى حيوان غير ناطق . .

إذن ، فجسد المرأة وجسد الوطن لهما قضية واحدة، وعليهما أن يعلنا الثورة معاً . . وأن يحطّما أبواب معتقلهما معاً . . .

● تعود من حين لآخر الى القصيدة العمودية، كيف تفسّر عودتك إلى الأصول ، وأنت شاعر انقلابي ؟

ـ ومن قال لك إن الانقلاب ليس له أصول. إن الانقلابي الذي لا يحمل في رأسه مخططاً، يتحول الى قاطع طريق . . أو رئيس عصابة.

كل عمل انقلابي يجب ان يكون وراءه برنامج عمل، ورؤية، سواء كان الانقلاب سياسياً، أو عسكرياً، أو شعرياً.

إن القصيدة العمودية بالنسبة لي هي خيار من بين الخيارات. وهي لا تأخذ عندي صفة الجبر والإلزام. وانما هي محطة اختيارية أقف عليها، أو لا أقف عليها، حسب مشيئتي.

● نزار قباني، الحريص على الموسيقى في الشعر، لجأ في بعض دواوينه الى قصيدة النثر. ضارباً بعرض الحائط التفعيلة، والعروض والأعاريض. كيف تفسر لنا ذلك؟ وهل قصيدة النثر هي ابنة شرعية للتراث، أم أنها نتاج غربي جملةً وتفصيلاً.

- موسيقى الشعر ليست محصورة في الستة عشر بحراً التي بوّبها ونسّقها الخليل بن احمد الفراهيدي. موسيقى الشعر أوسع وأشمل من هذا بكثير. فعلم العروض الذي درسناه في المرحلة الثانوية، ليس سوى قطرةٍ صغيرة في المحيط الكبير الذي هو الموسيقى. قد تكون قصيدة النثر خالية من النظام الموسيقي الذي ألفناه في القصيدة العربية.. ولكنها ليست خالية من الموسيقى بشكلها المطلق.

انني لا أعتقد ان قصيدة النثر هي نتاج غربي، ففي القرآن الكريم تشكيلات نثرية تتفوق على أي نص شعري، كما في سورة مريم، وسورة الرحمن. وقصار السور.

فلنترك للشاعر حرية البحث عن صياغات وتشكيلات جديدة، لأن في اللغة العربية امكانيات جمالية وميلودية لا حصر لها.

إنني ضدّ أي شكل شعري يتحول الى وثن. . فالأشكال لا تخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي يخلق أشكاله.

فلنعط الفرصة لقصيدة النثر كي تجرّب حظها. . فإذا نجحت أخذت مكانها في تاريخ الشعر العربي. . وإذا فشلت فسوف يستمر البحث عن الجديد، ولن يتوقف الشعر العربي عن مغامراته وطموحاته.

● الحداثة هاجس كل المبدعين في محيطنا العربي . إلى أية حداثة تنتمي . وأين تتفق أو تختلف مع حداثة الآخرين ؟

- في خضم (الحداثات) العربية التي صارت أكثر من الهمّ على القلب . . أفضل أن أنتمي لحداثتي الخصوصية .

فأنا لا أريد أن أفجّر اللغة . . ولا أن أبول على التراث . . . ولا أن أشنق المتنبي لأنه أصبح (دقّة قديمة) . . ولا أريد أن أتبع الموضة الشعرية لعام ١٩٨٦ التي تقتضي أن يكون الفاعل منصوباً . . والمفعول به مرفوعاً . . ولا أريد أن أترك فندق التاريخ . . حتى لا أنام في الشارع .

أريد أن أصل إلى المستقبل ، دون أن أبصق على الماضي . .

وأريد أن أتشكل في رحم الأصولية ، كما تتشكل اللؤلؤة في داخل المحارة .

وأريد أن أستلم الحكم في جمهورية الشعر . . دون أن أقتل أحداً من الشعراء القدامى ، أو المعاصرين . .

وأريد أن أجعل الشعر رغيفاً يأكله الجائعون ، وثوباً يلبسه

المحرومون ، وجزيرةً يلتجيء إليها الخائفون . .

ولأن حداثتي ديمقراطية وشعبية وبعيدة عن البروتوكولات والفكر الاستعراضي . . فإنني أتفاهم بسهولة مع العشب ، والأرانب البريّة ، والأطفال .

● كيف يتعامل شاعرنا مع الجمال الأنثوي الباهر ؟

ـ كما تتعامل الفراشة مع الشمعة . . . .

● لماذا يفضل نزار قباني الليل على النهار ؟

ـ حتى أتفرغ لعيون فاطمة . . . .

● باعتقادك لماذا خسر العالم الحديث إحساسه بالحب ؟ . . . .

ـ لأنه حمار . . . .

● لو قابلت امرأةً جنوبية ، ماذا تقول لها ؟

ـ أقبّل يديها من الوجه والقفا . . وأقول لها : شكراً يا أمّي . . .

● هل تستطيع اللغة العربية الحديثة أن تساير الحضارة الحديثة بكل متفرّعاتها وتفاصيلها ؟

ـ بكل تأكيد تستطيع . . إذا كان وراءها عقل لغوي حديث ومتطوّر .

وأحبّ أن أذكّرك بهذه المناسبة ، أن كلية الطب في جامعة دمشق ما زالت تدرّس الطب باللغة العربية منذ ثلاثين سنة ، بنجاح كبير . .

ثم إن اليابانيين دخلوا عالم الألكترونات باللغة اليابانية . . ولم يستعيروا لغةً أخرى . .

● كيف تتصور وضع المرأة الأكثر ملاءمة للحضارة ؟

- تواجه المرأة حضارة اليوم بالعقل ، والحرية ، والمسؤولية . فبالعقل تعيد اعتبارها ككائن بشري ، وتصحح وضعها الإنساني .

وبالحرية ، تخرج من قانون الرقّ والتبعية ، ومن تسلّط الذكور على جسدها ، وفكرها ، وقراراتها .

وبالمسؤولية ، تتعادل مع الرجل في الحقوق والواجبات ، وتصير امرأة نافعة . . لا امرأة جميلة فقط . .

● نزار قباني فقد ابنه الشاب ، وزوجته التي أحبّ . فكان كبيراً في ألمه . ماذا علّمك الحزن ؟

- عندما رحلت بلقيس جاءتني من الموسيقار محمد عبد الوهاب برقية قصيرة جداً ، تتضمن بيت شعر لأمير الشعراء شوقي يقول « وأنبغُ ما في الحياة الألم » .

أي أن الحزن هو الذي يصنع الإبداع ، أما الفرح فهو سطحي وعاقر .

إن أروع الآثار العالمية ، من شعر ، ورواية ، وتصوير ، وموسيقى ، نضجت وتخمّرت في رحم الحزن .

لذلك أعتبر الحزن معلمي وصانعي ، في حين أنا معلم الفرح وصانعه . .

● الشعر يعيش حالة انحسار ، لكنك تبقى الأكثر رواجاً . من أين تستمد هذه الجماهيرية التي يفتقر إليها معظم شعرائنا الحديثين ؟

ـ أنا الأكثر رواجاً . . لأنني الأكثر صدقاً . . والأكثر براءة . . والأكثر طفولة من جميع زملائي . .

أنا لم أخاطب الناس من بلكونة بيتي في الطابق الخامس . . وإنما نزلتُ إليهم . . وسلّمت عليهم ، وسألت عن أحوالهم وأحوال أولادهم . . ووزعت عليهم مجموعة من كتبي وعليها توقيعي .

إن محبة الناس هي مهنتي . . ولا أعتقد أن العجرفة والعنطزة الثقافية الفارغة . . وكتابة الفوازير والكلمات المتقاطعة توصل الشاعر إلى أي مكان . . .

● سمُّوك شاعر المرأة . عن أية امرأة كتبت . . وماذا قدمت لها على صعيد تحررها ؟ .

ـ هذا سؤال تطرحه على المرأة . . فإذا كانت لك حبيبة فاسألها ماذا قدّمت لها . . .

إنني أقول ـ بغير غرور ـ إنني موجود في كل كافيتريا يلتقي بها رجل عربي بامرأة عربية . .

● يرى بعض الذين لا أوافقهم في الرأي طبعاً ، أن نزار قباني يتحدث عن طبقة معينة من النساء المرفّهات والبورجوازيات. وينسى أو يتناسى النساء الكادحات المجرّحات الأيدي بأشواك الحياة . . ماذا تقول ؟

ـ إنني لا أخترع نسواناً من عندي . إنني أكتب عمن أعرف .

ولكنني أؤكد لك أن كـل النساء اللواتي كتبت عنهن هن من نسـاء الطبقة الوسطى . . ولسن من آل هابسبورغ . . أو آل ميديسي . . أو من حفيدات قيصر روسيا . . .

● **أليست الدعوة إلى تحرير المرأة من باب الجنس فقط دعوة ناقصة ، وبحاجة إلى إعادة نظر ؟**

ـ الجنس هـو عقـدة الأفـاعي في المجتمـع العـربي ، وهـو أساس صداعنا المزمن . .

وأنـا أعتقد ـ وربمـا كنت على خطأ ـ أن ثـورة الجـائعين إلى الخبز ، يجب أن تكون متزامنة مع ثورة الجائعين إلى الجنس .

● **يـلاحظ أنك انصـرفت انصـرافـاً شبـه نهـائي إلى الشعـر السياسي . كأن المأساة التي نعيش جعلتك أكثر التصاقاً بالواقع . فهل هذا الخيار إرادي أم غير إرادي ؟ ولماذا غيّرت مسارك ؟**

ـ لا يُسأل الموجود في داخل البحر ، لماذا هو مبلّل ، وهل صراعه مع الأمواج إرادي أم غير إرادي .

إن السياسة امتصّت كل كمية الأوكسيجين الموجودة في فضاء العالم العربي . والكاتب مضطر أن يتنفس الهواء الذي يحيط به ، رغم إرتفاع نسبة ثاني أوكسيد الكاربون فيه ، وإلا مات اختناقاً .

أما عن الواقع ، فأنا أكثر الشعراء التصاقاً بواقعي ، سواء كان هذا الواقع عاطفياً أو سياسياً .

ولو لم أكن ملتصقاً بواقعي ، لاختفيت من خريـطة الشعر من زمان بعيد .

● المقاومة الوطنية اللبنانية غيرت مفاهيم ، زعزعت قيماً ، وزرعت مفاهيم وقيماً جديدة ، وعرّت الأنظمة ، ورسخت أهمية قدرة الجماهير في عملية التغيير . ما هو موقف شاعرنا الكبير منها ، كيف تعامل معها ، وماذا باستطاعته أن يقدم لها ؟

- المقاومة الجنوبية هي قيامتنا . هي ولادتنا . . هي ليلة قدرنا .

قبلها ، كنا ١٥٠ مليوناً من المعاقين . . ننام في قاووش واحد . . ونأكل في قاووش واحد . . ونقضي حاجتنا في قاووش واحد . .

الشعر كان أيضاً معاقاً قبل المقاومة الجنوبية ، وكانت الثقافة هي ثقافة الثرثرة . . و (طقّ الحنك) . . . والكافيتريات .

أنا شخصياً كنتُ أعيش كغابرييل ماركيز في (مئة عام من العزلة) . . وفجأة انفتحت أمامي (بوّابة النهار) فخرجت لأكتب (السمفونية الجنوبية الخامسة) . .

طبعاً أنا لا أدعي أنني بقصيدتي (السمفونية الجنوبية الخامسة) قد فتحت القسطنطينية . . ولكنني قدمت دفعةً على الحساب . . من دين المقاومة الجنوبية علينا . .

● لو ترك السؤال الأخير لنزار قباني ، فماذا يقول ؟

- أقول إنني أحلم أن ألفّ جسدي بحزامٍ من القصائد ـ على طريقة الإنتحاريين الجنوبيين ـ وأهدم أسوار المدن التي يسكنها ملوك الطوائف . . .

٢٠ أيار (مايو) ١٩٨٥

نزار قباني . .
يدفن زمان الوصل بالأندلس(*) . .

(*) حوار مع الأستاذ ياسين رفاعية ـ جريدة النهار ـ بيروت ـ بتاريخ ١٧/٣/١٩٨٨ .

● بين مدينة وأخرى، حيث لا تهدأ عن الترحال. هل تبحث عن بديل لبيروت؟

- لا بديل لبيروت سوى بيروت. كما لا بديل لامرأة نحبّها سوى هي.. إنني لا أتعاطى البدائل في المدن والنساء.. ولا أؤمن باستعمال مدينتي المفضلة، أو حبيبتي المفضلة كدولاب احتياط. هذا يجري في أسواق العقارات والسندات وأسواق العملة.. ولكنه لا يجري أبداً في حالات الحب الكبير.. والانتماء الكبير.

بيروت هي انتماء شعري كبير.. فإذا احترقت.. أو تهدمت.. أو سقطت، فهذا لا يعني سقوط الانتماء..

● قلت لي مرة، انك تحاول أن تطلب رقم هاتفك في بيروت، مع أنك تعرف أن لا أحد في البيت.. بماذا تفسر هذا العَبَث الصبياني.. ومع من تريد أن تتكلم؟

- ما تسمّيه عبثاً صبيانياً، ليس سوى محاولة لتأكيد ذاتي، وتأكيد بيروت معاً. ليس صاموئيل بيكيت وحده هو الذي ينتظر (غودو).. كل واحد منا، بشكل أو بآخر، ينتظر غودو.. الذي يأتي ولا يأتي..

أمّا مع من أتكلّم.. فلا ضرورة أن يكون هناك شخصٌ أتكلم معه.. قد يتكلم الانسان مع شجرة.. أو مع جدار.. أو مع خزانة ثياب.. أو مع ألبوم صور.. أو مع ملقط شعر.. أو مع حَلَق يبحث عن أُذُنيْ صاحبته المسافرة...

أهمّ ما في المجانين هو قدرتهم الخارقة، على اقامة حوارات مع الحيطان. وأجمل ما في الشعر الجاهلي أنه كان يحوّل الحصاة الى جدول ماء... وذرة الرمل الى فردوس أخضر... ورَوْث البعير الى عطر يزاحم عطور شانيل وكريستيان ديور..

يمكنك بكل سهولة أن تعتقل انساناً.. ولكن من المستحيل أن تعتقل حُلُماً.

● إذن.. لماذا تركت بيروت؟.

- تركتُها.. لأشتاقَ اليها أكثر.. لأحبَّها أكثر.. لأستحضرها كما يستحضر الصوفيُّ وجه الله...

العالمون بشؤون العشق.. وفقهاء الغرام، يعرفون أن الحبيب الأكثر ابتعاداً هو الأكثر اقتراباً.. وأن الشفة الأكثر تمنُّعاً.. هي الشفة الأكثر تساهلاً.. وان المرأة التي لا تسمح لك بلمس إصبعها.. هي التي تنجب منك في شهر واحد عشرة أولاد...

● نحن نعرف أنهم يذبحون بيروت.. ولا نملك أمام هذا الذبح وسيلة للدفاع عنها لا أنت.. ولا أنا.. ولا كلّ الشعراء شكّلوا (ميليشيا) للدفاع عنها.. ولكن أليس من وسيلة أخرى نرفع بها السكّين عن عنقها؟

- هـل سمعتَ عن وردةٍ تنخرط في ميليشيـا؟. . أو عن قمـر يلبس المـلابس المُرقّـطَة ؟ أم هـل سمعت عن قصيـدة تقف على حاجز مسلّح . . وتخطف الناس ؟

ليست وظيفة الشعر أن يتحوّل الى قاطع طريق. . أو ان يصبح عضواً في تنظيم مسلّح. وظيفـة الشعر أن يكـون عضواً في حـزب الياسمين. . . أن يكون مع الجمال ضد القبح، ومـع الشمس ضد العتمة، ومع الحب ضد الكراهية. . . ومع الـوردة ضد القنفـذ. . ومع العافية ضد الطاعون. . ومع الطفولة ضـدّ المتاجـرين بطفـولة الأطفال. . ومع الأغنية ضد المسدس الكاتم للصوت. . ومع البحر ضد أسماك القرش. . ومع العصافير ضد البنادق. . ومـع الانسان ضد أكلة لحوم البشر. . ومع الحياة ضد سارقي الأكفان. .

ليست بيروت هي المذبوحة وحدها. . إن عصراً عربياً كامـلاً مهدد بالذبح. . بنثره، وشعره، ومفكريه، ومبدعيه، وصحافته.

والكتابة تأتي على رأس قائمة المذبوحين.

ولكن رغم رداءة الأحوال الجوية، وكثافـة الضباب، وانعـدام الرؤية، ورغم غضب السماء، وشدة البلاء، ورغم السّيافين، وقلة الرؤوس الباقية. . . فإنني أؤمن أن الأرض ستبقى أرضاً. . والبحر سيبقى بحراً. . والإنسان سيبقى إنساناً. . .

قد يستطيعون ان يقتلوا شجرة. . ولكنهم لن يستطيعوا أن يقتلوا غابة.

وقـد يستطيعـون أن يقتلوا قمحة. . ولكنهم لن يستـطيعـوا أن يقتلوا بيـدراً. .

وقد يستطيعـون أن يقتلوا سمكة . . ولكنهم لن يستـطيعوا أن يقتلوا البحر . .

وقد يستطيعون أن يقتلوا حرفاً من حروف الأبجدية . . ولكنهم لن يستطيعوا أن يقتلوا الكتابة . . .

وقد يستطيعون أن يقتلوا امرأة حاملاً . . ولكنهم لن يستـطيعوا أن يقتلوا الأمومة . .

● القصيـدة السياسيـة صار لهـا فعل التحـدي. بل هي الآن تعبير أصيل عن أحاسيس الناس في الوطن العربي. والملاحظ أنك قـد جعلت لهذه القصيـدة أصولهـا، ومضمونهـا. فتجاوب معـك الناس هنا وهناك. ماذا تشكل القصيدة السياسية عندك؟

ـ سأعترف لك اعترافاً خطيراً، وهو انني أصبحت أخجل من (قصـائد الحبّ). . أنـا الذي كنتُ النـاطق الرسمي بـاسم ملايين العشّاق . .

كلمـا وقفتُ على منبـر . . وخـطر على بـالي أن أرطّب الجـو بقصيـدة حبّ . . قلت ما بيني وبين نفسي : عيب . . يـا وَلَد . . إن الأرض تهتز من حولك . . والعالم العربي تأكله الحـرائق . . وأنت قـاعد تثـرثر أنت وحبيبتـك . . وتتغـزل بحـريـر يـديهـا . . وخـوخ شفتيها . . بينما النار وصلت الى ثيابك . .

في الأردن قبـل عامين كـانت أمسيتي الشعريـة نَـزْفا سيـاسيـاً مستمراً خلال ساعتين . . وفي القاهـرة تحولت أمسيتي في معـرض الكتاب . . في الشهر الى الماضي ، الى عاصفة سياسية . .

إنني لا أستغرب هذا التحـوّل في شعري . . وفي أفكـاري . .

وفي مواقفي.. فالجمهور العربي أصبح وحشاً سياسياً لا يقف في وجه شهيّته شيء.. فاذا لم تطعمه قصيدةً سياسية.. أكَلكَ...

إنني أعرف كثيراً من الشعراء العرب افترسهم الجمهور.. لأنهم قدموا له قطعة شوكولاتة.. أو قطعة (مارون جلاسيه).. وهو في ذروة غضبه وهيجانه...

أنا بحاستي السادسة، اكتشفت أن زمن الـ (مارون جلاسيه) في الشعر قد انتهىٰ..

العالم العربي طنجرة بخار مهددة بالانفجار بين لحظة وأخرى. ما يجري في بيروت منذ ثلاثة عشر عاماً.. الحرب العراقية الإيرانية.. ثورة أطفال الحجارة في فلسطين المحتلة.. صمت الشارع العربي الرهيب.. سقوط الفكر الوحدوي، وازدهار الفكر المذهبي والقطري.. هل هذه التراجيديات الكبرى قابلة للتأجيل؟ هل يستطيع الشاعر العربي أن يختبيء تحت لحاف اللا مبالاة.. ويرفع سماعة التلفون، ويلبس بيجامته الحريرية... ويشرب فنجان يانسون ويقول لخادمته: إذا سأل عني شخص يسمّى التاريخ.. قولي له إنني مسافر..

ومع احترامي للحبّ، وللحبيبات، ولجميع الذين يحبّون (الآيس كريم).. أقول إن الخطاب السياسي، غطّى على الخطاب الغرامي.. وان (زمان الوصل بالأندلس).. قد أعطاكم عمره.... ودفنوه هو والأندلس في قبر واحد...

أعرف أن الكثيرين والكثيرات سيغضبون من هذا الكلام... ولكن ماذا أفعل اذا كان الوطن قد منعني من أكل الشوكولاته...

● أنت مستمر على إطلاق النار.. من (السيرة الذاتية لسيّاف عربي) التي ألقيتها في لندن في العام الماضي.. الى قصيدتك العنيفة (أطفال الحجارة) الى قصيدتك الأخيرة (الغاضبون).. عن انتفاضة أطفالنا في فلسطين المحتلة.. على من تطلق النار؟

ـ أطلق النار.. على الظلم. والقمع. والبشاعة..

أطلق النار على عصرٍ يتعامل مع الانسان.. كغَنَمة.. أو كحشرة.. أو كدابّة..

أطلق النار على كل التماثيل التي وضعوها في الساحات العامة لتخويف أطفالنا..

أطلق النار على كل الشعارات التي صارت كمسحوق الغسيل تغسل (أكثر سواداً)...

أطلق النار على كل البرامج التلفزيونية التي تفرمنا بآلة (المولينكس).

أطلق النار على كل القصائد الأجيرة التي يستخدمها الحكّام لتنظيف أحذيتهم.

وأخيراً أطلق النار على كل مثقف يدور في حَلَقات الذِكْر. أو يدور في حلقات النفْط..

● هل تعتبر أن بعض النقاد يسيئون اليك عندما يقولون إن شعرك مبسّط، كأنك تكتب للطبقة الدنيا من الناس؟

ـ نقّادنا هم مصيبة الشعر العربي وآفته. ولو أن شعراءنا اعتمدوا على آرائهم، وتوجيهاتهم، وحكمهم المأثورة.. لتحولوا الى بائعي فلافل..

لقد حذّرتني أمي منذ أن كنت صغيراً من ملامسة القطط

السود. . . ومن الاقتراب من أعشاش الزنابير. . . ومن التعاطي مع أيِّ صحافي عربي يعمل محرراً ثقافياً قبل الظهر. . وموظفاً في شركة أرامكو. . في الليل.

واذا كانت بساطتي هي سبب غضبهم، فسوف أبقى بسيطاً. . واذا كانت جماهيريتي تضايقهم. . فليختبئوا في قواقعهم كالحلزون البحري. . .

واذا كانوا يريدون أن يتسلقوا على أكتافي. . فان قامتي عالية وسلالمهم قصيرة.

● **ما هي وظيفة الشعر؟ أو بصورة أوضح ما هو فعل الشعر؟**

- وظيفة الشعر أن يحرِّض الانسان على نفسه، وعلى ظروفه البشرية. وظيفته أن يرفعه. أن يغيّره. أن يحرّره. أن يحضّره. . . أن ينقله من سكونية الحجر. . الى حركية النار. . وجدلية الأسئلة. .

الانسان ليس (حيواناً ناطقاً) كما يقولون. . ولكنه حيوان يقرأ الشعر. . أما فعل الشعر فهو ذات الفعل الذي ترتكبه الرياح. . والزلازل. . والأمطار الاستوائية. .

● **أمسيتك الشعرية الأخيرة في القاهرة كانت حديث الناس. كيف كان تواصلك مع الجمهور المصري؟ كيف استقبل قصائدك الغاضبة؟**

- الشعب المصري كان رائعاً، وكان يغنّي معي على ذات الموجة. . وكان غضبه بحجم غضبي. . ودموعه بحجم دموعي. . .

أكثر الذين استمعوا إليَّ كانوا من الشباب، وهذا ما طمأنني على ان الدم المصري الجديد لا يزال يتدفق أصالةً، ووطنيةً، وعروبة . .

لقد استمع إليَّ نحو خمسة آلاف مواطن مصري وعربي ، امتصوا كل كمية الأوكسيجين الموجودة في القاعة . .

ولكنهم استغنوا عن الأوكسيجين . . ليستنشقوا هواء الحرية .

● كيف تستحضر القصيدة؟ هل تعيشها؟ تعاني منها؟ قبل أن تفرغها على الورق؟ ثم بعد رسمها على الورق . . هل تعاود النظر فيها مرة ومرة ومرة . . أم تكتفي بالمرة الأولى؟

ـ هذه أسئلة تطرح على صيدلي . . أو على مدير بنك . . أو على رئيس جهاز مخابرات . . والحقيقة انني مع القصيدة، كالزوج المخدوع، آخر من يعلم . .

إنني جاهل تماماً بطباع قصيدتي وسلوكها . متى خرجتْ من البيت ؟ أي فستان كانت تلبس ؟ مع من كانتْ؟ مع من تناولت العشاء ؟ مع من نامتْ ؟

هذه أسرار لا أحاول أن أعرفها . . لأنني لو عرفتُها سأجُنّ . . كلُّ ما أعرفه أنني زوج متحضِّر لا يسأل زوجته (القصيدة) عن شؤونها الخاصة . . فهي تخرج متى تريد . . وتعود متى تريد . . .

وحين أبحث عنها في صباح اليوم التالي . . أجدها نائمة فوق أوراقي .

حيث تكون المرأة . .
تتكاثر النجوم(*) . .

(*) حوار مع الأستاذ عيسى مخلوف ـ مجلة (شذا) ـ باريس بتاريخ شباط (فبراير) ١٩٨٩ .

● في كتابك (قصّتي مع الشعر) تروي كيف اكتشفت موهبتك الشعرية، وكنت ما تزال في السادسة عشرة. كان ذلك اثناء رحلة في السفينة بين بيروت وايطاليا. كنت تقف في مقدمة السفينة تدمدم الكلمة الأولى من أول بيت شعرٍ نظمته في حياتك. وتقول إنه قفز من فمك كأنه سمكة حمراء تنطّ من أعماق الماء.. هل نستطيع أن نعرف كيف وصلت هذه السمكة الحمراء إلى فمك.. وهل لطفولتك أثر في وصولها؟..

ـ لا صيّاد في العالم، يستطيع أن يقول لك كيف يأتي السمك.. إنه يأتي عندما يريد.. ويهرب من الشبكة متى يريد...

ولو أن كلّ سمكة أعطت صيّادها موعداً للقاء.. لانتهى السمك.. وانتهى الشعر أيضاً.

القصيدة سمكة.. بكل ما تمثّله من مَكْر.. ولَعِب.. ومراوغة.. ومخاتلة.. وباطنيّة...

لا يمكن تشبيه القصيدة بالعصفور. لأن العصفور يحطّ على

الشجرة.. أو على النافذة.. أو على كتفيك.. ويطلب منك أن تلقي القبض عليه...

والغزال أيضاً لا يشبه القصيدة.. لأنه يرقص أمامك في الصحراء كراقصة باليه.. ولا يرى البارودة في يديك.. ولا يعرف أنك ستقتله..

والفراشة الربيعية تطير أمام الأولاد في الحقل، وهي ترتدي أجمل ثيابها، وتقول لهم: «إمسكوني»....

القصيدة هي الكائن الوحيد الذي يتصرف على طريقة رجال المخابرات... فهي لا تعطي عنوانها لأحد.. ولا تظهر في مكان مرتين.. ولا تلبس ذات الثياب... ولا تنزل في ذات الفندق... ولا تترك بصماتها على جسد أي امرأة...

إن صورة القصيدة ـ السمكة ليست صورة بلاغية.. أو مجازية أو ذهنية أو تركيبية، ولكنها محاولة للبحث عن مصباح علاء الدين ... رغم يقيني أنه ليس هناك مصباح .. وليس هناك علاء الدين ...

الشعر فيه الكثير من عملية السطو والمداهمة.. والكثير من عنصر المفاجأة . فأنت تنتظره من الشرق.. فيأتيك من الغرب.. وتستعد لاستقباله في غرفة المكتب.. فيخرج لك من ثقوب الدوش في الحمّام . أما من أي بحر يأتي سَمَكُ الشعر.. فمشكلة أخرى...

فقد يأتي من بحر الشمال مثل الشعر الانكليزي والألماني

والفرنسي، وقد يأتي من البحر الأبيض المتوسط مثل الشعر اليوناني والايطالي.. وقد يأتي من بحر قزوين والبحر الأسود كالشعر الروسي.. وقد يخرج السمك من تحت الرمل.. كما حدث في الشعر الجاهلي.. وقد يخرج من أعماق الغابات كما حدث في الشعر الافريقي..

أما بالنسبة لي، فأنا محصولٌ دمشقيٌّ مئة في المئة.. وأبجديّتي تحتشد فيها كل مآذن الشام، وحمائمها، وياسمينها، ونعناعها، وخوخها، وعنبها، ووردها البلدي.. وبين كل فاصلة وفاصلة من قصائدي.. تضيء عينان دمشقيتان...

● **لبيتك الذي ولدت فيه في دمشق نكهة خاصة في حياتك. ولأمّكَ، وكلُّ ثروتها «عشرون صفيحة فلّ في صحن الدار.. كلّ زرٍّ فلٍ عندها يساوي صبياً من أولادها..».**

هل يمكن أن نحيل عالمك الشعري المليء بالعطور إلى هذه الجذور؟

- عندما يولد الطفل في قارورة عطر.. فإن الرائحة تطارده حتى آخر يوم من أيام حياته. تطارد طفولته، وتطارد كتبه، ودفاتره، وأقلامه، بل تطارده ثقافياً.. وشعرياً.. وحضارياً..

إن صوت نافورة الماء في باحة بيتنا الدمشقي.. لا يزال يهدر في أذني رغم أن نافورة بحيرة جنيف أراها من نافذتي..

عندما يقول ناقد عن لغة نزار قباني إنها (لغة مائيّة) يكون قد وضع يده على أهم مفاتيحي..

أنا شاعر (الأكواريل الدمشقي). . . أقولها كما يقول بيكاسو إنه شاعر التكعيبية. . وكما يقول سيلفادور دالي إنه شاعر السريالية. .

إن طفولتي باختصار كانت علبة ألوان. . فاذا كنت قد (رسمتُ بالكلمات). . فلأن البيت الشاميّ الذي ولدت فيه، كان بمثابة (الأتوليبه) الذي جهزني بكل المواد الأولية من فراشي، وألوان، وقماشات. . لأصنع لغةً فيها الكثير من تشكيلات قوس قزح. . .

هناك شعراء يكتبون لغتهم. . أما أنا فشاعر يرسم لغته . إنني أفكر بالخطوط والألوان أولاً. . كما يفكر صانع الأزياء بالثوب الذي سيصنعه. . قبل ان يفكر بجسد المرأة التي ستلبسه. . .

● تقول: «أنا من أسرةٍ تمتهن العشق». وفي تاريخ الأسرة حادثة (استشهاد) مثيرة سببها العشق. والشهيدة هي أختك الكبرى (وصال). ما أثر هذه الحادثة على شعرك؟

- قبل أن تنتحر أختي، لم أكن أعرف انني أعيش في مجتمع بوليسي يمنع الشجرة أن تزهر. . والقمر أن يطلع. . والنهد أن يتكوّر. . لم أكن أعرف أن صوت المرأة يمكن أن يكون عَوْرَة. . وكتاب الشعر يمكن أن يكون فضيحة. . وكتابة رسالة عشق يمكن أن تُوصل الى حبل المشنقة. .

بعد مصرع أختي. . قررتُ أن أنتقم لها بالشعر. . وبدأت بتحطيم كل (التابويات)، والخرافات السائدة، والقناعات التي كانت تعتبر المرأة شريحة لحم. . يأكلها الرجُل. . بدقيقتين. . ثم ينكّش أسنانه. . .

بعد مصرع أختي. . قرّرت أن أكسر أبواب سجن النساء. . .

وأعتق جميع النساء المعتقلات من عهد عادٍ وثمود. . . في ثلاجة القصر. . أو في غرفة نوم الملك شهريار. . .

بعد مصرع أختي. . قرّرت أن أنهي مرحلة التمييز العنصري بين الرجل والمرأة. . وأن ألغي جميع محاكم التفتيش التي تحكم على المرأة بالأشغال الشاقة المؤبدة اذا عشقت. . وتعطي الرجل عشرات المداليات الذهبية في أولمبياد الحبّ . . .

بعد مصرع أختي. . قررت ان أذبح كلَّ بنات (السيّاف مسرور) غير الشرعيات. . كما ذبح الملايين من بنات الناس. . بغير محاكمة. .

● منذ مجموعتك الشعرية الأولى «قالت لي السمراء» حتى اليوم، ما يزيد على الأربعين عاماً. هل تشعر أنك ما زلت قادراً على الرسم بالكلمات، أم ان اللغة ضاقت بك ؟

- ليست اللغة هي التي ضاقت بي. . ولكنّ مساحة الحرية هي التي ضاقت. عندما تشيخ الحرية في وطن ما. . فإن الثقافة تشيخ. . واللغة تشيخ. . والفكر يشيخ. . والشهوة الى الابداع تشيخ. . .

طبعاً ان للجسد طاقاته وقوانينه، ولكن الروح تبقى دائماً بحاجة الى وقود الحرية لتواصل اشتعالها.

ما كنا نكتبه في الخمسينات كان جميلاً، لا لأننا كنا ممتلئين صحة وشباباً وحماساً. . ولكن لأن الحرية كانت بصحة جيدة. . .

في الثمانينات. . أشعر أن السماء صارت أضيق. . وكمية

الأوكسيجين صارت أقل. . وكمية اللون الأخضر صارت أقل. . .

في الثمانينات، كل شيء صار عصبياً. القصيدة صارت عصبية. . واللوحة صارت عصبية. . ولقاءات الحب صارت عصبية. . والجنس صار عصبياً. . والوطن صار طائرة جامبو لا يسمح لها أي مطار بالهبوط. .

المنطق الجمالي للأشياء انتهى. . فمن سلالات وليم شكسبير خرجت فرقة البيتلز. . ومن سلالات ابراهام لينكولن. . خرج مايكل جاكسون. . ومن جمهورية افلاطون. . خرجت جمهوريات المباحث.

إن أكثر الشعراء العرب يولدون كأطفال الأنابيب في مختبرات الأنظمة. . وشعراء الأنابيب لا يعيشون طويلاً. . لأنهم يعيَّنون بمرسوم حكومي. . ويحالون الى المعاش بمرسوم حكومي. .

إنني أتصور أن زمن (الرسم بالكلمات) في إجازة. . فالثمانينات هي زمن اعتقال الكلمات. . أو زمن اغتيال الكلمات. . أو زمن خطف الكلمات . . .

فكيف تريدني أن أرسم. . اذا كان شراء قلم رصاص من احدى المكتبات. . يحتاج الى ترخيص من وزير الداخلية؟. . .

كيف تريدني أن أكتب. . اذا كانت أصابعي لا تستطيع أن تتجول على ورقة الكتابة بعد الساعة السادسة مساء ؟. . .

● الى أي مدى استطاعت المفردة عندك أن تغطّي مساحة الانفعال، أن تكون صادقة مع ما تريد أنت قوله وايصاله؟.

- المفردة كجسد لغوي، تاريخي، قاموسي، لا تعنيني، ولا تشغل بالي كثيراً. ما يهمني هو المفردة التي تتساقط كالمطر من شفاه الناس.. وتضوع كالعَرَق من رائحة أجسادهم..

أنا في سبيل القصيدة أستبيح كل شيء.. بما في ذلك اللغة.. لذلك تجدني أتسلل الى المقاهي، والسيارات العمومية، والشوارع الخلفية، والأسواق الشعبية المكتظة.. لأسمع اللغة بنقائها وفطرتها الأولى...

ثم أحمل ثروتي الشعبية الفولكلورية الى مكتبي.. وأشتغل على المواد الأولية التي جمعتُها..

هذه الطريقة، أزالت الكلفة نهائياً بيني وبين من أكتب لهم.. وأدخلت شعري الى شرائح اجتماعية لم يكن الشعر يشكّل همّاً من همومها..

لقد استطعت أن أكسر جدار الخوف من الشعر.. واستطعتُ ان أشكل حزباً شعرياً من الأطفال لم يكن موجوداً من قبل....

● انت شاعر التفاصيل الصغيرة (منافض السجائر، والستائر، والجرائد، وأدوات الزينة، والأزياء، والعطور، واللوحات...). كيف دخلت هذه التفاصيل الى شعرك؟ أتعتبرها (أكسسواراً) في عدّتك الشعريّة.. أم أنها في جوهر شعرك وقوامه؟.

- إنني عاشق معاصر يعيش علاقاته العاطفية في المدينة.. لا (في الربع الخالي)... وأريد أن أسألك هل هناك قصة حب في القرن العشرين تجري وقائعها على حجر.. أو فوق (خرابة)؟...

ثم هـل هناك امـرأة في العـالم تـرضى أن تحبّـك. . أو تتـزوّجك. . في غـرفة ليس فيهـا مـرايـا. . ومـوكيت. . ومنـافض سجائر. . ولوحات. . وسـرير من طـراز لويس السـادس عشر. . . ومجلة (باري ماتش). . .

إن الحب (على الناشف) . . غير ممكن. . .

والشعر (على الناشف) . . غير ممكن. .

والغزل (على الناشف). . غير ممكن. .

فاذا كنتُ استعملتُ (الاكسسوارات) المعاصرة في شعري. . فلكي لا يحسبني النـاس إذا جلست في المقهى. . الفرزدق. . أو الشَنْفَرى. . . . أو الشيخ شعراوي . . .

● عندما تفرغ من كتابة قصيدة، هل تستطيع أن تعرف اذا ما كانت ناجحة أم لا، وكيف؟ هل حدث لك ان أعدت كتابة قصيدة قبل نشرها؟

- نعم. . بكل تأكيد. . فالحـاسّة السـادسة عنـدي تنبئني بما سوف تثيره القصيدة من رياح وزلازل. . . .

وكما يعرف صانع البارود القوة التفجيرية لمفـرقعاتـه. . فإنني أعرف بعد الممارسة والتجربة الطويلة، القوة التفجيرية لقصائدي.

انني أكتب القصيدة مرة واحدة. . ولا أعيد كتابتها قبل نشرها.

● «الشعر يتجه الى الأبرياء. يعني الى كل اولئك الـذين اذا لم يجدوا ثوباً يلبسونه. . لبسوا القصيدة. .»
يدفعنا كلامك هذا إلى التساؤل عن مفهومك للشعر؟

ـ لا يـزال مفهومي للشعـر كما أعلنتـه عـام ١٩٤٨، وهـو أن الشعر يجب أن يكون قماشاً شعبياً يلبسه الجميـع، ورغيفاً سـاخناً بمتناول الجميع.. وحديقةً مفتوحة لكل المواطنين ليلاً ونهاراً.

هذا الكلام يعني أنني لا أؤمن ببورجوازية الشعر.. وطبقيّته.. وصـالونـاته المغلقـة التي ترتـادهـا الانتليجـانسيـا، والاحتكـارات الثقافية.

الشعر انقلاب بالكلمات يحاول تغيير وجـه العالم.. انقـلاب يقوم به عاشق.. ليحوّل الأرض كلها الى بستان للعشق.

الشعر خطاب إنسـانيّ يتوجـه الى (الآخر).. ولا قيمـة لشعر يخاطب الفراغ.. أو الملائكة.. أو يخاطب نفسه.

الشعـر فعل رقيّ وحضـارة، وهـو بـطبيعتـه مـع الشمس ضـد العتمة.. ومع الوردة ضد المسدّس.. ومع الليبرالية ضد القمع.. ومع الحب ضد الكراهية.. ومع المشنوق ضد حبل المشنقة..

الشعر هو فعل استشهاد.. ونزيف متواصل على الورق. وعلى الشاعر الذي يخاف ان يجـرح النسيم خديـه.. أن يشتغل حـلاقاً نسائياً.. أو يفتح بوتيكاً لبيع الألبسة الجاهزة...

● تعتبـر ان المـرأة أرض ثـوريـة، ووسيلة من وسـائـل التحرير.. هل يعني ذلك انك تربط قضيتها بقضية تحرير المجتمع ككلّ؟..

ـ جسـد الانسان عنـدي، هو أهم من الأرض... بـريطانيـا احتلت نصف الكرة الأرضية، ونصف شعوبها.. مئـات السنين..

ثم انكفأت على نفسها. . وعادت لتشرب شاي الساعة الخامسة في فندق دورشستر. . .

وما دام جسد المرأة عندنا محتلاً. . ومقهوراً. . ومستثمَراً لملايين السنين. . . ولا يفكر المستعمر (بكسر الميم) بالجلاء. . . فان مجتمعنا سيبقى معاقاً. . وعاجزاً عن القيام بأي انجاز حضاري. . لأنه مجتمع أعرج. . .

مجتمعنا مجتمع (ديوك). . تنفش ريشها ليلاً نهاراً. . وتظن أن الصباح لا يطلع من دونها. .

أما الدجاجات فهنّ مشغولات بأمور الحمل والولادة. . . ولا وقت لديهن لدراسة قانون الأحوال المدنية. . والدخول الى محاكم، جميع قضاتها من الرجال. . .

● قلت مرة: «إن الجنْسَ هو صداعُنا الكبير في هذه المنطقة. . » ماذا تعني بذلك؟.

- يعني ان مدير العمل في مكتبه، والوزير في وزارته، والطالب في جامعته، والتلميذة في مدرستها. . والتاجر في متجره. . والزارع في حقله. . والعالم في مختبره. . والجالسين على مقاهي الرصيف. . كل هؤلاء واقعون تحت سلطان الجنس الآخر. . بمعنى أن الجنس يأكل نصف ساعات العمل، ونصف الدخل القومي لشعوبنا. . ولا يسمح لنا بالتركيز على بحث من الأبحاث. . أو دراسة من الدراسات. . .

حتى المرضى عندنا لديهم ضعف عاطفي نحو ممرضاتهم. . والمسافرون على الطائرات الأجنبية يضيعون توازنهم أمام مضيفة

الطائرة الشقراء.. وأساتذة الجامعة لديهم نقطة ضعف أمام الطالبة الجميلة ... وحتى ضباطنا لديهم حنان عجيب على المجنّدات .. والمتطوّعات ..

وباختصار إن مرض الـ (سيكسومانيا) عندنا منتشر عند الكبار والصغار.. والسلاطين والرعايا.. والوزراء والبسطاء. والمطلوب منا أن نتعاون جميعاً على قتل الوحش...

● المرأة التي كتب عنها نزار قباني، هل هي واقعيّة، أم هي متخيلّة؟ ما نسبة وجودها في الواقع؟

- ٩٥ بالمئة من نسائي من لحم ودم.. و ٥ بالمئة فقط ملح.. وفلفل.. وبهار... وهذه التوابل لا بدّ منها في طبخة الشعر.. لأن الطبخ بدون قرفة ويانسون وفلفل أحمر.. لا يُبْلَع...

لم أمارس أبداً (الحبّ) بالنظّارات.. ولا (الجنْس) بالنظّارات.. فلكي تكتب عن الحرب لا بد أن تحارب.. ولكي تكتب عن النهد لا بد أن تعرف شيئاً عن تاريخ التفّاح.. وعن كروية الأرض... ولكي تكتب عن أصابع امرأة.. لا بد ان تعرف شيئاً عن صناعة الحرير الدمشقي.. وأخيراً لكي تتحدث عن تفاصيل العشق.. لا بد ان تموت عشقاً...

● خرجتَ في شعرك عن النموذج الشعري العام في الغزل العربي، حيث ان المرأة، في أغلب الأحيان، واحدة بينما نساؤك كثر؟..

- لا يوجد في الشعر العربي إلا امرأة واحدة تتكرّر..

صدراً.. وقواماً.. وردفاً.. وخصراً.. وباستثناء عمر بن أبي ربيعة فإن كلّ النساءِ المتغزِّلِ بهنّ طلعن من الآلة الناسخة...

أعترف (بتعدديّة) النساء في شعري؛ ولكن من أجل الفن.. لا بدافع الشهريارية. فأنا بطبيعتي كرجل، أركّز على امرأة واحدة، وأحب السكون إلى امرأة واحدة.. أما بطبيعتي كفنان فإنني أطمح لتصوير كل نساء العالم.. لأنني لا أستطيع أن أقيم معرضاً لرسومي.. وليس لديّ سوى (موديل) واحد أقدمه للزائرين...

قد تكون (عيون إلزا) رائعة.. ولكن من أي شيء تشكو عيون صوفيا لورين.. وميلينا ميركوري.. والطيّبة الذكر غريتا غاربو؟؟

● **ما العلاقة التي تربطك ببعض الشعراء العرب، جميل بن معمّر، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي نواس؟ بين الشعر الذي ينحت في الغزل العذري، وذلك الذي ينحت في الغزل الحسّي والإباحي ؟.**

- الشعراء الذين ذكرتهم ليسوا من العائلة.. وعلاقتي بهم كانت أيام الدراسة، ثم افترقنا.. ولم نلتق مرة أخرى.

الشعر العذري هو (حركة محرومين)... والشعر الحسّي هو (حركة هيبّيين).. وأنا لا أفهم ماذا تعني كلمة (إباحية) اذا كانت بلدية روما وفلورنسا وباريس.. تعتبر تماثيل البرونز والحجر لفينوس العارية.. أهمّ من جميع الأمكنة المقدسة...

إن الكتابة عن جسد المرأة الجميلة ليست فضيحة.. ولكنّ الكتابة عن وجه الخليفة الذي يشبه ليلة القدر... وقامته التي تشبه

قامة السيف.. ولحيته المخضبة بالمِسْك.. والكافور.. هي فضيحة الفضائح...

● «قاموس العاشقين» عنوان إحدى مجموعاتك الشعرية. ومن يقول «قاموس» يقول «معادلات ثابتة».

هل يمكن التوصل الى معادلات ثابتة من خلال الشعر، خصوصاً اذا كان موضوع الشعر هو الحب؟..

- أنا لستُ أول من حلم بكتابة قاموس للعشق.. فقد سبقني ابن حزم الاندلسي في كتابه (طوق الحمامة) الى ذلك.. كما سبقني أوفيد في كتابة (فن الحب)... الى المحاولة...

إن وضع قواعد ثابتة للحب، على صعوبته أمر ممكن.. فالغيرة على المحبوب، والأرق لفراقه، والوقوف طوال الليل تحت نافذته، والخوف عليه من العاذلين، واعطاؤه أوصافاً غير بشرية.. وتسارع ضربات القلب، والشحوب، والمرض، والانتحار.. وقتل المحبوب من فرط العشق.. ابتداء من عطيل.. الى ديك الجنّ الحمصي.. كل هذه الملامح والظواهر الغرامية يمكن رصدها.. ومتابعتها.. وتسجيلها.. تماماً كما يحدث في الطب النفسي...

لكن.. رغم ما كتبه المسافرون في بحر العشق.. فإنهم لم يكتشفوا كل شواطئه.. وجُزُره المرجانية.. ولم يعرفوا أسماء القتلى اللذين ابتلعتهم أعماقه...

● عملك في السلك الدبلوماسي زهاء عشرين عاماً، كان دافعاً لزيارة العديد من المدن: القاهرة؛ لندن، بكين، مدريد.. عواصم نجد صدى لها في كتاباتك. ما هي علاقتك بالمدن ؟..

ـ المدن كالنساء كلُّ واحدة لها شخصيتها، ورائحتها، ومذاقها. فهناك مدنٌ خرساء.. ومدن ثرثارة.. ومدن هادئة.. ومدن عصبية.. ومدن طيبة.. ومدن شريرة.. ومدن طاهرة.. ومدن عاهرة.. ومدن تقرأ كتب الشعر، ومدن لا تقرأ إلا نشرات البورصة.. ومدن تعبد عيسى بن مريم.. ومدن تعبد مايكل جاكسون...

وأنا أقيّم المدن بكمية المادة الشعرية التي تقدمها لي.. فهناك مدنٌ كانت تشعل في داخلي حرائق الشعر كل يوم.. وهناك مدنٌ حاصرت قلبي وأصابعي بجبال من الصقيع..

لندن أعطتني شعراً كثيراً.. وكذلك مدريد وبيروت ودمشق.. لندن أعطتني واحداً من أفضل كتبي وهو (قصائد).. ومدريد أعطتني واحداً من أعنف كتبي وهو (الرسم بالكلمات).. ودمشق أعطتني (قالت لي السمراء) و (أنتِ لي) و (حبيبتي).. وبيروت أعطتني (قصائد متوحشة) و (كتاب الحب) و (قاموس العاشقين) و (قصيدة بلقيس)...

المدينة التي تحرّضني على كتابة الشعر.. أعود اليها دائماً.. وأسأل عنها.. وتسأل عني.. أمّا المدن التي تحاصرني بثقافة البيتزا... والهامبرغر... وموسيقى الديسكو.. فلا أعود اليها ابداً...

● انتَ تؤنّث المكان. «إلى بيروت الانثى» تقول. وكابن عربي تعتبر ان المكان غير المؤنث لا يُعوَّل عليه. لماذا؟

ـ لأنني أعتبر أن العالم كله أنثى.. بما في ذلك الرجل...

وأنا مع محي الدين بن عربي مئة في المئة . . في أن المكـان غير المؤنث لا يُعوَّل عليه . .

فحيث يكـون الـذكـور . . تكـون الأرض مـالحـة. . ويحـلّ الجفـاف. . وتكثـر المجـاعـات. . ويمــوت الشجـر. . وتهــرب العصـافير. . وتنشف الأنهـار. . وتزداد نسبـة التلوث. . . وتشتعـل الحروب. . وتتكرر (الهيروشيمات) . . .

وحيث تكون المرأة . . يكون الخصب. . والنماء . . ويخضرّ الشجر . . وترتفع السنابل. . ويمتلىء العالم بالورد. . والقمح . . والأطفال . .

حيث تكون المرأة تفيض أنهار الحنان. .

وتتكاثر ذرّية النجوم. . وذرّية القصائد. . .

● وتقـول أيضاً «يـا ستّ الدنيـا يا بيـروت». . ترى مـا هي علاقتك بهذا المكان ـ الأنثى؟

ـ بيروت بلّلتني بأمطار الشعر من رأسي الى قدميّ. . وأعطتني زوّادة من التجارب الشعرية لا أزال آكل منها كلما داهمني الجـوع والعطش. . .

إنني لا أقارن بيروت بأي مدينة أخرى. . فهي في كفّة. . وكل نساء العالم في الكفة الثانية. . .

لقد تربيت على يديْ بيروت شعرياً وذوقياً وحضاريـاً. . . فاذا سميتُها (ستّ الدنيا)، فإن الاسم قليل عليها. . .

إن وجـودي في أي مكان في العـالم (ترانـزيت) وهو لا يلغي

بيروت. . . من خريطة القلب. . ولسوف أعود الى بيروت على أول خشبة طافية على وجه الماء. . . عندما تنهض بيروت من قيلولتها. . . .

● عام ١٩٨٥، صرّحتَ بأنكَ ترفض البقاء داخل قارورة الحب والمرأة. قبلها بسنوات قلت: «إنني اعتبر نفسي مسؤولاً عن المرأة حتى الموت». كيف تفسر هذا التناقض؟

- عندما أطلقتُ تصريحي الأول، كنتُ أريد أن أدافع عن نفسي ضد من كانوا يسمونني (شاعر المرأة) فقط. . . ويحبسونني في زنزانة طولها متر. . وعرضها متر. . . ويختمون بابها بالشمع الأحمر. .

كنت أضيق بهذه الدوائر التي ترسمها الصحافة حولي. . وأضجر من هذه الأقفاص الذهبية التي يضعونني فيها . . .

كنتُ أريد أن أكون شاعراً فقط. . أي بدون ألقاب. . وبدون أكسسوارات. . ودون أن أكون مادة للإعلانات المبوّبة .

أما الدفاع عن المرأة فقد قمت به على أحسن وجه على مدى أربعين عاماً. . وأعتقد أن المرأة قد أصبحت بالغة، عاقلة، وراشدة، لتتولى الدفاع عن نفسها بنفسها. . .

طبعاً. . أنا لم أتخلّ عن المرأة نهائياً. . ولكنني أعتقد انني أستحق اجازة طويلة. . .

وعلى المرأة - خلال غيابي - أن تقلع شوكها بأظافرها.

● بدأت تكتب الشعر السياسي منذ عام ١٩٦٧ مع «هوامش

على دفتـر النكسة». فهـل تعتبر ان اهتمـامـك السيـاسي يقلل من اهتمامك بالمرأة أم أنه يسير في خطّ مواز له؟

ـ أنـا لا أضع خـطاً بين كتابـاتي عن المرأة.. وكتـاباتي عن الوطن.. فكل ما أكتبه يستهدف التغيير.. والتحرير.. وقد فسّرت هذا في إحدى قصائدي القصيرة:

كلّما غنّيتُ باسْم امرأةٍ..
أسْقَطُوا قوميتي عني وقالوا:
كيف لا تكتُبُ شعراً للوطنْ؟
وهل المرأةُ شيء آخرٌ غيرُ الوَطَنْ؟..
آهِ.. لو يدركُ من يقرؤني
أنَّ ما أكتبُهُ في الحبّ...
مكتوبٌ لتحرير الوَطَنْ...

● **هـل صحيـح ان المـرأة بـالنسبـة إليـك «مـوقف من المواقف».. «ميناء من الموانيء» فقط...**

ـ ليس من مصلحـة المـرأة.. ولا من مصلحـة الشعـر.. أن تتحوّل المرأة إلى (لَصْقـة اميركـانية)... أو تمثـال من الشمع في متحف (مدام تُوسو)....

خير لها أن تكون غمامة عابـرة.. وحمامـة مسافـرة.. وبرقـاً مشتعـلاً... من أن تكون مقعـداً جلدياً في غـرفـة الجلوس.. أو سجّادة أثرية ينفضونها مرةً في السنة...

إن المرأة الذكية هي التي تخبيء في عينيها ملايين الأسئلة.. وتترك للرجل أن يبحث عن الأجوبة..

فالرجل يهتمُّ لا بالقطارات التي أَتَتْ.. ولكن بالقطارات التي سوف تأتي...

● **في كل يوم ينبت في عينيك حلم ... ما آخر أحلامك: ديوان شعر؟ امرأة؟ أم عودة إلى بيروت؟**

- عودة الى بيروت... ومعي ديوان شعر...

● **كلمة أخيرة يوجهها نزار قباني الذي أصبح شعره جزءاً من حضور المرأة العربية؟**

- أنا لا أتعاطى النصائح.. ولا الحكم المأثورة.. ولا أسمح لنفسي برسم الخطوط العريضة لحياة أي امرأة...

كل ما أطلبه من المرأة العربية أن تهرب من بيت الدُمى والعرائس.. فالرجل يحبّ أن يقتني الدُمَى.. ولكنه لا يلبث أن يكسرها...

الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الرجل أن يكسره في المرأة هو عقلها.. وثقافتها، وعنفوانها...

الرجل بطبعه لاعبٌ محترف.. ولكنه لا يستطيع أبداً أن يخترق دفاعات امرأة تستعمل عقلها جيداً...

إن المعركة مع الرجل لا تربحها الحُلَى، والأزياء، والعطور، وخواتم البلاتين، ومعاطف المينك.. ولكن الذي يربحها، هو انتقال المرأة من مرحلة (أمرك سيدي).. إلى مرحلة الصمود والتصدِّي.. ومن مرحلة التطبيع مع الرجل المستعمر (بكسر الميم).. الى مرحلة المقاومة....

حوار

مع الأستاذ عبده وازن

جريدة النهار اللبنانية

بتاريخ ١٢/٧/١٩٨٨

● الإقبال « الجماهيري » على شعرك يزداد يوماً فآخر ، وكأن شعرك لا يزال مثار اهتمام الجمهور العريض على مرّ الزمان : كيف تنظر إلى هذه الظاهرة اليوم ؟ هل « الإقبال » هذا هو استحقاق فعليّ ، أم أن الشعر يكمن في ما هو أبعد ؟

ـ لا يوجد في الشعر (ما هو أبعد) . فالأبعد هو من علم الفلسفة والميترافيزيك ، والسحر ، وفن استحضار الأرواح .

الشعر هو كيمياء الإنسان لا كيمياء الملائكة ، وأنا شاعر أتعاطى مع البني آدميين لا الملائكة . أشاركهم خبزهم ، وقهوتهم ، وحزنهم ، وفرحهم ، وضجرهم ، ودموعهم ، وصراخهم اليوميّ من أجل الحصول على كسرة خبز . . أو كسرة حريّة . .

أنا أخاطب الناس الجالسين على أرصفة الحزن ، لا الناس الجالسين على رفوف الكتب . . أخاطب الناس المصنوعين من أعصاب ، وأنسجة ، ولحم بشري محترق . . لا الناس المصنوعين من زبدة . . وحرير . . وسيراميك . . .

أخاطب الصعاليك لا الملوك . . والدراويش لا الأباطرة . . وتلاميذ المدارس ، لا أساتذة الصرف والنحو . . . والأطفال الذين لم يرضعوا حليب هذا العصر الملوّث . . .

ليست لديَّ القدرة على التنظير . . ولا على التحشيش الثقافي . . ولا على تعاطي المخدِّرات التجريدية .

أنا ضدّ الأقليات الشعرية ، وليس لديَّ الوقت لأخاطب عشرة أشخاص ونصف . . يستمعون إلى الشعر كأنهم جالسون على كرسي حكيم أسنان . . .

أنا شاعر من هذا العالم الثالث . . أو الثالث عشر . . . ولديَّ من مخزون الدموع ما يكفي لملء عشرة بحور . . فهل تريدني أن أدير ظهري للجماهير العربية (المعتّرة) وآكل الفريز بالكريم شانتيي . . .

إن إقبال الناس على أمسية شعرية هو مؤشر نفسي وإجتماعي وثقافي خطير ، والذين يستهينون بهذا المؤشر أو يسخرون منه ، لا يعرفون شيئاً عن وظيفة الشعر . . ولا عن وظيفة الثقافة . .

الثقافة ليس مكانها في أنابيب الاختبار . . . وإنما مكانها في الأمكنة العامة . . والهواء الطلق . .

إنني ضدُّ أطفال الأنابيب . . وقصائد الأنابيب . . وشعراء الأنابيب . . وأفضّل أن أولد ولادة طبيعية من رحم الشوارع العربية المكتظة بالخوف ، والقمع ، والاستبداد ، والجوع ، والعطش ، والسعال ، على أن أولد في قاعات المجامع اللغوية ، والأكاديميات ، وسرير ماري أنطوانيت . . .

جماهيريتي ، ليست تهمة أدفعها عن نفسي . .

ولا جريمة أحاول أن أتبرأ منها . .

إنهـا وسامي . . ووردتي . . وجـائزتي الكبـرى التي حصلت عليها باستفتاء شعبي ديمقراطي . . دون تدخل من مراكز القوى ، أو أجهزة المخابرات . . . .

● يبرز لديك حبُّ جمهورك ، وكـأنك حين تكتب لا تنغلق على نفسك بل تفكر قليلاً أو كثيراً (لست أدري) بجمهورك الذي يتوزع قصائدك كالخبز . . ما رأيك ؟

- أنا جزء من الوجع العام ، وسمكة من الأسمـاك التي تعوم في بحـر من الأسئلة . . والزلازل السيـاسية والاجتمـاعية ، والقلق العربي العام .

الورقة التي أكتب عليها ليست ورقة بيضاء . .
ولكنها ورقة ترتسم عليها ملايين العيون العربية . .

فكيف تـريدني أن أهـرب من هـذه العيـون ، وهي تسبح في دورتي الدموية ؟؟

إنني لا أكتب كي أسترضي ، أو أجامـل ، أو أطلب مـرضـاة الشارع العام . . . فضـوضاء الشـارع العام تخـرج من داخلي . . والبكاء العام يمطر من عيوني . . والقلق العام هو جزء من قلقي . .

وبعبارة أخرى ، ليس هناك أوامر خارجية أنصاع لها . . وليس هناك سلطة في العالم تستطيع أن تجبرني على كتابة قصيدة لا أريد كتابتها . .

كل شيء يحدث على ورقة الكتابة بشكل تلقائي . . . وكل قصائدي تتفجر دون تخطيط مسبق . . .

إنني في الشعر لا أكتب على طريقة (ما يطلبه المستمعون) . . ولا أشتغل مضارباً في بورصة الشعر . . ولا أفصّل قصائدي حسب متطلبات السوق . . .

أنا جزء من حركة التاريخ السياسي والقومي والعاطفي في هذه المنطقة ، ومن مسؤولياتي كشاعر أن أغطّي بشعري هموم البشر ، وحركة التاريخ ، وإلا تحولتُ إلى متسوّل شعر . . .

● هل « الإقبال » يرسِّخُ الشعر والشاعر ، أم أنه مجرد ظاهرة لا يلبث أن يهددها التاريخ الذي ليس سوى الناقد الوحيد والغربال الذي « يجوجل » الزمن ؟

- عندما يقبل الناس على قراءة شاعر خلال فترة خمسين عاماً ، فهذا يعني أن هذا الشاعر استطاع أن يكون خلال هذه الحقبة وجدان أمته وضميرها وصوتها . إن (الإقبال) على قراءة شاعر ليس ظاهرة عبثية ، أو مجانية ، أو تهريجية .

فالتهريج في الفن عمره قصير . . والتهريج في الشعر عمره أقصر .

وحين يعجز شاعر عن أن يكون الناطق الرسمي باسم عصره . . فأكيد أنه لن يكون الناطق باسم أي عصر آخر . .

أما التاريخ فهو أذكى مما تتصور . . وأقدر على حفظ الشعر الجيّد مما تتصور . . فالتاريخ هو شيخ الناقدين .

وعندما يأتي دور (الجَوْجَلة) . . فلن يبقى في الغربال سوى من عصم ربُّك . . ولن ينجو من الغربلة سوى الشعراء الذين التحم جسدهم بجسد أمتهم ، واختلطت دماؤهم بدماء شعوبهم . أما الشعراء الذين كانوا يبيضون بيوضهم السريالية في زوايا المقاهي المظلمة ، فلن يبقى منهم أحد في الغربال . . . .

● الشعراء الكبار في العالم كانوا وحيدين . عاشوا في عزلة ، وماتوا في عزلة ، ولم يعرفوا أي نجاح جماهيري . وأذكر على سبيل المثال بودلير ، رامبو ، مالارميه ، فاليري ، ريلكه . . .

كيف ترى إلى اختلافك عنهم ، وإلى شعريتك وخصائصها ، وارتباطها بالجمهور ؟

- كل شاعر له طريقة في العيش ، وطريقة في السلوك . .

فإذا كان بودلير (عصابياً) . . وكان رامبو تاجر رقيق أبيض . . ومتهماً بعلاقته الشاذة مع فيرلين . . وكافكا كان مأزوماً نفسياً . . . وعروة بن الورد كان صعلوكاً . . وتأبط شراً كان قاطع طريق . . وديك الجن الحمصي كان شاعراً إنتحارياً . . . فليس من الضروري اتخاذ هؤلاء مقياساً للإبداع الشعري . . أو اعتبار العزلة والانطوائية قاعدة عامة للعظمة في الشعر .

ففي مقابل هؤلاء . . كان هناك شعراء وكتاب وروائيون أتقنوا فن العلاقات العلاقة ، وتميزوا بحسّ اجتماعي مدهش ، كأبي نواس ، وعمر بن أبي ربيعة ، وأبي الطيب المتنبي ، وأوسكار وايلد ، وأرنست همينغواي ، وت . اس . ايليوت ، والبرتو

مورافيا ، وغابرييل ماركيث . . . وجان كوكتو . . وبول ايلوار . . .

وفي عصر الأقمار الصناعية ، والصواريخ العابرة للقارات ، ووسائل الاعلام المسموعة والمرئية . . لم يعدْ بوسع أي شاعر أن يبقى مختبئاً تحت اللحاف . . ومعتقلاً نفسه بين الجدران الأربعة . .

إن القصيدة المعاصرة في نظري ، يجب أن تستفيد من كل تقنيات الحضارة الحديثة من صوت ، وصورة ، وأشعة ليزر . . كما يجب أن تسافر هي إلى العالم ، لا أن تنتظر العالم حتى يجيء إليها . . . .

إن مرحلة زهير بن أبي سلمى ، وبيضة الديك التي كان يبيضها كلَّ عام قد انتهت . . . وعلى القصيدة العربية الآن أن تركب طائرة الكونكورد . . . لأن ظهر الناقة لا يوصل إلى أي مكان .

● ألا يدفع (التكريس) إلى شيء من التنازل على حساب الشعر والقصيدة ؟ في معنى أن الشعر يصبح أسير جمهوره ، وتضحي العملية الشعرية رهن الذوق العام .

- أنا لا أتنازل عن حريتي الشعرية إلا لخالقي . ولا أدري لماذا تتصورون دائماً أن الجمهور غول يبتلع كل المشاهير . . والنجوم . .

الجمهور ليس غولاً . . ولا حوتاً . . ولا تمساحاً . . ولكنه مرآة يرى الشاعر فيها وجهه . . وبوصلة تحميه من الضياع . . . وبطانية الصوف التي يلتفّ بها الشاعر حتى لا يموت من البرد . . .

الجمهور هو صديقي . . ولم أشعر في يوم من الأيام أنه يتدخل في شؤوني الخصوصية . . . أو يراقب أصابعي وهي تتحرك على الورق . . أو يفرض عليَّ قانون الأحكام العرفية . . .

الجمهور هو حريتي وليس معتقلي . . . .
هو قوَّتي . . وليس ضعفي . .
هو حبيبي . . وليس سيِّدي . .

● تحدثت كثيراً عن المرأة ، وكتبت لها ، وكتبت عنها ، وأصبحت إمرآتك (أو بالأحرى نساؤك) امرأتنا جميعاً في فترة ما (أو نساءنا جميعاً) .

هل تعتقد أن الشاعر يكتب عن امرأة واحدة ، عن حبيبة واحدة ، أم أنه يكتب عن امرأة في المطلق ، عن امرأة يبحث عنها ولا يجدها ؟

- المرأة التي أُحبُّها تصبح جميعَ نساء العالم . هذه هي معجزة العشق التي لا معجزة أكبر منها .

العشق يعجن كل نساء العالم في امرأة واحدة . . يجعل كل الشفاه بلون واحد . . . وكل الخصور بمقياس واحد . . وكل النهود بحجم واحد . . هو حجم نهد الحبيبة . .

لذلك ، أسعدني أن تقول لي أن امرأتي أصبحت امرأتك أيضاً . . ونسائي أصبحن نساءك . .

وطبعاً . . أنا لا أشعر بالغيرة من مشاركتك الشعرية في

حبيباتي . . . طالما أن هذه المشاركة بقيت على الورق . . ولم تنتقل إلى السرير . . .

أما الكتابة عن امرأة في المطلق ، فلم أقترفها في حياتي ، لأنني بحاجة إلى مواد أولية أشتغل عليها . . . فالرسم بدون فرشاة وألوان مستحيل . . والنحت بدون حجر أو برونز مستحيل . . والموسيقى بدون نوتة مستحيلة . . . والطبخ بدون فحم وحطب . . مستحيل . . .

● إذا وجد الشاعر حبيبته ، هل يهجرها ؟ وإذا كتب عنها هل تراها تنطفيء في عينيه ؟ وهل تحدّ امرأة واحدة شاعراً . . .

ـ العلاقة مع المرأة دقيقة جداً . وسريعة العطب جداً .

والشاعر لا يهجر امرأة إلا عندما تتوقف عن إحداث الدهشة ، وتتحول إلى بلاطة . . .

المرأة ، بالنسبة للشاعر ، هي مولّد كهرباء . . فطالما ظلّ هذا المولّد شغّالاً ، وقادراً على توزيع الضوء والحرارة في أطراف الشاعر ، وفي فكره ، وأحلامه . . فإن المرأة تبقى على قيد الحياة . . والقصيدة تبقى على قيد الحياة . . .

المرأة لا تنطفيء في عيني الشاعر ، إلا إذا دخلت في التكرار . . والتشابه . . وتحوّلت إلى شريط تسجيل . . .

أما المرأة الواحدة فلا تحدّ الشاعر إذا كانت في كل لحظة قادرة على إشعال الزمن ، واختراع البروق . .

ومثال أراغون مع إلزا تريوليه شهادة ناصعة على أن امرأة واحدة

تستطيع أن توجز جميع نساء العالم .

● كتبت في أواخر ما كتبت نصاً مسرحياً عن لبنان الحرب بعنوان (جمهورية جنونستان) . ولعله النص المسرحي الوحيد الذي كتبته .

كيف تحدد علاقتك كشاعر بالكتابة المسرحية ؟

- (جمهورية جنونستان) نصّ مسرحي ، لا أعرف كيف صدر عني . . ولا أعرف قيمته المسرحية . كل ما في الأمر انني مللت من الصراخ بصوت واحد . . وأردت أن أجرّب الصراخ بعدة أصوات . . .

● نصُّك المسرحي لا يتخلى عن لحظة الشعر كلغة وموقف ، على الرغم من شحنات السخرية والنقد اللاذع التي يحتويها . ما الذي دفعك إلى كتابة هذا النصّ : عبثية الحرب اللبنانية ، أم النوع الدرامي الذي تخوضه للمرة الأولى ؟ ؟

- الواقع أنني بعد أن أصدرت كتابي (إلى بيروت الأنثى مع حبي) . . . الذي كان مجموعة من المراثي لمدينة بيروت . . . شعرت أنه لا بد لي من الخروج من المرحلة (الكربلائية) . . و (الخنسائية) . . . ومرحلة الوقوف على أطلال ساحة البرج . . والأسواق التجارية . . .

فقررت أن أكتب نصاً مغايراً ، يبتعد عن الشعر ، ويدخل في لحم المشكلة . أردت أن أقول رأيي في هذه الحرب التي لا عقل لها . . والتي سرقت منا ، أجمل مساحة للحرية أتيحت لنا في حياتنا كشعراء . وهي مدينة بيروت . . .

بعد بيروت . . تفكّكتْ مفاصل الشعر . . وتفككت مفاصل الحرية . . وتفككت مفاصلنا . . . وإذا كنا لا نزال نكتب حتى الآن . . فنحن نكتب بقوة الاستمرار، ونأكل من هذا المخزون الشعري العظيم . . الذي وضعناه في حقائبنا قبل الرحيل عن شواطيء لبنان .

كنتُ أريد وأنا أكتب المسرحية أن أبتعد قدر الإمكان عن الشعر . . ولكنني وجدتُ نفسي غصباً عني في أحضان الشعر . . . . فلا تؤاخذوني . . . .

● لبنان في ذاكرتك دوماً ، وفي قلبك . وبيروت هي وردة شعرك السياسي حين غنيتها (يا ستّ الدنيا يا بيروت) .

ماذا يعني لك لبنان وبيروت ؟ وهل يمكن أن يغترب لبنان وتنطفيء بيروت في هذا الزمن العربي ؟

- بيروت علّمتنا القراءة . . والكتابة . . وبعدها دخلنا مرحلة الأميّة .

هذه هي شهادتي النهائية في هذه المدينة العظيمة . . .

فأرجو أن تغلقوا المحضر . . . .

منذ شهرين ذهبت إلى بيروت لأطبع مجموعتيّ الشعريتين الجديدتين (تزوجتك أيتها الحرية) و (ثلاثية أطفال الحجارة) .

دخلتُ إلى المطبعة ، فسمعت موسيقى الآلات الطابعة ، وشممت رائحة الحبر . . واغتسلت ببياض الورق . . وعانقت أصدقائي العمّال واحداً واحداً . . . ودخلت في نوبة بكاء . . .

إذن . . لا أحد يستطيع أن يسرق بيروت منا . .
لا أحد يستطيع أن يطفيء قناديلها ، ويغتال حضارتها .
لا أحد يستطيع أن يلغي زرقة البحر . . وسمفونية المطابع . . .
لا أحد يستطيع أن ينهي سلالة العصافير . . . .

● « ثلاثية أطفال الحجارة » قصائد غنائية تحتفل بالحدث التاريخي الذي فضح مرحلة الهوان العربي . وأنت اتخذت موقفاً إتهامياً واضحاً من الواقع الرديء الذي تعانيه الأمة العربية ، وفضحت عبر غنائك تخاذلنا العربي وجمودنا . كيف تنظر إلى هذه القضية ؟ وهل يستطيع الشعر أن يحتوي هذا الحدث، أم أن الحدث يصنعه ؟

ـ « أطفال الحجارة » لم يقلبوا طاولة السياسة العربية فقط . . وإنما قلبوا طاولة الشعر العربي أيضاً . أخرجوا الشارع العربي ، والخطاب الشعري العربي من حالة (الكوما) . . ومن (غرفة العناية الفائقة) . . ورشّونا بخراطيم المياه . . .

والحقيقة . . أن « أطفال الحجارة » (بهدلونا) . . لأننا كنا في الواقع نستحق (البهدلة) . .

كنا قبلهم نتعاطى (القات السياسي) . . والفاليوم . . وحشيشة الكيف . . وحين جاؤوا صادروا منا (أدوات الغيبوبة) . . وألبسونا الملابس الكاكية . . ووضعونا في شاحنة عسكرية . . وأرسلونا إلى الجبهة . .

« أطفال الحجارة » قطعوا إجازات جميع الشعراء العرب . .

ودعوهم إلى التجنيد الاجباري . . وبالنسبة لي قطعوا لي إجازتي السويسرية . وأرسلوني إلى الخطوط الأمامية . ولم يكن أمامي خيارات كثيرة . . كان عليّ أن أكون معهم . . أو أن أكون ضدَّ الشعر .

وهكذا ترى أن الحدث هو الذي يستدعي القصيدة . . وليست القصيدة هي التي تستدعي الحدث . . .

فالشاعر ، بحاجة إلى « خضّة ما » تغيّر فصيلة دمه . . وأعتقد أن ثورة أطفال الحجارة غيّرت تركيب دمنا . . .

● إثر مرحلة طويلة من الكتابة الشعرية ، ومعانقة الكلمات . هل يعتقد نزار قباني أنه استطاع أن يقول كل ما يطمح أن يقوله ؟ وهل يستطيع الشاعر أن يقول كل ما يحلم بقوله ؟

ـ الشعر هو عملية استشهاد على الورق من طراز أول . . وليس نزهة في ضوء القمر . . أو استلقاء على كرسي هزّاز . .

الشعر بحاجة دائماً إلى شعراء إنتحاريين . . أما الشعراء الذين يكتبون . . بنصف أصابعهم . . أو بربع أصابعهم . . أو يطالبون بالتأمين على رؤوسهم . . فخير لهم أن يستقيلوا من الشعر . .

لقد استطاع الشعر في كل العصور أن يقول كلمته ، رغم كل أساليب القمع والقهر وغسيل الدماغ . .

ومهما كان عدد السيّافين كبيراً . . فإن عدد الشعراء أكبر . . . ومهما تكاثر الصيّادون . . فإن العصافير تتناسل بسرعة خرافية . .

أما أنا ، فأتصوّر أنني قلت كل ما عندي ، ولم أخبيء في

جواريري قصيدة واحدة لم أدفعها إلى النشر . . فأنا لا أؤمن بالشعر الباطني . . ولا بشعراء الباطنية . . .

● لو سألتك : أيّ كتاب هو الأقرب إليك ، فماذا تجيبني ؟

- الكتاب الأخير . . حتى يولد شقيق آخر له . . .

● نزار قباني ، حالة وسطى بين الحداثة الشعرية والتراثية ، بين الكتابة النرجسية الخاصة ، والعطاء الوجداني المنفتح على هموم الناس ، كيف ترى إلى هذه العلاقة التي تربط لديك الحداثة بالناس العاديين ، خصوصاً وأنك الوحيد الذي استطاع أن يطل على الناس من داخل المعاصرة ، فكان شعره جسراً حقيقياً بين الماضي والحاضر . . بين الحداثة والجماهير . .

- هل من الضروري أن تكون الحداثة ضد الجماهير حتى تكون حداثة ؟ إن الذين يقولون هذا الكلام يسيئون كثيراً إلى الحداثة . . ويضعونها في المحجر الصحي (الكرنتينا) . . ويمنعونها من الاختلاط بالناس .

لقد أسعدتني حقاً حين قلت عن شعري إنه جسر يربط بين الماضي والحاضر . . بين الحداثة والجماهير . . .

والحقيقة انني أعتبر هذا الكلام مكافأتي وجائزتي الكبرى . . فالشعر هو همزة وصل . . لا همزة قطع . . . وإذا استطعتُ بشعري أن أجعل مئتي مليون عربي يتناولون الشعر مع وجبات إفطارهم . . ويحتسونه مع فناجين القهوة . . . فأكون بذلك قد خدمتُ الحداثة ومنحتها الشرعية ، وانتزعت الاعتراف الشعبيّ بها . . .

● دوماً ، في شعرك نبـرة إتهاميـة تفضح عبـرها الـواقـع ، وتحاول أن تغيره : هل برأيك يستطيع الشاعر أن يغيِّر العالم ، أم أن شعره يظل مجرَّد شعر ، ومجرَّد كلمات ؟ . .

ـ بكل تأكيد يستطيع الشاعر أن يغيِّر العالم ، إذا كانت لـديه إرادة التغيير . .

إن أمسية شعرية يقدمها شاعر . . . تترك حفراً . . وشقوقاً . . وأخاديد في أجساد الناس . وكلمات الشاعر لا تتلاشى في الهـواء كفقاعات الصابون . . ولكنها تتجمع في وجدان الجماهير كالميـاه الجوفية . .

صحيح ، أن التغييرات التي يحدثها الشعر بطيئـة . . بالنسبـة لسرعة الرصاصة . . أو سرعة القذيفة . . أو سرعة الصواريخ العابرة للقارات . . . ولكن أسلوب الشعر في التغيير يشبه أسلوب قطرات الماء الصغيرة التي تتجمع . . وتتجمع . . وتتجمع . . حتى تصنع الطوفان .

● يقول البعض أن قصائد كثيرة لديك يشبه بعضها بعضـاً . . ويقول آخرون إنك وقعت أحياناً في التكرار . . كيف ترد على هذه الآراء؟ وكيف برأيك يتجدد الشاعر وشعره . .

ـ كلُّ شاعر ، أو رسَّام ، أو موسيقي له صيغـة يكتب أو يرسم أو يؤلف بها . وهذا مـا يعرف بـالهويـة الفنية . شيكسبيـر كان لـه صيغته ، والمتنبي كان له صيغته . . وأبو نواس كـان له صـيغتـه ، وكذلك بيتهوفن ، وموزارت ، ورينوار ، وفان كـوخ ، وبيكاسـو ، ودالي . .

كل هؤلاء احتفظوا في كل إنتاجهم بهذه الهوية التي رافقتهم طوال حياتهم ، وعرفت بهم وعرفوا بها . . . فإذا كان هذا هو المقصود من تهمة التكرار . . فإنني أتصور أن الشاعر لا يمكنه أن يلبس كل يوم بدلة فاضحة الألوان ، كلاعبي السيرك ، لأنه لو فعل . . سيكون مضحكاً .

جمهورية الحب العربية المتحدة(*)

(*) المقدمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية في معرض الكتاب الدولي في القاهرة بتاريخ ٢٩/١/٨٧ .

يدخل الشعراءُ العربُ إلى مصر ، ليعلنوا قيام جمهورية الحبِّ العربية في وجه جمهوريات الحقد ، والقبح ، والبغضاء .

يدخلونها ، من بوَّابة الشعر ، ليؤسِّسوا وطن القصائد ، بعدما فشل السياسيون العرب في تأسيس وطن بحجم البعوضة . . . أو بحجم قرص الأسبرين . . .

يدخلونها من بابها العربيّ المرصَّع بأسماء الله الحُسْنى ، ليؤكدوا استحالةَ التاريخ العربي بغير مصر ، واستحالةَ مصر بغير تاريخها العربي ، كما يستحيل الغناءُ بغير المعني، والكتابةُ بغير الكاتب ، والوردةُ بغير عطرها ، والقبلةُ بغير الشفتين . . .

يدخلونها مجموعةً من العصافير النادرة ، ليناموا تحت شجر عينيها الأخضر . . وليصلّوا صلاة الفجر تحت مآذن الأزهر ، حيث صوت الشيخ محمد رفعت ، لا يزال يتسلّق على الأعمدة الرخامية كنباتٍ سماوي .

يدخلونها من وجهها القِبْليّ أو من وجهها البحريّ ، لا فرق ، فكلُّ الدروب في مصر ، توصلك إلى سمفونية الماء . . .

يُمزِّقون الخريطة التي رسمها ملوكُ الطوائف ، ويكتشفون أن

الشعر العربي هو امتداد موسيقي ولغوي واحد من حنجرة أبي الطيِّب المتنبي ، إلى حنجرة بدر شاكر السيّاب ، إلى حنجرة بيرم التونسي وصلاح جاهين .

●

يتجمَّع الشعراء العرب في ساحة التحرير ، نقطةً فوق نقطة ، وحرفاً فوق حرف ، وفاصلةً فوق فاصلة ، ليعلنوا قيام جمهورية الشعر العربية المتحدة ، في وجه الجمهوريات الشعوبيَّة غيرِ المتحدة .

يتجمَّعون غابةً من البُروق، وأقواس قزح ، ليعلنوا انتصارَ القصيدة على الزمن العربي المالح ، وسقوطَ خيام المشعوذين والمهرِّجين ، والمصابين بمرض (إيدز) الثقافي والقومي ، والأميّين بالوراثة ، والبوليسيين بالوراثة ، والمحترفين قتل شعوبهم بالوراثة .

●

يتراكض الشعراء في أزقة حي سيّدنا الحسين ، أولاداً يبحثون عن طفولتهم ، وعن أحلامهم القديمة ، وألعابهم القديمة ، وفوانيسهم القديمة ، بعدما تسكّعوا طويلاً على أرصفة مدن الملح . . التي تسلخ جلد الأطفال ، وتغتال أحلامهم .

يقفون مبهورينَ أمام القمر المصري ، فيحسبه بعضُهم فطيرةَ عَسَل . ويحسبه بعضُهم فطيرةَ حريَّة . . والرواية الثانية هي الأصدق . واللّهُ أعلم .

●

تنادينا السيدة زينب : يا أولادي . . . فتتساقط دموعُنا وقصائدُنا

على غطاء رأسها الأبيض ، أزهارَ ياسمين . .

نطالبها بحقّنا في أمومتها ، وبتعويضنا عن آلاف الأكواب من الحليب السكريّ الذي فطمونا عنه منذ السبعينات ، فتناهشتنا الأمراض ، بدءاً من نقص الكالسيوم ، إلى نقص المناعة ، إلى شلل الأطفال ، إلى شلل الشعور القومي .

نتكيء على صوت سيّد درويش ، المكتظّ بنار التحوّلات ، ونار النبوءاتّ ، وبذور الثورات الآتية ، لنعلنَ استمرار النشيد ، وحتميّة انتصار الأغنية البيضاء ، رغم هذا الكورس السياسي الرديء ، الذي يحتلُّ المسرحَ بقوة السلاح ، ويفرض على الشعب العربي سماع بلاغاته الديماغوجية بقوة السلاح .

●

وبعدُ . . وبعدُ . . فهذه هي مصرُ مرةً أخرى .

ندخلها بغير تصريح ، ولا إذن ، ولا فَرمَان أميري . لأن الدخولَ إلى القلب ، لا يحتاج إلى تذاكر دخول ، ولأن العودةَ إلى رحم الأمّ ، لا تخضع لإجراءات الأمن والجمارك .

إن نهرَ النيل لم يكن في يوم من الأيام ضابطَ بوليس ، يتولّى مصادرة الأفكار ، والكلمات ، والكتُب .

كما أن أبا الهول لم يشتغل على امتداد تاريخه رقيباً على المطبوعات .

وإنّي لأشهد أن القمع لم يكن أبداً تراثاً أو فولكلوراً مصرياً .

ولذا فإن كلَّ نخلةٍ صادفناها في صعيد مصر ، كانت تقول لنا : (أدخلوها بسلامٍ آمنين) .

العراق هو شجرةُ
السلالات الشعريَّة(*) .

(*) مهرجان الأمة الشعري الأول ـ بغداد نيسان (ابريل) ١٩٨٤

من الذي يا تُرى وُلدَ قبل الآخر ؟
هل الشعرُ وُلِدَ قبل العراق ؟ أم أن العراقَ وُلِدَ قبل الشعر ؟
من الذي في سِفْر التكوين جاء أولاً ؟
النخلةُ العراقيةُ ، أم القصيدةُ العراقية ؟
ملويَّةُ سامرَّاء ، أم قامةُ المتنبي ؟
بابلُ العظيمةُ ، أم العظيمُ أبو تمَّام ؟
نهرُ دجلةَ ، أم النبيذُ المتدفِّقُ من شعر أبي نُواس ؟
أمطارُ الكحل في عيون السُومريَّات . . أم أمطارُ الحزن في شعر السيَّاب ؟

●

هذه الأسئلةُ كانت دائماً تُربكني ، مثلما يرتبك الآباءُ أمام أسئلة أطفالهم التي لا تنتهي .

من الذي كان أولاً ؟

البيضةُ أم الدجاجة ؟ الشجرةُ أم أوراقُها ؟ العينُ أم أهدابُها ؟ الوردةُ أم عطرُها ؟ القبلةُ أم الشفة ؟

ليست هـذه الأسئلة طفوليـةً كما تـظنّـون ، ولكنهـا بحثٌ في أولويّات الخلق ، وتـرتيب المخلوقات ، ومحـاولة لتحـديد مكـان العراق على خريطة الشعر. وإذا كـان يحق لي أن أدليَ بشهادتي ، بعد أربعين عامـاً من إقامتي في مـدينة الشعـر ، فإنني أدلي بهـذه الشهادة :

العراقُ ، هو مـركزُ الثقـل في الكُرة الشعريَّـة ، ولـولاهُ لاختلَّ توازنُ الأرض ، وخرجت القصائد من مداراتها .

العـراق ، هو أبـو جميع السُـلالات الشعريـة ، وأصلُ جميـع الفصائل والأنواع ، وأنبوبةُ الخصوبة واللقاح .

وبكلمـــةٍ واحـدة ، هـــو آدمُ الشعـــر ، ونحن جميعـــاً أولاده وأحفاده . هل من الممكن علمياً أن نتحدث عن سلالات شعريـة كسلالات الغزلان ، والفراشات ، والطواويس ؟

وإذا كـان النقد الحـديث لا يؤمن بعلم السلالات الشعـرية ، فـلماذا تمطرُ النجفُ خمسمئة شاعرٍ في الدقيقة ؟ في حين لا تمطر سماءُ جنيف سوى ساعات أوميغا ، وبياجيه ، وحليب نيدو السريع الذوبان . . . ولا تمطرُ سماءُ موناكو سوى (فيشات) اللعب . . ولا تمطر سواحلُ نيس وكان وكابري سوى مشتقات النفط العربي ، ولا تتقيـأ سـوى نعـال العـرب . .

مهرجانُ الأمة الشعري للشباب ، هو معجزةٌ خارقة .

فما كان أحدٌ يتصوّر ، أن بغدادَ ، وهي في ملابس الميدان ،

تفتح ذراعيها للشعر ، وتمدُّ له السجّادَ الأحمر ، وترشّه بماء الورد . .

ما كان أحدٌ يتصور أن بغداد ، تتفرّغ للشأن الشعريّ ، كما تتفرغ للشأن الحربي ، ويكون لديها استراتيجية شعرية كما لديها استراتيجية عسكرية . . .

آهٍ . . كم هو عجائبيٌّ هذا العراق الذي عنده وقت لكل شيء . وقتٌ للدفاع عن كبرياء الأمة ، ووقت للدفاع عن كرامة الكلمة .

آهٍ . . كم هو خرافيٌّ هذا العراق الذي يمسك بيده اليمنى البندقية ، وبيده اليسرى يُمسك عصفورةَ الشعر .

آهٍ . . كم هو حضاريٌّ هذا العراق ، الذي يتبرع ببطّانيته العسكرية ليغطّيَ بها جسدَ الشعر . .

وإذا كان الكتابُ المقدس يقول لنا : في البدء كانت الكلمة . فاسمحوا لي أن أعلنَ على مسؤوليتي الشخصية : أنه في البدء كان العراق . . .

●

عندما تلقيت الدعوة لحضور مهرجان الأمة الشعري الأول للشباب ، كانت بيروتُ تحترق ، وكنا عصافيرَ في وَسَط الحريق .

ووقعتُ بين أسنان الحيرة .

فلا أنا قادرٌ على كسر حصار بيروت ، ولا أنا قادرٌ على رفض أمنيةٍ للعراق .

أليسَ هذا وطنَ الحبيبة بلقيس ؟

أليست هذه السماءُ سماءها . . وهذا النهرُ نهرَها . . وهذه البساتينُ الخضراءُ بعضَ لون عينيها ؟ . . .

ألم تطلب مني بلقيسُ أن أزورَ بيت أبيها . . وأسلّم على رفيقات مدرستها في ثانوية الأعظمية ؟

ألم تطلب منّي أن أقطف لها عشرة أقمارٍ من شجرة (الرازقيّ) لتزرعَها في شعرها الذهبيّ الطويل ؟ . .

ألم تطلب مني أن أزورَ مسجدَ الإمام الأعظم ، لأقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة ؟ . .

إنني ضعيفٌ جداً أمام رغبات بلقيس . .

وضعيفٌ جداً أمامَ هذه المدينة العظيمة ، التي أهدتني هذه المرأةَ العظيمة . . .

●

وهكذا أدخلُ بغدادَ هذه المرة على صهوة جرح . وإذا كنتُ مضرّجاً بأحزاني ، فإن الوطنَ العربيّ كله مضرَّجٌ بالهوان ، والقَرَف ، والغثيان ، من رأسه حتى قدميه ، ويمرّ بأخطر مرحلةٍ من مراحل موت الرجولة . . .

أما العنفوان القوميّ الذي عرفناه في الخمسينات ، فقد خطفوه من منزله ليلاً . . ولا يزال مصيره مجهولاً . . .

●

في هذا المهرجان ستركضُ أمامنا الخيولُ الشابّة . ولن يتدخّل أحدٌ في حركتِها ، وصهيلها ، وانسيابها ، وموسيقى حوافـرها على الأرض .

إنَّ خيول الشعر تعلّم نفسَها ، كما يتعلم العصفورُ فنَّ الطيران من اصـطدامه بـالـريـح . . وكمـا تتعلّم السمكـةُ فنَّ السبـاحـة من اصطدامها بالموج . . ولم أشاهد في حياتي عصفوراً يحمل حقيبةً مدرسيةً . . ولا سمكةً تخرّجتْ من جامعة السوربون . . .

المهمّ ، أن تكـونَ نارُ الشعـر مخبوءةً تحت جلد الشـاعر . . وبعـد ذلك ، يصبـح ترويضُ النـار عملاً تقنيـاً يُكتسبُ بالشغـل ، والإختبارات الثقافية ، والمهارة اليدوية ، والتجريب .

●

يا أصدقائي . يا أصدقاءَ الشعر :

نحنُ هنا زملاء لا أوصياء . وشهودٌ لا قُضاة . وضيوفٌ بينكم ، لا عرّابونَ عليكم .

فليركضْ كلُّ حصانٍ كما يشاء . . وليصهل كما يشاء . . وليقفز فوق أوزان الخليل كما يشاء . . وليكسِرْ ـ وهو في ذروة حمـاسه ـ حواجزَ البلاغة القـديمة ، وليـأكل ألفيَّـةَ ابن مالك ، من أولها إلى آخرها ـ وليأكُلْ معها جميعَ المقامات . . إذا شاء . .

فلن نعاقبَ أبداً أيَّ حصانٍ يريد أن يتفرّد بمشيته ، أو بحركته ، أو بتمرّده ، أو بجنونه . . .

فأنا كنتُ ، ولا أزالُ ، مع الخيول المجنونة .

فالخيول المجنونة وحدها هي التي تخترعُ خُطاها . . وتخترع صهيلَها . . وتقطع المسافةَ بين القرن العاشر والقرن الواحد والعشرين في أقلَّ من ثانية .

هذه وصيةُ سائس خيلٍ قديم . . خبِرَ الخيولَ وخبرتْه ، وأطعمها من راحته اللوزَ والسُكّر . . .

فاركضوا مع الرياح الأربعة . . والله معكم . . وقلبي معكم . .

١٢ نيسان (ابريل) ١٩٨٤

المتنبّي . . في بريطانيا(*)

(*) المقدمة النثرية التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية في تشيلسي تاون هول في لندن ، بدعوة من النادي العربي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٦ .

تسافر القصيدةُ العربية باتِّجاه بحر الشمال ، بحثاً عن العشب والكلأ في هايـد بارك ، وريتشمـوند بـارك ، وهولانـد بارك ، لأن الوطن العربيّ لم يَعُـدْ فيه شيءٌ يؤكـل سوى لحم الثقـافة ، ولحم المثقّفين . . .

تسافر القصيدةُ العربيةُ إلى المراعي الأوروبية ، لتُقَرْقِشَ الورقَ الأخضرَ ، لأنها لم تَعُدْ تجد شيئاً تُقَرْقِشُه في شبه جزيرة العـرب ، غيرَ المسامير ، والأسلاكِ الشـائكة ، وبـراغي السيارات الأميـركية الصنع .

تسافرُ القصيدةُ العربيةُ باتجاه الماء . . لأن حَلْقَها قد نشـف من شدّة العطش ، ودمَها قد نشف من شدة الخوف ، وأقدامها قد تورّمت من شدّة الضرب ، وعظامها قد تفتتت من كثـرة النوم على البلاط البارد .

تسافر القصيدةُ العربية إلى سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن ، وإلى كونشرتو البيانو لرحمانينوف ، كي تنسى سمفونية الـدم والرصـاص التي ما زالت تُعزف بدون توقف في شوارع بيروت منذ خمسة عشر عاماً .

تسافرُ القصيدةُ العربيةُ إلى لندن ، لتنصبَ خيمةً على ضفاف نهر التيمز ، بعد أن استحال على الشعراء العرب أن ينصبوا خيامهم على ضفّة أي نهر عربي .

من أجل هذا جاء المتنبّي إلى لندن .

وها هوذا يحمل خيمته على ظهره ، ويربط ناقته في ساحة (ترافلغر سكوير) ، علَّ الأطفال الانكليز الذاهبين إلى مدارسهم ، يتعرّفون على عمِّهم المتنبي ، ويقولون له : « هالو . . . » .

أيها الأصدقاء :

المتنبي في الجزيرة البريطانية لم يأت بقصد السياحة ، أو شمّ الهواء ، أو (الشوبينغ) . . فالجنيهات السترلينية التي يحملها لا تكفي ثمناً لعَلَف ناقته . . .

ثم ان المتنبي لم يأت إلى الجزيرة البريطانية ليزاحم شكسبير ، أو شيللي ، أو براونينغ ، أو ووردزورث ، أو ليسرق الأضواء منهم ، أو ليقطع رزقهم ، أو لينضمّ إلى اتحاد الكتاب البريطانيين . .

إنه يعرف جيداً أن لا شاعرَ يمكنه أن يغتال شاعراً آخر ، أو يزحزحه من مكانه . وإذا كان شيكسبير ديكَ الجزيرة البريطانية . . فإن المتنبّي هو ديكُ العرب الأعلى صوتاً .

والمتنبي ، بعد ذلك ، لا يريد أن يكتبَ شعراً بالإنكليزية . . فهو يعرفُ جيداً أن جميع من كتبوا بغير لغتهم من الشعراء ، ظلّوا منفيين خارجَ أسوار لغتهم . .

والمتنبي أخيراً ، لا يريد الحصول على الجنسية البريطانية ، ولا يريد أن يقف على أبواب الـ Home Office ليشحذ الاقامة الدائمة . فهو قانعٌ بقَدَره العربيّ ، وفخورٌ بقوميته وانتمائه ، ومدركٌ أن الإنسان لا يغير وطنه مثلما يغير حذاءه .

●

المتنبي في بريطانيا لا يقف في طوابير العرب المتسكّعين في أوكسفورد ستريت . . وبيكاديللي سيركس . . . ولا يبحث عن المطاعم التي تقدّم اللحم مذبوحاً على الطريقة الإسلامية . . ولا يفكر بشراء عباءة جديدة من محلات (هارودز) لأن كل العباءات المعروضة أصغر من قامته .

المتنبّي في بريطانيا رمحٌ يرفضُ أن ينحني ، ويرفض أن يساوم ، ويرفض أن يقدم التنازلات .

وإذا ما سأله الشرطيُّ البريطانيُّ من هو؟ وماذا يفعل في بريطانيا ؟ وإلى أي جنسيةٍ ينتمي ؟ ومن هو كفيلُهُ في المملكة المتحدة ؟ صرخ :

يقولون لي ما أنتَ في كلِ بَلْدَةٍ ؟
وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلَّ أن يُسْمَى . .
كذا أنا يا دنيا ، إذا شئتِ فاذهبي
ويا نفسُ ، زيدي في كرائهها قُدْما
فلا عَبَرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزّني
ولا صحبتني مهجةٌ تقبلُ الظلما
وإنّيَ من قوم كأنَّ نفوسَهُمْ
بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظما . . .

ويرفع الشرطيُّ البرِيطانيُّ يدهُ بالتحية ويقول له :
« عفواً . . سيِّدي الشاعر . . » .

●

إذن فالمتنبي في بريطانيا هو حادثةُ كبرياء ، لا حادثةُ ركوعٍ وانحناء . . ولا حادثة فرارٍ والتجاء . . .

فالقصائدُ العظيمةُ لا تهرب ولا تلتجيء . . وإنما تسافر كالبرق من بلدٍ إلى بلد ، لتشعلَ حرائق الحرية في كل مكان .

إن المتنبي لم يأتِ إلى بريطانيا وحده . . فهو يحمل في داخل حقيبته مئةً وخمسين مليون عربي ، أعطوه وكالةً عامةً ليكونَ الناطق بلسان مواجعهم ، ومدامعهم ، وقرفهم ، وغضبهم ، وأحلامهم المكسورة . .

والمتنبي في بريطانيا ليس له همومٌ نسائيةٌ أو جنسيَّة . . فذوقه البدويُّ لا يستطيبُ ذواتَ الشَّعْرِ الأحمر . . والعيون البنفسجية . . لأنّ قلبه لا يزال معلقاً بجميلات حلب ، وسمراوات الكوفة . . .

والمتنبي في بريطانيا ليس له همومٌ مصرفية ، ولا تطلعات إقتصادية ، أو رأسمالية . بالإضافة إلى أنه لا يلعب (الروليت) ولا يرتادُ ميدانَ سبق الخيل ، ولا يضارب في بورصة لندن ، ولا يعرف الفرق بين دفتر الشيكات . . ودفتر التلفونات . .

والمتنبي في بريطانيا ليس معلقاً رياضياً في جريدة التايمز أو الغارديان . ولكنه سفير فوق العادة في بلاط الحريّة .

المتنبّي ليس موظفاً لدى أحد . . ولا كاتباً بالسخرة لدى

أحد . . ولا مديناً بالولاء إلا لربّه وموهبته . وهو لا يشتغل شاعراً بالمياومة ، أو راقصاً بالمياومة ، أو مهرجاً بالمياومة ، أو سائساً في إسطبل أي سلطةٍ أو سلطان . . .

المتنبي في بريطانيا ، لا يلعب الغولف ، ولا يهتمّ ببطولات التنس في ويمبلدون .

إنه مسكونٌ بالوجع القومي الكبير . . .

ومكتظٌّ بملايين الأسئلة . .

الهمّ الوحيد الذي يسكن المتنبي في الليل والنهار هو همّه القومي . هَمُّ هذه الأمّة الموزائيكية التركيب ، الكاريكاتورية الملامح ، التي سقطت بين أسنان الشعوبيين . . ومخالب الميليشيات . .

●

وبعدُ . . وبعدُ . . هذه هي حكاية المتنبّي في بريطانيا . . . .

إنّها باختصار حكاية شاعرٍ غاضب ، يحاول أن يغرزَ رمحه في لحم عصور الانحطاط . . ويقطّعَ رؤوسَ الديناصورات التي تطحن عظامَ الإنسان العربي .

لندن ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٦

وصلت رائحة أبي لهب . .
إلى شارع الصحافة(*) . .

(*) حوار مع الأستاذ لامع الحر ـ مجلة الشراع اللبنانية ، بتاريخ ٢٥/٤/٨٧ .

● هـل تُعتبـر الحملة ضـدّكم منـظَّمـة ، أو ذات أهـداف سياسية ، أم هي موقف شخصي ، أو مجرد مصادفة ؟

- ليس هناك حادثةٌ تقع في عالمنا العربي اعتباطاً أو مصادفة . وفي (قصيدة بلقيس) جوابٌ تفصيلي لسؤالكم :

« لا قَمْحَةٌ في الأرض تنبتُ دون رأي أبي لَهَبْ . .
« لا رأسَ يُقْطعُ دون أمر أبي لَهَبْ . .
« كـلُّ الكـلاب مـوظَّفـونَ . . ويـأكلونَ . . ويسكـرونَ على حساب أبي لَهَبْ . .
« كلُّ اللصوص من الخليج إلى المحيط . .
« يُدمّرونَ . . ويُحرقونَ ، وينهبونَ ، ويرتشونَ . .
« ويعتدونَ على النساء كما يريدُ أبو لهب . . » .

إن ملفَّ الحملة الأخيرة موجودٌ عندي . فمثلمـا هناك مـوساد إسـرائيلي يتعقّب الأجسادَ والأدمغـةَ والأقلامَ العـربية ، فـإن هنـاك (موسادات عربية) تتعقّبُ كلَّ كاتبٍ عـربي رافضٍ أو معارضٍ ، حتى يتمَّ تدجينهُ ، أو إسكاته ، أو تصفيته . .

ومثلما يَستأجر الموساد الإسرائيلي عملاءَ محليين يتولون تنفيذ مخطَّطاته ، فللموسادات العربية أيضاً أدواتُها ، وصحافتُها ، ومعلقّوها ، ونقّادها ، ومحرّروها الثقافيون .

والذي يتابعُ أخبارَ البازرات الصحفية الكبرى التي تجري في أوروبا لشراء الصحف المهاجرة ، وعمليات انتقال ملكية هذه الصحف من يدٍ إلى يد ، يدركُ على الفور أن السلطانَ يريدُ أن يرثَ الأرضَ وما عليها . . وأن يرث الصحافةَ بحبْرها ، وَوَرقها ، ومطابِعها ، ومحرّريها ، ورؤساء تحريرها . . بحيثُ لا يصدر غلافُ مجلةٍ إلا بأمره . . ولا يُوضع عنوانٌ رئيسيّ إلا بأمره . . ولا يُرْفَع الفاعل ، ويُنْصَبُ المفعول به إلا بأمره . . .

السلطان لم يعد يرضيه أن تكون نسبة الولاء له عشرة بالمئة . . أو ثلاثين أو خمسين بالمئة . . إنه يريد ولاءً بنسبة ٥٠٠ بالمئة . . وإلا أوقف مساعدات (مارشال) عن مُتسوّلي الصحافة العربية .

ولمّا كان ولائي الشعريّ للسلطان هو بنسبة ٥٠٠ درجة مئوية تحت الصفر . . . فكان لا بدّ من تأديبي . . لأكونَ عبرةً لكلّ المارقين ، والجانحين ، والمشاغبين ، والهاربين من بيت الطاعة .

إنني في غاية السعادة لهذه المعركة السينمائية المُثيرة ، بين الشاعر وبين السلطان . .

السلطان يدخلُ المعركة مدجّجاً بسيوفه ، وسَيّافيه ، وبترودولارته . . والشاعرُ يدخلُها مدجّجاً بكبريائه . . وكبرياء كلماته . .

إنّني لا أملك في حربي مع السلطان سوى ثمانيةٍ وعشرينَ

حرفاً ، استطعتُ بها أن أفتح بوّاباتِ الوطن العربي كلِّه . .

في حين انهزمَ السلطان في أكثر من موقعة . . وأُصيب بـأكثر من طعنة . . وحاصرت القصائدُ قصرَهُ من الجهات الأربع . . .

وإنّها لثورةٌ حتى الشّعر . . . .

● **هل يمكن أن يستمرَّ الشاعرُ في التزامه ، وهـو يكتب بين أسنان العاصفة ؟**

ـ العـاصفةُ هي الحصـانُ الوحيـد الـذي يليقُ بـالشـاعـر أن يركبه . . . فالشاعرُ بغير التزامٍ هو (طبق سباغيتي) سَهْلُ البلع . . وسَهْـلُ الهَضْم . وأنـا لا أريـدُ أن أكـون شـاعـراً من شعـراء السباغيتي . . وما أكثَرهُم . .

صحيحٌ أنَّ أنيابَ السلطة حادّة ، وقاطعـة ، ومُفَوْلَـذَة ، ولكن القصيدةَ أيضاً لها أنيابُها وأظافرها وعضّاتُها الموجعة . .

وإذا كانت الوردةُ ، والنحلة ، والسمكة ، تستطيـع أن تدافـع عن نفسهـا ، فأولى بـالشاعـر أن يقف في حنجرة السلطة كشـوكة مستحيلةِ البَلْع . .

إن الشاعرَ الذي يعيش تحت جبَّة السُّلْطَة ، هـو شاعـر ساقطٌ أصلًا . . فالتاريخُ لا يتذكّرُ أبداً دراويشَ الشعر ، والجالسين طول الـوقت على أرصفـة مـدينـة (نعم) . . . حسب تعبيـز الشـاعـر يوفتشنكو . .

إن الموقعَ الطبيعي للشاعر هو أن يسكن (في جفن الردى وهو نائمُ) كما قال سيّدنا أبو الطّيب المتنبي .

أما الشاعرُ الذي يستعمله السلطان كعلبة النُشُوق . . أو كالمَسْبَحة . . ويستدعيه لإحياء حفلاتِ الطرب ، فإنَّ خَدَم القصر سيكنِّسُونه صباحَ اليوم التالي مع قشور الموز . . .

● **الوضع الطبقي والمادي للشاعر هل يؤثر على موقفه ؟**

ـ الطبقيّةُ هي مربَّع صغيرٌ جداً ، كالطائفية ، والمذهبية ، والعرقية ، ولا يمكن للشاعر أن يحبسَ نفسَهُ في داخل هذه المربّعات . . وإلا تحوَّل إلى أسير طبقته . . أو أسير طائفته . .

الشاعر الحقيقيّ هو الذي يسافرُ في اتجاه الإنسان ، ويخترق حدودَ مدينته . . أو طبقته . . ليلتحمَ بالطبقات الأخرى .

فاللورد بايرون فعل ذلك . . والأمير أبو فراس الحمداني فعل ذلك . . ولسان الدين بن الخطيب ، صاحب الوزارتين ، والخليفة الوليد بن يزيد ، وابن زيدون ، وابن المعتز، وسامي باشا البارودي ، وأحمد شوقي ، كل هؤلاء استطاعوا أن يكسروا جدارَ الطبقة . . وينتقلوا إلى الضفة الأخرى من نهر الإنسانية .

أنا شخصياً ، لم تواجهني مشكلةٌ من هذا النوع ، لأنني أنتمي إلى الطبقة الوسطى الدمشقية . وبيتنا كان مزروعاً في قلب دمشق القديمة . . بين مآذن الجامع الأموي ، وأضرحة الأولياء ، وكلام الناس الطيّبين . ولذا فأنا لا أحتاج إلى أكثر من سرير إنفرادي ، كتلك الأسِرَّة المستعملة في المستشفيات والسجون ، لأكتب قصيدتي .

ولو انني نمتُ بالصدفة على سرير من طراز لويس الخامس

عشر أو لويس السادس عشر . . لطار النوم من عيوني ، وطارت القصيدة . . .

إنَّ أجملَ قصائدي كتبتُها ، وأنا ألبسُ بنطلون الجينز الأزرق . . وأقضمُ ساندويشة على أرصفة المدن المزدحمة . .

لذلك فإنَّ طموحاتي المادية تكاد تكون صفراً . . فأنا لا أطلب يختاً يجوب البحار على طريقة أوناسيس أو عدنان خاشقجي . . ولا أريد أن أشتري قصر وندسور من ملكة بريطانيا . . .

إن بنطلون الجينز الأزرق هو ثروتي القوميّة والشعريّة . .
وإذا أراد السلطان أن يأخذه مني . . فليأخذْه . .

وإذا أراد أن يأخذ نصف ساندويشتي . . فليأخُذْها أيضاً . . .

المهمّ أن يتركَ القصيدةَ تشتعلُ داخلَ شراييني . .
ومبروكٌ على السلطان جميع أملاكي المنقولة . . وغير المنقولة .

● هل يقلّل من انتماء الشاعر القومي ، اعتراضه على موقف العرب كجمهور ؟

ـ على العكس . . إن الجمهور يفضل شاعراً يزرع في لحمه دبّوساً . . ويواجهه بالحقيقة . . على شاعر يغش في أوراق اللعب . . ويلعب (الجَلاَ جَلاَ) . .

إن عبارة الشاعر القومي ، لا تعني أبداً أن نخطب على طريقة عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ   تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

هذا كَذِبٌ على الذقون لا يحتمل بالنسبة لأمّةٍ لا يجد أطفالها في السودان وفي لبنان جرذاً حياً يصطادونه . . .

لا يمكن أن يقوم الخطابُ الشعريّ على الكذب والتجليط البلاغي . . ولا يمكن للشاعر أن يضربَ على الدفّ . . والقتيلُ لم يدفنْ بَعْدُ . .

الجمهورُ ، كالطفل ، لا بدّ من أخْذِهِ بالعُنْف ، إذا اقتضت الضرورة ، ولا بدَّ من شدِّ أُذُنَيْه . . إذا أهملَ واجباته القومية . .

إذا كان الجمهور منذ عام ١٩٧٠ ، يرفضُ أن يستحمَّ . . ويرفض أن يذاكرَ دروسَه . . وينامُ كالحيوانات القطبية تسعةَ أشهر في السنة . . فكيف أتعاملُ معه ؟

هل أقَبلُ وجنتيه . . وأغرقُهُ بالهدايا والنقود ؟؟

إنّني أرفض طريقةَ عمرو بن كلثوم في التربية القومية . . وأعتبرها من أسوأ أساليب التربية . .

● هل مهمة الشاعر الإشارة إلى البديل ، أم مجرَّد التشخيص والتنبيه ؟

ـ لا ليس من مهمات الشاعر إعطاء (الراشتات الطبيّة) . .

الشعر يضيءُ خشبةَ المسرح . . بحيث لا يبقى شيءٌ في العتمة ، ثم يحمل معطفه وينصرف . . .

● نقلت الصحافة عبارتك التي قلتها في القاهرة عن ضرورة إقامة (جمهورية الشعر العربية المتحدة) . ماذا تعني هذه العبارة بنظر نزار قباني ؟ وهل هناك تفكير بالعودة إلى مصر ؟

- أنا ناديتُ في الأمسية الشعرية التي قدَّمتُها في القاهرة بتأسيس (جمهورية الحبّ العربية المتحدة) لتحل محل جمهوريات الحقد والبغضاء العربية .

وهذا في رأيي مطلبُ العرب جميعاً . . من أولِ نخلة في مياه شطِّ العرب . . إلى أصغر حبّة رملٍ في صحراء موريتانيا . .

لقد صار لدينا حالةُ فقرِ دمٍ مزمنة من قلّة الحبّ . . فإذا كان الحبُّ السياسي مستحيلاً بيننا . . فلنجرّبْ المعالجةَ بالقصيدة . . فإذا نجحنا بالزواج الثقافي . . جرَّبنا الزواجَ السياسي . . أو الزواجَ الفيدرالي أو الكونفيديرالي . . أو أيّ شكل من أشكال الزواج بدون تحديد .

هذا ما قلتُهُ في القاهرة ، وأقوله في أية مدينة عربية أخرى .

أما الحديثُ عن عودة مصر إلى العرب . . أو عودة العرب إلى مصر ، فهو مثل الحديث عن جنس الملائكة ، سَفْسَطَة لا لزومَ لها . .

إن مصرَ هي العمود الفقري للأمة العربية ، ومن دونها سيبقى الجسدُ العربيّ هُلَامياً ، وعجينيّاً ، ومترنّحاً .

إختلاطي بالجمهور المصري خلال أمسيتي الشعرية في معرض الكتاب الدولي ، أكّد لي أن الشعب المصري (أكَلَ) اتفاقيات كامب ديفيد . . وطَرَحها في دورة المياه . .

فأين هو التطبيع ؟ وأين هُم الإسرائيليون ؟ وأين أصحاب القلنسوات والذُقُون من آل إسرائيل ؟ . .

إنني لم أر في مصر إلا الشعبَ المصريَّ العربيَّ الأصيل . . يملأ الخريطة كلّها . أما الإسرائيليون فهم المومياءات الجديدة التي حنّطها الشعبُ المصريّ ، وأدخلها إلى الانتيكخانة . .

● محطات التحوّل في شخصية نزار الشعرية ، هل يمكن تحديدها ؟

ـ هما محطتان . ١ ـ محطة النقد الاجتماعي في قصيدتي (خبز ، وحشيش ، وقمر) عام ١٩٥٤ . ٢ ـ محطة النقد السياسي في قصيدتي (هوامش على دفتر النكسة) عام ١٩٦٧ .

● هل لعامل السنّ أثر في تحول شاعرنا من الفرح إلى الغضب ؟

ـ المعروف أن مرحلة الطفولة والشباب هي مرحلة الانفعال والغضب ، في حين أن مرحلة الكهولة والشيخوخة هي مرحلة الحكمة والاتزان والهدوء . ولكن يبدو أن الزلازل السياسية التي ضربت العالم العربي قلبت جميع قواعد علم النفس ، فصار لا بد من مجيء (فرويد) جديد ، ليدرس حالتنا المستعصية .

● ما هو موقفكم من الشعر الجديد ؟ وهل ترون له مستقبلاً ؟

ـ أنا مع الشعر الجديد في مغامراته ، وهلوسته ، وهذيانه . . .

فالقصيدة العربية التقليدية أدّت دورها على مدى ١٥٠٠ سنة ، وآن لها أن تستريح . . وتفكّر بمستقبل أحفادها . .

أما مستقبلُ الشعر ، فلا أحدَ يستطيع أن يعرف عنه شيئاً . فقد يستطيع الكومبيوتر بما يحققه من قفزات حسابية غير معقولة أن يُحيل جميعَ شعراء العالم إلى التقاعد .. ويصبح هو أمير الشعراء .

● هل هناك فارقٌ في المفهوم الفني بين قصيدة النثر والشعر المنثور ؟

- قصيدة النثر هي آيس كريم بالفانيلا .. والشعر المنثور هو آيس كريم بالموكا .. ولكن بعد أن يذوبا في فم القارىء .. تضيع الطاسة ..

● هل ترون أن النقد أنصف نزار قباني ؟

- لأنّني خلال أربعين عاماً من كتابة الشعر ، لم أقرأ كلام النقّاد عن شعري ، ولم أعمل بنصائحهم ، بقيتُ شاعراً ..

فالنقّاد عندنا مثل الكميونات الكبيرة تفرغ بضائعها في منتصف الشارع حتى يتعرقلَ سَيْرُ القصائد .. وتُكْسَر أعناق الشعراء .

ومن أجمل ما قرأتُهُ عن النقد الأدبي ، ما قاله الروائي الفرنسي فرانسوا نوريسييه : (الناقد رجل شرطة يطارد الكاتب داخل كتبه ..)

● هل يمكن تحديد ماهية الشعر ؟

- ويسألونكَ عن (الشِّعْر) .. قُلِ (الشعرُ) من علم ربّي .

● هل يؤمن شاعرُنا بالتقسيم التأريخي للشعر ،

والمصطلحات التي أطلقت عليه ، (شعر جاهلي ـ أموي ـ عباسي ـ نهضة ـ حديث ـ إلخ) ؟

ـ تقسيم الشعر إلى مراحل تاريخية عمل أكاديمي لا بد منه لتسهيل دراسة تاريخ الأدب ، كما نتحدث عن عصر الحجر ، وعصر النحاس ، وعصر الفحم ، وعصر النفط ، وعصر الذرّة .

● **تجربة نزار مع الشعراء العرب كيف تراها ؟ ومن هو أقربهم إلى فنك ؟**

ـ الشعراء العرب على الورق ، غيرهم على الطبيعة . وحتى أبقى محتفظاً بصورهم الجميلة فإنني أفضل مقابلتهم على ورقة الكتابة . .

أما أقربُهم مِنّي فهو الكبير بأخلاقه ، كما هو كبير بموهبته .

ولكن من سوء حظ الشعراء العرب ، أن فيهم شيئاً من أخلاق المطربات العربيات اللواتي لا يستطعن احتمال زميلةٍ لهنّ تصعد إلى المسرح قبلهنّ . . أو تُسَلَّط عليها الأضواء أكثر منهنّ : . أو تظهر صورُها بحجمٍ أكبر على باب المسرح . .

لذلك أتحاشى ، قدر إمكاني ، المشاركة في كرنفالات الشعر . . لأنها تنقلب إلى كرنفالات للاغتياب والنميمة .

● **ما الفرق بين الشاعر والدبلوماسي ؟**

ـ كالفرق بين الزهرة الطبيعية . . والزهرة الصناعية .

● **في قلب نزار هل من مسافة بين بحيرة جنيف في سويسرا . . وقصر الحمراء في الأندلس ؟**

- ما دامت كلُّ البحيرات تشرب من أمطار دموعي . . فلا فرق . في إسبانيا كان جرحي أندلسياً . . وفي الصين كان جرحي صينياً . . وفي سويسرا أصبح جرحي عالمياً كالعلم المرفوع على بنايات الأمم المتحدة في جنيف . على أن الجرح اللبناني يبقى أعمق الجراح ، وأغربها في تاريخ الطب ، لأنه جرح كلما طال به الزمن اتسعت مساحته ، حتى صار جرحي أكبر مني . وصرت إذا رآني الناس تكلّموا مع جرحي . . ولم يروني . .

● ما هو أثر بلقيس على شخصية نزار ، وبالتالي على شعره ؟

- بلقيس امرأة مقاييسها تطابقت مع مقاييس الشعر . وهذا شيء نادر في تاريخ النساء ، وفي تاريخ الشعر .

تزوَّجتني ، وكانت تعرف أنها تمسك الماء والنار في قبضة يدها . وراهنت على مصادقة وَحْشِ الشعر في داخلي ، وربحت الرهان . . وعاشت مع العاصفة في غرفة واحدة . .

لم تُعلن نظامَ الطواريء في بيتنا . . ولم تضع أنفها في أوراقي كما تفعل الزوجات المباحثيّات .

إن الحياة مع شاعر هي بكلّ تأكيد عمل إنتحاري . . وحين رضيت بلقيس أن تتزوّجني ، وسافرت معي من بغداد إلى بيروت ، كانت تقول لصديقاتها وهن يودّعنها في صالون المطار : « أنا لم أتزوّج زوجاً تقليدياً . . أنا تزوجتُ هيروشيما . . » .

● ما أصعب قصيدة قالها شاعرنا ؟

- لو كان عندي قصيدة صعبة ـ لا سمح الله ـ لمزّقتُها ،

وذهبتُ إلى أول طبيبٍ نفساني طلباً للعلاج .

أبو الطيب المتنبي ، وطَرَفة بن العبد ، وعمر بن أبي ربيعة ، وبشار بن برد ، وعروة بن الورد ، والشريف الرضي ، وأبو نواس ، وبشارة الخوري ، وأمين نخلة ، والياس أبو شبكة . . لم يكونوا شعراء سِرّيين . . ولا انتسبوا إلى إحدى الجمعيات الماسونية .

فلماذا تريدون تحويلَ الشعر إلى تنظيم سرّي محظور ؟

● **على صعيد الفن ، هل هناك شعر سهل وشعر صعب ؟**

ـ طبعاً . . هناك نوعان من الشعر : شعرٌ مكتوب من أجل الآخرين . وشعر مكتوبٌ لتعذيب الآخرين . . . .

● **هل تؤمن بالطبع أم الصنعة في التجربة الشعرية؟**

ـ الطبع هو الشرارةُ الأولى . والصنعةُ هي مولّد الكهرباء الذي لا بدَّ من تزويده بالطاقة الثقافية ليستمر في الإنارة . . والا توقف عن العمل .

● **الشعر العربي، رغم كثرة الغث، قطع أشواطاً كبيرة شكلاً ومضموناً، لكن نزار قباني، ما زال محافظاً على أسلوبه الكتابي دون أي تغيير . فهل يعني ذلك عدم القدرة على التجدّد، أم ان هناك قراراً بالالتزام في الأسلوب النزاري المعروف ؟**

لكل زمان دولة وشعراء . الا توافقني ان هناك أجيالاً شعرية، وذلك ما تؤكده حتمية التطور .

ـ هذا السؤال يتعاطى مع الشعر، كما تتعاطى النساء مع بيوت الأزياء كمؤسسات (كوكو شانيل) و (ديور) و (فالنتينو) .

هذا استخفافٌ بالشعر وبالشاعر. لأن الشاعر يقضي خمسين سنةً من حياته، وهو يصنعُ صيغَتَه أو نموذجَه الخصوصي.. ثم يُطْلَبُ إليه باسم الحداثة أن يخلعَ كلَّ ما عليه من ثياب.. ويبقى عارياً.

وكما لا يمكن لفكتور هوغو أن يصبح اندريه بروتون، وكما لا يمكن لميكيل انجيلو أن يصبح سلفادور دالي.. وكما لا يمكن لتولستوي أن يصبح البرتو مورافيا.. فانه لا يمكن لأبي الطيب المتنبي أن يكتب (قصيدة البياض)...

واذا كنتُ سعيداً بالبيت الذي بنيتُه حجراً حجراً خلال أربعين سنة.. فلماذا تريدني أن انتقل الى بيت بالأجرة؟؟

وإذا كانت البَذْلَة التي ألبسها تُريحني.. فلماذا تريدني أن ألبس بدلة أولادي؟؟

وكم سيكون مضحكاً لو طلبنا من شكسبير، أن يترك (سوناتاته) ويكتب شعراً على طريقة أغاني البيتلز... إن سيارة (الرولز رويس) الانكليزية لا تزال محتفظة بخطوطها التقليدية منذ مئة عام.. ولم تستطع سيارات (الفيراري).. و (اللامبورغيني).. وسيارات تويوتا اليابانية، أن تُزَحْزِحَها عن عرشها..

واذا كان لكل زمان قصائدهُ و (سياراته اليابانية) كما تقول.. فانني لا أعترض.. ولا حقَّ لي بالإعتراض على قانون التطوّر...

كل ما نرجوه.. أن تتركوا لنا سيارة الرولز رويس التي تبقى في رأينا، سيدة كلِّ السيارات.. وأميرة المسافات..

● نزار قباني، في (قصائد مغضوب عليها). الى أي جيل ينتمي؟ وما هي النقلة الشعرية التي جسدها ديوانكم؟

ـ مرةً أخرى أقول إنني غير معني بموديلات ١٩٨٧ أو ١٩٩٠ الشعرية. أنا أنتمي بكل ما أكتبه الى نزار قباني.. ولا أفكر حتى كتابة هذه السطور باستبدال جواز سفري الشعري بجواز آخر...

● نزار عنيف، ملتاع، ثائر، في (قصائد مغضوب عليها) تقسو كثيراً على الجماهير العربية (يا بلاداً بلا شعوب أفيقي..) وتعتبرها نائمة أو مصابة بغيبوبة.. اذا كان هذا صحيحاً فإلى من يتوجه هذا الكتاب؟

ـ القسوة على الجمهور العربي لا تُفسد ما بيني وما بينه من علاقات طيبة. تماماً كما يحدث في الحياة الزوجية، حيث تصل العلاقة بين الزوجين الى حدّ استعمال الأظافر وسكاكين المطبخ، ولكنهما في آخر الليل ينامان مع بعضهما في سرير واحد.. ويستمران في إنجاب الاطفال..

ثم من قال لكَ إن الجمهور العربي لا يُحبّ القسوة.. ولا يُحبّ من يحكّ له جلده.. ولا سيما اذا كانت القسوة تنطلق من موقع الحب الكبير.

واذا سألتني من يقرأ كتاب (قصائد مغضوب عليها)، فسأجيبك أن الذي يقرأني هو الشعب العربي.. لا شعب الأسكيمو.. ولا شعب تانزانيا.. ولا شعب زيمبابوي ...

ولمعلوماتك، أقول لك إن (قصائد مغضوب عليها) سجّل

ـ رغم منع دخوله إلى أكثر الدول العربية ـ توزيعاً خرافياً إذا قيس ببقية كتبي .

فالشعبُ العربي يبحث عن كلمة صدق ولـو كانت جـارحة. . ويرفضُ شعر الغشِّ والنفاقِ ومَسْحِ الجوخ. . مهما كان جميلاً. .

إنَّ صلتي بـالجمـاهيـر العـربيـة عـظيمـة. . عـظيمـة. وليس الاستقبال الرائع الذي قـابلني به الشعب الاردني قبـل أسبوعين، وقبل ذلك استقبال الشعب المصري لقصائدي المغضوب عليها. . سوى شهادة على أن الشعرَ المطلوبَ في هذه المرحلة، ليس شعر المسـاومة، والمجـاملة، وأنصافِ الحلول. وانّمـا شعر المُصَـادمة والتحدِّيات .

● **الشعب بلا قيادة واعية قوة غير قادرة على أي فعل، فلماذا تُحمّله كثيراً من المسؤولية واللوم. أليس من الأفضل مقاتلة السلطة فقط؟**

ـ انني أعـرف هذا جيـداً. ولذلـك فان كـلَّ الرصـاص الذي أطلقه يستهدف السلطة بالدرجة الأولى .

واذا كان الشعب قد أصابه بعض (الـطراطيش) من كلامي . . فـلأنني أعتبـر أن سكـوتـه الـطويـل على ظلم الـظالمين، وقمـع القامعين، ساعد على إطالة عمر السلطان. . وأعطاه الإحساس بأنه شعبيّ جداً. . و (مهضومٌ جداً). . وأن الجماهير لن تفتح فمهـا ما دام يقدّمُ لها رُزْمَةَ البرسيم اليومية. .

إن الشعب ليس نصـاً مقدسـاً لا يمكن نقدهُ أو المسـاسُ به، ولكنه أرض ثورية يمكن للشاعر أن يزرع في أحشائها ما يريـد من بُرُوق، ورعود، ومتفجِّرات . . .

● **الشعر ضد السلطة. ولا سلطة تعلو سلطة الجماهير.**

- هذا كلام كُتُب.. وموجودٌ في دساتير كل الدول الديكتاتورية. لكن الواقع العربي، مع كل أسف، يعلمنا ان السلطة يملكها الجميع باستثناء الشعب العربي الموضوع في الاقامة الجبرية منذ ولدته أمه..

● **نزار قباني قائد شعري من الطراز الأول. قائد له أوسع جمهور عربي. ما هو الدور الذي يلعبه في عملية التغيير والتطوير؟**

- أنا أمارس التحريض الشعري بكل أشكاله. وفي زمن مُنع فيه التظاهر والتجمّع والاحتجاج، فإنني أطلق (مظاهراتي الشعرية) في اتجاه كل المدن العربية، ويسير ورائي كلّ المعذبين في الأرض، وكلّ الذين صُودرتْ أصواتُهم، وصودرتْ أفكارُهم، و(ذُوِّبوا في حامض الكبريت كالديدانْ)..

قد لا يستطيع الشعر أن يثقبَ المعدن.. ولكن التاريخ علّمنا أن معدن الديكتاتورية هشّ جداً.. وأن الـ ٢٨ حرفاً التي تتشكل منها الأبجدية العربية تستطيع أن تتحول إلى ٢٨ فرقة كوماندوس..

إنني أمارس كَسْرَ الجليد المتجمِّع في الساحات العربية، وفي وجدان الأمة العربية. هذا ما أفعله الآن..

وأعتقد أن التغيير الكبير الذي أحدثتُهُ، هو إنْزَالُ الشعر إلى الشارع العام، وتحويله إلى مادة متفجِّرة.. وحركة عصيان شعبية.

لا أحد يستطيع أن يقول لك اليوم إنه لا يُحبُّ الشعر، أو لا يقرأه.. أو لا يفهمه.. فلقد مزجتُ الشعريَّ والسياسيَّ والشعبيَّ

في كأس واحدة. . وأزلتُ الكِلْفَةَ نهائياً بين القصيدة وبين من كُتبتْ من أجلهم.

وبكلمة واحدة، ألغيتُ فاكهة الشعر من حياة الناس، وأطعمتهم حنطةَ الشعر . . .

● من يعاني أكثر؟ نزار قباني المنفي في سويسرا. . أم نزار قباني المنفي داخل أسوار الوطن وسجونه؟

ـ كلُّ المنافي مذاقُها واحد. ولكنك حين تكون منفياً داخل أسوار وطنك، فإن التراجيديا الانسانية تصل الى ذروتها. .

على أن (المنفى الداخلي) هو أخطر أنواع المنفى، عندما تشعر أن لغتكَ مُعْتَقَلة. . وذاكرتك مُعْتَقَلة. . وثقافتك مُعْتَقلة. . وأوراقك التي تكتب عليها مُعْتَقَلة. .

حتى الجنَّة لو أَخَذتْ شكلَ المنفى. . لكانت مرفوضة.

● نزار، الذي أعطى المرأة بُعْداً إنسانياً، الى أية حواء يطمح، بعد ما قارب الستين من عمره؟

ـ لم تتغيَّر مطالبي من المرأة كثيراً. . فلا أزال أبحث عن أمّي في كل امرأةٍ أقابلها. . ولا أزال أبحث عمن ترضى أن تسكن معي ـ أنا وشعري ـ تحت سقفٍ واحد. .

● لا أعتقد ان (قصائد مغضوب عليها) عنوان مناسب لمجموعة تتفجّر غضباً، إلا اذا كان الغضب الذي تعنيه هو غضب السلطان العربي، وهو لا يعنينا كثيراً، غضب أم رضي، قبل أم رفض. ولهذا كان من المستحسن ان تتوجه الى الجماهير الغاضبة

معك، والمغضوب عليها معك أيضاً؟

- العناوينُ لا تهمّ. فالذاكرةُ الشعبيـة هي التي تضع عنـاوين المجمـوعات الشعـرية. كـل ما أردت ان أقـولـه، لـدى اختيـاري العنوان، هو ان هناك نوعين من القصائد:

فثمّـة قصـائـدُ تتشكَّـل في رحم السلطة، وتكتسبُ شـرعيتَهـا وهويتها وملامحها من جذورها السلطوية.

وثمّـة قصائـد تتشكّل في رحم الحـرية.. فـلا يسجّلونها في سجل الأحوال المـدنية، ولا يُقـدّمون لهـا زجاجـةَ الحليب، ولا يُعطونها قُرْصَ (بانادول) إذا ارتفعت حرارتُها..

هذه القصائد تعتبرها السلطة لقيطةً.. أو بنتَ زنى..

بينما هي أحلى البنات، وأذكاهنّ، وأشرفهنّ..

● **النقد اللاذع الذي يتعرض لـه نزار قبـاني من هنا حينـاً.. ومن هنـاك حيناً آخـر.. هل نستـطيع ان نعتبـر أن وراءه السلطان العربي الغاضب على قصائدك المغضوب عليها؟..**

- الأمـر لا يحتاج الى شـارلـوك هـولمـز.. لكشف الفـاعلين والمحرّضين وأدوات الجريمة..

فكما للسلطان سجونهُ ومشانقهُ ومعتقلاتهُ.. فله أيضاً صحافته وصحافيوه.. ونقّاده.. ومحرّرو صفحاته الثقافية.

من كان يظن أن الثقافة ستصبح في يوم من الأيـام من صميم أعمال المباحث؟

إن رائحةَ (أبي لهب) وصلت الى شارع الصحافة العـربية في

كل مكان، حتى صارت الرائحة تزكم الأنوف.

ويبدو أن (أبا لهب) لم يَعُدْ قانعاً بالمجد السياسي أو الإعلامي وحده. فهو يريد أن يضمَّ مجدَ الثقافة الى امبراطوريته.

ومن أجل هذا تُسلُّ السيوف، ويجري دم الشعراء، وتُطحن عظامُهم..

ولكنَّ طواحينَ السلطان مثلِ طواحين دون كيشوت، لا تطحن إلا الهواء.. ولن تستطيع أن تقلِّمَ ظفراً واحداً من أظافر شاعر قرّر بينه وبين نفسه اغتيال كل الديناصورات التي لا تزال تزرع الرعب في كل الشوارع العربية.

● في ديوانك تجسيد حيّ للواقع العربي المتخبّط. لكن الا ترى معي أننا بحاجة الى شعر يمارس دوراً تحريضياً لا الى شعر يزيدنا إحباطاً؟

ـ عندما يكونُ الخرابُ مخيفاً الى هذا الحدّ، فليس هنالك من حل الا (البولدوزر).

(البولدوزر الشعري) يجب أن يجرف، أولاً، كلَّ هذه الزبالة السياسية التي تتراكم في الشوارع العربية، كما تتراكم الزبالة منذ خمسة عشر عاماً في شوارع بيروت..

أنا لا أستطيع أن أهادن الزبالة، وأقيم صداقة معها.. والشعر لا يستطيع أن يجلس فوق كل هذه النفايات ليدخن سيجارة.. ويغني موّالاً..

الرائحةُ التي تحاصرنا هي رائحة سمكة ميتة.. والشعر لا

يستطيع أن يدّعي مهما بلغ به التفاؤل أن هـذه الرائحـة هي رائحة شانيل. . أو غيرلان. . أو نينا ريتشي. . والا كان كاذبـاً، ومزوراً، وبائع أوهام.

● المعروف انك تقيِّم شاعريتـك من خلال اقبـال الجمهور على أمسياتك الشعرية وعلى مجموعاتك. هل الجمهور هو دائماً على حق؟

- بـدون أدنى شك. . الجمهـور دائماً على حق. فهـو هيئـة التحكيم العليا التي تتوّج قصيدةً من القصائـد ملكة، وتحكم على قصيدة أخرى بالإعدام. .

الجمهور هو (مُخْتَبَر القصيدة) وهـو الذي يقـرّر فصيلةَ دمها، ونوعها، وجنسها، ويعطي التقرير النهائي عن حالتها الصحية.

وليس صحيحاً أن الجمهور لا عقل له ولا بصيرة، وانه كتلة من الهيجانات والانفعالات الغرائزية.

هذا كلام الشعراء الثعالب الذين لا يستطيعـون أن يصلوا الى عناقيد العنب. . .

إن الجمهور في العالم كله متشـابه، وهـو يبحث عن صورتـه وحقيقتـه ومثالـه في القصيدة. . وينتـظر من الشـاعـر أن يفتـح لـه الأبواب، لا أن يسدّ عليه الأبواب. ينتظر من يفكُّ له عُقَدَه النفسية، لا من يزرع في أعماقه عُقَدَاً جديدة.

والجمهور العربي كائنٌ شعريٌّ بامتياز. وحساسيته الشعـرية لا تعادلها حساسية أي شعب آخر. فلماذا نستهين بهذه الحساسيّة،

ونصدّق كلامَ بعض الشعراء الذين عجزوا عن التفاهم مع اية نخلة. . أو أية نملة في الوطن العربي؟

الجمهور هو البطل الحقيقي، أما النقّاد فهم كومبارس ثانوي على هامش العمل الشعري.

إن ألفَ ناقدٍ لا يستطيعون أن يصنعوا شاعراً. . أو يُطلقوا عصفوراً شعرياً واحداً. .

فالجمهور وحده، هو صانع الشعراء والعصافير. .

● غابت عن قصائدك الأخيرة صورة المرأة الجميلة والهادئة. . والناعمة. . وحلت معها المرأة المتوتّرة. . فهل هذا انعكاس لحالة توتر داخلي تعيشها؟

ـ الجمال والهدوء والنعومة . . سقطت تحت أنقاض هذا العصر المفترس. وصورة (الموناليزا) أصيبت بطعنة سكّين في الحرب الأهلية اللبنانية.

حتى الحبّ أدخلوه الى غرفة الانعاش. . وخيّطوا جبينَه عشرين قطبة. . ولم يعد بوسع عاشقَيْن معاصرَيْن أن يبقيا ملتصقين ببعضهما بالسيكوتين تحت أشجار الزيزفون على طريقة مصطفى لطفي المنفلوطي. . وإلا أثارا عاصفةً من الضحك والسخرية . لا يمكن لقيس بن الملوّح، وجميل بثينة، والعباس بن الأحنف. . أن يقيموا أمسية شعرية على خطوط التماس في بيروت. .

إن جنونَ الموت في كل مكان، نسف جميع شعراء الغزل، ونسف معهم لغتهم، وأوزانهم، ومدامعهم، وأسماء حبيباتهم. .

إن ليلى الأخيليَّة، ولبنى، وعفراء.. أصبحن ممرضات في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت. أما شعراء الغزل العذري فإن أكثرهم قد انضم إلى صفوف الميليشيات...

هذه هي أحوال الغرام.. في بلاد (قَمْعِسْتَانْ).. فكيف تريدني أن لا أكون متوتراً؟؟

● نساؤك كلهنَّ ارستقراطيات. وهذا الأمر يستدعي صورة عمر بن أبي ربيعة. ألم تصادف في حياتك امرأة بسيطة صالحة للحبّ والغزل؟

- حرام عليك يا صديقي.. حرام عليك.. فأنا لم أدخل في حياتي مغامرة مع الأميرة ديانا.. أو مع الليدي سارة فيرغسون.. أو مع اي امرأة من بنات آل بوربون.. أو آل ميديسي..

جميع من أحببتهنَّ.. أو كتبت عنهنَّ.. كنَّ على (قدّ الحال) ولم يكن فيهنَّ واحدة ذات دم أزرق.. أو بنفسجيّ..

إنني أرفض الطبقية في الحبّ.. كما أرفضها في السياسة.. وأفضّل امرأةً عربية تعبق من مسامات جلدها رائحةُ القهوة، والهال، والقِرْفة، واليانَسُون، والورد البلدي.. على كل دوقات ومركيزات العالم...

● غنّيتَ نساءَ العالم ومدائن العالم. ما الجامع المشترك بين المرأة والمدينة؟

- طبائعُ المدن وطبائعُ النساء تتشابه كثيراً.

فثمة مدن مكشوفة تعطيك نفسَها منذ اللحظة الأولى.

وثمة مدن غامضة لا تكشف أسرارها لعشاقها إلا بالتقسيط.

وثمة مدن سياحية تستقبل ملايين الوجوه.. ثم تشطبهم من ذاكرتها بعد دقائق من رحيلهم..

وثمة مدن كادحة تركض تحت شمس النهار.. وثمة مدن تؤمن بشاعرية الليل.. وتعيشه طولاً وعرضاً..

وثمة مدن تاجرة باعت قلبها للشيكات السياحية، ووضعت مكانه قلباً من البلاستيك..

وثمة مدن مثقفة كلّ همها أن تبني مسرحاً، أو متحفاً، أو دار أوبرا.. وثمة مدن كلّ همها أن تفتح مطعماً.. أو نادياً للقمار.

وثمة مدن تفتخر ان لديها مكتبة وطنية.. وثمة مدن تفتخر أن لديها سوق بورصة.. ومثة كاباريه..

وأخيراً ثمة مدن تستقبلك بالأزهار، والبسمات.. وتأخذك بالأحضان.. وثمة مدن تكشف على حقائبك بأشعة الليزر.. وتترك واجب الترحيب بك للكلاب البوليسية.

● في (خبز وحشيش وقمر) أخذت على الانسان العربي غيبيته وغيابه عن المعاصرة. هل توافقني أن تلك الغيبية وذلك الغياب هما أفضل من حضوره الهشّ الراهن. أم أنك لا تزال تراه غائباً وغيبياً؟

ـ عندما كتبتُ (خبز وحشيش وقمر) عام ١٩٥٤ كانت الغيبوبة جزئية، والشلل نصفياً. أما الآن، فان الجسد العربي فقد حساسيته القومية نهائياً. فهو لا يحسّ بآلاف المسامير التي تُغرز فيه، ولا

بآلاف السكاكين التي تعمل فيه بتراً وتقطيعاً .

في الماضي كان القمر هو الذي يسطُلنا ، ويأخذ عقلنا، فنقف أمامه كالبهاليل. . أما اليوم فقد دخلنا مرحلة الكوما المزمنة، بحيث لا يهزّنا شيء . . ولا يحركنا شيء. . ولا يؤثر في جلودنا ضربُ السياط.

فهل نحن ١٥٠ مليون مواطن عربي كما تقول الإحصاءات أم نحن ١٥٠ مليون سمكة موضوعة في الفريزر ؟؟؟

● شاعر التعدّدية في الحب، سمُّوك، في حين أن التوحّد تجلّى في (بلقيسياتك). كيف تفسر هذه المسألة؟

ـ لقد كنتُ دائماً متوحّداً ووحيداً في عشقي. وهذه الألقاب التي أطلقتها عليَّ الصحافة أبعد ما تكون عن طبيعتي وقناعاتي.

لا أحدَ يستطيع أن يحتفظ بكل لآلىء البحر. . ولكنه يحتفظ بلؤلؤة. .

ولا أحدَ يستطيع أن يُحبّ الغابة كلّها. . ولكنه يحبّ شجرة من الغابة.

ولا أحدَ يستطيع أن يقرأ كلَّ الشعر في كلّ اللغات. . ولكنه يتذوق قصيدة.

ثم إن امتلاكَ نساء الأرض جميعاً لا يعني أنك أصبحتَ غنياً ، أو قوياً، أو مشهوراً، أو سيّدَ زمانك .

انا، على العكس، أعتقد ان الذي يعبدُ آلهاً واحداً. . عليه أن يُحبّ امرأة واحدة.

جنيف ٢٥ نيسان ١٩٨٧

احتللتُ بريطانيا

لساعةٍ ونصف(*) . .

(*) حوار مع الأستاذ ياسين رفاعية ، مجلة (الـدستور) لنـدن بتاريـخ ١٩٨٦/١٢/١٥ .

● أمسيتك الشعرية التي قدمتها في قاعة (شيلسي تاون هول) في لندن، في اوائل شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، كانت حادثاً ثقافياً لم يسبق له مثيل في العاصمة البريطانية، بحيث ذكَّرتنا بأمسياتك الشعرية التي كانت تستقطب ألوف المستمعين في بيروت، وبغداد ودمشق، والسودان، وأبي ظبي، والبحرين، والشارقة. .

ما هو شعورك أمام هذا النجاح اللندني، وماذا كان يدور في ذهنك من اسئلة وأنت تدخل قاعة بلدية شيلسي في لندن؟

- كنت أشعر، وبدون غرور، أنني أحتلُّ بريطانيا ثقافياً لمدة ساعةٍ ونصف، بعد ان احتلَّتنا الامبراطورية البريطانية مئة وثلاثين عاماً. .

إنَّه شعورٌ مريح. . ولذيذ. . وخبيث في الوقت ذاته. .

شعور شاعر من دول العالم الثالث، يتناطح مع بريطانيا على خشبة منبر. . وفي قاعة تملكها إحدى بلديات لندن. .

أليس هذا رائعاً ؟

هـذه الفكرة الشيـطانية حملتهـا معي بعد انتهـاء الأمسيـة الى البيت. . وظلت تحفر في دماغي حتى الصباح. .

طبعـاً. . أنا لا أدّعي انني الأميـرال نلسـون صـاحب معـركـة الطرف الأغرّ ضد نابليون بونابارت. . ولا أنـا الجنرال مـونتغيمري بطل معركة العلمين. . .

أنا جنرالُ من العـالم الثالث يكتب شعـرا. . وله امبـراطوريـة شعرية في العالم العربي لا تقل مساحتها عن مساحة الامبراطـورية البريطانية في القرن التاسع عشر. . .

لا تؤاخذوني على هذه التشبيهات الاستعمارية. . ولكنّ خيالي الشعري جمح بي، وأنا أرى ألوف العيون تحتضنني في قاعة بلدية شيلسي. . بحيث لم أعد أدري هل أنـا الاميرال نلسـون. . أم انا الاميرال نزار قباني؟؟

مرة أخرى. . لا تؤاخذوني. . فإن حـلاوة الانتصار أسكـرتني واعطتني رتبة الاميرالية. . لمدة ساعة ونصف. . فقط. .

● هذا كلام جميـل. . يا حضـرة الأميرال. . ولكن من هـو الجمهور الذي استمع اليك؟ ما هي هويّته؟ ما هي ملامحه؟ ما هي مواصفاته؟

ـ الجمهـور الذي جـاء الى أمسيتي كان جمهـوراً من العرب الذين لم يعد لديهم بيوت يسكنونها. . فجاؤوا ليسكنوا على ضفاف صوتي . . العرب الذين لم يعد لهم وطن يستظلون به . . فمنحتُهم ـ خلال ساعة ونصف ـ وطناً بـديلاً . . ينـامون تحت أشجـاره . . ويستحمّون في أنهاره . .

نعم. . كان شعري هو الوطن البديل. . ولو للحظات. .

ولذلك كان الناس يقبضون على الكلمات. . كأنهم يقبضون على حفنة من تراب بلادهم. .

كانوا يصرخون. . ويبكون. . ويرتعشون. . كما ترتعش العصافير التي أضاعت منازلها. .

كانوا في حالة جوع شديد. . وعطش شديد. . واكتئاب شديد. . فهجموا على القصائد ليأكلوا قمحاً وعنباً ورمّاناً. . ويرموا انفسهم في نهر الشعر الكبير. . .

لقد كانت أمسيتي الشعرية في لندن أمسية عاصفة واستثنائية، لأنني جمعت كلَّ المعذبين في الارض على ضفة الجرح العربي المشترك. . جمعتُهم حول قصائدي، وأوقدت لهم ناراً. . وصنعت لهم قهوة عدنية طيبة. . وأنمتُهم على ركبتي. . وغطّيتهم بأغطية الصوف حتى لا يؤذيهم برد لندن.

لم أكن بحاجة الى علبة كبريت. . لأشعل النار في ثياب الجمهور وفي اعصابه. . فالجمهور كان معبأ بالحزن والقهر والغضب، بحيث كان يحتاج الى لمسة صغيرة. . لينفجر. .

وبالاضافة الى الجمهور العربي، كان هناك انكليز. . وأسيويون، وأفارقة. . وديبلوماسيون. . ومستشرقون. . وأكاديميون. . .

وقد علمتني تجربتي اللندنية. . ان جمهورية الشعر بخير. . وأنها لا تزال رافعة أعلامها في كل مكان. .

● **أيّ حقيقة كنت تبحث عنها في شعرك طوال الاربعين سنة الماضية، وهل عثرت عليها؟ ما هو شكلها؟ ما هو مضمونها؟ كيف عبرت عنها بالشعر؟**

ـ كنت أبحث عن الإنسان ، بصرف النظر عن لونه ، أو جنسه ، أو جنسيته ، أو غناه أو فقره أو موقعه الاجتماعي .

كلُّ شعر لا يتجه الى الانسان ولا يصبُّ فيه. هو شعر عَبَثي وهامشي. الانسان هو محور هذا العالم، وهو القضية الكبرى التي تستحق النضال من أجلها والكتابة عنها. .

بدون الانسان. . لا يوجد شعر. . ولا نثر. . ولا فلسفة. . ولا فكر. . ولا نحت. . ولا تصوير. . ولا مسرح. . ولا فنون تشكيلية.

وقصة الفنون كلها هي قصة الإنسان مع الأرض ، كما أن الديانات هي قصة الإنسان مع السماء .

ليس هناك أدب عالمي كبير وصلنا، إلا كان الانسان بطله الرئيسي، من الياذة هوميروس، الى ملحمة جلجامش، الى الف ليلة وليلة.

كل هذه الاعمال الخالدة روت قصة الانسان في حربه وسلامه، في خوفه وطمأنينته، في موته وفي انبعاثه، في عشقه وفي انكساره، في بطولاته وفي شهواته، في إيمانه وفي كفره، في انتصاراته وفي هزائمه.

والشاعر العربي كان دائماً باحثاً عن الحقيقة. . فعنترة كان يبحث عن الحقيقة في سيفه. وأبو فراس الحمداني كان يبحث عن

الحقيقة في فروسيته. . والمتنبي كان يبحث عن الحقيقة في فلسفته. . وأبو نواس كان يبحث عن الحقيقة في كأسه.

إذن فالحقيقة الشعرية ليست واحدة. . وانما هي حقائق. . وكل شاعر يصنع الحقيقة على الشكل الذي يناسبه. .

وأنا حقيقتي، كانت ان أضع نفسي في خدمة الانسان العربي، وأحرِّره، بواسطة الشعر، من الكوابيس المرعبة التي تطحنه سواء على صعيد الحبّ. . أو على صعيد السياسة. . أو على صعيد القهر النفسي والثقافي والاجتماعي.

● دائما كان شعرك يبتعد عن التجريد ليلمس الواقع بكل ما فيه ويصطدم به كالشرارة . هل كنت تقصد ذلك عن عمد . . أم أنه جاء بالمصادفة ؟

- لا يوجد في الفن مصادفات. . فالشاعر يخطط لقصيدته. . كما يخطط المناضل لثورته. .

على الشاعر الذي يحترم نفسه، ويحترم تاريخه. . ان يعرف ماذا يريد. . وعلى اي أرض يقف. . والى اي مكان يريد ان يذهب. . والا تحول الشعر الى لعبة قمار. . او ورقة يانصيب. .

والشاعر الذي يعتبر الشعر ورقة يانصيب. . يربح مرة واحدة. . ويخسر آلاف المرات. .

أما انا فلا أؤمن بأوراق اليانصيب في الشعر. وانما اؤمن [illegible] الملموسة والمعاشة بكل ما فيها من نتوءات، ومفارقات، [illegible].

الشيء أمامي هو الشيء.. والشجرة هي شجرة.. والمرأة هي امرأة.. واللون الاخضر هو لون اخضر.. ولا أجد ضرورة للالتفاف حول الاشياء وتسمية الاشياء بغير مسمياتها..

المرأة لا تصبح عندي حائطاً.. أو أوتوبوساً.. او عمود كهرباء.. وعلاقات الحب ليست تقريراً سرياً اقدمه لأجهزة المخابرات..

والوطن عندي هو الوطن بكل سماواته، وحاراته، وصبيانه، وبناته، وانتصاراته، وانكساراته، وضحكاته، ودمعاته..

الوطن عندي ليس استعارة.. ولا تشبيهاً.. ولا تورية جميلة. إنه حقيقة تاريخية، وسياسية، وقومية.. قبل ان يكون رمزاً..

لذلك أتكلم مع الوطن باللغة ذاتها التي علّمني إياها.. وأتفاهم معه كما يتفاهم الولد مع أمه بدون وسطاء ولا تراجمة..

● حرصت دائماً، في شعرك، وفي نثرك، وفي مواقفك من الحياة، ان تخرج المرأة العربية من القمقم.. أن تفتح لها كوة من النور نحو الأفق. هل تعتقد انك نجحت؟

- إخراج المرأة من القمقم مرتبط بإرادة المحبوسات في داخل القمقم.. فإذا كان بعض النساء سعيدات ومستريحات في قمقمهنّ.. فإن مليون شاعر، وعشرة ملايين قصيدة.. لا تكفي لإطلاق سجينة واحدة من المعتقل التاريخي...

إن ثورة المرأة تعلنها المرأة نفسها.. وكلُّ ما يستطع شاعر

مثلي ان يفعله.. هو أن ينفخ في البوق.. ويحرّض.. ويخطب في السجينات..

ولكن الخطابة وحدها لا تكفي لتحرير عصفور واحد.. إذا لم تقرِّر العصافير ان تأكل قضبان الزنزانة.. وتخرج الى الهواء الطلق.

● هل يمكن اعتبارك شاعرا شعبياً، بمعنى انه يتجه الى الملايين لا الى العشرات.. والى الكافة دون الخاصة.. او ما يسميها البعض (النخبة)؟

- شاعر شعبيّ؟؟ يشرِّفني أن أنال هذا اللقب.. ولكن إياك أن تذكر ذلك أمام زملائي الشعراء.. لأنهم سيضربونك..

إن (النخبة) هي كالشركات المحدودة الأسهم، لا تتعامل إلا مع المساهمين فيها.. أما الجماهير فهي البحر الذي لا ساحل له.. أو هي ملعب كبير لكرة القدم لا يتألق فيه إلا من يلعبون جيداً..

وأنا أفضل ألف مرة أن أكون (مارادونا) الشعر.. على أن أكون عضوا في مجمع اللغة العربية.

ثم ما هي النخبة؟

إنها مجموعة من المعقّدين الذين يلوكون أفكارهم على طاولات المقاهي.. ويتناسلون كالعنكبوت على رفوف المكتبات.. ويتحدثون عن الثورات الثقافية دون أن يشتركوا فيها.. ويتكلمون عن العشق دون أن يلامسوا ظفر امرأة...

إن النخبة تحدِّدني.. والجماهير تنثرني مطراً على كل

القارات.. فهل من المعقول أن اترك البحر.. وأسافر في قطرة ماء؟؟

● يبدو لنا ، على المستوى العربي ، أنك شاعر كرّس نفسه لإنقاذ الشعر من السفسطة ، والدوران في فراغ ، حتى استطاع أن يمتلك هذه القاعدة الشعبية النادرة . هل تحدِّد لنا كيف أقمت هذا الجسر الشعري مع الناس ؟ كيف أدخلتهم في حزب الشعر ؟

- لكي تُدخل الناس الى حزب الشعر، لا بد ان تعتمد مبدأ الديمقراطية، لأن الشاعر إذا لم يكن ديمقراطياً فيما يكتب، تحوّل الى ديكتاتور كسائر الديكتاتوريين..

ولكي تبني جسراً مع الناس، لا بد أن تكتشف لغة قادرة على التواصل والإيصال.. فاللغة عنصر أساسي في عملية الزواج بين الشاعر وجمهوره. فشاعر بلا لغة هو شاعر منفي عن محيطه، ومعزول في جزيرة نائية.. إنه شاعر عانس لا يستطيع ان يتزوج أحداً.. ولا يقبل أن يتزوجه احد..

ثم لكي تُدخل الناس الى حزبك الشعري، لا بد ان تكون صادقاً وحاسماً وشجاعاً. فالجماهير لا تصفق أبدا لشاعر يكذب عليها.. ولا تتسامح مع أديب مزدوج الشخصية، ومذبذب في أفكاره ومواقفه.

إن الشاعر الغشّاش لا مكان له بين الجماهير، وكذلك الشاعر المهرّج.. والشاعر الذي يأكل من خبز السلطان، ويضرب بسيفه.

ولعل الجمهور العربي الذي يجري الشعر مع الكريّات

الحمراء والبيضاء في دمه، هو من أكثر الجماهير في العالم ذكاء وحساسيّة .

فكم من شاعر عربي كان لسنوات خلت ملء العين والبصر، أسقطه الجمهور العربي بعدما انكشفت أوراقه. . وانكشفت تحولاته. . وانكشفت عورته وهو يرقص على حبال الوصولية والانتهازية.

وأخيرا، لكي تنضم الجماهير الى حزبك الشعري، لا بد أن تكون شريكا لهذه الجماهير في آمالها ، وأفراحها، وأحزانها، وهمومها القومية والعاطفية، والنضالية. فالشاعر الذي يعيش على هامش التاريخ السياسي والقومي والاجتماعي لأمته. . لن يجد من يقرؤه. . أو من يسمعه. . أومن يطرق باب بيته. . .

● **إنك تنتقل الى شعر الغضب بعد سنين طويلة من الدوران الجميل حول الحب الجميل. . لماذا أصبحت شاعراً غاضباً. . ؟**

- لو أني استمريت في الدوران حول شعر الحب حتى اليوم. . لأصبت بالدوخة . . ووقعت على الأرض . .

إن العالم العربي يدور منذ هزيمة ١٩٦٧ حول سيخ من الحديد المشتعل. . وليس من المعقول أن أبقى محتفلا بعيد شمّ النسيم. . والولايات المتحدة تريد أن تجعل من الشعب العربي شعباً من الهنود الحمر. . .

ثم انني لست غاضبا وحدي. . فما يجري على الأرض العربية من انتهاكات، وتنازلات، ومؤامرات. . جعل كل شيء غاضباً بما في ذلك القطط والكلاب في الشوارع.

إن الغضب هو الحد الادنى الذي استطيع ان أمارسه. . فهل عندك وصفة أخرى لجراحاتي النازفة غير الغضب؟

● زحفت الى أمسيتك الشعرية في لندن الجالية العربية بكل جنسياتها فحققتَ بالشعر ما كان يعجز عنه الحكّام. . كيف كان شعورك في هذه اللحظات؟

ـ سبق لي أن قلت إنني وحّدت بشعري العرب . . أكثر مما وحّدتهم جامعة الدول العربية . .

وإذا كان المسؤولون العرب عاجزين عن التفاهم سياسياً وايديولوجياً واستراتيجياً . . فليتركوا للشعراء مهمة توحيد العرب ثقافياً.

إن مهرجان المربد الذي يقيمه العراق كل عام، ومهرجان أصيلة الذي يقيمه المغرب، ومهرجان قرطاج الذي تقيمه تونس، ومهرجان جرش الذي يقيمه الأردن. كل هذه المهرجانات الثقافية الناجحة تؤكد ان الثقافة تستطيع ان تصحح ما أفسدته السياسة، وان الانسان العربي هو وحدويّ في فطرته، ولكن الذين تولوا أمره بنوا حوله الأسوار العالية، ووضعوا الأسلاك الشائكة، والحواجز المسلّحة، ورفعوا عليها رايات ملوك الطوائف. . .

إن العالم العربي اليوم يعيش واقعا انفصالياً وتجزيئياً رهيباً. . وعلى المثقفين العرب أن يلصقوا ما تناثر من اجزاء هذا الوطن ويعيدوا اليه كيانه الواحد.

● صرنا نعرف نحن الذين نتابعك في كل مكان، انك تعرف

جمهـورك جيـداً. . وتعـرف كيف تـذهب اليـه. . لمـاذا أنت استطعت، وغيرك لم يستطع؟

- الجمهور طفل من السهل جداً أن تكسب رضاه.

بقطعة حلوى، بصورة جميلة، بفكرة جديدة، بكلمة حنونـة، يمكنك أن تصل الى قلب الجمهور.

ولكن بعض الشعـراء، يستعملون مـع الجمهـور، العصـا. . والقسوة. . . والعجرفـة. . ويـدوّخـونـه بـالفـوازيـر. . والكلمـات المتقاطعة. .

ومرة أخرى أعود إلى تعبير الديمقراطية في الشعر.

الـديمقراطيـة في الشعـر، تعني ان نقيم حـواراً متكـافئـاً مـع النـاس، فلا نستكبـر ولا نستعلي عليهم. . ولا نشعرهـم بـالدونيَّـة وعقدة النقص. .

هذا هو شعبنا العربي. . وعلينا أن نقبله كما هو. . بكل طيبته وبساطته، بكل طبقاتـه الفقيرة والمتـوسطة والغنيـة. بكل حسنـاته وسيئاته.

إن قدري أن أكون شاعراً من هذا الشعب ولهذا الشعب . لا أستطيع أن أستورد شعباً من السويد. . أو الدانمرك. . أو النرويج. . لأسمعه شعري. . فالسويديون والدانمركيون عندهم شعراؤهم. .

ثم أنا لا استطيع أن أنتظر حتى يأخذ المئة والخمسون مليـون عربي شهادة الدكتوراه من السوربون أو من كمبردج. .

فالجامعات لا علاقة لها بالشعر. .

ان الشعر زهرة متوحشة تنبت في براري الحزن. . وتـطلع من الأدغال الافريقية. . لا من الجادة الخامسة في نيـويورك. . أو من القصور الارستقراطية في مايفير. .

أنا لم أجد جمهوري جاهزاً. . ولم أشتره من السوبرماركت. . ولكنني ربيته خلال أربعين عاماً، قبلة قبلة. . ودمعة دمعة. . وكلمة كلمة. . وقصيدة قصيدة. .

إن جمهـوري الشعـري لم يـأت من الفـراغ. . ولم يهبط من السماء. . ولكنه كبر. . وترعرع. . كما تكبـر أشجار الـورد عندمـا نسقيها من دموعنا. . ومن دمنا. . .

● حنينك الى بيروت يمثـل حنين الألوف من غيـر اللبنانيين الذين أحبوا هـذه المدينـة. إذن، ما هي مميـزاتها عن غيـرها من المـدن العربيـة؟ ولماذا لم تجـد انت ولا نحن بديـلاً لها لا في جنيف ولا في باريس ولا في لندن، ولا في أي مدينة في العالم؟.

- بيـروت حادثـة حريـة لا تتكرّر كـلّ مليون سنـة مرة. إنهـا كقصص الحب الكبيرة لا تعيد نفسها. .

مشكلتنـا مع بيـروت أنها أعـطتنا جـرعة من الحـرية أفقـدتنـا صوابنا. حتى صارت كل المدن في العالم تأخذ صفراً في امتحان الحرية إذا قيست ببيروت.

مشكلتنا يا عزيزي أننـا (أدْمنّا) بيـروت. . كما يـدمن الشارب نوعاً معيناً من الشراب. . فـإذا اعطيتـه نوعاً آخر، أصيب بـالصداع وتعكُّر مزاجُه .

مشكلتنـا أن بيروت كـانت حبّنا الأول . . وعنـدمـا رحلنـا عن بيروت لم نجد بين نساء العالم إمرأة واحدة تستحق أن تكون وصيفة أو خادمة لدى بيروت .

هذا هو المأزق الخطير الذي وقعنا فيه جميعاً . .

مـأزق الـطفـل الـذي فصلوه عن ثـدي أمـه . . وعن حليبهـا الطبيعي، ثم قالوا له إذهب الى نيـويورك وكُـلْ (هامبـورغر) . . أو إذهب الى أحد المطاعم الهندية في لندن وكُلْ (كاري) . . أو إذهب الى باريس واشرب شوربة بصل . .

والأمـر الأدهى، أن بيـروت علمتنـا أن نكتب من اليمين الى اليسار . . وحين وصلنا الى منافينا الاوروبية طلبوا منا أن نغير عاداتنا الكتابية فنكتب من اليسار الى اليمين . . .

أنا لا أستطيع أن أكتب العربيـة من اليسار إلى اليمين . . ولا من فوق إلى تحت على الطريقة الصينية . . ولا أستطيع أن أعشق إلاّ على الطريقة البدوية . . ولا أستطيع أن أقبِّل شفة امرأة بالشوكة والسكين . .

ان باريس على فتنتها، ولنـدن على ضخامتهـا، وجنيف على شـاعريتهـا، ليست سوى محـطات استراحـة لآلاف المعـذبين في الارض . . ومقهى الفـوكيه في بـاريس ليس البديـل لمقهى الحاج داوود أو مقهى دبيبـو . . كما ان سـاحة الكـونكورد ليست البـديـل لساحة رياض الصلح . .

● **أحد ديوانيك الأخيرين عنـوانه (سيبقى الحبُّ سيّـدي) . . أي حبّ تقصد ؟**

- ليس لديَّ مناطق جغرافية للحبّ. . ولا أقاليم. . فأنا حين أحبّ، أعانق العالم بجميع جزئياته وتفاصيله، وأتلاشى فيه نهائياً. .

ومثلما أحبّ البحر، والأفق، والوردة، والمرأة، وصوت المطر، فأنا أحبّ الحرية، والحقيقة، والعدل، والخير، والفروسية، والكبرياء، والبطولة، والطفولة.

إن بحر الحبّ بحرٌ لا نهائي. . وليست المرأة فيه سوى جزيرة صغيرة تزودنا بالماء والوقود، قبل مواصلة الرحلة.

● ها أنت الآن في ذروة شهرتك الشعرية، هل تعتقد أنك أعطيت كل ما عندك؟

- ليس من السهل على الشاعر أن يصدر مثل هذا القرار. لأنه قرار دراماتيكي. ان الشجرة التي تطرح ثمرها كل موسم، لا تستطيع أن تقول ان هذا هو آخر الثمر. . والبحر الذي يضرب الشاطىء بأمواجه لا يستطيع أن يعلن ان هذا هو آخر الموج. . .

إن حركة أصابعي على الورقة هي التي تملك اتخاذ القرار. . وكل ما استطيع أن أقوله هو تنويع على قول ديكارت المشهور: (ما دمت أكتب. . فأنا موجود).

● بالتأكيد، أنتَ أسست حزباً للحب الجميل من خلال شعرك. . انضم اليه مئات الألوف من العشاق العرب. . هل لك أن تحدد لنا شروط الانضمام الى هذا الحزب. . وتعطينا فكرة عن مبادئه؟

ـ الدخول الى حزب الحب مفتوح، أمام كل الصادقين، والانقياء، والعشاق الحقيقيين. أما (المزعبرون).. والممثّلون.. والمزوِّرون.. والراقصون على حبال ألف امرأة.. وامرأة.. فلا مكان لديهم لدينا..

إننا نشترط على العاشق أن يحرق نفسه أمام حبيبته على الطريقة البُوذية.. وبعد ذلك نأخذ رماده، ونضعه في قارورة.. ونحتفظ بها في مختبر الحزب.. مع رماد جميل بثينة.. ومجنون ليلى.. ومجنون إلزا..

أما عن مواصفات المرشحين لدخول حزب الحبّ..

فنحن في اللجنة المركزية للحزب، لا نفرق بين الأبيض والأسود، وبين المليونير والشحاذ، وبين البرجوازي وبين البروليتاري.. وبين من يأكل عند (مكسيم) وبين من يأكل عند (مرّوش)، وبين من يركب سيارة فيراري وبين من يركب أوتوبيس الدولة.. وبين من يحمل الدكتوراه من جامعة هارفرد.. وبين من يحمل شهادة فقر حال..

نحن لا نسأل في حزب الحبّ، عن أعمار المرشحين، ولا عن طبقتهم الاجتماعية، ولا عن رصيدهم المصرفي، ولا عن ديانتهم.. فالدين لله.. والحبُّ للجميع..

والشرط الوحيد الذي نطلبه من المتقدمين الى عضوية الحزب.. أن يكونوا من خريجي مستشفى المجانين.. لأن حزبنا لا يتعاطى مع العقل ولا مع العقلاء..

● أحببتَ من غير شكّ .. من هي المرأة التي امتلكت قلبك.. ما هي ملامحها الخارجية والداخلية.. ما الذي عليها أن تفعله حتى ترضيك؟

ـ عليها.. أن تحفظ على الأقل ألف بيت من شعري قبل أن تتقدّم لخطبتي .. واعذروا نرجسيّتي ...

● وإذا كانت تحفظ مئة بيت فقط؟

ـ أنا آسف...

● ولكنك بهذه الشروط القراقوشيَّة تريد أن تتزوَّج الشعر لا المرأة..

ـ أريد أن أتزوج المرأة ـ الشعر.

● هل تعتبر نفسك شاعراً حديثاً، ام شاعراً تقليدياً.. ام الاثنين معاً؟

ـ أعتبر نفسي شاعراً.. ولستُ مضطراً لإبراز جواز سفري على أي حاجز من حواجز النقد...

● تعبير الحداثة أصبح تعبيراً غائماً وغامضاً ومثاراً لجدل يومي مستمر، بحيث أصبحنا أمام (حداثات) متناقضة، ومتعارضة، لا امام حداثة واحدة.. فما هي الحداثة الحقيقية، واين مكانها في هذه الفوضى الشعرية الضاربة في كل مكان؟

ـ انني لست ضدَّ تعدد الأصوات، وتعدد التجارب، وتعدد الطموحات. فمن أجل أن تخرج البذور الجديدة من الارض. لا

بـد أن يتشقق التراب، وتعصف الـرياح، وتتلبـد الغيـوم، وتفيض الأنهار.

فما يبدو لنا أنه فوضى.. وعبث.. ليس سوى مخاض ستأتي بعده الولادة الكبرى..

صحيح ان هناك جرأة، وانتهاكا، ومخالفة للاصولية وللنماذج الشعرية المعترف بها، ولكن هذا يحدث دائما في كلِّ الثورات.. حيث تنهـار أبنية وتنهض أبنيـة.. وتسقط أفكـار وتـولـد أفكـار.. وينسحب الكلام القديم أمام ديناميكية الكلام الجديد.

العالم العربي كله في مخاض اجتماعي، وسياسي، وثقافي، وجيوبوليتيكي، والشعر هو جزء لا يتجزأ من هذا المخاض الكبير.

إذن فالحداثة شيء طبيعي، ونحن على مفترق القرن الواحـد والعشرين. وليس من الطبيعي أن نبقى متمسكين بعباءة الخليل بن أحمد الفراهيـدي... وعلماء الكـومبيوتـر يبشروننا ان الكومبيـوتر سيكتب عما قـريب قصـائـد العشق.. كمـا لم يكتبهـا قيس بن الملوَّح.. وقصـائد الـزهو والكبـريـاء كمـا لم يكتبهـا أبـو الـطيب المتنبي...

● ما الذي تحبه أكثر من غيره في الطبيعة..؟

ـ البحر.. لأنه حوار مكتوب باللون الأزرق....

● ما رأيك بالشعر الذي تكتبه المرأة؟.

ـ خلِّصونا من هـذه التفرقـة العنصريـة.. بين صوت الـرجل وصوت المرأة..

وإذا أردتم رأيي.. فانني أفضل صوت الحمامة.. على صوت ابن آوى..

● **بيروت التي ذبحوها.. ألهمتك الكثير من الشعر، كيف تنظر اليها الآن وأنت بعيد عنها كل هذا البعد؟**

- بيروت تلاحقني في صحوي وفي نومي.. ودمها يغطّي ثيابي واوراقي وشراشف سريري..

كلَّ يوم أطلب رقم بيتي في بيروت.. أعرف أنه لن يجاوبني أحد.. وأعرف انني موجود في جنيف.. ومع هذا استمر في لعبتي العَبَثية، فلربما تحدث المعجزة ويرد نزار قباني الموجود في بيروت.. على نزار قباني الموجود في جنيف..

أعرف أن هذا (ولدنة).. وخفّة عقل.. ولكنني أتعلق بحبال الأمل، وأقوم بمكالمة هاتفية مع المستحيل.. لا لشيء.. وانما لأتأكد أن تلفوني في بيروت لا زال على قيد الحياة.. وان المقعد الذي كنتُ أجلس عليه لأكتب شعري.. سوف ينهض من مكانه إذا سمع جرس التلفون.. ليرد عليَّ..

ربما هذا حديث حشّاشين.. أو حديث مسطولين.. أو حديث سكارى.. ولكن من قال لك ان العشق والسكر لا يتشابهان...

إن رنين تلفون بيتي في بيروت.. يريحني.. ولذلك أطلب الرقم كل يوم.. وأعانق السّماعة لخمس دقائق.. ثم أضعها في مكانها.

وهذا يذكرني بالعاشق الذي يعرف أن حبيبته تزوجت.. وأنجبت.. وسافرت مع زوجها الى الخليج.. ومع ذلك فهو يصرّ

أن يشتري وردة حمراء كلَّ يوم . . ويضعها تحت شرفة بيتها . .

قد تكون هذه التصرّفات صبيانية، ولا تليق برجل محترم مثلي . . ولكنني اعترف لكم انني مجنون بعشق بيروت . . ومجانين العشق لا يُحاسبون على تصرفاتهم . . .

ان عشق بيروت هو من باب اللا معقول . .

ونسيانها هو ضرب من اللا معقول . . أيضاً . . .

● هل تختلف نظرتك إلى الحب الآن عما كانت عليه في فجر شبابك . . ام ان الحب هو نفس الحب، والنظرة نفس النظرة؟

ـ هذا سؤال غير علمي، لأنه يفترض ان الارض لا تدور . . والعيون السود الكبيرة لا تذبل . . والنهد الذي كان أعلى من جبال الهملايا . . وأعظم من كل الملوك والأباطرة، لا يتخلّى عن العرش . . .

إن الحضارات تزدهر وتسقط . . والغابات تخضرّ ثم تيبس . . والانهار تمتلىء ثم تنشف . . ونظرتنا الى الحب تتعرض لألوف التعديلات والتصحيحات . .

ففي سن الخامسة عشرة يكون الصبي مستعداً أن يحبَّ حتى قطة البيت الأنثى . .

وفي العشرين يحبُّ الفتى أول جارة له يراها وهي تنشر الغسيل . .

وفي الخامسة والعشرين، عندما يذهب الطالب الى اوروبا للتخصص، يقع في غرام أول غرسونة تقدم له الطعام في مطعم شعبي . .

وفي الثلاثين.. يصبح الحبُّ لدى رجل الأعمال صفقة تجارية محسوبة..

وفي الخمسين.. يبدأ الرجل يراجع حساباته القديمة.. ويتذكر أهمَّ انتصاراته.. وينسى ان يتذكر هزائمه..

وفي الستين يتراجع عقل الرجل ١٨٠ درجة مئوية الى الوراء.. ويبدأ في البحث عن عروس بعمر حفيداته... ليؤكد سخفه وانهيار ملكاته العقلية..

هذا هو الخط البياني للحبّ.. وهو كما ترى خط كثير التذبذب والانحناءات.. يبدأ بمراهقة الجسد.. وينتهي بمراهقة العقل.

● **العصر العربي الحالي أردأ عصر شهدناه في تاريخنا. ما هو في رأيك سبب هذا السقوط الكبير، وأنت الشاعر ذو الرؤية الثاقبة؟**

- السبب أن بعض الحكام العرب يتصرفون بمصير مئة وخمسين مليون عربي دون تفويض منهم..

إن الحاكم العربي يعتبر نفسه المطرب الأول.. وصاحب الصوت الأجمل.. لذلك كانت حياتنا السياسية نشازاً بنشاز.. لأن الشعب - وهو صاحب الصوت الأحلى والأرخم - ممنوع من الغناء بأمر عسكري لا يقبل الاستئناف ولا التمييز.

أنا نزار قباني . . لا كارلوس . .

هل الشعرُ العربيُّ في مَأْزِق ؟

إنه السؤالُ التقليديّ الذي يواجهك في كلِّ حوارٍ أدبي .

وأنا أتصوَّرُ أنَّ السؤال ساذجٌ جداً . . أو خبيثٌ جداً . أو أنه لا يعرف شيئاً عن نسيج الشعر ومُكَوّناته .

الشعرُ هو الإنسان .

وعندما يكون الإنسان في مأزِق . . فإن الشعر بالتبعيّة يدخل في ذات المأزِق .

فكيف تُريدونني أن أكتُبَ شعراً ، في زَمَن اللاشعر ؟

وكيف تُريدونني أن أكتبَ نشيد الإنشاد . . في زمن اللاحُبّ . .

وكيف تُريدونني أن أكونَ مُغَنِّيَ هذه الجاهلية الجديدة التي أكلت أنبياءها . . وأكلت شعراءها . . .

هذا هو المأزق الكبير .

مأزقٌ أن تكون شاعراً على هذه الأرض الممتدّة من كربلاءَ إلى كربلاء . . وليس كما يقولون من الماء إلى الماء . . .

ومأزقٌ أن تكون حرّاً في عصرٍ يعتقل حتى صَيْحَةَ البلبل ، ونسمةَ الهواء . .

ومأزق أن تكون عاشقاً في وطنٍ حذف من قاموسه أسماءَ النساء . .

وأخيراً . . مأزقٌ أن تكون إنساناً في بلدٍ لم يقرأ من كتب الجاحظ غيرَ كتاب (الحيوان) . . . .

●

وإذا كان الزمن العربي يحترق . .
فلماذا يمدُّ الشاعر أصابعه إلى النار . .

وإذا كان (الإيدز) قد وصل إلى ثقافتنا ، وأقلامنا ، وأوراقنا . . . فلماذا يدخل الشاعر منطقة التلوّث ؟ لماذا يورِّط نفسه في هذه اللعبة الخطرة ؟

ربما لأن من طبيعة الشعر . . أن يكون دائماً متورِّطاً . .

وربما لأن من وظيفة الشعر ، أن يكون دائماً في داخل المغامرة . . وفي داخل الإنفجار . .

وربما لأن الطفل في أعماقي . . يُريد أن يحطّم بعض الأواني ، ويكسر أرجل الطاولات . . ويدلق زجاجة الحبر على سجادة الكاشان .

وربما لأنني ساديٌّ بطبعيتي ، وأحبُّ أن أعذّب من أحبُّهم . .

مرةً بشعر الحبّ . . ومرّات بشعر السياسة .

هناك التباسٌ كبير فيما يتعلق بماهيّة الشاعر . .

فالبعضُ يظنّه مُصْلِحاً ، والبعض يظنّه راهباً . . والبعض يظنُّه درويشاً . . والبعض يظنّه رائياً أو كاشفاً . . والبعض يظنه مجنوناً . . أو صعلوكاً . . أو مخرّباً . . أو متآمراً على سلامة المجتمع . .

والتآمر على سلامة المجتمع ، تهمةٌ قديمة . فكلُّ مجتمع لا يريد أن يتغيَّر . . ولا يريد أن يخرجَ من حالة (الكوما) التي هو فيها . . يقول لكَ إن الشعراء مخرّبون ، وهدّامون ، ومجانين ، ولا بدَّ من الحجر عليهم في مصحّة للأمراض العقلية .

وأفلاطون ، أبو الفلاسفة ، خاف هو الآخر على جمهوريته الفاضلة منهم . . وطالب بترحيلهم ، لأنهم يشكلون خطراً على أمن الدولة ، وثباتها ، واستمرارها . .

من هنا نفهم أن كلَّ العالم هو ضدّ طفولة الشاعر . .
لماذا ؟

لأن شيخوخةَ الدولة ، لا تستطيع استيعابَ أحلام الشاعر ، ومراهقته ، وبالوناته الملوّنة ، ومفرقعاته الخطرة . . .

الأطفال دائماً مُضْطَهدُون . . في المجتمعات الهَرِمَة ، المرتجفةِ الأصابع ، المُقوّسةِ الظَهْر . . .

والشعر هو واحد من هؤلاء الأطفال الذين يُوصفون دائماً ، بسُوء السلوكِ ، وقِلّة الأدب .

●

في أوروبا لم يُطْلِق أحدٌ الرصاص على هذا المجنون السريالي الأكبر الذي يُدعى سيلفادور دالي . . . ولا جاءت سيّارة الإسعاف ، ونقلت اندره بروتون ، وخوان ميرو ، وبيكاسو ، وشاغال ، وتريستيان تزارا ، وصموئيل بيكيت . . إلى مستشفى الأمراض العصبية . .

في الغرب ، يحترمون طفولة الشاعر . . ويحترمون جنونه أيضاً . .

أما عندنا . . فطفولة الشاعر ممنوعة بقرار عسكري ، وعلى الشاعر أن يولد من بطن أمه ، وعلى رأسه عمامة أبي العلاء المعرّي . . .

●

إنني لا أطلب منكم عرشاً . . ولا صولجاناً . . .

إنني أطالب بحقّي في أن أعيش طفولتي . . . وأن أستعمل محابري . . وأقلامي الملونة . . وطيّاراتي الورقية . .

إفهموني جيداً ، أيها السادة .

فأنا شاعرٌ . ولستُ بلاطةً ، ولا حائطاً ، ولا صرّافاً ، ولا متعهدَ عمارات ، ولا وكيلَ سيارات . . ولا تاجرَ سلاح . .

قد يكون عندي حماقاتي الصغيرة ، ونزواتي الصغيرة ، ولكنْ أيُّ طفلٍ في العالم ليس له حماقاته ، ونزواتُهُ . . حتى طفل الأنابيب . .

إفهموني جيداً . . أيتها السادة .

فأنا لا أشتغل في تَزْفيت الطرقات . . والتنقيب عن المعادن.

إنني أشتغل في (التنقيب) عن الإنسان . . .

●

أنا نزار قباني .
ولستُ كارلُوس الذي يتعقّبه الأنتربول من مكان إلى مكان .
إنني أنتمي للشعر وحده . . وأؤمن بالله ، والرسول ، واليومِ الآخر .
وأؤمن بالحرية بكل مُشتقّاتها . .
وأكرهُ القَمْعَ بكُلّ مشتقّاته . .
وأكرهُ الذين يمتصُّونَ دم الشعوب ، ويمتصُّونَ دمَ القصائد .

●

تأمّلوا وجهي جيداً .
هل أنا أشبه دراكيولُو . . أو بوكاسا . . أو بيريا . ؟
عندي هواياتٌ شعرية . وليس عندي هوايات إرهابية .
ومنذ ولادتي ، وأنا مفرغٌ لجعل مساحة الحبّ في العالم أكبر . .
ومساحة الحقد أصغر . .

منذ ولادتي ، وأنا أحاول أن أحوّل الوطن العربي إلى كتاب شعرٍ ، لا إلى مسلسل بوليسي .

●

إنني أنزفُ منذ أربعين عاماً على الورق . .

وأحبُّ لونَ نزيفي . .

وأولدُ . . وأموتُ . . مع كلّ قصيدة أكتبها . .

هذه هي سيرتي الذاتيّة وليس لديَّ سيرةٌ ذاتية سواها .

●

هذه نبذةٌ عن حياتي ، أقدّمها لكلّ وزراء الداخلية في الوطن العربي . . علّهم يشطبون إسمي من ملفِّ المشبُوهين والمطلوبين .

إنني لا أتحدّثُ هنا عن مأزِقي الشخصي .

فالشعرُ كلّه اليوم في مأزق .

إنَّه مُحَاصَر من الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ولا أحد يريد أن يفكَّ هذا الحصار . كأنما الجميع قد اتفقوا على أن الشعر لا لزومَ له في حياتنا ، وأنه بَرْغَشةٌ تنقل الملاريا . . . وزائدةٌ دوديّةٌ لا ضررَ من قطعها . . . .

●

إنتهى العصرُ العربيُّ للشعر . وبدأ العصرُ (التَنَكيّ) .

عصرٌ إذا حملتَ فيه بقصيدة ، أجهضوكَ وأنتَ في شهرِكَ الخامس . . وإذا نشرتَ مجموعةً شعريةً ، إعتبروها بنتَ زنى . . وأخذوها إلى دار اللقطاء .

في هذا المناخ البوليسيّ ، الفاشستيّ ، الجاهليّ ، الماضويّ، نمارس هوايةَ الموت على أوراقنا . . ونمشي كالثيران الإسبانية إلى مصيرنا المصبوغ باللون الأحمر .

الشاعرُ العربي ، مثلُ الثور الإسباني ، يعرف أنَّه سيموتُ في آخر الشوط ، ولكنه لا يستطيع الهروبَ من موته الجميل .

ربَّما كانت المقارنة بين الشاعر العربي ، والثور الإسباني ، مقارنةً مأساوية . ولكنهما يلتقيان في عظمة الشهادة .

فواحدٌ يموتُ على ورقةٍ بيضاءَ . .
وواحدٌ يموتُ على حفنة رملْ . . .

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٣

أنت تكتب . .

إذن فأنت مفضوح . .

هذه الأمسيةُ ، ستكون أمسيةً شعريةً مجنونةً ، كهذا العصر المجنون . لا أعدكم أن يكون عقلي كبيراً . . فالعقل الكبير لم يكن في يوم من الأيام من أُسُس الشعر ، أو من مكوّناته .

ثم لا أعدكم أن أمشيَ على الصراط المستقيم، فالصراطُ المستقيم قد يُوصل الى الجنة، ولكنه لا يُوصل الى الشعر.

ثم لا أعدكم ان أتقيد بالاشارات الضوئية الخضراء والحمراء . . لأنني تخرّجت من مدرسة الجانحين . . ولم أتخرج من مدرسة شرطة المرور . .

ثم لا أعدكم ان أكون طيِّباً ودرويشاً . . فأنا في الشعر ضدّ الدروشة والدراويش .

ثم لا أعدكم أن أكون في هذه الليلة ولداً حسن السيرة والسلوك، ومطيعاً لأبويه . . فأنا في الشعر قتلتُ آبائي، وانتهى الأمر . . وأحرقتُ شجرة العائلة، ورميت جواز سفري في البحر . . ومزّقت عباءة الرمل التي صارت أصغر من جسدي .

وأخيراً. . لا أعدكم ان استعمل الشوكة والسكّين. . في مقاربة الشعر. فأنا بدويّ يهجم على الحقيقة بأسنانه وأظافره، ولم يقرأ في حياته كتاباً واحداً في فنّ (الإتيكيت) . .

ليس لي قبيلةٌ تدَّعي أنني ابنُها . . .

وليس هناك شيخُ قبيلة أعطاني يده لتقبيلها. . ولم أعضّها. .

وليس لي أمٌ نزلتُ من بطنها بعد تسعة أشهر. .

فأنا نزلت من بطن الحزن بعد حَمْلٍ استمرّ تسعة ملايين سنة. .

وأخيراً. . ليس لي إسمٌ نهائي مكتوب على تذكرة هويتي.

فالحرية تعطيني كلَّ يومٍ إسماً جديداً. .

والريحُ هي التي تخترع عناويني. .

●

سأقرأ عليكم نصوصاً شعريةً تقترب من حدود الفضيحة، دون أن أشعر بحاجة للاعتذار من أحد. فأنا أعرف مسبقاً أنني شاعرٌ مفضوح. . وأن غالبية الدساتير في الوطن العربي تقول في مادتها الأولى:

(أنتَ تكتُب. . إذنْ فأنتَ مفضوحْ. .)

أو (أنتَ تتعاطى الشعر. . إذنْ فأنتَ مذبوحْ . .).

إن النصّ الشعري ـ كما أتصوّره ـ هو نصّ هجومي، وتصادمي، وهاربٌ من بيت الطاعة. ويوجعني أن أقول إن أكثر

قصائدنا العربية قضت نصف عمرها في بيت الطاعة، تكنس الأرض، وتمسحها، وتغسل ثياب الأنظمة وتكويها.. حتى أصيبت بشلل الأطفال.. وبانحناء مزمن في عمودها الفقري من كثرة الركوع والسجود.

●

لا أريد أن أورّطكم معي.. وأن يشاهدَكم أحدٌ على شاشة التلفزيون وأنتم متلبّسون بجريمة الاستماع إلى الشعر..

فمن يخاف على روحه، ورزقه، وعياله، ومرتّبه الشهري.. فلينْجُ بريشه.. ومن كان منكم كالقطط بسبعة أرواح.. فليبقَ في مقعده.. ولن يصيبنا إلّا ما كتب الشعرُ علينا..

ففي هذه الليلة، سأقرأ شيئاً من شعر الحبّ.. واشياء من شعر السياسة. ففي هذا الزمن العربي الذي لا يُسمّى، اختلطت الأوراق ببعضها خلطاً سريالياً عجيباً، حتى وُلد جنسٌ ادبي جديد، يمكن ان نطلق عليه إسم (الحبّ السياسي).

فالمرأةُ، لم تعد قمراً كما كانت في أدب المنفلوطي، وإنما تحولت الى قنبلة موقوتة...

وفمها لم يعُدْ وردةً.. أو حبّة فراولة.. وإنما تحوّل الى منشور سياسيّ..

ونهدُها.. لم يعد شجرةَ ياسمين، وإنما تحوّل الى كتيبة مسلّحة..

العشّاق العرب اليوم، أصبحوا يعشقون (كالروبوت) على

البطّاريات. . فالقبلات أصبحت ايديولوجية. . واللمسات أصبحت استـراتيجيـة. . والهمسـات على الهـاتف. . أصبحت شبيهـةً بالبلاغات العسكرية. . .

إنني لا أحـاول (تسييسَ) الشعر، أو إلبـاسَـه اللونَ الكـاكيّ. ولكنني أشعر أن زلزالاً سياسياً، وقومياً واجتماعياً، وثقافياً. . قذف الشعـراء من وراء مكـاتبهم، ووضعهم على الخـطوط الأمـاميـة للمعركة. .

وأنا واحدٌ من شعراء الحبّ الذين ضربهم الزلزال. . فجـرّدني من ملابس عمر بن أبي ربيعة. . وألبسني ملابس الجنرال رومل. . أو الجنرال عنترة بن شـدَّاد. . أو الجنرال عمـرو بن العاص سفيـر العروبة العظيم الى أرض الكنانة.

وبعد. . فشكراً لكم لأنكم منحتموني ساعة جميلة من الوقت أمارس بها جنوني. .

وشكراً للورق الأبيض الذي امتصَّ حرائقي. .

وشكراً لكم لأنكم دخلتم معي الى منطقة الإشعاع النوويّ. . وتحوَّلتم الى غمامةٍ بنفسجية. . .

نيسان (أبريل) ١٩٨٥

إخترتُ أن أكون خنجراً(*) . . .

(*) الكلمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعـرية في عمَّـان (الأردن) بتاريخ ١٣/٤/١٩٨٧ .

لن أكون هذه الليلةَ شاعراً رقيقاً . كما تنتظرون.

لأن المفهومَ العربيَّ للشاعر الرقيق، يعني أن يدخلَ هذا الشاعرُ في سِلْك الدروشة . . ويمشي من الحائط الى الحائط طالباً منَ اللّه السِتْرَة . . .

لذلكَ فإنني أعتذرُ عن قَبُول لَقَبِ الشاعرِ الرقيقِ . . أو الشاعرِ المسْتُور . لانَّ الرّقةَ والسِتْرةَ هما من أعمال الجمعيات الخيريّة . بل هما مؤامرةٌ مضادّة للشعر.

وأعترف لكم بادىء ذي بَدْء، أنني شاعرٌ غيرُ منضبط وغيرُ مريح . . وغيرُ مؤدَّب . . وأنّني لم أقُصَّ أظافري الشعريّة منذ أن كنت في العاشرة من عمري .

أعترفُ لكم أيضاً أن عندي حساسيةً مُفْرِطَةً من رائحةِ السُلْطَة، سواءً كانت سلطةً بوليسية . . أم سلطةً نسائية .

أعترف لكم أيضاً أنني مشاغبٌ وعُدْواني . وأنني الآن عاطلٌ عن العمل، لأنني قتلتُ جميعَ أسيادي . . وجميعَ أرباب العمل

الذين اشتغلتُ معهم.. كما قتلتُ مدرّسَ التاريخ الأهبلَ الذي لا يزالُ يصرُّ على أن مدينةَ غَرْناطةَ لا تزالُ ولايةً من ولايات أمير المؤمنين.. وأن مسجدَ قُرْطُبةَ الكبيرَ لا يزالُ تابعاً لوزارة الأوقاف في المغرب..

ولأنَّ كتاباتي لم تلتزم بمنطق القبيلةِ وقناعاتِها، فقد وجدتُ نفسي كالشعراء الصعاليك.. على رصيف الشارع العربي.

وتلكَ هي ضريبةُ الكلمات التي ترفُضُ زَواجَ المُتْعَة.. وترفضُ أن تنامَ مع السُلْطة في فراشٍ واحد.. فالزواجُ منَ السُلْطة هو جحيمٌ في النهار.. وكوابيسُ في الليل..

وخيرٌ للكاتب أن يبقى عازباً الى أَبَد الآبدينْ.. من أن يتحوَّلَ الى خادمة سيرلانكية.. تنتقلُ من مالكٍ الى مالك، ومن متعهدٍ الى متعهد.. وفقاً لمتطلبات السوق السياسية، وقوانين العرض والطلب.

لو كان على الشعر أن يكونَ مؤدَّباً، ومهذَّباً، ويعملَ بتعاليم السَلَف الصالح، من أنَّ خيرَ الأمور الوَسَط، وأنَّ القناعةَ كنزٌ لا يفنى.. لتحوّلت القصيدةُ إلى قِطٍّ من خَشَب..

ولو كان على الشاعر أن يَتَمَسْكَنَ.. ويتسوَّلَ.. ويلبس الثيابَ المرقَّعة.. ويبحثَ عن وظيفة أميريةٍ، أو صحنِ حِسَاء.. لتحوَّل الشعرُ الى تكيَّةٍ للدراويش..

ولو كان على الشاعر أن يُديرَ خدَّهُ الأيسرَ لمن يضربهُ على خدّهِ الأيمن.. لتحوَّلَ حكّامُ العالم الى مجموعةٍ من المُلاكمين..

ولو كان على الشعر أن يبقى دائماً في الأرض الحرام، أو في المنطقة المنزوعة السلاح، أو يقبلَ بمراقبة قوات الطّواريء الدولية، لتحوَّل الشعرُ الى دبلوماسي محترف، يشتغل عند السيد خافيير بيريز دي كويلار.

ولو كان الشعرُ من فصيلة الحيوانات الأليفة.. كالحمام الزاجل.. والكناري.. لاشتريناه من عند بائع العصافير..

ولو كان الشعرُ موظفاً عثمانياً، يلبس الطربوشَ الأحمرَ، ويُطَقْطِقُ بمسبحتهِ خلالَ ساعات العمل، وينطوي نصفيْن أمامَ البابِ العالي.. لكان نصفُ الشعر العربي مكتوباً باللغة التركية.

ولكنَّ الشعرَ يرفُضُ كلَّ الأعمالِ المنزليةِ الآنفةِ الذِكْر، كما يرفُضُ رفضاً قاطعاً أن يكونَ زوجةً لا تستطيعُ الخروجَ من بيت الطاعة.

عندما يختار الشاعرُ أن لا يقولَ شيئاً.. وأن لا يُغْضِبَ أحداً.. وأن لا يعتدي على عذريّة نَمْلة.. يقُولون عنه إنَّه مؤدَّب.. وجنتلمان.. وابنُ ناس..

ولا أدري ما هو معيارُ الجنتلمانية في الشعر.. وما هي البروتوكولات التي تجعلُ من شاعرٍ منبطح على بطنه منذ ثلاثينَ عاماً ابنَ ناس.. ومن شاعرٍ يحطّم بقبضته زجاجَ الشمس ابنَ آوى...

والسؤالُ الذي لا بدَّ من طرحه هو التالي:

هل نحنُ بحاجة الى شعراءَ معلّقين كالبراويز على حيطان

وزارات الثقافة والإعـلام . . أم نحنُ بحاجـةٍ إلى شعراء يُضْـرمونَ النار في ثيابهم على الطريقة البُوذيَّة ؟

هل نحنُ بحاجةٍ إلى شعراءَ يلبسونَ الأحذيةَ اللمّاعةَ ، والقبَّاتِ المُنَشَّاة . . ويكتبونَ القصائدَ المنشَّاة . . أم نحنُ بحاجةٍ إلى شعراءَ يقلعون جلدهم ، ويلبسونَ العاصفة ؟

ثم لا أدري، اذا كان الوطنُ العربيُّ، في صورتـه الحاضـرة، بحاجةٍ الى شعراءَ يأكلونَ الشعرَ بالشَوْكة والسكين. . أم بحاجة الى شعـراءَ متـوحّشينَ يَنْقَضُّـون على هـذا الخـراب الكبيـر كـالنسـور الجارحة؟

إنني بدون تردّد مع القصيدة المتوحّشة !

مـع القصيدة التي لم تقـرأ كتابـاً واحداً عن فنِ الجلوس على المائدة، أو فنِ تنسيقِ الأزهار على الطريقة اليابـانية، أو فنِّ تقبيـل أيدي النساء على الطريقة الإنكليزية.

لا تستطيع القصيدةُ أن تكونَ عاقلةً في غابةٍ من المجانين. .

ولا تستطيعُ أن تكونَ مانيكاناً . . في كَرْنَفالٍ من القُبْح . .

ولا تستـطيعُ أن تَضَـعَ الخلاليـلَ في ساقَيهـا . . وترقصَ حتى مطلعِ الفجر. . لرجال الميليشيات.

ليسَ هذا زمنَ العصافير. . ولا زمنَ المواويل. . ولا زمنَ الوردِ واللوزِ والعِنَب. .

وليس هـذا زمنَ ابنِ زيـدون ، وابنِ المعتـز ، وابنِ نبـاتـةَ

الأندلسيّ ، لأن الأندلسَ كلّها صارت في ذمة الله . . وصار تطبيقُ القرار ٢٤٢ مطلبَ جميع الأندلسيين .

والعالمُ العربيُّ يتآكلُ كلَّ يومٍ كبرتقالةٍ عَفِنَة . . وينامُ على مسلسلات الرُعْب . . ويصحو على مسلسلات الرُعْب . . .

إن هيتشكوك العربيّ، هو البطلُ القوميُّ الوحيد، الذي تملأُ تماثيلُهُ ساحاتِ المدن العربية . . .

أما الشَعْبُ العربي فهو موضوعٌ في الفريزر . . وهو بالتعبير المصرفي كمبيالةٌ مؤجلة الدفع حتى إشعارٍ آخر . .

وفي هذا الإطار الهيتشكوكيِّ الرهيب . . العابقِ برائحةِ الموتِ، والبارودِ، والمسدّساتِ الكاتمة للصوت . . مطلوبٌ من الشاعر أن يضربَ على طبلته . . ويهزُّ وسطه . . ويشاركَ في الفَرَح . .

إنني من زمانٍ بعيد، مستقيلٌ من وظيفة إحياء الأفراح .

ففي هذا الزمن العربي الذي لا وصفَ له، لم يَعُدْ أمامي خياراتٌ كثيرة .

فإما أن أكونَ حمامةً تسكنُ في قُبَّةِ مسجد . .

وإما أن أكونَ خنجراً في لحم عصور الانحطاط . .

ولقد اخترتُ أن أكونَ الخنجر . . .

جمهورية جنونستان

(لبنان سابقًا)

مسرحية

من ثلاثة فصول

الكتاب الخامس والثلاثون

١٩٨٨

كتبتُ هـذه المسـرحيّـة في بيـروت عــام ١٩٧٧ في بدايات الحرب الأهلية اللبنانية .

وأنشرها في عام ١٩٨٨ ، أي بعد أحدَ عشرَ عاماً من كتابتها ، دون أيّ إضافة أو تعديل .

فـوقـائـع الحـرب اللبنـانيـة ، بعبثيّتهـا ، ووحشيّتهـا ، وجنونها ، بقيت هيَ . . هيَ . .

والمسرحيّة بقيت هيَ. . هيَ . .

نزار قباني

الفصل الأول

المكان : مطار (جمهورية جُنُونسْتَانْ) .

علمٌ عليه سَبْعُ أرزات يرتفع فوق المبنى .

صورةٌ كبيرةٌ جداً لرئيس الدولة في صدر قاعة المكان ، وفي وجهه سَبْعُ عُيُون .

موظفو أمن عام ، وجمارك ، ومخابرات .

إلى اليمين بابٌ كُتِبَ فوقه (باب رقم/١ ـ المغادرون).

وإلى اليسار بابٌ كتب فوقه (باب رقم/٢ ـ القادمون).

حركةٌ غير عادية عند باب المغادرة .

وباب (القادمون) لا يدخل منه أحد .

مُكَبِّرات الصوت تُعلن عن إقلاع الطائرات إلى باريس ، روما ، لندن ، قبـرص ، أبو ظبي ، جـدّة ، الكويت ، الدوحة .

يستمرُّ تدفُّق المسافرين نحو باب المغادرة. ثم تهدأ الحـركـة في المــطار تـدريجيـاً. وتخلو القـاعــة من المسافرين .

يمرُّ بعضُ الوقت ثم ينفتح الباب (رقم ٢) ويدخل منه رجلٌ وامرأةٌ في ثياب السفر . وقد حمل الرجل حقيبتين كبيــرتين، وحملت المــرأة حقيبــة تجمـيــل، وبعض المجلّات الأجنبية .

يضعُ الرجلُ الحقيبتين على الأرض، ويرتـاح قليلاً . بينمـا تفتـحُ المـرأة حقيبـةَ التجميـل، وتبـدأ بـإصـلاح زينتها . . .

الـرجل : لا تُشْغِلي بـالَكِ يـا حبيبتي. فالجميـلُ لا يحتاجُ إلى تجميل . .

ولكنَّ المُهِمَّ أن تعثري على من يرى هذا الماكياج، أو أن يكون في المطار من يحمل لكِ باقةَ ورد. . .

المـرأة : (مُنْـدَهِشَـة). مـاذا تقصـد؟ ألم تُبْـرِقْ إلى بيروت بموعد وصولنا، ليرسلوا إلينا سيَّارة؟

الرجل: المشكلة ليست مشكلةَ بـرقيَّة. . ولا مشكلةَ العُثُـور على سيَّـارة. المشكلةُ هي مشكلةُ العُثُـور على بيروت. . .

المرأة : ما هذا الكلام السِرْيَاليّ ؟

أَلم تسمع قائدَ الطائرة وهو يطلب منّا رَبْطَ الأحـزمة، والتـوقُّف عن التـدخين، استعــداداً للهبـوط في مــطار بيروت؟

الرجل: سمعتُ يا حبيبتي. ولكنَّ الطائـرة نزلت في مكانٍ آخر. . ربّما هبطنا اضطراريـاً في أرض أخرى. . في كوكبٍ آخر . .

المـرأة : يا حبيبي. قـد يكـون الضَغْطُ الجـويّ أَثَّـر عليكَ قليلاً. فنحنُ قد هبطنا هبوطـاً طبيعياً. أَلم تَـرَ من نـافذة الـطائرة صَخْـرَةَ الرُوشَـة. . وبنايـة الجيفينـور. . وحدائقَ الجامعة الأميركية . . ورمالَ الأوزاعي ؟

الرجل : أؤكد لكِ أنني لا أَهْذِي، ولا أتوهَّم. . فأنا بيـروتيّ إبْنُ بيروتيّ. ولكنَّ مـا أراه حولي يُـوحي بـأنّنـا أخطأنا في العُنْوَان . .

المرأة : وهل هناك شيءٌ غَلَطْ ؟

الرجل : بل كلُّ الأشياء التي أراها غَلَط . . هل رأيتِ العَلَمَ المرفوعَ فوق مبنى المطار ؟

المرأة : رأيتهُ . .

الرجل : ألم تُلاحظي أن علمنا صار بسَبْعِ أرْزات . . في حين أننا حين تركنا بيروت آخرَ مرةٍ . . كان العَلَمُ اللبناني بأرْزَةٍ واحدة . . .

وصورةُ رئيس الدولة المعلَّقة في صدر القاعة هل ترينَها ؟

(تتطلَّع المرأة إلى الصورة، وتشهقُ من المفاجأة) .

المرأة : مستحيل . . مستحيل . . هذه صورة رَجُل بسَبْعِ عُيُون .

يا إلَهي . . أين نحن؟ في أيِّ كوكبٍ عجيبٍ هبطتْ بنا الطائرة؟ . . .

(صوتٌ غليظُ النَبْرَة ينبعث من مكبِّـرات الصوت في صالة المطار) .

الصوت : هُنا (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) . . .
هُنا (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) . . .
هُنا (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) . . .

المرأة : أينَ وضعتَ الخريطة ؟

الرجل : ولماذا تريدين الخريطة ؟

المرأة : أريد أن أفتش عن هـذه الدولـة التي اسْمُها (جُنُونِسْتَانْ). في أيِّ قَارَّة تَقَع ؟
ما هي لغتُها . . ما هو تاريخُها؟ كم عددُ سكانّها؟

الرجل : لا تُتْعِبي نفسَـكِ. فلن تعثري عليهـا لا في كُتُب التاريخ، ولا في أطْلَس الجغرافيا، ولا بين الـدول الأعضاء في الأمم المتحدة . .
إنهـا دولةٌ مُخْتَـرَعَـة . . مَسْلُوقـةٌ سَلْقـاً . . كمـا تُسْلَق السباغيتي في عشرينَ دقيقة . . .

(الصـــوتُ الغليظ ينبعثُ مـرةً أُخـــرى من مكبِّـرات الصوت) .

الصـــوت : نُـــرحِّب بكم على أرض (جمـهـــوريّــةِ جُنُونِسْتَان). أرض الشمس، والثلج، والكَرَز، والتُفَّاح، والحواجز الطيَّارة، والقَتْلِ على الهويَّة. . .

نُرَحِّبُ بكم في هذا المطار المُؤقَّت، ريثما يتمُّ تحريرُ البقيّة الباقية من جمهوريّتنا العظيمة. . .

إن (جمهـوريّة جُنُـونِسْتَـانْ) هي البـديـلُ الجغـرافي والسيـاسي والتاريخي والحضـاري، لما كـان يُدْعَى في قديم الزمان. . جمهوريَّة لُبْنَان.

الـرجل : هـل صـدّقتِ الآن أننـا نـزلنـا في كـوكب آخر؟. . وأن صخرةَ الروشة التي رأيتِها من نافذة الطائرة كانت نوعـاً من خِدَاع البَصَـر. . وأن مستشفى الجامعـة الأميركية لم يكن إلاَّ مستشفى العصفوريَّة ؟

الصــوت : لا تُؤاخـذونـا إذا قصَّرنـا في واجبات الضيـافة، وفي تقـديم الخدمـات السياحيَّـة التقليـديـة. ففنـادقُ الـدرجــة الأولى كلُّهـا احتــرقتْ. . والمـزارعُ احترقتْ. . والمتاجرُ احترقتْ. . والمدارسُ احترقتْ. . والمكتبــاتُ احتــرقَتْ. . والشــوارعُ مهجــورةٌ بسـبب القَنْص. . والكهـربـاءُ مقـطوعـةٌ. . والميـاهُ مقـطوعـة، والتلفونات صامتة. . والبريد لا يُوزَّع. . والزبالةُ لا تجد من يَلُمُّها. . والجثثُ لا تجد من يدفُنُها. .

طبعاً. . كلُّ هذه المشاكـل تعتبر صغيـرةً جداً، أمـام الإنجازات الكبيرة التي حقَّقتها ميليشياتكم الظافرة. .

قد تضطرون للوقـوف في الطابـور ساعـاتٍ للحصول على رَبْطة خبز. . أو على غالون بنـزين. . أو على علبة سردين. . أو على غرفة في أحد المستشفيات. . أو على ضريح في إحدى المقابر . .

إنَّ قضيةَ العُثُور على قبر أو كَفَن ليست قضية مصيرية. فحين ماتَ سيِّدُنا آدم، لم يشيِّعْهُ أحدٌ.. ولم يكفِّنهُ أحدٌ. ولم يَرْثِهِ شاعرٌ بقصيدة.

حتَّى زوجتُهُ حوَّاء لم تمشِ في جنازته، وتركت جثَّتَهُ في البريَّة تنقرُها العصافير.. وتزوَّجتْ غيره..

لذلك لا تشغلوا بالكم، ولا تفكّروا كثيراً في هذا الموضوع. فالأعمارُ بيد الله.. ويد الميليشيات.

لبنانُ القديم ذو الأَرْزَةِ الواحدة انتهى أمرُه، ودخلَ متحفَ التقاليد الشعبيَّة، ومن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع الطوائف، جعلنا علمَ الدولة بسَبْعِ أرْزَات.. وانتخبنا رئيسَ جمهوريةٍ بسَبْعِ عُيُون..

المرأة: يا سَلَام على الفصاحة.. يا سلام على هذه اللغة الميليشياوية الجديدة.. يا ليتَهم خطَفُوا بنا الطائرة، ولم ننزل في دولة (هيستيرياسْتَانْ) أقصد (جُنُونِسْتَانْ)...

الرجل : كلُّه واحد . .

المــرأة : خفِّف من سخـريتــك . . وإلا رُحْنــا في داهية . .

(رجـل مخابـرات كان يستـرق السمع إلى حـديثهمـا يتقدّم نحوهما . .)

رجـل المخـابـرات : مـاذا يقصــد الأستـاذ بكلمــة (واحد)؟

الرجل : أقصد أنَّ اللَّهَ واحد . .

رجـل المخابـرات : هـذه نـظريـةٌ سَقَـطَتْ من زمن بعيـد . . وعلى وجه التحـديـد، منـذ أن قُمْنَـا بتـأسيس جمهوريتنا الجديدة . هل أنتَ لبناني ، أم أنت غريب؟

الرجل : أنا لبناني غريب . .

رجل المخابرات : لا أفهم . .

الـرجل: أقصـد أنني خرجتُ من وَطَني قبـل عشــر سنوات ، ورجعتُ اليوم لأجده قد صار سبعةَ أوطان . كما أن الله الذي تركتُهُ قبل سفـري واحداً . . قسمتمـوه على سَبْعَة . .

رجل المخابرات: يبدو لي أنـك لا تعرفُ شيئـاً عن نظرية العدل الاجتماعي.

إنَّ اقتسامَ الله هو الحلُّ العِلْميّ الوحيد لإرضاء جميع الطوائف . .

الرجل: ولكنَّ اللّهَ غيرُ قابلٍ للقِسْمَة . .

رجل المخابرات : صحيح أنك غشيم، ولا تفهم في علم اللاهوت. في (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) كلُّ شيء قابلٌ للقسمـة . . بمـا في ذلـك المـرافيء . . والضـرائب . . والـواردات الجمركيـة، والمناهـج التعليميـة، ومؤسسـة الكهـرباء، ومؤسسـة المياه، والبـرق والبريـد والهاتف، والإذاعة، والتلفزيون . .

ولكن يبدو أنك مواطن غير مثقَّف . . لا تتـابع حـركةَ التاريخ . . ولا تعرف جدولَ الضَرْب والجَمْع والقِسْمَة.

الرجل : أنا أحبُّ الجَمْع . . وأكرهُ القِسْمَة . .

رجل المخابرات : أنتَ لا تزال تعيش في حالة طفولة سياسية، ولكنك مع الزمن سوف تتعوَّد . .

الرجل: أتعوَّد على ماذا؟ على معتقلي الجديد؟

رجل المخابرات: بل على حريَّتك الجديدة.

الرجل: السُكْنَى في داخل (غيتو) ليستْ حريَّة. إنها عودة بالإنسان إلى عصر المغارة والطَوْطَم.

رجل المخابرات: إنَّكَ لا تزال سجين رومانسيتك وأحلامكَ الورديَّة. ولا حلَّ لكَ إلَّا بإلغاء ذاكرتك. فلبنانُ القديمُ لم يَعُدْ موجوداً...

الرجل: ما دام موجوداً في ذاكرتي.. فهو موجود.

المرأة: قل لي أيُّها السيد.. من اختار لكم اسْمَ (جمهوريّة جُنُونسْتَانْ)؟..

رجل المخابرات: لماذا تسألينَ هذا السؤال؟ ألا يعجبكِ الإسْم؟

المرأة: عاشتِ الأَسْمَاءُ. إنَّه بالفعل إسْمٌ على مُسَمًّى. ولكن.. ماذا فعلتُمْ باسْمِ لُبْنَانَ القديم؟

(يهرشُ رجلُ المخابرات رأسَهُ كمن يحاولُ أن يتذكَّر تاريخاً بعيداً).

رجـل المخابـرات: لبنان.. لبنـان.. لبنـان.. آه. تذكَّرْتُ الآنَ. إننـا عرضنـاهُ في المزاد العلني، فـاشتراه تاجرٌ يهوديٌّ يبتاع الثياب القديمة..

المرأة: وبِكَمْ.. بِعْتُمْ لبنان؟

رجل المخابرات: في الحقيقة يـا مَدَام.. هـذا قرارٌ سِـرِّي اتَّخذه الحـزب. ولا يعـرف الـرقْمَ الحقيقيَّ غيـرُ رئيس الميليشيا.. والتاجرُ اليهوديُّ الذي اشتراه منه.

المرأة: وهل بكى الوطن عندما بعتُمُوه؟

رجـل المخابـرات: نعم يا سيـدتي. الوَطَنُ بكى.. ولكنَّ التاجرَ اليهوديَّ هو الذي ضَحِك...

مكبِّر الصوت: يُرْجَى من حضرات الركَّاب القـادمين التوجّه إلى مركز الأمن العام لإنجاز معاملاتهم.

(يحمـل الرجـل الحقيبتين، ويتوجَّـه إلى حيث يقف ضابط الأمن العام. يُخْرِج الرجل من جيبه جَـوَازَيْ سفر لبنانيِّـين، ويضعهما أمام الضابط. يُقلِّبُ الضابطُ جوازَيْ السَفَر، ثم يرميهما بعصبيَّة أمامه..).

الضابط: هذه جوازاتُ سَفَرٍ تاريخية.. جوازاتُ سَفَرٍ مُنْقَرِضَة.. صادرة عن دولةٍ مُنْقَرِضَة لا نعترفُ بها.

الرجل: مُنْقَرِضَة؟؟.. هـل يمكن لدولـة أن تنقرض بين عشيَّة وضُحَاها.. هل يمكن لجواز سفرٍ قـانوني أن يذوبَ كفَصِّ الملح.. أو فقاعة الصابون؟

يا حضرة الضابط. نحن قادمان من باريس. ولم يقُلْ لنا أحدٌ في مطار أورلي أن جواز سفرنا قد انْقَرَضَ.. أو أنَّ لبنانَ قد انْقَرَض...

الضابط : ألم تقرأوا في جـريدة (المـوند) أو جـريدة (الفيغـارو) أنَّ جمهـوريَّةً جـديـدةً قـامت في بـلادكم، إسْمُها (جمهوريَّةُ جُنُونِسْتَانْ)؟.

الرجل: لا يا سيّدي الضابط. لم نقرأ. ثم ما هو وضعنا القانوني في مثل هذه الحال؟ وماذا نفعل في جوازات سفرنا اللبنانية؟

الضابط: هذا ليس شغلي. إرْمُوها في البحر.. أو خُذُوها إلى المتحف.. المواطن الحقيقي مفروضٌ فيه أن يعرفَ القانون. وأنتم كان عليكم أن تراجعوا قنصليات (جُنُونسْتَانْ) في الخارج، لاستبدال جوازات سفركم.

الرجل: ولكنكم لم تفتحوا أيَّ قنصلية في الخارج. ثم إن قناصلَ لبنان الذين راجعناهم، كانوا مثلنا مقطوعين من الأخبار.. والمُرَتَّبات.. ولا يعرفون شيئاً عن قيام (جمهوريّة جُنُونسْتَانْ).

الضابط: (بانفعالٍ وغضبٍ شديدَيْن): هذا إهمال.. هذا تقصير.. هذا تخريب.. ماذا يفعل وزير خارجيتنا إذن؟. ماذا يفعل سفراؤنا في الخارج، غير تدخين السيجار.. وشرب الويسكي.. واقتناء السيارات الفارهة؟...

سأُقَدِّمُ تقريراً للمكتب السياسي أطالبُ فيه بمحاكمة وزير خارجيتنا . . وإقالة جميع سفرائنا في الخارج . . لأنهم جميعاً أعداء الثورة . . . .

الرجل : يا حضرة الضابط . إعملْ معروف هدِّيء أعصابك . فقد تأخُذُ محاكمة وزير الخارجية وقتاً طويلاً . . فهل سننتظر أنا وزوجتي في المطار حتى تنتهي المحاكمة ؟

الضابط : لا . . أنتم لستم مسؤولين عن أخطاء غيركم . ولكن قبل أن أسمح لكم بمغادرة المطار ، أريد أن أستكمل التحقيقَ معكم . .

الرجل : حاضر . . .

الضابط : هل هذه السيِّدة هي زوجتك ؟

الرجل : نعم . . هي زوجتي .

الضابط : ولكنكما تحملان جوازَي سفرٍ منفصلَيْنْ . وتنتميان إلى طائفتين مختلفتيْنْ . والتأشيراتُ التي توجد

على الجوازين تُشير إلى أنكما غادرتما معاً. . وعُدْتُما معاً. .

الرجَل (باسماً) : وهل هناك شركة طيران في العالم تسأل عن دين الراكب وجِنْسِه، قبل أن تبيعَهُ التذكرة ؟

إن سفينةَ نوح كانت أكثرَ تقدمية . . لأنَّها كانت تحمل على ظهرها الذُكُورَ والإناث دونَ تفريق . . .

الضابط : إنني أريدُ أجوبة لا تعليقات . هل تسمح السيِّدة أن تقول لي إذا كانت قد سافرت مع هذا الرجل بملء إرادتها ؟ . .

المرأة: طبعاً. . سافرتُ بملء إرادتي، لأنني أُحبُّه .

الضابط : تحبّينهُ؟؟ ولكنَّه من دين مختلف. .

المرأة: الحبُّ. . هو دينُنَا المُشْتَرَك. .

الضابط : وهل حصلتِ على موافقة أهلك ؟

المرأة : يا حضرة الضابط إنَّني امرأة في الثامنة والعشرين من عمري. وأعتقد أن بوسعي أن أتخذ قراراتي بنفسي دون الرجوع إلى رأي القبيلة . . .

الضابط : وهل تعتبرين المجتمع قبيلة ؟..

المـرأة: طبعـاً.. إنَّـه قبيلة كبيـرة، بكـل تسلُّطهـا، وتعصُّبها، وخناجرها، ومشانقها، وسُجُونها، وجُنُونها...

الضـابط : ولكن القبيلة تحـافظُ عليـكِ كـأنثى، يـا سيِّدتي..

المرأة: القبيلةُ لا تحافظُ إلاَّ على ذُكُورها. الرجال هم مواطنو الدرجة الأولى.. والنساء هُنَّ مواطنـات الدرجـة الثانية. والدليل أنَّك تحقق معي في قضية شخصيةٍ جداً تتعلَّقُ برجلٍ أحببتُهُ.. وسافرتُ معه..

الضابط : سافرتِ معه بصورة غير شرعيَّة. أي أنـك لستِ زوجتَهُ..

المـرأة: وهل من الضـروري أن يسافـرَ الإنسانُ مـع زوجته؟ أنا حبيبتُه...

الضابط : كلمة (حبيبة) تُسْتَعمل في دواوين الشعر.. ولكنها لا تكفي لإثبات الشرعيَّة.

المرأة: ومن الذي يفصل في قضيَّة الشرعيَّة؟

الضابط : الحكومة . . .

المرأة : الحكومة جهازٌ بوليسيّ، ولا عَلاَقَة لها لا بالحبّ ، ولا بالشِعْر. . الحُبُّ هو مصدرُ كلِّ الشرعيَّات.

الضابط : على جوازَيْ سفركما تأشيرةٌ قديمة لدخول جزيرة قبرص. ماذا فعلتما في قبرص ؟

المرأة: وماذا تنتظِر أن نفعل في قبرص؟ نزلنا في فندق على الشاطىء. . وسَبَحنا في البحر. . وأكلنا سمكاً طازجاً وجبنة قبرصيَّةً بيضاء. . وشربنا نبيذاً قبرصياً جيّداً. . ورقصنا. . ثم خطر ببالنا أن نتزوَّج. . فتزوَّجْنَا. . .

الضابط : أيُّ نوع من أنوع الزواج ؟

المرأة: الزواج الأبسط. . والأسهل. . والمتحرِّر من كُلِّ الشكليَّات. . كزواج العصافير. .

الضابط : تقصدينَ الزَوَاج المدني ؟

المرأة : بالضبط . .

الضــابط : أي أنكما هـربتما من الـوطن . . لتتزوّجـا على أرضٍ أجنبية؟

المرأة: كلُّ مكانٍ يجمع رأسَيْ عـاشقين هو وطن . . بل هو سَيِّدُ الأوطان . . ثم إن الوطنَ ليس سجناً للنساء . . ولا مدرسةً داخلية لا يُسْمَحُ للفتيات فيها أن يَخْرُجْنَ إلا بإذْنِ الناظرة . . .

إنَّ الـوطن هـو مجمـوعـةُ عـواطف من يسكنـونـه . . ومجموعةُ أفكـارهم، ومجموعـةُ خياراتهم . . ومجمـوعة حرّياتهم . .

وحين يقفُ الـوطن ضـدَّ مشـاعـر مـواطنيـه، وضـدَّ عـواطفهم، وأفكارهم، وضـدَّ شؤونهم الصغيرة، فـإنَّـه يتحوَّل حينئذٍ إلى قاووش كبير للسجناء .

الضابط : ولكنك هاربة من الوطن الذي أطعمكِ . . وربّاكِ . .

المرأة: الأكلُ ليس مشكلة. . . .

كـلُّ الحيوانـات بمـا في ذلـك الصـراصيـر تجـد مـا تأكله. . الحريَّـةُ هي مشكلتي. فحين يرفضُ الـوطنُ أن يزوِّجَني من الرجل الذي أحُبُّـه، بحجة المحـافظة على النظام العام، ومصالح الطائفة، وسُمْعَة الحارة. . فإنَّ لي ملء الحقّ أن أرفضَهُ بدوري . .

حين يـرفُضُ وطني أن يعترف بحبيبي. . فـإنَّ حبيبي عندئذٍ يُصبحُ وطناً. .

الضابط : أنتِ محاميةٌ حقيقية.

المرأة: بل أنا امرأةٌ حقيقية. . .

الضـابط : حسناً. . حسنـاً. . لقد طـال هذا الحـوار كثيـراً. . إلى أيِّ قسمٍ من بيروت تُـريدان أن تـذهبا. . حتَّى توصلكما سيَّارة قوى الأمن، لأنَّ الطُرُقَ غيرُ آمنةٍ في هذه الساعة من ساعات الليل. .

الرجل : نذهب إلى منزلنا في بيروت الغربيَّة. .

الضابط : تذهب أنتَ إلى بيت أهلك. . وتذهبُ هيَ إلى بيت أهلها. .

الرجل: ولكنَّها زوجتي. . .

الضابط : كونُها زوجتَك. . لا يغيّر وضْعَها الطائفي.

الرجل: ولكنَّني أحملُ الأوراقَ التي تؤكّدُ زواجَنا. .

الضابط : نحن في (جمهوريّة جُنُونِسْتَـانْ) لا نعترفُ بقُصَاصَات الأوراق التي أعطوكم إيَّاها في قبرص. .

المرأة: ولكنَّ كلَّ الزيجات مكتوبـةٌ على قُصَـاصَات وَرَق. المحكمـة الشرعيَّـةُ تُعطي للمتـزوّجين قُصَـاصـةَ ورق. . والكنيسةُ تعطي أيضاً قُصَاصةَ وَرَق. .

كلُّ الزيجات في العالم بناياتٌ من وَرَق. . .

الضابط : ماذا تقصدين ؟

المرأة: أقصُدُ أن القضيَّةَ كلَّها وَرَقٌ بوَرَق. . والمهمُّ في الزواج ليس النصَّ المكتوب. . وإنما جوهرُ العلاقـة بين الرجل والمرأة. . .

حين يكون إثنانِ في حالة حُبّ. . فإنّهما لا يحتاجان للتوقيع على أيّة وثيقة. إنَّ حبَّهما هو شهادة التأمين التي تحميهما من الضجر. . والتكرار. . والإفلاس الروحي. .

الضابط: حسناً. . لنختمْ هذا الحوار اللامُجْدي. فقولي يا سيِّدتي إلى أينَ تريدين أن توصلَكِ سيَّارةُ قِوى الأمن الداخلي ؟

المرأة: يا حضرة الضابط. هل أفهم من كلامك أن عليَّ الالتحاق بقبيلتي في بيروت الشرقيَّة؟

الضابط : نعم يا سيِّدتي. . هذه هي التعليمات. .

الرجل: وهل يعني هذا أنني سأذهب إلى (غيتو المسلمين. . وزوجتي ستذهبُ إلى (غيتو) النَصارى؟ .

الضابط : إستنتاجُكَ صحيح .

الرجل: إذَنْ، هل تسمح لي، يا حضرةَ الضابط، أن أتشاورَ مع زوجتي؟ .

الضابط : لك ما تُريد .

(يمسكُ الرجلُ بذراع زوجته، ويذهبان إلى زاويةٍ من زوايا المسرح. يتكلّمان همْساً لبضع دقائق، ثم يعودان. .).

الضابط : تفضّلا. . فسيّارةُ الأمن الداخلي جاهزة.

الرجل: لن نحتاج إلى سيّارة يا حضرةَ الضابط. . فقد قرّرنا أنا وزوجتي أن لا ندخل البيروتَيْنْ. . الشرقيّة أو الغربيّة. .

الضابط : وأين ستُمْضِيَان ليلتكما ؟

الرجل : سنمضيها نائميْن على رصيف أحزاننا، وفي الصباح، سَنُسافر على أوّل طائرة مسافرة إلى قبرص.

المرأة: وداعاً يا حضرةَ الضابط. . وإذا تصادَفَ وعشقتَ امرأةً من (الحارة الثانية)، ولم تُوافق (جمهورية جُنُونِسْتَانْ) على زَوَاجكَ منها. . فتذكّرْ أنَّ لكَ في قبرص بيتاً مفتوحاً. . وأصدقاءَ من لبنان القديم مستعدِّين أن يقتسمُوا معكَ رغيفَ الخُبْز. . ورغيفَ الحُبّ. .

(يحمل الرجل الحقيبتين، وتتبعُهُ المرأة، ويخرجان من الباب رقم ١).

ستار

الفصل الثاني

شتاء عام ١٩٧٥

«المشهد ليليّ. والساعةُ تتجاوز منتصفَ الليل بقليل. حاجز مصنوع من جُذُوع الأشجار، وأكياس الرمل، والبراميل في ضاحية تطلُّ على مدينة بيروت.

الليل شتائيّ بارد. وأصوات جنادب ليليَّة. وسماء رمادية داكنة لا يضيئها بين الحين والحين سوى أضواء الطائرات التي ترتفع على مدرّج المطار باتجاه البحر.

الحاجز يرتفع على يمين المسرح بشكل نصف دائرة مفتوحة إلى جهة الصالة. على يسار المسرح تمرّ الطريق الرئيسية الصاعدة من بيروت.

وعلى جانب الطريق لافتة كُتب عليها:

(جمهوريّةُ جُنُونِسْتَانْ ـ لبنانُ سابقاً)

خلف الحاجز، ثلاثةُ مسلَّحين يراقبون الطريق:

يخرج أحدهم، وهو في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر. ويبدو أنَّه المسؤول العسكري عن الحاجز.

يخـرج من خلف الحاجـز إلى الطريق العـام، وبيده بَطَّارية كهربائية.

يُشير إلى مدينة بيروت التي تبـدو من البعيد مخْنُـوقةَ الأضواء.. مَسْكُونَةً بالكآبة..»

المسلح ١ : . . . وأخيـراً، نجحنـا في اغتيـال جمهـوريـة لبنـان العتيقـة. . وقضينا على السنديـان، والبلُّوط، وأشجار الصنوبـر، وأعمدة بعلبـكّ. . ووضعنا الحَجَر الأساسيَّ للجمهورية التي طالما حلمنا بتأسيسها، أعْني (جُمهوريَّة جُنُونِسْتَانْ).

أنظروا إلى بيروت التي كانت تُسمَّى ذاتَ يوم، لؤلؤةَ البحـر الأبيض المتوسط، ومـدينةَ المـدائن، والقصيـدةَ الزرقاء. .

إنَّها أشبهُ بـامرأةٍ جميلةٍ كَبُـرَتْ مئةَ عـامٍ خلال عـامٍ واحد.

لقد استطاع حزبُنا العظيم أن يحوِّلَ بيروت إلى مقبرةٍ جمـاعية، ويُحْـرق وجهَها بـالأَسِيْد، ويجعـلَ منها أرملةً متَّشِحةً بالسَوَاد.

ليسَ مُهمَّاً أن تبقى بيروتُ جميلة. فالجمالُ لا يدخل في قاموسنا الثوريّ. وليس مهمَّاً أن تظلَّ بيروتُ مصدراً من مصادر الشِعْر. فمنظِّرو حزبنا يحتقرون الشِعْرَ والشُعَرَاء، ويعتبرون كتابةَ الشعر ثَرْثَرَةً وشَعْوَذةً وإضاعةَ وقت..

ثورتُنا ليس فيها مكانٌ للشِعْر. ولا لتنابلةِ السُلْطان الذين يقولون القصائد والمواويل...

الكتابة عمل مضادٌّ للثورة. والتشابيهُ، والاستعاراتُ، والمجازاتُ، والكلامُ الجميلُ بكلِّ أنواعه، والقصيدةُ العمودية، والقصيدةُ الحرَّة، وقصيدةُ النثر، والروايات، والمسرحيات، والفنون التشكيلية كلُّها.. ثوراتٌ مضادَّة.

سوف نُلْغي جميعَ الكُتب، بما في ذلكَ الكُتُبُ السماويَّة، ولن نسمحَ إلا بتداول كتابٍ مقدَّسٍ واحدٍ، هو الكتابُ الذي وضعه رئيسُ الحزب.

(ينبعثُ صوتُ فيروز من راديو ترانزستور صغير يحمله أحدُ المسلَّحين).

المسلح ٢ : وفيروز.. أينَ موقِعُها من ثورتنا يا حضرة الكومندان؟

المسلح ١ : لا مَوْقِعَ لها. إنَّها تنتمي إلى مرحلةٍ تاريخيةٍ سحيقةٍ ومتخلِّفة. فَمُفْرَدَاتُهَا الغنائية تحاول أن تخلقَ في أذهان البُسَطاء (يُوتوبيا) مستحيلة، وعالماً خرافياً لا يمكن تحقيقُهُ على هذه الأرض.

إنَّها بكلامها عن ضوء القمر، والكُرُوم، والعَصَافير، والقناطر، وضَوْءِ القناديل، ومكاتيبِ الهوى، والحنين، والمحبَّة، والأجراس، والصَلَوات، تُرسِّخُ في ذاكرة الناس لبنانَ القديم، في حين تحاول الثورةُ أن تَمْحُوَه...

إنَّها مغنِّيةٌ خَطِرَة على دعوتنا الثوريَّـة. طابـورٌ خامس يستـطيع أن يقضي على جميـع مخطَّطات التغييـر التي نرسُمُها. إنَّها بأغنية واحدةٍ عن المحبَّـة تستطيـعُ إسقاطَ كلِّ أيديولوجيتنا. لذلك يتوجَّب على المكتب السيـاسي في حزبنا أن يُصْدِرَ أوامره بمصادرة حُنْجُرتها. . . .

المسلح ٢ : ولكن. . هل من السهل مصادرةُ حنجرة مغنِّية ؟

المسلح ١ : العواطفُ لا تدخل في قاموسنا الثوريّ. كلُّ الحناجر التي تُشَاغبُ على الثورة يجب استئصالُها، سواءٌ كانت حنجرةَ فيروز. . أو حنجرةَ دجاجة. .

المسلح ٢ : ولكنَّ الجماهيرَ تُحِبُّ صوتَ فيروز. .

المسلح ١ : سنقـطعُ آذانَ الجماهيـر إذا لزم الأمـر.

الأحـاسيسُ الجماليَّـة كلُّها مؤجَّلة حتى تنتصـرَ الثورة. . ضوءُ القمر مؤجَّل. غروبُ الشمس مؤجَّل. زُرْقَةُ البحـر مؤجَّلة. سنـابلُ القمـح. أشجـارُ اللوز. رائحـةُ الـورد. مواعيدُ العشّاق. الأشواق. القُبُلات. . قصائـدُ الغَزَل. . كُتُبُ الشِعْر كلُّها مُؤجَّلة. . مُؤجَّلة. .

المسلح ٢ : وإذا طَلَعَ على بـالي أن أعشق، قبل أن تنتصر الثورة ، فماذا أفعل ؟

المسلح ١ : عنـدئذٍ، عليـكَ أن تستقيلَ من الثـورة، فالثائر الحقيقي لا ينامُ مع النساء. .

المسلح ٢ : مع من ينامُ إذَنْ ؟

المسلح ١ : يحتضنُ صُورةَ رئيس الحزب. . وينام. .

المسلح ٢ : لكنَّني لستُ من أهل هذا. . . .

المسلح ١ : أرجو أن تُقْلِعَ عن تعليقاتك الساخِـرَة. . وإلا قدَّمتُ عنك تقريراً إلى قيادة الحزب. .

(المسلح رقم ٣ يتحرَّك من مكانه، كأنه يبحث عن شيءٍ ضَاعَ منه..).

المسلَّح ٣: يا جماعة كُفُّوا عن هذا الجَدَل البيزنطي.... أين زجاجةُ الكونياك؟ إنَّ البرد يخترقُ عظامي، ولم نَسْتَفْتِحْ على هذا الحاجز بزبونٍ واحد... ماذا جرى لأهل بيروت حتى صاروا ينامونَ كالدَّجاج مع غروب الشمس.. فلا سَهَر.. ولا من يسهرون.. ولا طَرَب ولا من يطربون..

إنَّ زبائننا قد تناقصوا بصورة ملحوظة، وعصافير الليل لم تَعُدْ تتجوَّل.. وأخشى إذا تحسَّن الوضعُ الأمني في البَلَد، أن ينقطعَ رزْقُنا.. ونفقد عضويَّتَنا في الحزب...

المسلح ١: لا تَقْطَعُوا أملكم يا شَبَاب. إنَّ اللَّهَ كريم. وهو يرزقُ النملَ حيث كان. إنَّ بيننا وبين طلوع

الفجر نحو خمس ساعات. . ولا بدَّ أن يُرْسِلَ اللّهُ إليكم قرباناً. . أو إنساناً. . تُنقذون به شَرَفَكُمْ الحزبيّ.

(يُسْمَعُ صوتُ محرِّك سيَّارة قادمة باتّجاه الحاجز. يرجع المسلّحون الثلاثة إلى خلف الحاجز، ويأخذون وضْعَ تأهُّب. . .)

المسلح ١: أَلَمْ أَقُلْ لكم إنَّ العصافيرَ قادمة؟

(سيَّارة صغيرة تقودُها امرأة تتوقَّف أمام الحاجز. يتقدم نحوها المسلح ١ شاهراً مسدسه، ويطلب منها النزول من وراء المقود.

تنزل امرأةٌ في حوالي الثلاثين من عمرها، رشيقة القوام، داكنة الشعر، واسعة العينين. يوجّه المسلّح ضوءَ البطّارية إلى وجهها. . .)

المسلح ١: من أنتِ؟

المرأة: أنا امرأة. . ألم تروا امرأةً في حياتكم؟ أليس لكم أُمَّهات. . شقيقات. . حبيبات؟

المسلح ١ : نحن لا نسألكِ عن جِنْسِـك. جِنْسُكِ لا يهمُّنا . .

المرأة: وماذا تريدونَ إذَنْ ؟

المسلح١ : نريدُ أن نعرفَ إذا كنتِ تحملين سلاحاً.

المرأة: نعم. . معي أرْبَعُ . . أو خَمْسُ قِطَع . .

(يتبــادل المسلحـون نــظرات الـريبــة والحَــذَر. . ويُخَرْطِشُونَ بنادقَهم تحسُّباً للمفاجآت. .) .

المسلح ١ : تقــولينَ معــكِ أربــع أو خمس قِــطَع سلاح. . . أخْرِجي كلَّ ما عندك. . . وحاذري أن تقُومي بأيَّةِ حركةٍ مُريبة . .

(تَفْتَحُ المرأةُ حقيبةَ يدها بهدوء وبرودة أعصاب، وتبدأ بسحب بعض أدوات الزينة. مرآة. مشط . علبة بودرة. أنبوب أحمر شفاه. قارورة عطر. .) .

المرأة (بابتسامة ساخرة): هذا كلُّ ما عندي. . .

المسلح ١ : ولكنَّ هـذه أدوات تجميـل. فـأين هـو السلاح؟

المرأة: هذا هو سلاحي!!

المسلح ١ : نُـريد السـلاحَ الحقيقيّ. السلاحُ الـذي يقتُل. السلاحُ الذي تُخبّئينه في مكانٍ ما. . .

المرأة: صَدِّقوني. أنا لا أُخَبّىء شيئاً. والسلاح الذي وضعتُـهُ أمامكم هـو السلاح الـذي تحمله كلُّ امـرأةٍ في العالم.

كلُّ امرأةٍ جميلةٍ. . هي مُسلَّحة بصورة طبيعية. .

(بحركة إغراء مدروسة، تأخُـذُ المرأةُ قـارورةَ العطر، وترشُّ منها رشَّتَيْنِ تحت أُذُنَيْهَا. . .).

المسلح ١ : (شاهراً عليها المسدَّس).

تَوقَّفي عن الرشّ. . وإلاَّ رَشَشْتُكِ. .

المرأة: وهل يـزعجكم عطري إلى هـذا الحدّ؟ هـل يتناقضُ عطري مع ثَوْرَتكمْ؟

المسلح ١: جميعُ أنواع العطور، وعلى رأسها العطرُ النسائيّ، تتناقض مع أيديولوجية الحزب.

المرأة: مساكين.. مساكين.. فهذه أوَّلُ ثورةٍ أسمعُ بها في حياتي لا تعترف بالعطر.. لا تعترف بالرائحة الطيِّبة..

المسلح ١: يا مدموازيل.. نحنُ هنا في مِتْرَاسٍ مُسَلَّح، ولسنا في صالون تجميل..

المرأة: لكنَّ العطر تركيبٌ إنساني. الحيوانُ وحدَهُ هو الذي لا يتعطَّر...

المسلح ١: إنَّ ثورتنا من طرازٍ آخر. ثورةٌ لا تهتمّ بالعطر، ولا بالحبّ، ولا بالجِنْس، ولا بالنساء، ولا تتعاطى كلَّ هذه التفاهات..

المرأة: شكراً على المجاملة. إنَّ آراء حزبكم بمنتهى التقدميَّة. وبالمناسبة، قل لي: هل رئيسُ حزبكم متزوِّج.. أم عازِب؟

المسلح ١ : إنَّ معلِّمَنا تزوَّج العَمَل السياسيّ. تزوَّجَ الشَعْب. تزوَّج القضيَّة. . . .

المرأة: ولكن القضيَّة هِيَ أيضاً أُنثى . . .

المسلح ١ : كُفّي عن هذه البَهْلَوَانيّات الكلامية. . فلا وقتَ لدينا لهذه الثرثرة النسائيَّة. . .

المرأة: إذا كنتَ لا تريد أن تحاورَني، فهل يمكنني أن أقابلَ رئيسَ الحزب ؟

المسلح ١ : المعلِّم؟ تُريدينَ أن تُقَابلي المُعلِّم؟ ومن أنتِ؟ وبأي صفةٍ تريدين أن تقابليه؟

المرأة: أنا صحفيَّة . .

المسلح ١ : أنتِ مجنونة بكلِّ تأكيد. . إن الوصول إلى القمر أسهلُ من الوصول إلى معلِّمنا. . وعلى فكرة فإنَّ رئيسَنا ليس لديه اهتماماتٌ نِسَائيّة. . .

المرأة: شَغَلْتُم بالي عليه. . هل هو مريض؟ هل هو ساخن؟ هل هو من أنصار سيِّدنا لُوط عليه السلام ؟؟

المسلح ١ : أنتِ امرأةٌ طويلةُ اللسان ككلِّ الصُحُفيَّـات. ويمكنـكِ أن تَنْشُـري على لسـاني أنَّ معلمنـا ليس مُنْحَرِفاً. . ولا يشكو من أيِّ ضعفٍ جنسي. . وإنما ارتفع بجسده عن مستوى بقيّة البَشر. . حتى أصْبَحَ (سُوبِرْمَان). . .

المرأة: الله يشفيه. . وماذا يفعل معلّمكم في ساعات الفراغ. . ما هي هواياتُه؟

المسلح ١ : هواياته أن يقتُل. هناك أناسٌ هوايتهم أن يعـزفوا على البيـانو. . وأنـاسٌ هوايتهم أن يـرسُمُـوا. . وأنـاسٌ هوايتهم أن يجمعـوا الـطوابـعَ القـديمـة وأنـاسٌ هوايتهم أن يكتُبُوا الشِعْر. . .

أما معلّمنا فهوايتُهُ أن يقتل الآخرين. .

المـرأة: فعلاً. . هـذه هـوايـة أوريجينال. . ومن هُمْ الآخرون الذين يقتلُهُمْ؟

المسلح ١ : كلُّ الطارئين. . والغُـرَبَاء. . والـذين لا خلفيَّـة حضاريَّـة لهم. والمَحْشُورونَ كـالحَيَـوانـات في سفينة نوح. . .

المرأة: ولكنكم بهذه الطريقة ستقتلون ثلاثة أرباع البلد. .

المسلح ١: لا يهمّ. فسوف يبقى الرُبْعُ الحضاريّ، لنَخْبَويّ، السُوبِر ـ لُبْنَاني.

المرأة: ولكن الرُبْعَ الباقي سيكون بحجم حبّة العَدَس. . أو قُرْصِ الأسبرين. .

المسلح ١: قُرْصُ الأسبرين يبقى أفضلَ من سفينة نُوح. . .

المرأة: وماذا ستفعلون ببقية الحَيَوانات؟

المسلح ١: سَنَذْبَحُها. . أو نرميها في البحر. . لأن الحُمُولَة الزائدة ستُغرق السفينة.

المرأة: ولكنَّ هذا موقف عنصري، عرقي، ماكيافيلي، صهيوني. . .

المسلح ١: العناوين الصحفيّة لا تهمُّنا. واتّهامُنا بالماكيافيلية لا يهمُّنا أيضاً. كلُّ ما يهمّنا أن نتخلّص من الحيوانات الزائدة التي تتناسل على ظهر السفينة. . وتهدّدُها بالغَرَق. .

نحنُ ـ كحزب ـ نؤمن بأن لبنانَ يحتاج إلى ثقافة العُنْف. لا إلى ثقافة (المَيْجَنا) و (العَتَابا) و (أبُو الزُلُفْ). . والخبزِ التنُّوري. . والعَرَق الزَحْلاوي. . والمَسْرَح الرحباني. .

المرأة: وما هو اعتراضُكَ على المسرح الرحباني؟

المسلح ١: المسرحُ الرحباني مسرح فانتازي، تخييلي، إفتراضي، يعمل من الحَبَّة قُبَّة، ويصنعُ لنا وطناً أكبرَ منَّا. وطناً يكاد لفرط جماله أن يكون غير حقيقي. المسرح الرحباني يسبحُ فوق غمامةٍ بنفسجيَّة، ولكنه لا ينزل إلى أرض البشر. .

المرأة: إنَّ وظيفةَ الفنّ أن يرتقي بالإنسان إلى الأعلى. . ووظيفةَ الشِعْر أن يحملنا إلى الأجمل. .

المسلح ١: جماليَّاتُ الشعر، يا سيِّدتي، هي وراء تخلُّفنا وضَعْفِنَا. الثقافةُ الحقيقيَّةُ هي ثقافةُ القوَّة. ولن

يستريحَ لبنان إلاَّ إذا قَتَل القَمَرْ . .

ولبنان الذي نحلُمُ بـه يولـد بين المتاريس، وأكيـاس الـرمل، والـدينـاميت. . لا في مهـرجـانـات بعلبـكّ. . واستعراضات الكازينو. . وبكائيّات وديع الصافي . .

المرأة : آه. . كم تذكرني بالماركيز دو سَادْ. . .

المسلح ١ : إذا كـانت الساديَّـة تُعطيني وطنـاً قويّـاً، فسوف أكونُ ساديّاً. وإذا كان القتل هو المركبَ الذي لا بُدَّ لنا من ركوبه، فسوف نرْكَبُه. .

المرأة: ولكنَّ لبنان ليس معتاداً على القتل. . .

المسلح ١ : سيتعوَّد عليه. . إنَّ اللبناني سريع التأقلم مع الأشياء. وبعد قليلٍ سيمارسُ القتل بـالسهولـة ذاتها التي يرقُصُ بها الدَبْكَة. . أو يشربُ كأْسَ عَـرَقْ. . . إنَّ القضية قضيَّةُ عَادَة. أنا في البداية كنتُ لا أجرؤ على قتل نملة، ثُمَّ أصبحتُ أقتُـلُ إنسـانـاً بـذات السهـولـة التي

أُفَرْشي بها أسناني، أو أُغيِّرُ قميصي.

المرأة: أرجو أن لا تفكّرَ في أن تُفَرْشيَ أسنانَك.. أو تغيّرَ قميصَك الآن..

المسلح ١: هـذا يتـوقّف على نـوع الأوراق التي سَتُبْرِزينَها.

المـرأة: ولكنني قـدَّمتُ لكم أوراقي.. (تشيـرُ إلى أدوات الزينة).

المسلح ١: الأوراق التي قـدَّمتِها تستعملينهـا على فراش الحُبّ.. لا هُنا.. هذا حاجزٌ محترمٌ، يا سيِّدتي، وهو لا يقبَلُ الرَشْوَاتِ النسائيَّة..

المرأة: ولكنّني قلتُ لكم إنَّني صحفيَّة..

المسلح ١: صحفيَّة من أين؟

المرأة: صحفيَّة من لبنان.

المسلح ١: لبنان كلمةٌ واسعةٌ جداً.. حَدِّدي..

المرأة: لا أفهمُ السؤال.

المسلح ١: أقْصُدُ إلى أيِّ لبنانٍ تنتمين ؟

المرأة: لم يَطْرَح احدٌ عليَّ من قبل مثلَ هذا السؤال العجيب. وهل لبنان هو بمساحة الصين، حتى أقول لك إنني أنتمي إلى الصين الوطنية، أو الصين الشعبيَّة. إن لبنان بحجم الكفّ.. أو بحجم القلب..

المسلح ١: وقلبُكِ.. مع أيِّ لبنانٍ من اللبنانيْنْ؟.

المرأة: قلبي مع لبنان. لأنَّه لا يمكن للمرأة أن تُحِبَّ رجليْن في وقتٍ واحد..

المسلح ١: إنَّني لا أريدُ رُمُوزاً وتَوْرِيات.. سأكونُ أكثرَ صراحةً وأسألك: إلى أينَ تذهبين عادةً، إلى المسجد.. أم إلى الكنيسة؟

المرأة: أَذْهَبُ إلى الله ...

المسلح ١: أيُّ واحدٍ منهمْ؟

المرأة: وهل هناك أكثرُ من ربٍّ واحِدْ ؟

المسلح ١ : عندنا في لبنان يوجدُ أكثرُ من واحد. كلُّ متراسٍ مسلّحٍ له ربٌّ مختلف عن ربِّ المتراس الآخر. لـذلك نـطلبُ منكِ أن تحـدِّدي بـدقّـة إلى أي متـراسٍ - عفواً - إلى أيّ ربٍّ تنتمين؟

المـرأة: إلى الواحـدِ الأَحَد، الـذي يرانـا ولا نراه، ويُغيِّرُ ولا يتغيَّر. .

المسلح ١ : هذا جوابٌ ميتافيزيكيّ لا ينفعُنا في التحقيق.

المرأة: أَنتمي إلى الذي يعلَمُ ما في الأرحام. .

المسلح ١ : وهـذا جوابٌ في الـطبِّ النسائيّ لا نقبلُه. .

المـرأة: أَنتمي إلى مُقَـدِّر الأقـدار، وعـالِم الغُيُـوب والأسرار.

المسلح ١ : ستُـوبْ. . ستُوبْ. . ستُـوبْ. . لقـد دوَّخْتِني بأجوبتك السرياليَّة. .

المرأة: ولكنَّ أسئلتكم أيضاً هي أسئلة سرياليّة.

المسلح ١ : نحن جماعة مسلَّحون، ولا وقتَ لدينا لجدَلكِ البيزنطيّ. نريدُ منكِ كلمة وردَّ غطَاها. هل أنتِ مع الربِّ الذي على اليمين، أم مع الربِّ الذي على اليسار؟

المرأة : أنا مع الربِّ الذي في كُلِّ الأمكنة..

المسلح ١ : رجعنا إلى البَهْلَوانيَّات، والكلماتِ المُتَقَاطعة؟

المرأة: ولكنْ هذه هي أفكاري..

المسلح ١ : طُزٌّ بأفكارك.. ومتى كانت المرأة تفكّر بغير نَهْدَيْها؟

المرأة: تُعجبني تقدميّتك.. وموقفُك الحضاريُّ من المرأة..

المسلح ١: وتُجيدين التهكُّم أيضاً؟. حسناً هاتي هويتك الصحفية..

(تفتح المرأة حقيبتَها، وتُعطي هويَّتها للمسلَّح)

المرأة: تفضَّلْ.. هذه هي هويّتي الصحفية..

(يدقق المسلَّح في الهويّة، ثم بصوت يقطرُ منه اللؤم والسخرية)

المسلح ١: ها.. ها.. ها.. جريدة (المحبَّة).. جريدة (المحبَّة).. إنَّ حَدْسي لا يُخطىء أبداً..

إذَنْ أنتِ من سُكَّان الحارة الثانية، وتشتغلين في جريدةٍ تصدُرُ باللغة العربيّة..

المرأة: وهل اللغةُ الرَسْميَّة في لبنان هي اللغةُ المسماريَّة.. أم الهيروغليفية؟

المسلح ١: اللغةُ العربيّةُ تُسبّب لمعلّمنا حساسيةً كالحساسيّة التي يُسبّبها أكْلُ البيض والسَمَك...

المرأة: ولكنَّ معلّمكم يكتب.. ويخطب.. باللغة العربية..

المسلح ١: هذا تكتيكْ.. قناع.. محاولة التفاف على اللغة العربية. معلّمنا شعلة ذكاء، وبركان عبقرية..

المرأة: ما شاء الله . .

المسلح ١ : والآن قولي لنا، في أيٍّ قسمٍ من أقسام الجريدة تعملين ؟

المرأة: أعملُ سكرتيرةً لرئيس التحرير، وأُجري التحقيقات التي يكلِّفني بها مع رجال السياسة.

المسلح ١ : أذكرُ أنني قرأتُ بعض تحقيقاتك في جريدة (المحبَّة). وبكلِّ صراحة أقول لكِ إنَّها لا تعجبني . .

المرأة: الدنيا أذواق. ولكنْ ما هو اعتراضُكَ على كتاباتي؟

المسلح ١ : كتاباتُكِ تنطق بلسان الحارة الثانية . .

المرأة: لبنان ليس حارةً يا سيِّدي. ليس حارتي ولا حارتك. وإنما هو مجموع الحارات التي تقتسم الفرح، والآمال، والخبز، والدموع . .

والكاتبُ الحقيقيّ لا يتكلّم بلسان الحارة . . وإنما هو الناطق الرسمي بلسان الأمة . . بلسان الإنسان . .

الكـاتبُ الحقيقيّ هو الـذي يرتفـع من الخـاصّ إلى العــام، ومن الجُـزْء إلى الكُــلّ. . ومن القَـوْقَعَــة إلى البحر. .

المسلح ١: كتابتُكِ هي دَقَّةٌ قديمـة. . وأفكارُك دَقَّـةٌ قديمة. . ومُفْرَداتُكِ دَقَّةٌ قديمة...

المرأة: مثل ماذا ؟

المسلح ١: مثـل المحبَّـة، التعــايش، التسـامــح، المساواة، الديمقراطية، العدل الاجتماعي . .

المرأة: هل صارت المحبَّة موضةً عتيقة؟

المسلح ١: طبعـاً. . طبعاً. . إنهـا مرحلة رومـانسية تجاوزها الزمن. إنَّ نقطة ضعف لبنان كان رومانسيَّتُه . . ولـذلك استـوطى النـاسُ حـائطَنـا، وركبـونـا. . . لأنهم اعتبروا أن لبنان ليس أكثـرَ من مزرعـةِ تُفَّاح. . ومعصرةِ عنب. . وكأسِ عَرَق. . وصحنِ كُبَّةٍ نيَّة. .

المرأة: وما هو بديل التُفَّاح، والعنب، وصوت فيروز؟

المسلح ١: البـديـلُ هـو هـذا... (يُشيـر إلـى مسدَّسه)..

المرأة: ولكنَّ هذا (تُشير إلى المسدس).. رُبَّما ينفع في قطع طريق.. أو السَطْو على مصرف، ولكنَّهُ لا ينفع في تأسيس دولة..

المسلح ١: لقد أسَّسنا (دولـة جُنُونِسْتَـان).. وانتهى الأمر، واعترفت بنا أكثرُ دول العالم.

المرأة: (جُنُونِسْتَانْ).. (جُنُونِسْتَانْ).. هل هذا اسْمُ دولتكم الحقيقيّ، أم أنَّهُ إسمُ الدَلَعْ؟

المسلح ١: أنتِ قليلةُ أَدَبْ.

المرأة: شكراً..

المسلح ١: وطَابُورٌ خامس..

المرأة: شكراً..

المسلح ١: ومتآمرة على سلامة الجمهوريَّة. .

المرأة: أيَّةُ جمهورية؟ جمهورية قُرْص الأسبرين؟

المسلح ١: ستدفعين ثمنَ هذا الكلام في نهاية التحقيق. والآن نريدُ بعضَ التفاصيل عن تاريخ ومكان ولادتك، ولون عينيكِ. . وطول قامتِك. .

المرأة: لماذا؟ هل تريدون أن تَخْطُبُوني؟

المسلح ١: أعوذُ بالله. . نحن نريدُ أن نقتلك. . لا أن نَخْطُبَكِ. .

المرأة: إذا كنتم تريدون أن تقتلوني، فلماذا تجمعون كلَّ هذه التفاصيل عن مواصفاتي الجسديَّة. . ثم ألا تعرفون أنني مخطوبة؟؟

المسلح ١: مخطوبةٌ لِمَنْ ؟

المرأة: مخطوبةٌ لواحدٍ من أولاد حارتكمْ؟

المسلح ١: واحدٌ من أولاد حارتنا؟ مستحيل. أنتِ كذَّابة.. أنتِ حالمة.. أنتِ مجنونة..

المرأة: أنا لستُ كذَّابة. أنا امرأةٌ لها قلب.. وقد تصادَفَ أَنْ أَحَبَّني رجلٌ من أولاد حارتكمْ، وأحْبَبْتُه.. فهل عندكم مانع؟

المسلح ١: طبعاً.. هناك أكثرُ من مانع. مانعٌ حزبي. ومانعٌ جغرافي. ومانع طائفي. ومانع ديموغرافي. ومانع حضاري.

المرأة: ولكنَّ حبَّنا قَفَزَ فوق كل هذه الحواجز المصطنعة.. فذابت كما تذوبُ جبالُ الجليد..

المسلح ١: إنَّني عاجزٌ عن تصديقك أيتها المرأة.. عاجزٌ عن تصديقك.. فأولادُ حارتنا لا يمكن أن يُحِبُّوا بناتِ حارتكم. إن الحزبَ لا يوافق.

المرأة: ومن قال لكم إنّني أريدُ أنْ أتزوَّجَ الحزب؟؟
إنَّ الحبَّ لا ينتـظر موافقـةَ الحـزبَ، ولا المكتب السيـاسي، فهو يسقُطُ كـالمـطر على كُـلِّ الحـارات.. ويتفتح كشقائق النعمانِ في كلِّ البراري..

المسلح ١: إذا صحَّ ما تقولين أيَّتُها المرأة.. فسوف نقتلُهُ ونقتُلُكِ، لأنَّ زواجكمـا يتنـاقض مـع اسْتـراتيجيـة الحزب، واجتهادات مُنَظّريه..

نحن ضدّ هذا الحبّ الفوضويّ.. ضدّ هذا الفلتـان العاطفي الذي من شـأنه أن يمحـو خصائصَ حـارتنا.. ويحمل إليها الخَرَاب..

المرأة: الحبُّ لا يخرب المدن. الكراهيـة هي التي تخـرِّبُها. إن جميـع ما على سـطح الكـرة الأرضيَّـةِ من بحار، وأنهار، وجبال، وغَابَات، وعَصَافير، وفَرَاشـات، وسنـابل قمـح.. وجميعَ مـا في السمـاء من شُمُـوس، وكواكب، ومَجرَّات، هي من صُنْـع الحُبّ. إنَّ الله فِعْلُ محبَّة.. فلماذا يعارضُ حزبكم مشيئةَ الله؟

المسلح ١: كـلُّ النسـاء بـطبيعتهنَّ رُومـانسيـات . . وانفعـاليَّات. ولـذلك فهنَّ لا يصلحن للحكم والقيـادة. إنهنَّ يخلطن دائماً بين شُؤُون القلب وبين مصالح الدولة العليـا، كما فعلت كليـوبترا . . وتكـون النتيجة سقـوط الإمبراطوريات واندثار الممالك .

المـرأة: هـل تسمـح لي أن أُوقظَ ذاكـرتَـكَ قليـلاً، فأُذكّرك أن كلَّ الحروب في التاريخ أشعلها رجال، وكلَّ الكـوارث والمجـازر البشـريـة هي من صنـع الـرجـال، فهولاكو، وجنكيزخـان، ونيرون، وجمال باشـا السفاح، والأمبراطور بوكاسا كانوا كلُّهم رجالاً.

أما ماري أنطوانيت المسكينة فقد قطعـوا رقبتها، لأنَّ الثورة الفرنسية كانت بحاجة إلى امرأة لتُسند إليها الدورَ النسائيَّ . .

وفي لبنان، من الذي ورَّط البلدَ بهذه الحرب القـذرة سوى الرجال؟

منذ عام ١٩٤٣ وأنتم تحكمون لبنان، أيُّها الرجال، حُكْماً إقطاعياً، عشائريّاً، عائلياً، وراثيّاً.. تنتقل فيه الزعاماتُ التاريخيَّةُ إلى الذُكُور وحدهم..

البيكْ يُسلِّم التاج إلى البِيكْ..

والأفندي إلى الأفندي..

والشيخ إلى الشيخ..

أما النساء، فقد تركتموهنَّ دائماً خارجَ الشركة السياسيّة المحدودة الأسهم، وعهدتم إليهن - حفاظاً على أنوثتهن كما تَدَّعُون - بأشغال الإبْرَة، وزيارة المرضى والمساجين، وشُغْلِ كَنْزَات الصُوف للأيتام، ورعاية المكفوفين، وأعمال الطبخ والتمريض..

المسلح ١ : وماذا تعرفُ المرأةُ أن تفعل أكثرَ من هذا؟ هذه هي الوظائف الطبيعية والتقليدية التي خلقها اللّهُ من أجلها..

المـرأة: الله لا يتـدخَّـلُ في تشكيـل الـوزارات، ولا يُمارس أعمال التفـرقة العنصـرية. وليس هـو الذي عيَّن مارغريت تاتشر، وإنديرا غاندي رئيستَيْنِ للوزارة. . ليس هناكَ يا سيِّدي، وظائفُ تقليديّة خاصّة بالمرأة، وأخـرى خاصّة بالرجل. . هذه التقسيمات أوجدهـا الرجـال، ثم مع مرور الزمن، اعتبروها إرثاً أبدياً لهم.

وهكـذا احتكـرتم العمـل السيـاسي، والإداري، والقضـائي، والاقتصادي لأنفسكم، كمـا يحتكـر تجَّـار الحرب السُكَّر، والرُزّ، والطحين.

المسلح ١: تقولين العمل السياسي؟ وهل ثمَّـة امرأةٌ تفهم أصولَ العمل السياسي؟

(تضحك المرأة ضحكةً عالية)

المسلح ١: ماذا يُضْحِكُك ؟

المرأة: يُضحكني قولُكَ (العَمَل السياسيّ في لبنان). فهل تعتقد أن في لبنان سياسةً أو سياسيّـين؟

في لبنـان ـ يا سيِّـدي ـ مجموعـةٌ من الدكـاكين تبيع وتشتري سياسة. هناك مُتعهدُّو سياسـة كمتعهدي الأبنيـة والطرقات. هناك سماسرة.. ومضاربون.. وكومسيونجيّة سياسة..

إستأجَرُوا لبنـان إجارةً طـويلة لمدة ٩٩٠ سنـة، قابلة للتجديد، ولا يزالون يرفُضُون إخْلاءَ المأجور..

إن دمَ لبنان يلطِّخُ أصابعكم أيُّها الرجال. أما النسـاء فلم يتورَّطن في يومٍ من الأيام في عملية القتـل، لأنهنَّ أرقّ قلبـاً.. وأنقى وجـدانـاً.. وأكثـر حنـانـاً من ذُكُـور القبيلة..

المسلح ١: الثورة لا تقوم على الحنان.. ورقّة القلب..

المرأة: وعلى ماذا تقوم الثورة؟

المسلح ١: تقوم على التصفيات الـدمويّـة، لا على الرسائـل الغراميـة.. تقوم على سـلاح المسلَّحين.. لا على ثَرْثَرة المثقَّفين. إن ثقافة المسدَّس هي أهمُّ عندي من ثقافة الوردة...

المرأة: هذا كلامُ جزّارين.. لا كلام ثوريِّين..

المسلح ١: الألقاب والنُعُوت لا أعبأ بها. ما دمتُ قد انتصرت، فليقُلْ عنّي التاريخ ما يشاء..

هناك ثقافةٌ واحدةٌ هي ثقافة القُوّة. حين أكون قوياً، يحترمُ الناسُ ثقافتي. وحين أكون ضعيفاً، أسقط أنا، وتسقُطُ ثقافتي معي.

عندما كانت روما قويَّةً عسكرياً، كانت اللغةُ اللاتينيةُ سيِّدةَ اللغات.. وعندما سقطتْ الإمبراطورية الرومانيّة، صارت اللغةُ اللاتينيةُ طَبَقَ سباغيتي.

الثقافة، يا سيِّدتي، ليست في عدد الكُتُب التي أقرؤها، ولكنَّها في عدد الرصاصات التي أُطلقها..

المرأة: هذه ثقافةُ مجرمي حرب.. ثقافةُ قاطعي طريق.. ثقافة مافِيَات...

إن تعريفكَ للثقافة مُرْعبٌ.. مُرْعبٌ.. مُرْعِبْ...

المسلح ١: أرجو أن لا تُعطيني دروساً في الثقافة. إنَّ ثقافتَكُم ثقافةُ حَشَّاشين.. وثقافتَنا ثقافةُ انقلابيِّين.

أنتم تكتبونَ بالقلم.. ونحن نكتبُ بالمسدَّس..

المرأة: ولكنَّ المسدَّس أُمِيٌّ.. لا يقرأُ ولا يكتبُ..

المسلح ١: على العكس. المسَّدسُ هو أكبرُ أدباء هذا العصر. هل تريدين أن أُجرِّب فيكِ ثَقَافتي؟

(يضعُ مسدَّسَهُ في صِدْغِها).

الرصاصةُ التي سأطلقها عليكِ الآن، ستكون أجملَ من كلِّ الشِعْر الذي كتَبَهُ شُعَراؤُكُمْ.. ابتداءً من المتنبيّ.. حتى أحمد شوقي.. وخليل مطران.. فما رأيكِ بثقافة (جمهورية جُنُونِسْتَانْ)؟

المرأة: ثقافتُكمْ مثل ثقافة التَتَار والمَغُول، هي ثقافةُ اجتياحٍ، وسَبْي، وحرائق..

إنّني أعرفُ أنَّكَ ستقتلني. ولكن موتي لن يحقّقَ لك الانتصار.

فثقافتي حتى بعد الموت. . ستكونُ أهمَّ من ثقافتِك، وأعمقَ، وأكثرَ إنسانيّة. .

طبعاً. . أنتَ تستطيع أن تقتلَني. ولكنَّك لن تستطيع قَتْلَ لبنان الثقافيّ والفكريّ والحضاريّ. (فجمهورية جُنُونِسْتَانْ) التي تَتَبجَّحُونَ بها لا مصيرَ لها. فهي كالحَمْلِ الكاذبِ لا يُمكن أن تمكثَ طويلاً في رَحِمِ لبنان.

المسلَّح ١ : أنتِ امرأةٌ وَقِحَة. .

المرأة : شُكْراً . .

المسلح ١ : وكَلْبَة. .

المرأة : شُكْراً . .

المسلَّح ١ : وعاهرة . .

المرأة: شُكْراً . .

المسلح ١ : هل (جمهوريّةُ جُنُونِسْتَانْ) التي بنيناها بجماجم الموتى، وجُثَثِ الأطفال المحترقة، وأُلوف المشوَّهين والمعاقين هي في نظركِ حَمْلٌ كاذب؟

المرأة: الكراهيةُ لا يمكن أن تَحْبَلَ، ولا أن تَلِد. . .

(يتقدَّمُ نحوها أكثر، ويُلْصِقُ مسدَّسَه بِصدْغِها)

المسلح ١: وما هي أُمنيتُكِ قبل أن تموتي؟

المرأة: أُمنيتي أن أرى خريطةَ لبنان القديم. . لبنان الـ ١٠٤٥٢ كيلومتراً مربَّعاً. . قبل أن تَمْسَخُوه.

المسلح ١: لا يوجد عندنا غيرُ خريطة (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ).

المرأة: تَقْصُدُ قِرْصَ الأسبرين؟ لا. . لا. . إنْقَعْها واشربْ ماءَها. . فهي حَمْلٌ كاذب. .

(يُطلق الرصاصَ عليها. . تسقُطُ المرأةُ على الأرض وهي تردِّد:)

حَمْلٌ كاذبْ. .

حَمْلٌ كا. . . ذ. . . بْ. . .

كا. . . ذ. . . بْ

كا. . . ذ. . . بْ

كا. . . ذ. . . بْ

ستـــار

الفصل الثالث

العام ٢٠٠٠

«بعد خمسٍ وعشرين سنـة على تأسيس (جمهـورية جُنُونِسْتَانْ). ساحةُ العاصمة الجديدة. وفي البعيد يلوحُ قصرُ الحاكم على رابية.

في منتصف الساحة تمثالٌ برونزيّ كبير للحاكم بسبعة عُيُون، وعلى قاعدة التمثال كُتِبتْ هذه الكلمات:

(بَطَلُ التحريـر، ومؤسِّس (جمهوريـة جُنُونِسْتَـانْ)، هديَّةُ الشعب إليه بمناسبة انتصاره في حرب التحرير).

مقهى على يسار المسرح فيـه ثلاثُ طـاولات، كُتِبَ على مدخله (بار ومقهى النسيان).

فرقةُ موسيقى الجيش تمرّ، وهي تعزف أناشيد وطنيّة، والأولاد يتبعونها. زينةٌ ورقية. بالوناتٌ ملوّنة. لافتاتٌ على عرض الشارع تحمل كلمات التأييد للبَطَل.. والمُنْقِذ.. والمحرِّر..

ثلاثةُ أشخاص يجلسون في المقهى (هم نفس الأشخاص الذين كانوا يقومون بدور المسلحْين الثلاثة في الفصل الأول).

أولهم: صاحب (مقهى النسيان). الكومندان السابق والمسؤول الحزبي عن تدريب مسلّحي الحزب عام ١٩٧٥.

ثانيهم: طبيبُ الحيّ.

ثالثهم: معلّمُ المدرسة».

معلِّم المدرسة: نهارك سعيد يا كومندان . .

صاحب المقهى : نهارك سعيد.

معلِّم المدرسة: جئنا أنا والحكيم لنسلِّمَ عليك بمناسبة عيد الاستقلال. فأنتَ يا حضرة الكومندان واحدٌ ممَّنْ صَنَعُوا هذا اليوم التاريخي المجيد. واحدٌ من الأعمدة الرئيسيّة لهذا الوطن.

الطبيب: طبعاً. . طبعاً. . الكومندان هو الحَجَرُ الأساسي في بناية (جمهورية جُنُونِسْتَانْ).

صاحب المقهى: أيّ حجر؟ أيّ بناية يا حكيم؟ البناية طَوَّبها صاحبُ البناية الذي هناك على اسمه. . .

(يُشيرُ بيده إلى قصر الحاكم).

أنا لستُ أكثرَ من صاحب (مقهى وبار النسيان). أرجو أن تقرأوا جيّداً كلمة (النِسْيَان) المكتُوبة بأحرف كبيرة على باب المقهى..

لذلك، أرجو أن تتركُوا ذكرياتِنا المشتركة على باب المقهى.

معلم المدرسة: ولكن ذكرياتنا معك في خريف عام ١٩٧٥ لا يمكن أن تُنسى بسهولة. فلقد حاربنا في خندق واحد.. وتعلّمنا منكَ كيفَ نحملُ السلاح، وكيف نقاتل في سبيل قضيّةٍ كبرى..

صاحب المقهى: قبل ٢٥ سنة كانت قضيةٌ كبرى...

معلم المدرسة: والآن ؟..

صاحب المقهى: تَقَلّصتْ.. كما يتقلّصُ الثوبُ المنقوعُ في الماء..

من كان يتصوَّرْ أن المدينة التي رسمناها في مخيّلتنا بألوان قَوْسِ قُزَح، وسقيناها دَمْعَ العين، ودمَ القلب، ستتحوَّل إلى مُعْتَقَل؟

من كان يتصوَّرُ أن الجُمْهُوريَّة التي أردناها بحجم الكون، أصبحت أضْيَقَ من خُرْم الإبْرَة..

من كان يتصوَّرُ أنَّ الحزبْ الذي منحناهُ زَهْرَةَ حياتنا، صار مؤسَّسةً للتهريب، والإستيراد، والتصدير، والعُمُولات؟

ثمَّ.. من كان يتصوَّر أن (المعلِّم) الذي كنّا نضعُهُ في مرتبة الأولياء والقدِّيسين.. يتحوَّل إلى رئيس عصابة؟...

معلم المدرسة: ولكنكَ كنتَ من أشدّ المتحمِّسين (لجمهورية جُنُونِسْتَانْ)، بل كنتَ مستعدّاً أن تقتلَ نصفَ العالم من أجلِ قيام الجُمْهُوريَّة الجديدة.

صاحب المقهى: في تلك الفترة كنتُ وحْشاً حزبياً.. وكنت أعتبر القتلَ في سبيل الحزب، صلاةً يوميّة أمارسُها. وأنَّ كلَّ قتيلٍ أقتلُهُ.. جوازُ سفرٍ أدخل به الجنَّة...

هل تَذْكُرانِ تلكَ الفتاة الصحفيَّة التي أطلقتُ النار عليها، لأنَّها قالت لي إنَّ جُمْهوريَّتَنا حَمْلٌ كاذب؟

هل تذكران الجُثَّة التي طمرناها معاً في ليل خريفيٍّ من ليالي عام ١٩٧٥؟

إنَّها لم تكن جثَّة امرأة.. بقدر ما كانت جثَّة الحقيقة.

لم أكنْ أعرف عندما قتلتُها أنّني كنتُ أقتلُ الحقيقة.. كنت أقتلُ الشمس.. كنتُ أقتُلُ الشجر.. كنت أقتُلُ المطر.. كنتُ أقتلُ الشعرَ والموسيقى والحقولَ والمواسمَ واللونَ الأخضر..

كنتُ أقتل جَنينَ الحُبِّ النائمَ في أعماقها.

كنتُ أقتُلُ في عَيْنَيْها قَمَرَ الحُريَّة..

كانَتْ جميلةً، وشجاعةً. . وكُنَّا بَشِعينَ وجُبَناءَ. .

كانَتْ حمامةَ سلام. . وكُنَّا أولادَ آوى. .

كانَتْ حديقةً عابقةً بالعطر. . وكنا صناديقَ قِمَامَة. .

كَانَتْ ليبراليَّةً ومنفتحةً كالبحر. . وكُنَّا ضيِّقين كمحارةٍ بَحْريَّةٍ فارغة. .

كانَتْ تنتمي بأفكارها إلى القرن الواحد والعشرين، وكنَّا ننتمي إلى القُرُون الوسطى. .

كانَتْ تتكلَّم باسم الله، وكُنَّا نتكلَّمُ باسْمِ الشَّيْطَان.

هل تتذكَّران هذه المرأةَ الخُرَافيَّة؟ إنني لا أزالُ أحملُ جثَّتَهـا على كَتِفي منذ ٢٥ سنـة، بحثاً عن مكـان أدفُنُها فيه، ولكنْ دونَ طائل. لأن جثَّةَ الحقيقة لا تُدْفَن. .

لقد قتلتُ أشخاصاً كثيرينَ غيرَها.. وارتكبتُ مئاتِ الجرائم السياسيَّة التي أمرني الحزبُ بارتكابها في تلك الحقبة المجنونة من التاريخ...

ولكنَّ جميعَ قتلايَ لم يَجْثُمُوا على ضَميري مثلما تَجثُمُ هذه المرأة..

مستحيلٌ.. مستحيلٌ أن أنسى هذه المرأة..

كلَّما آويتُ إلى فراشي رأيتُ عَيْنَيْها تشتعلان كالبَرْق في ظلام الغرفة، وسمعتُ صوتَها يضربُ على الجدار كدقَّات الساعة:

جُمْهُوريتكمْ حَمْلٌ كاذبْ..

حَمْلٌ كاذبْ..

حَمْلٌ كاذبْ.

لماذا قتلتُ هذه المرأةَ التي كانت عيناها تحتشدان بالنُّبوءات ؟

لماذا أَخْرَسْتُ هذا الصوتَ الذي كان يكشفُ ستائرَ الغيب؟

لماذا أطلقتُ النار على هذه الحمامة الأليفة التي كانت تبشِّرُ بالجمال والشِعْر والمحبَّة؟

آهٍ. . لو أستطيعُ أن أذهبَ إلى قبرها لأغسلَ رخامته بدُمُوعي.

آهٍ. . لو أستطيعُ أن أعتذر لها عن جريمتي. . فقد كانت تُمثّلُ الحضارة، وكنّا نمثّلُ العصورَ الهَمَجيَّة.

كانت ترى الأشياء بعين الحُبّ. . وكنا نراها بعين الحقد. .

إن حوارَها معي لا يزالُ حتّى هذه اللحظة محفوراً في ذاكرتي. لذلك أحاولُ الهروبَ منها إلى (مقهى وبار النسيان). .

إنّني لا أستطيعُ أن أهربَ من هذه المرأة. .

لا أستطيعُ أن أهربَ من هذا الوجه الذي كان يُضيءُ أمامَ بنادقنا المرفوعة كوجه المجدليَّة، ولا هذا الصوت الواثق المتكبِّر الذي كان يتدفَّقُ كمَطَرٍ إستوائيٍّ، ويجرفنا نحنُ الثلاثة أمامه كمراكب مصنوعةٍ من الوَرَق. . .

عجيبٌ أمرُ هذه المرأة الخُرافَة. .

كانت هي في حالة عِشْق، وكنا في حالة لاعِشْق، فلم نستطِعْ أن نتفاهَمَ معها. .

كانتْ عاليةً كأشجار الحَنَانْ. .

وكُنَّا أقزاماً كطَحَالبِ الكراهية. . فلم نستطع أن نتفاهَمَ معها. .

كانت عَيْنَاها السَوْدَاوَان تكشِفَانِ الغيبَ، وتكتُبانِ النُبُوءَات. .

معلم المدرسة: ولماذا قتلناها إذَنْ؟

صاحب المقهى: لأنَّنا كُنَّا نجهلُ القراءة.. قراءَةَ النُّبوءَات.

معلم المدرسة: وبماذا تَنبَّأتْ هذه المرأة؟

صاحب المقهى: تنبَّأت بنهاية هذه الجمهوريَّة الكاريكاتورية.. وقالت إنَّها ستأكل نَفْسَها بنفسها.. كما تأكل الهرَّةُ أولادَها..

معلم المدرسة: ولقد صدقت النُّبوءَة، فأكَلَتْ الثورةُ أولادَها..

الطبيب: وماذا قالت أيضاً؟

صاحب المقهى: قالت أشياءَ كثيرة لا أتذكَّرُ تفاصيلها بدقَّة، بعدما طَمَسَ موجُ السنين حروفَها.. ولكن من أهمّ ما قالَتْهُ - على ما أذكر - إن اللَّهَ ليسَ قالبَ جُبْنَةٍ نقطعُهُ بسِكِّين الطائفيَّة..

معلم المدرسة: بديع.. بديع.. وماذا قالت أيضاً يا كومندان؟.

صاحب المقهى: قالت إنها ضدّ لبنانَ الشَرائح.. ولبنان الفَتَافِيت.. ولبنان السيراميك.. ولبنان الغِيتُويات.. والدُوقيَّات..

واعترفَتْ أنها تُحِبُّ رجلاً من غير طائفتها، لأنها تحتقر حُكْمَ مُلُوكِ الطَوَائف...

كان الوطنُ عندها عباءةَ حنانٍ يلبسها الجميع، وكان الحبُّ عندها هو الدينَ الحقيقيّ الذي يجمعَ كلَّ الناس.

وكانت تؤمنُ أن مُبرِّرَ وجود لبنان هو الحُبّ. فإذا يبست شجرةُ الحبِّ على أرضه، يَبستْ شرايينُه، وتوقَّفَ قلبُه..

١

معلم المدرسة: هذا كلامٌ رائع.. وصادق..

صاحب المقهى: الكلامُ الذي نعتبره اليوم رائعاً وصادقاً، لم يكن قبل ٢٥ سنة رائعاً ولا صادقاً..

في تلك الحُقْبَة السوداء من الزمن، كنّا مجموعة من الثيران الإسبانية لا ترى أمامَها سوى راية الحزب المصبوغةِ بالدم.. وكانت شهيّتُنا للقتل كشهيّة التماسيح وأسماك القِرْش..

معلم المدرسة: ولكنَّ حوارَ هذه المرأة كان قِطْعَةَ شِعْر..

صاحب المقهى: هل سمعتَ عن سمكة قِرْشٍ تقرأ الشِعْر؟.. وأعترف لكم أنّني كنت في عام ١٩٧٥ سَمَكَةَ قِرْش.. وكنتُ من الحماقة بحيث تصوَّرتُ أنّ صوتَ الرصاصة أهمّ من صوت البلبل.. ومن صوت فيروز..

الطبيب: من هيَ فيروز هذه؟ إنَّ كلَّ مرضايَ الـذينَ يتلقُّونَ عندي علاجاً نفسياً يبكون عند ذكر اسمها. .

صاحب المقهى: كلُّنا نبكي الآن عند سماع صوتها.

إنَّ فيروز مغنيةٌ لبنانية جاءت قبل ٥٠ سنة، أي قبل ولادة (جمهوريّة جُنُونِسْتَان)، وكان صوتُها الصندوقَ السحريّ الذي خبَّأنا فيه أجملَ أقاصيص حُبِّنَـا، وأخبارَ طفـولتنا، وأسماءَ حبيباتنا. .

ولأنَّ صوتَ فيروز كان وعاءَ الكـريستال الـذي سَكَبْنَا فيه صلواتنا، وذكريـاتنا، وأحـلامنا، ولأنـه كان الصـورةَ الزيتيَّة الرائعة لوجه لبنان القديم، فإنَّ جهاز المخـابرات العسكرية في (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) أصدَرَ منذ ٢٥ سنـة قراراً بمنع اسطواناتها وأشرطتها من التداول. . لأنه اعتبرَ صوتَها خطراً على الأمن القوميّ. . .

ورَغْمَ العقوبات الصارمة التي يتعرَّض لها كلُّ شخص يقبضون عليه متلبِّساً بجريمة الاستماع إلى فيـروز. . أو محتفظاً بشريطٍ قديمٍ لها، فإنَّ الذينَ عاصروا فيروز من اللبنانيـين، لا يزالونَ يتناقلونَ أشـرطتَها بصـورةٍ سريَّـة، كما يتناول المدمنون الحشيشَ والأفيـونَ، كلما حـرَّكهم الشوق إلى العهد القديم. .

الطبيب: الآن. . بدأتُ أفهم حالة أكثر مرضاي، ولا سيّما الكهول منهم. إنّهم يعانُون انفصـاماً نفسيـاً حاداً، فهم مُنْشَطِرون في داخلهم إلى جزئيْنْ. جزء يعود تاريخياً إلى ما قبل ١٣ نيسان ١٩٧٥، وجزء يعود إلى ما بعد هذا التاريخ.

لذلك يحدثُ الصراعُ المرير في ذَوَاتهم، بين ماضٍ يُحبُّونه ولا يستطيعون الذهابَ إليه، وبين حاضرٍ يكرهونَه ولا يستطيعونَ الفرارَ منه. .

وعلى ذكر المرأة التي قتلناها على الحاجز عام ١٩٧٥، دَعْني أعترف لك يا كومندان، أنَّها لا تطاردُكَ وحْدَك، وإنَّما تُطاردني أيضاً. . .

إنَّها تسكُنُني كالسرّ. . وتتمدَّدُ على الفراش بيني وبين زوجتي، وتذهب معي إلى عيادتي، وتتدخَّل في حواري مع مرضاي. .

هل أعترفُ لكم بسرٍّ لم أقُلْهُ حتَّى الآن لأحَد؟ لقد درستُ الطبَّ النفسيَّ لأشْفَى من شبح هذه المرأة التي امتزج دَمُها بطعامي وشرابي وقهوتي اليوميَّة.

وسافرتُ إلى أوروبّا، وتابعت آخرَ المكتشفات في حقول الطبِّ النَفْسِيّ، علَّني أجدُ حالةً تُشبهُ حالتي، ولكنّني مع الأسف لم أصل إلى نتيجة، فقد صارتْ هذه المرأة هي الطبيبة. . وأصبحتُ أنا المريض.

تَصَوَّروا . . أنا طبيبُ المدينة الذي ما زال واقعاً تحت تأثير مريضةٍ ماتت منذ ٢٥ سنة . . .

صاحب المقهى: مَاتَتْ؟ هل تظنُّ أنها ماتَتْ يا حكيم؟ إنني أعرفُ أنَّ الموتى إذا ماتوا يذهبون إلى مكانٍ آخر . . إلاّ هذه المرأة، فإنها تتجوَّل حين يهبط الظلام على شوارع المدينة، وتطرُقُ كلَّ الأبواب، وتُوقِظُ كُلَّ النائمين، وتكتبُ على جدران المدينة بخطٍ عريضٍ . . عريض . .

«جُنُونِسْتَانْ . . أنتِ حَمْلُ كاذبْ . . »

معلم المدرسة: يا لها من كلمة مأثُورة!!

صاحب المقهى: يا لمفارقَاتِ القدر. من يصدِّق أنني قتلتُ هذه المرأةَ لأنها تلفَّظت بهذه الكلمة المأثُورة؟ . .

معلم المدرسة: أقتلتَها من أجل هذا ؟

صاحب المقهى: نعم.. لم أستطع تحمُّلَ سُخْريتها وتهكُّمها وتشبيهها جمهوريتنا مرةً بحبَّة الأسبرين.. ومرةً بالغيتو.. ومرةً بالحَمْلِ الكاذب.. فأطلقتُ عليها الرصاص، ولكنها ظلَّت تضحك بينما كان الدمُ يتفجَّرُ من رأسها..

معلم المدرسة: وعلى من كانت تضحك؟

صاحب المقهى: طبعاً علينا.. كانت (جمهورية جُنُونِسْتَانْ) بالنسبة إليها عبارةً عن نُكْتَة تسمعها للمرّة الأولى. ولم أكن أستطيعُ أن أوقفها عن الضحك.. فقتلتُها..

الطبيب: وبالرَغْم من قَتْلها، فإنَّنا لم نَسْتَطِعْ أن نمنعها من الضحك. إنَّ القتلَ ليس جواباً مقنعاً ونهائياً.. لذلك ظلَّت هذه المرأة تضحك علينا ٢٥ سنة، ولا تزال تضحكُ حتى الآن...

معلم المـدرسة: ولمـاذا تتـوقَّف عن الضحـك، والكَرْنَفالُ لا يزال شَغَّالاً، والكوميديا مستمرّة؟

والجمهورُ مضطر أن يضحك، لأنهم أصدروا مرسوماً مَنَعُوه بموجبه من البكاء..

الطبيب: بالفعلْ.. إنَّهم صادروا من الصيدليَّات جميع حُبُوب البكاء..

معلم المدرسة: وما هو الدواء المسموح ببيعه في صيدليَّات المدينة؟

الطبيب: المهدِّئات العصبيَّة.. الفاليوم.. والليبريوم.. والنوروكالسيوم.. والمورفين..

إنَّ مدينَتنا تستهلك من المُهدِّئات أكثرَ مما يستهلك العالمُ كلُّه. إنَّ هذه المدينة مأزومةٌ نَفْسِيّاً وعصبيّاً.. فمنذ أن افتتحتُ عيادتي منذُ خمسة عشر عاماً وأنا لا

أستقبلُ إلاَّ نوعاً معيَّناً من المرضى، هم المصابُون بالشيزوفرينيا ، والعُصَاب، والسوداويّة، ومرض الكآبة، والصَرْع، والهَلْوَسَة، وفقدان الذاكرة. .

صاحب المقهى: يعني أنَّ مدينَتنا صارت مدينةَ مجانين!. .

الطبيب: التأزُّم النفسيّ هو الكلمةُ العلميَّةُ البديلة لكلمة جُنُون. .

إنني أحاولُ تفسيرَ هذه الظاهرة الخطيرة، ولطالما سألتُ نفسي: لماذا لا يشكو أهلُ مدينتنا من أسنانهم، أو من مفاصلهم ، أو من أمعائهم الغليظة ، وإنما يشكُونَ من عُقُولهم فقط ؟.

صاحب المقهى: لقد تأخرتَ باكتشافِكَ يا حكيم. . فعقلُ هذه المدينة صادرته الحكومة منذُ ربع قرن. .

الطبيب: معكَ حقّ يا كومندان. إنني أشعر كما لو أن الـذين يدخلونَ إلى عيـادتي، إنّمـا يبحثـون عن عقلهم الضائع.

معلم المدرسة: ولماذا تُصَادِرُ الدولةُ عقولَ رعاياها؟

صاحب المقهى: لكَيْ تحكُمْ..

معلم المدرسة: ومَنْ يمنعُها من أن تحكُم؟

صاحب المقهى: عقلُ المحكومين. فالعقلُ معارضٌ أزَليّ..

معلم المـدرسة: الآن أفهم لمـاذا سمُّوا جمهـوريّتنـا (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ)..

صاحب المقهى: صحّ النوم.. يا أستاذ.

معلم المـدرسة: ولكن غيـابَ العقل، يهـدّد الـوطن بالإنقراض.

الـطبيب: ومن قـال لـك إنّنـا لسنـا في طـريقنـا إلى الإنقراضْ؟

لو رجعنا إلى الدراسات العلمية، لوجدنا أن النباتَ، والجمادَ، والبَشَر، قد تعرّضوا خلال ربع القرن الأخير إلى تغييرات بيولُوجية أساسيَّة. فجمجمةُ الإنسان أصبحت أصغر.. وعظامُ فكَّيْه صارت أضخم.. وذَنَبُهُ صار أطولْ...

فجبالُ الوطن احْدَوْدَبَ ظهرُها، وأشجارُهُ أصيبت بالروماتيزم فلم تَعُدْ قادرةً على الوقوف، وعصافيرُه نسيتْ عادَة الطيران، وأسماكُه نسيت غريزةَ السِبَاحة، وشعراؤه نسوا كتابَة الشِعْر...

معلم المدرسة: ومن أين يأتي الشعر يا حكيم؟

إنَّ الشعر وردةٌ لا تطلع من الأرض الكبريتية المالحة..

هل تصدّقون أن رُوَّاد الفِكْر والشِعْر في لبنانَ، والعالَمِ العربيّ، موضوعونَ في القائمة السوداء مع مُهَرِّبي الهيرويين وحشيشة الكَيْف..

وأنَّنا لا نجرؤ في مدارسنا على تدريس المُتَنَبِّي، وأبي تمَّــام، والجـاحظ، وطــه حسين، والعقَّــاد، وتــوفيق الحكيم، واليازجي، والبستاني، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، والشاعر القُـروي، وبشارة الخـوري، وأمين نخلة، واليـاس أبي شبكة. . لأنّهم معتبـرونَ من شعراء العَهْدِ البائد وعصورِ الانحطاط. .

الطبيب: وكيف يُحدِّدونَ عصورَ الإنحطاط؟

معلم المدرسة: كلُّ تاريخ قبل ١٣ نيسان ١٩٧٥ هو عصورُ انحطاط. لذلك فإنني لا أدري ماذا أقولُ لطلّابي حين يسـألونني عن هؤلاء الكُتّـاب والشعـراء المبـدعين الذين يسمعونَ عنهم ولا يجدونَهُم في كُتُبهم المدرسية.

صاحب المقهى: قُلْ لهُمْ يا أستاذ إنَّ الشِعْـرَ العربيَّ الجميـلَ مطرودٌ من جمهـوريّتنا. قـل لهم إنَّ الثقـافـةَ،

والمعرفةَ، والكُتُبَ، والأقلامَ، والطباشيرَ، مطرودةٌ من جمهوريّتنا. قُلْ لهم إنَّ اللّهَ أيضاً مطرودٌ من جمهوريّتنا لأنَّ إقامتَه قد انتهتْ.. وليس لديه إجَازةُ عَمَل..

الطبيب: وما هي الجريمة التي ارتكبها الشعراء والمفكّرون اللبنانيّون والعَرَب؟

معلم المدرسة: جريمتُهم أنَّهم يتكلّمون اللغةَ العربيَّة...

الطبيب: ولكنَّ اللغةَ العربيةَ هي اللغةُ الرسميَّة. لغة الناس، لغة الأطفال، لغة البسطاء، لغة الفقراء، لغة المصلِّين، لغة العاشقين، لغة النَصارى، لغة المُسْلِمين، فكيفَ يمكنُ إلغاء لغةٍ بانقلاب؟

صاحب المقهى: العساكر يمكنهم أن يفعلوا ذلك..

معلم المدرسة: يا حضرةَ الكومندان، خفِّفْ صوتك، فإنَّ للحيطان آذاناً مُرْهَفة، والساحةُ ملأى بعشَرات المُخْبِرين. إن ثلاثةَ أرباع (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ) هُمْ من المُخْبِرين.

صاحب المقهى: تَسَاوى الماءُ والخَشَب عندي . . .

إنَّني أعرفُ أنَّهم يراقبُونني ، ويراقبُون زبائنَ المقهى ، ويحشُرُون أنوفَهم في فناجين الشاي والقهوة، ويتنصَّتون على ما تقولُهُ الكراسي والطاولات. . ولكنهم لا يقتربُون منّي ، لأنَّهم يعرفُونَ أنّي أعرف . .

ولذلك عندما طلبتُ من وزير الداخلية أن يمنحني رخصة لفتح (مقهى وبار النسيان) أرسلَ لي الرُخْصَةَ بخمس دقائق مع مرافقه الخاص، كما أرسلَ لي باقةَ وردٍ جميلة يومَ افتتاح المقهى . .

أعْجَبَهُمْ إسْمُ المقهى كثيراً . . لأنّهم يريدونَ شعباً بلا ذاكرة. شعباً يتعاطى حشيشةَ النِسْيَان.

الطبيب: إذا كانت اللغةُ العربيةُ ـ كما يقولُ الأستاذ ـ محجوزاً عليها الآن. . فبأيٍّ لغة يتكلَّم الوطن؟

معلم المدرسة: إنَّه لا يتكلَّم. منذ ٢٥ سنة، والوطن لا يتكلَّم.

الطبيب: وكيف يعبِّرُ الشعبُ عن نفسه في (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ)؟

معلم المدرسة: بالإشارات. . كالأولاد المُعَاقين. .

الطبيب: ولكنَّ الأولاد المُعَاقين لا يتكلَّمون لسببٍ عُضْويّ.

معلم المدرسة: والشعوبُ قد تتوقَّف عنَ الكلام لسبب بوليسيّ. وإذا كنا نحن الثلاثة لا نزال محتفظين بقُدْرَتنا على الكلام، فلأننا آخرُ الحيوانَات الناطقة في (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ).

صاحب المقهى: يظهر أنكم نسيتم أنكم في (مقهى النسيان) وأنه من الأفضل لكم أن لا تفتحوا أبواب الذكريات عليكم، لأنَّ نار الذكريات قد تُحرِقُ أصابعكم.. وتخربُ بيوتكم..

(ينهض الطبيب ومعلم المدرسة).

الطبيب ومعلم المدرسة: نهارك سعيد.. يا كومندان..

صاحب المقهى: نهاركم سعيد.. يا آخر الحيوانات الناطقة في (جمهوريّة جُنُونِسْتَانْ)..

نهاركم سعيد.. يا آخرَ ديناصُورات لبنانَ القديم.

ستار

بيروت . . حريّةٌ لا تشيخ(*) . . .

هذا موعدُ حبٍّ تأخَّر سبعةَ عشرَ عاماً . ولا أدري إذا كانت مواعيدُ الحبّ تصمُدُ في وجه الزمن ، والأعاصير ، والانفجارات الكبرى .

فالرجالُ يتغيَّرون ، والنساء يتغيَّرنَ ، والحبُّ يتغيّر .

ولكنَّ الشاعرَ لا يعترفُ بشيخوخة الشِعْر . . ولا بشيخوخة الحبّ . . ولا بشيخوخة الحبيبة . . .

إنّه حاضرٌ دائماً على خريطة العِشْق . رغم أنَّ كلَّ الخرائط في العالم العربي أَكَلها العُثُّ . . فلم يبقَ فيها بحرٌ أزرق ، ولا عصفورٌ أخضر ، ولا قَمَرٌ برتقاليّ ، ولا عِشْقٌ ولا من يعشقون .

(*) المقدمة التي افتتح بها الشاعر أمسيته الشعرية في قاعة (أسمبلي هول) في الجامعة الأميركية في بيروت بتاريخ ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢ .

هكذا كتبَ اللّهُ علينا ، نحن الشعراءَ العرب . أن نخترعَ الجنَّة ، ونحن في أعماق جهنّم . . .

وأن نفتّش عن الينابيع ، وليس في الأرض قطرةُ ماء .

وأن نبشّر بالحبّ ، وليس من حولنا سوى شوك الكراهية .

وأن نتغزَّلُ بالنساء ، ونساؤنا ممنوعاتٌ من ممارسة أنوثتهنَّ ، وموضوعاتٌ في الإقامة الجبريّة .

وأن نتغنّى بعُيُون الوطن ، وهم غرسوا الأسياخَ في عينيه ، وتركوهُ أعمىٰ .

* * *

تلك هي مهمّتنا المستحيلة .

ومع هذا يحاولُ الشاعرُ أن يخترعَ أشجاراً ، وأقماراً ، وسنابلَ ، ونساءً ، وأطفالاً ، وحنطةً ، وخبزاً ساخناً ، وعصافيرَ تحلّق في الفضاء ، وكُتُباً جميلةً عن الحريّة .

هل نحنُ نكذب عليكُمْ ؟ ربّما . . .

ولكنَّ الكَذِبَ ضروري ، إذا كـانت الغايـةُ منه ، تحـريضَ الأشجـار على الـوقـوف ، والشمسَ على الشـروق ، والأرضَ ، على الدوران ، والنهـدَ على التمرّد ، والبرعُمَ على التفتّح ، والبحرَ على إعـلان ثـورته الـزرقـاء ، والنسـاءَ على إسقـاط شهـريـار ، والشعوبَ على الخروج من ثُقُوبها . .

* * *

نحنُ كذّابونَ . . لا من أجل الكذِب ، ولكنْ من أجلكُمْ . .

من أجـل أن نساعـدكم على تجميل البشـاعـة ، وإجراء عملية جراحية لوجوهنا التي أحرَقَتْها الهزائم .

من أجل أن تعيشَ الوردةُ ، وتموتَ الرصاصة . .

من أجل أن يطولَ عُمْـرُ القُبْلة . . وينقصفَ عُمْرُ القنبُلة . .

من أجل أن يصدحَ الحَمَـام . . وتسكتَ أكاذيبُ وزارات الإعلام . .

من أجل أن تتكاثـرَ ذُريَّةُ المبـدعين . . وتنقرضَ ذريّةُ السياسيين .

من أجل أن ينتصرَ صوتُ القصيدة . . على صوت المسدّس الكاتم للصوت .

من أجل أن ينتصرَ بياضُ الياسمين . . على مزابل النفايات الذريّة .

وأخيراً . . من أجل أن تنتصرَ الكتُبُ المقدسة . . على النصــوص غيـر المقــدَّسـة للنــظام العـالمي الجديد . . .

* * *

بعد سبعة عشرَ عاماً ، أُعانقُ بيروتَ الجميلة . . أعانقُ فيها الصديقةَ ، والحبيبةَ ، والصبيَّةَ التي ترفضُ أن تشيخ . .

ألا تزالُ بيروتُ صبيَّةً ؟ ربَّما تتساءلُونْ . .

نعم . . نعم . . إنَّها لا تزالُ سِتَّ الصبايا . .

ذلكَ لأن الحريّةَ هي الوصفةُ السحريةُ التي تمنعُ بيروتَ من أن تشيخ . .

وحدَها المُدُنُ الحُرَّة ، هي المدنُ التي لا تزحفُ إلى وجهها التجاعيد . . .

وحــدَهـا المُــدُن الحُـرَّة ، هي المُــدُنُ التي لا تتبشَّـعُ . . ولا تتـرهَّــلُ . . ولا تستعمـلُ الأصبــاغَ والمساحيق . .

* * *

بعد سبعةَ عَشَرَ عاماً . .
أعـانقُ بيـروتَ كمـا أُعـانقُ فتـاةً في ثيـابهـا المدرسيَّة . . وشريطِ شعرها الأزرقْ . .

لا يزال وجهُها مُستديراً كالقَمَرْ . .
وضِحْكتُها شفَّافةً كقطعة كريستالْ . .
وعينـاهـا تختـزنـان كـلَّ أسـاطيـر البحـر الأبيض المتوسّط . .

* * *

بعد سبعةَ عشرَ عاماً . .
أقابلُ قصائدي التي كتبتُها في بيروت .

أقـابـلُ قـطعـةً من عمـري الجميـل في حيٍّ (مار إلياس) ، وشـارع المعرض ، وسـاحة ريـاض الصلح ، وبساتين الجامعة الأميركية ، ومقاهي شارع الحمراء ، ومكتبات رأس بيروت ، وبائعي منـاقيش الزعتر على امتداد الكورنيش ، وقوارب الصيّادين في ميناء عين المريسة . .

بعد سبعةَ عَشَرَ عاماً . .

أشتهي كالأطفال منقوشةَ زَعْتَرْ . . وعَرُوسةَ لَبَنَةٍ من عند (بديعة) في شتورة . . وسمكةً طازجةً من عند الغلاييني . . وأتذكَّرُ بشجنٍ سمفونيَّةَ أجراس الكُبَّة في زحلة . .

بعد سبعةَ عَشَرَ عاماً . .

أُقابلُ حريَّتي . . وأبكي . . .

* * *

يا أحبَّائي :

أنا قادمٌ إليكم من لندن ، مُتوكّئاً على عصا أحزاني . .

يثيرُني الوقوفُ على منبر (أسَمْبلي هول) في الجامعة الأميركية بعد فراق ربع قرن . . .

يثيرُني أن أسترجعَ نيراني من تحت الرماد . . وفروسيّتي بعدما تعبتِ الخُيُول . . وعنتريّاتي النسائية بعدما اشتعلَ القلبُ شَيْبَاً . .

ورغمَ أن اللعبةَ خطيرة، ولكنني سأُجرّب حظّي . .

ربّما أسقطُ من فوق جِبَالِ الكلمات . . وقد تنكسرُ أضلاعي . . أو تنكسِرُ كبريائي . .

ولكنني لا أشعرُ برغبةٍ في التراجع . .

إنَّ لعبةَ الشعر بالأساس هي مغامرة . . ورَقْصٌ على حافّة الهاوية . .

فلماذا لا أجرّبُ حظّي ؟ . . .

* * *

إنني غيرُ متمسّك بحكاية فتى الشاشة الأول . . ولا أنا متمسكٌ بفتوحات الإمبراطورية الرومانية ، أو البريطانية ، أو الجرمانية . .

فكلُّ الإمبراطوريات إلى زوال ، باستثناء إمبراطورية شاعرنا العظيم أبي الطيّب المتنبّي .

لقد غنَّيتُ على هذا المنبر في الستينات ، فهل أستطيعُ بشعري أن أخترقَ حَسَاسيّةَ جيل التسعينات ؟

قد تكون الحساسيّةُ الشعريَّة من القضايا النقديّة المطروحة ، ولكنني لا أتصوَّر أن الحَسَاسيّة الشعرية العربية قد انقلبَتْ على نفسها ١٨٠ درجة مئوية ، خلال ثلاثة عقود ، وأنَّ أُذُنَ الإنسان العربي أصبحتْ في مؤخّرته !! . . .

إنَّ الشعرَ العربيَّ يتطوّرُ من داخل بُنْيَتِه التاريخيّة ، واللغويّة ، والاجتماعيّة ، ولكنه لا يتطوَّرُ أبداً على طريقة الانقلابات العسكرية .. والبلاغ رقم ١ . . .

* * *

وما دام هذا وقتُ الاعتراف ، فلأعترفْ أمامكم أن بيروتَ علمَّتْني .. وثقَّفتني .. ودلَّلتني .. وأطعمتْني اللوز والسُكَّرْ ..

ويردّدُ بعضُ الشعراء إشاعةً مفادُها أنني وجدتُ على رمال الأوزاعي قُمْقُمَ سليمان ، فلمَّا فَرَكْتُ الخاتم ، طلعَ لي منه خمسونَ مجموعةً شعرية ..

ومهما يكن من أمر الإشاعة ، فشكراً عظيماً لبيروت ، وشكراً لإمامِنا وشيخنا الأوزاعي .. وشكراً لمارد الشعر على ما أعطاني . . .

* * *

ولسوف أستمرُّ في اعترافاتي كي أقول :

إنَّ بيروتَ لم تنبُشْ أوراقي .. ولم تكسرْ أصابعي .. ولم تُراقبْ تلفوناتي .. ولم تتلصَّصْ عليَّ من ثقوب الأبواب ..

كانت تتعاملُ معي تعامـلاً حضاريّـاً ، فتصنع لي قهوتي الصباحيَّة ، وتعطيني بريدي ، ثمّ تنسحبُ على أطراف أصابعها قائلةً :

« عنـدمـا تحتـاجُ إليَّ . . فـأنـا في الغـرفـة المجاورة . . » .

* * *

أيُّها الأحباء :

أنا مجنونُ بيروت . . .

ولن يستطيعَ أحـدٌ أن يخطفَهـا منّي . . أو يكتبَ عنها أفضلَ مني . . أو يغازلَها أحسنَ منّي . . .

هذا ليس كلاماً سِرّيـاً . . ولكنّه كـلامٌ تردّده كـلُّ الأمـواج التي تلعب على شـاطىء فنـدق السـان جورج . . .

* * *

إنَّ بيروتَ هي حادثٌ شعـريٌّ كبيرٌ في حيـاتي . فلقد أعطَتْني جُرْعةً من الحريَّة عجزتْ أيَّةُ مدينةٍ في العالم أن تُعطيَني مثلَها . . .

ولقد سافرتُ كثيراً ، وتنقّلتُ كثيراً في أسفاري الدبلوماسية حتّى وصلتُ إلى جدار الصين العظيم . .

ولا أزالُ آكُلُ حتى الآن من الزوّادة الثقافيةَ التي زوَّدتني بها بيروت قبل رحيلي ، وأجدُ فيها كلَّ ما أحتاجُ إليه من فاكهة الفكر . . وخُبْزِ الحريَّة . .

* * *

صحيحٌ أنني قرأتُ شِعْري في باريس ، ولندن ، ومونتريال ، ولوس أنجيليس . .

ولكنني في جميع هذه المُدُن ، كنتُ أشعرُ أنني أقرأ شعري فوق سفينةٍ لا قعرَ لها . .

أما في بيروت . . فأشعرُ أنني في بيتي . . وفي سريري . . وأنَّ الأرضَ تحتي توقّفتْ عن الاهتزاز . .

أشعرُ أنني انتقلتُ من سفينتي المثقوبة إلى برٍّ الأمان ، ومن شواطىء بحر الشمال إلى شاطىء عين المريسة . . ومن حديقة هايد بارك . . إلى حديقة الصنائع . . .

فشكـــراً لكم أيُّهـا الأحبـــاء ، لأنكم كنتم دائمـاً عـــائلتي ، وقبيلتي ، وجيشي الثقـــافي ، وكتـــائبـي الأماميّة . .

ولا تؤاخذوني إذا تَلَعْثَمتْ . .

ففي حـــالـــة الحب الكبيـــر ، يتلعثمُ القلب . . ويتلعثمُ اللسان . . وتتلعثَمُ اللُّغة .

فاقْبَلُوني كما أنا . .

لأنَّ العـودةَ إلى بيروت، فَـرْحةٌ أكبـرُ من مساحـة قلبي . . .

لندن/ بيروت

٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢

الفهارس

الكتاب الثاني والثلاثون

ما هو الشعر

من صفحة ٧ إلى صفحة ٢٠٨

الكتاب الثالث والثلاثون

العصافير لا تطلب تأشيرة دخول

الموضوع	الصفحة
العصافير لا تطلب تأشيرة دخول	٢١٥
دمشق : آذار (مارس) ١٩٧٩ بدعوة من اتحاد الطلبة السوريين	٢٢٣
بيروت : ١٢ أيار (مايو) ١٩٨٠ قاعة الاحتفالات الكبرى، الجامعة الأميركية	٢٣١
بيروت : رابطة خريجي الليسيات اللبنانية ـ الفرنسية. فندق فينيسيا ١٩٧٠	٢٤٣
بغداد : ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٩. الاتحاد العام لنساء العراق	٢٥٣
عمّان : حزيران (يونيو) ١٩٦٨. جمعية أصدقاء القدس	٢٥٩
القاهرة : ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٧ في منزل أمير الشعراء أحمد شوقي	٢٦٥
السودان : دار الثقافة الخرطوم ـ ١٩٦٩	٢٧٩
السودان : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠. قاعة الصداقة في الخرطوم	٢٨٩
الجزائر : نيسان (أبريل) ١٩٧٩	٣٠٥
أبو ظبي : نيسان (أبريل) ١٩٧٦	٣١٩
أبو ظبي : أيار (مايو) ١٩٧٩	٣٤١
الجماهيرية العربية الليبية: طرابلس ١٩٧٥	٣١٥

الكتاب الرابع والثلاثون

لعبتُ بإتقان وها هي مفاتيحي . .

الموضوع	الصفحة
مدخل	٣٦٧
لماذا أكتب	٣٧٣
لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي	٣٧٩
لو رشحت نفسي لرئاسة جمهورية الشعر لفزت بأكثرية الأصوات	٤١٧
قصائدي وحدت العرب أكثر من جامعة الدول العربية	٤٧١
أنا الذي أممت الشعر العربي	٤٩٥
نزار قباني . . يدفن زمان الوصل في الأندلس	٥٢٥
حيث تكون المرأة . . تتكاثر النجوم . .	٥٣٥
حوار مع الأستاذ عبده وازن جريدة النهار اللبنانية	٥٥٥
جمهورية الحب العربية المتحدة	٥٧٣
العراق هو شجرة السلالات الشعرية	٥٧٩
المتنبي . . في بريطانيا	٥٨٧
وصلت رائحة أبي لهب . . إلى شارع الصحافة . .	٥٩٥
احتللت بريطانيا لساعة ونصف	٦٢١
أنا نزار قباني . . لا كارلوس . .	٦٤٩
أنت تكتب . . إذن فأنت مفضوح	٦٥٩
اخترت أن أكون خنجراً . . .	٣٠٥

الكتاب الخامس والثلاثون
جمهورية جنونستان
(مسـرحيـة)

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	٦٧١
الفصل الثاني	٦٩٧
الفصل الثالث	٧٣٥

* * *

	الصفحة
بيروت .. حرية لا تشيخ	٧٦٥

منشورات نزار قباني
بيروت - لبنان
ص.ب ٦٢٥٠